



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة مولود معمري تيزي وزو

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الاجتماعية

نقد الميتافيزيقا الغربية عند نيتشه

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل. م. د.) في الفلسفة

تخصص: فلسفة عامة

شعبة: الفلسفة

إشراف الأستاذة:

أ.د. حورية معيز منصوري

إعداد الطالب:

صدام طاهري

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
د. جميلة بسو	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة تيزي وزو	رئيسا
أ.د. حورية معيز منصوري	أستاذة التعليم العالي	جامعة تيزي وزو	مشرفا ومقررا
د. أحمد باجي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تيزي وزو	عضوا مناقشا
د. صالح بن لفيقي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تيزي وزو	عضوا مناقشا
د. زينب بومهدي	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة خميس مليانة	عضوا مناقشا
د. فهيمة بوحفص	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة الجزائر 2	عضوا مناقشا

الموسم الجامعي: 2024/2023

إهداء

أهدي هذا العمل إلى كل رفيق حي

شكر وتقدير

أشكر كل من ساهم من قريب أو من بعيد في تقديم يد العون
وأخص بالذكر السيدة النيلة حورية معيز منصوري
كما أشكر أعضاء اللجنة المناقشة على قبولهم لمناقشة هذا العمل

مقدمة

تاريخيا كانت الميتافيزيقا Metaphysics تشكل صلب النظام الثقافي الغربي، حيث كانت تحظى بمكانة كبيرة في التفكير الفلسفي منذ بداياتها في العصر اليوناني، مما منحت العالم قيمة ومعنى يتأسس على مشروعية متعالية، حيث ادعى أتباعها إمكانية الوصول إلى معرفة عن المواضيع التي تتجاوز كل تجربة ممكنة، وقد تم التعامل معها على أنها معرفة قائمة بذاتها، وأن لها كيائها وعالمها الخاص (الإله، العلة الأولى، الجوهر)، وذلك من خلال إضفاء طابع أنطولوجي عليها، مدّعين أن معرفة هذه الأشياء ميل طبيعي في العقل الإنساني، حتى باتت الفلسفة هي الميتافيزيقا ذاتها*.

لكن الوضع البائس الذي واجهته أوروبا في القرن التاسع عشر، حيث تم تدمير النظام القديم للمعنى، أدى إلى فقدان الإنسان الغربي نقطة ارتكاز، وعادت الإنسانية لتجد نفسها تسحب من العالم معناه بعد أن أدركت تهافتها، ومن ثمة تهافت كل القيم التي كانت تشكل أساس الحياة الإنسانية، غياب الغايات السامية، بل غياب الهدف ذاته، وبدأ العالم يبدو خاليا من القيمة، ثمة شك بدأ يتسرب إلى هذه القيم، لم تكن سوى مسكنات ظل الغرب يؤمن بها طيلة حياته، حيث فقدت تدريجيا قدرتها على التأثير.

وهذا الأمر الذي دفع الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (1844-1900) Friedrich Nietzsche إلى تحذير البشرية من تبعات هذه الكارثة التي تلغي كل جوانب الإنسانية في الإنسان، لذلك حاول إنقاذ الإنسان الغربي من أزمة فقدان المعنى التي تسببت فيها الميتافيزيقا، وسعى جاهدا لاكتشاف معنى جديد للوجود الإنساني، كرسالة للبشر للتحرك نحو فكرة أن كل إنسان يجب عليه إعادة ابتكار نفسه ليصبح متذوقا لمتعة الحياة، فلا توجد قوة مفارقة تتحكم في حياة الإنسان وتضع له اطارا متعاليا للمعاني، بل الفرد هو المسؤول الوحيد والمتحكم في أفعاله، وهو الذي يختار الطريقة التي يشكل بها عالمه، من خلال خلق قيمه الخاصة بإرادة قوة خلاقة ومثبتة في هذا الوجود.

* - ألم يذكر ديكارت أن الفلسفة تشبه شجرة، حيث تمثل جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا، بينما تمثل الفروع التي تنبثق من هذا الجذع جميع العلوم الأخرى، والتي تنوع بثلاثة علوم رئيسية هي الطب والميكانيكا والأخلاق. (أنظر: ديكارت رينيه، مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، د.ط، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1975، ص43).

تأتي أهمية هذه الدراسة البحثية، إلى أن نيتشه كان سباقا للتنبيه إلى خطورة فقدان القيم القائمة على مشروعية المفارق، كحدث ميز العصور الحديثة، لأن الحداثة قامت بهدم القيم التقليدية دون أن تطرح قيم بديلة فاحتلت بظلال المفارق، لذلك ألغت الحياة وأفرتها من قيمتها، هذا الفهم ما ميز التاريخ الغربي، حيث أصبح الإنسان وحيدا في الحياة بدون هدف ولا غاية، وأصبح أساس الثقافة يقوم على عدم وجود شيء حقيقي، اختفى المعنى القديم بمجرد تخلي الناس عن الإيمان بالسلطة المتعالية، وفقد الإنسان في نظر نفسه قدرا كبيرا من كرامته.

لذلك نطرح الإشكالية التالية: هل كانت الميتافيزيقا فعلا معرفة قائمة بذاتها؟ أم أنها كانت مجرد سوء فهم نفسي للظواهر الإنسانية والطبيعية؟ وهل بإمكان الأخطاء التي تقع في تأويلها الذات، من شأنها أن تتحول مع مرور الزمن إلى حقائق موضوعية يصعب الخروج عن قداستها؟ وهل هذا تفسير يُعطي جواب على هشاشة النظام القديم للمعنى؟ ومن الإرادة المسؤولة أصلا في خلق المفارق؟ وهل يمكن للنقد الجذري أن يكشف عن قيمتها الحقيقية؟ وما البديل الذي يقترحه نيتشه لبناء نظام معنى جديد؟ وهل سيكون هذا المعنى كافيا لإعادة الاعتبار لقيمة الحياة والوجود، وبالتالي استعادة كرامة الإنسان؟

تستند فرضيات هذه الدراسة إلى أن المعاني التقليدية التي قدمتها الميتافيزيقا للبشرية على مدى ألفي عام ليست سوى محاولة لتبرير ضعف الإرادة الإنسانية، يهدف هذا التبرير إلى إنقاذ الإرادة من خلال منحها صفة الحقيقة، التي تعتبر في نظر الفيلسوف ذات سلطة عليا وقيمة لا يمكن التشكيك فيها، ونتيجة لذلك، عاش الإنسان تحت تأثير عالم آخر بعيد عن واقعه الحقيقي، مما أدى إلى فقدان العلاقة المتبادلة بينه وبين الحياة والوجود.

لمعالجة هذه الإشكالية، اعتمدنا على مجموعة من المناهج، من بينها المنهج الوصفي، حيث نقوم بوصف الحالة التي وصل إليها الإنسان الغربي، المتمثلة في الشك والإنكار المطلق وخيبة الأمل، إذ يتساءل الناس عن القيم العليا التي كانت تمثل لهم مرجعا في الماضي، لتتحول بذلك القيم المقدسة التي كانت سائدة إلى أوهام وأباطيل، ونتيجة لذلك، يجدون أنفسهم في حالة من انعدام المعنى للحياة، حيث تجاوزت الأسس التي كانت توجه البشرية وتحميها، مما يشكل فقداننا لنقطة ارتكاز ضرورية لاستمرارهم في الحياة.

استخدمنا المنهج التحليلي النقدي لتحليل ونقد القيم الموروثة التي تبنتها أوروبا على مدى عشرين قرناً، هذه القيم، التي تعتمد على تقليل قيمة الحياة والوجود تحت مسمى قيم عليا، كانت تشكل الأساس للنظام القديم للمعنى، وقد ساهمت هذه القيم في الحالة التي وصل إليها الإنسان الغربي في القرن التاسع عشر، نتيجة لمسار تاريخي تراكمي.

إلى جانب المنهج المقارن، يتم ذلك من خلال إجراء مقارنة بين منظومة القيم المستمدة من القوة، التي تتسم بالشجاعة والإقدام والجرأة والاستقلال والثقة بالنفس وتقدير الذات، ومواجهة التحديات والمخاطر، ومنظومة القيم المستمدة من الضعف، التي تتسم بالتردد والانحياز للمصالح الشخصية الضيقة والانحطاط، والتي تركز على قيم الرحمة والتعاطف والمساواة.

أحد الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع، هو دافع شخصي يتعلق برغبتي العميقة في دراسة فلسفة نيتشه، حيث يُعتبر من أبرز الفلاسفة الذين ساهموا في تغيير مسار الفكر الأوروبي، من خلال فتح المجال لاقتحام الخطوط الحمراء في كل شيء، ألم يقل عن نفسه بعد غد فقط هو زمني، وأن بعض الأشخاص لا يُولدون إلا بعد مماتهم، لقد أصبح لا يعبأ بشيء، فهو كعبوة ديناميت، مستهتر ومتهمك وعنيف، وهكذا يريدنا أن نكون، فالحكمة في نظره امرأة، وهي لن تحب إلا الرجل الذي يتمتع بالعزيمة والقوة.

فيما يتعلق بالعوامل الموضوعية، سعى نيتشه إلى تحويل دلالة النقد من الإبستمولوجيا إلى الجنيالوجيا، ومن التشريع إلى التقويم، جاء هذا التوجه بعد فشل كانط في التحرر من فكر الثنائيات، الذي يعتبره نيتشه جوهر الفكر الميتافيزيقي، لذلك كان نقد كانط مجرد محاولة لإعادة بناء الميتافيزيقا على أسس جديدة مستمدة من دراسة العقل ذاته.

فتح كانط الطريق لظهور نيتشه من خلال اعتماده على النقد الجذري، حيث يسعى إلى التفكير بطريقة مختلفة من أجل نقد يكون أكثر عمقا، ويرغب في إعادة صياغته بأسس ومفاهيم جديدة، في الماضي، كان الفلاسفة يحاولون إثبات عدم وجود الميتافيزيقا، بينما يسعى نيتشه اليوم إلى توضيح كيفية نشوء هذا الاعتقاد وكيف اكتسب وزنه وأهميته، يكفي أن نثبت أن لها جذورا تاريخية، وهذا يعد دليلا قويا على عدم ثباتها ووحدتها.

تم تنظيم مواد هذه الأطروحة ضمن هيكل منهجي يتضمن مقدمة وستة فصول وخاتمة، بالإضافة إلى فهرس للمصادر والمراجع، تتناول المقدمة وصف محتوى الأطروحة وتبسيط الضوء على موضوع البحث بشكل عام، مع تقديم تعريف للموضوع ودوافع اختياره والإشكالية التي يثيرها، كما تشمل المقدمة أهم المناهج المستخدمة في الدراسة والخطة المعدة، بالإضافة إلى التحديات التي واجهتنا أثناء إنجاز هذا العمل.

في البداية، قمنا بإعداد فصل تمهيدي بعنوان "الأسس والمفاهيم الأساسية في فلسفة نيتشه"، حيث أوضحنا أن فكر نيتشه يمثل نقطة تحول هامة في تاريخ الفلسفة الغربية، نظرا لطابعه التفكيكي والجذري تجاه الموروث الميتافيزيقي الذي هيمن منذ أفلاطون وحتى العصر الحديث، إن نقد نيتشه للميتافيزيقا لا يقتصر على كشف تناقضاتها الداخلية، بل يستهدف أيضا جذورها القيمية والرمزية، لذا، لفهم مشروعه النقدي، من الضروري أولا استكشاف البنية المفاهيمية التي يعتمد عليها، بالإضافة إلى الكشف عن السياقات الفكرية والوجودية التي ساهمت في تشكيل رؤيته الفلسفية.

ينقسم هذا الفصل إلى عنصرين متكاملين، يتناول العنصر الأول المدخل المفاهيمي للفكر النيتشوي، حيث يستعرض المفاهيم الأساسية التي تشكل نسيج نقده للميتافيزيقا الغربية، مثل الحقيقة، القيمة، التأويل، التقويم، الجنياولوجيا، وإرادة القوة، هذه المفاهيم لا تُعرض في شكل تعريفات ثابتة، بل تُعتبر أدوات حيوية تتداخل ضمن شبكة فلسفية تهدف إلى تفويض أسس الفكر الغربي المعتمد على المطلقات والثنائيات.

العنصر الثاني يتناول العوامل والسياقات التي ساهمت في تشكيل فكر نيتشه، سواء من حيث خلفيته الثقافية والفلسفية، أو من خلال تجاربه الشخصية والنفسية التي أثرت على توجهاته النقدية، ففهم نيتشه يتطلب الإلمام بجذور تأثيره بالموسيقى، والتراجيديا الإغريقية، وفلسفة شوبنهاور، بالإضافة إلى صراعه مع المرض، وعزله، وانفصاله عن الوسط الأكاديمي.

يسعى هذا الفصل إلى إنشاء قاعدة تأويلية تساهم في فهم تعقيدات المشروع النيتشوي، ليس كونه لحظة تمرد عابرة على الفلسفة، بل كجهد لإعادة النظر في شروط إمكانية التفكير الفلسفي نفسه، من خلال تحدي الميتافيزيقا ومبادئها الأساسية.

عنوان الفصل الأول هو "وعي مفاجئ: انهيار النظام القديم للمعنى"، ويتضمن ثلاثة مباحث رئيسية، يتناول المبحث الأول موضوع "سحب البساط: موت فكرة الإله"، حيث يركز على عنصرين أساسيين: محاولة تفسير هذا الحدث الجلل، واستعراض كيفية مساهمة العلم في إزاحة فكرة الإله، كما يستعرض أهم النظريات العلمية التي ظهرت في العصر الحديث، مثل الفيزياء التي أخرجت الإله من التفسير الكوني، ونظرية التطور التي دحضت فكرة التصميم البيولوجي، ونظريات العقد الاجتماعي التي تصدت لفكرة الحق الإلهي.

يتناول المبحث الثاني أهمية هذا الحدث من منظور مزدوج، من جهة، يحمل في طياته مخاطرة كبيرة تتمثل في فقدان التوازن والشعور بالعبث نتيجة غياب المعنى التقليدي، ومن جهة أخرى، يُعتبر هذا الحدث فرصة ثمينة لتحرر من أوهام الميتافيزيقا وثقل القيم، مما يتيح المجال للبحث عن معنى جديد للحياة والوجود.

يتناول المبحث الثالث مفهوم الخيار الخاطئ في اكتساب المعنى، حيث يحذر نيتشه من مصير الإنسان الأخير الذي تم التنبؤ به، هذا الإنسان يعترف بعدم وجود أي أساس للقيم التقليدية، لكنه لا يسعى إلى ابتكار قيم جديدة، من جهة أخرى، يؤكد نيتشه أن الإنسان الحديث يمثل بالفعل تجسيدا لهذا الإنسان الأخير.

حمل الفصل الثاني عنوان "تحديد جديد لدلالة النقد"، ويتألف من ثلاثة أقسام، يتناول القسم الأول إعادة توجيه مسار التفكير النقدي من خلال استعراض نقد تجربة كانط في مجال الميتافيزيقا، كما يشمل إعادة صياغة النقد من الإبستمولوجيا إلى الجنيالوجيا، ومن التشريع إلى التقويم، وذلك من خلال إعادة بناء النقد على أسس ومفاهيم جديدة.

في المبحث الثاني، تم استعراض موضوع تصحيح مسار القراءة والكتابة، من خلال استخدام الفيلولوجيا كأداة دقيقة تعزز مهارات القراءة الجيدة، هذه الأداة قادرة على اختراق الأقنعة واكتشاف من يتقنع ولماذا؟ ولأي غاية تجري المحافظة على القناع، كما تم تقديم مسار جديد في الكتابة يهدف إلى تحويلها إلى وسيلة فعالة لمواجهة الأساليب التقليدية في الكتابة والتفسير.

المبحث الثالث تناول إدراج الزمن في التفكير النقدي، حيث تم تسليط الضوء على أهمية التاريخ في الحياة واستخدام الحس التاريخي كأداة أساسية في علم الأنساب، يُعتبر هذا الحس بمثابة التاريخ الفعلي، وهو الأداة التي لا تتيح لأي وجهة نظر أن تتجاوز التاريخ، مما يفرض عليها رؤيتها الأبدية.

حمل الفصل الثالث عنوان "الغريزة اللاهوتية: سوء فهم للظواهر"، ويتألف من ثلاثة مباحث، يتناول المبحث الأول كيفية طبع الصور الإنسانية على العالم الخارجي، ويشمل عنصرين رئيسيين: الأول هو التفكير البدائي، والثاني يشير إلى أن الروح الدينية ليست سوى امتداد للعقلية البدائية.

يتناول المبحث الثاني نقد المسيحية من منظور القيم التي تقدمها للإنسان والحياة، يمكن القول إن المسيحية ارتكبت جريمة بحق الإنسانية، حيث شنت حروبا قاسية ضد الأفراد الذين يتمتعون بالكرامة والقيم النبيلة، ولم تقتصر المسيحية على كونها جريمة ضد الإنسان فحسب، بل تجاوزت ذلك لتصبح جريمة ضد الحياة ذاتها، مما يعكس هيمنة العناصر السلبية على مجريات الحياة، ويجعل الحياة نفسها موضع اتهام.

يتناول المبحث الثالث السياق الذي نشأت فيه المسيحية، مع التركيز على عاملين رئيسيين، الأول هو أن المسيحية ليست مجرد حركة مناهضة للغريزة اليهودية، بل هي نتاج لها، أما الثاني، فهو تسليط الضوء على دور الكهنة في عملية التأويل، حيث يقومون بتحديد قيمة الأشياء استنادا إلى مفهوم ملكوت الله.

حمل الفصل الرابع عنوان "حضور غريزة اللاهوت في الفلسفة"، ويتألف من ثلاثة مباحث، يتناول المبحث الأول النموذج الكهنوتي للفيلسوف، حيث يتضح أن الفلسفة قد اكتسبت طابعا كهنوتيا، أما العنصر الثاني، فيشير إلى أن إرادة الفيلسوف مستمدة من إرادة الكاهن، مما يتجلى في استمرار فكر الثنائيات في الطبيعة البشرية والوجود.

يتناول المبحث الثاني قيمة العقل في الفلسفة، من خلال استعراض آراء الفلاسفة حوله، حيث يؤكد هؤلاء الفلاسفة على قدرة العقل في اكتشاف الوجود وفهم العلاقات الواقعية بين الأشياء، من ناحية أخرى يشير نيتشه إلى ضرورة إعادة صياغة مفهوم العقل، من خلال فهم الشروط التاريخية والاجتماعية والنفسية والفيزيولوجية التي تؤثر على مبادئه، أما المبحث الثالث، فيركز على إعادة تقويم قيمة الحقيقة في الفلسفة، باعتبارها مفهوما يخضع للنقد الجنيولوجي، كما نبرز فيه خلل وثوقية الفلاسفة الميتافيزيقيين في اللغة، وقدرتها على فهم وإدراك جوهر الأشياء.

تمت تسمية **الفصل الخامس** بعنوان "القيم الأخلاقية صناعة بشرية"، ويتضمن مبحثين، يتناول المبحث الأول أخلاق السادة وأخلاق العبيد، حيث يسلط الضوء على التحول في النظرة تجاه موضوع الأخلاق، فقد تم التخلي عن التفكير في نظرية الأخلاق بشكل كامل، والانتقال إلى التركيز على واقع الأخلاق، ويظهر في هذا السياق نمطان رئيسيان يختلفان اختلافا جذريا، وهما: أخلاق السادة وأخلاق العبيد.

في المبحث الثاني، تم التأكيد على أن الأخلاق الغربية السائدة تُعتبر امتدادا لأخلاق العبيد، فالفلسفة الأخلاقية لدى سقراط تنكر للحياة بواسطة الجدل، بينما تهدف فلسفة كانط إلى إقامة مجتمع أخلاقي عالمي، من ناحية أخرى تسعى الأخلاق المسيحية إلى تعزيز قيم التماثل والمساواة، بالإضافة إلى تعزيز مشاعر الشفقة والرحمة، وقيمة الشعور بالذنب والمثال الزهدي.

حمل **الفصل السادس** عنوان "محاولة لخلق معنى مثبت للحياة"، ويُعتبر بمثابة رسالة بديلة للبشر لتجاوز عدمية الثقافة الغربية، يهدف هذا الفصل إلى التأكيد على أهمية أن يعيد كل فرد ابتكار نفسه من أجل اكتشاف معنى جديد لحياته، يتناول الفصل أربعة مباحث، حيث يبدأ المبحث الأول بالحديث عن الإنسان المتفوق، الذي يتميز بالنزعة الفردية، والمخاطرة، والحرية، والمسؤولية.

المبحث الثاني يبرز أهمية الإرادة المثبتة في تعزيز القيمة والمعنى للحياة، ترتبط القيم الجديدة بمفهوم إرادة القوة كعنصر أساسي للوجود، مما يتيح لنا تفسير جوانب الحياة المختلفة من خلال هذا المفهوم، كلما تعزز شعورنا بالحياة والقوة، زادت قدرتنا على فهم جوهر الوجود بعمق أكبر.

المبحث الثالث يستعرض الوجود الحقيقي، الذي يتسم بتغير دائم في طبيعته ووجود قوى حيوية تتنافس من أجل السيطرة والهيمنة، أما المبحث الرابع فيتناول تأسيس ثقافة جديدة أطلق عليها نيتشه اسم الثقافة السامية، يعتمد هذا التوجه على الفن المأساوي، ورمزها هو ديونيسوس، وتهدف هذه الثقافة إلى التحرر من قيود الأخلاق العدمية وتعزيز قيمة الحياة والوجود.

في العنصر الأخير، قمت بتقييم نقد نيتشه للميتافيزيقا، ورغم أهمية هذا المشروع التحويلي، فإن نقد نيتشه لا يخلو من مفارقات وإشكالات فلسفية متعددة، مما يثير تساؤلات حول مصداقيته وإمكانية اعتماده كأساس

لفلسفة بنائية، هل تمكن نيتشه فعلا من تجاوز الميتافيزيقا، أم أن فلسفته وقعت في أشكال جديدة منها؟ وما هو مدى الاتساق الداخلي لمشروعه الفلسفي؟

كانت **الخاتمة** بمثابة تجميع لما تم تناوله في هذه الأطروحة من جهة، وتقديم رؤى مستقبلية من جهة أخرى، بالإضافة إلى الإجابة عن الأسئلة التي طرحت في بداية العمل، نأمل أن تكون هذه الأطروحة قد ساهمت في توضيح فكر الرجل ونقده لفكرة الميتافيزيقا، فضلا عن تعزيز قدراتنا البحثية، ومن الطبيعي أن يسجل الأساتذة واللجنة العلمية ملاحظاتهم ونقاط الضعف، مما يعكس أهمية الانفتاح والقدرة على المراجعة والتطوير في مجال البحث العلمي.

لإنجاز هذا العمل، اعتمدنا على مجموعة من المصادر، من بينها كتاب "إنسان مفرط في إنسانيته: كتاب للمفكرين الأحرار"، الذي صدر عام 1878، يتكون الكتاب من جزئين ويتناول عدة مواضيع، منها الميتافيزيقا، حيث يعلن عن قطيعة معها ويعمل على تفسيرها وشرح أصولها، وفي المقابل يرفع من مكانة العلم الطبيعي، كما يعارض أيضا المنظور المسيحي للخير والشر، موضحا ذلك في كتبه اللاحقة، كما تحتوي بعض الفصول على بذور فكرة الإنسان المتفوق.

"**العلم المرح**"، الذي صدر في عام 1882، في خمسة أجزاء من القصائد والشذرات، يستعرض فيه نيتشه تطور المعرفة الإنسانية والقيود التي تفرضها المسيحية عليها، كما يعرض وجهة نظره حول الظروف التي دفعت البشرية إلى استحضار مفهوم الإله، وعلى الرغم من عدم وجود حقيقة مطلقة، فإنه يرى أن السعي الجريء نحو المعرفة، رغم ما يواجهه من تحديات، يُعد ضروريا لتجديد الفهم الإنساني والتخلص من الأفكار الخاطئة، يحتوي الكتاب أيضا على تحليلات مبكرة لبعض من أشهر أفكاره، مثل مفهوم موت الإله.

"**هكذا تكلم زرادشت**: كتاب لكل ولا لأحد"، هو عمل كتب في الفترة بين عامي 1883-1885، ويُعتبر من أبرز مؤلفات نيتشه، يتضمن الكتاب الأفكار الأساسية التي طرحها، ويجمع فيها بين النثر والشعر، تبدأ القصة بظهور زرادشت الذي ينزل من عزلته في الجبل بعد سنوات من التأمل، ليعلن دعوته للإنسان المتفوق، وهو تصور مستقبلي للإنسان الذي يتجاوز الإنسان الحالي، هذه الرؤية تحمل طابعا أخلاقيا وليس جسديا، حيث يُصوّر الإنسان المتفوق ككائن قوي في الفكر والمبادئ والجسد، إنسان محارب، ذكي، وشجاع، يواجه زرادشت في

البداية صعوبة في جذب الناس إلى دعوته، لكنه يلفت انتباه رجل يتلاعب بجبل مرتفع، يعبر زرادشت عن احترامه وتقديره لشجاعة هذا الرجل وإرادته في مواجهة المخاطر.

"ما وراء الخير والشر: تبشير فلسفة للمستقبل"، الذي صدر في عام 1886، يتناول فيه نيتشه نقد الفلسفة الدوغمائية التي تستند إلى بديهيات زائفة، داعيا فلاسفة المستقبل إلى التنقيب عن هذه البديهيات، بدلا من الوقوع في أسر منظور معين، حيث يؤكد أن المنظور يلون الحياة بأكملها، ويشدد على أن البشر ليس لديهم رؤية مشتركة للحياة وقضاياها، كما يحاول التحقيق في تاريخ النظم الأخلاقية، مهاجما المنظومة الأخلاقية للأديان السائدة في عصره، ويعلن عن عبثية فرض نظام أخلاقي واحد على جميع البشر.

"في جينالوجيا الأخلاق"، الذي صدر عام 1887، هو كتاب جريء وثنوري ذو تأثير كبير، يتكون من ثلاث مقالات يتناول فيها نيتشه الفروق الأخلاقية بين السادة والعبيد، مشيرا إلى أن الأقوياء والأحرار والأصحاء هم من وضعوا أخلاقهم الخاصة، بينما ابتكر الضعفاء والعبيد أخلاقا تخدم مصالحهم الشخصية، في هذا السياق أصبح العبيد هم الأخيار، بينما اعتُبر الأقوياء الذين يمتلكون الإرادة أشرا، كما يستعرض نيتشه جذور بعض المفاهيم مثل الذنب والشفقة، التي اكتسبت معانيها الحالية بفضل انتشار أخلاق العبيد، فقد أعاد السادة توجيه قوتهم وعنفوانهم نحو أنفسهم، مما جعل القوة تتحول إلى دافع للشعور بالذنب واحتقار الذات.

"هذا هو الإنسان"، الذي نُشر في عام 1888، يُعتبر كتابا ذا أهمية خاصة لدى نيتشه، حيث أنه أشبه بالسير الذاتية، تعكس معاناة الكاتب بشكل كامل، يقدم الكتاب صورة جديدة للفيلسوف بعيدا عن الصورة الأكاديمية التقليدية، حيث يقوم بتحليل أفكاره ورصد تطورها، ويعزو معاناته إلى سعيه المخلص والجريء نحو الحقيقة، يأتي العنوان (الترجمة الأدق: هو ذا الإنسان) كتعبير واضح عن معارضته لنص السيد المسيح^{*}، ويبدو وكأنه يُصر على رفض الصورة المسيحية للإنسان والأخلاق، مقدما رحلته ومسيرته كبديل لها.

^{*} - وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِ: «هُوَ ذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا غَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ». (أنظر: النص الشاهد الذي ورد في العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح 3: 22)

"نقيض المسيح" 1888، هو عمل يقدم فيه نيتشه نقداً حاداً وغير مسبوق للمسيحية بأسلوب مختصر، ينتقد فيه مسيحية القساوسة التي أسسها بولس، والتي أدت إلى تدمير التراث الإغريقي والروماني، بالإضافة إلى ذلك يقوم نيتشه بتحليل نفسي لشخصية يسوع، ويعبر عن انتقاده الشديد للشفقة، كما يهاجم اللاهوت المسيحي والفلسفة الألمانية التي يعتبرها فاسدة، كما يتناول أيضاً مفهوم الإله في اليهودية والمسيحية بنقد لاذع.

"أفول الأصنام" أو كيف تنفلس بمطرقة 1888، هو كتاب ينتقد فيه نيتشه الثقافة الألمانية في عصره بسبب تراجعها وعدم تطورها، كما يوجه انتقادات لبعض الشخصيات الثقافية من اليونان وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا التي تتبنى نفس الاتجاه، بالمقابل يثني نيتشه على شخصيات مثل غوته ونايليون وثوقيديس والسفطائيين، معتبراً إياهم نماذج أكثر صحة وقوة، ويعتبر تحويل جميع القيم المشروع الأساسي والأكثر أهمية في فكره.

فيما يتعلق بالمراجع التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفكر نيتشه، فقد تناولت موضوع الدراسة من زوايا متعددة، ومن بين الباحثين الألمان، يمكن الإشارة إلى أويغن فنك في كتابه "فلسفة نيتشه"، بالإضافة إلى مارتن هيدغر الذي تناول "نيتشه" في أحد أعماله.

بالنسبة للباحثين الفرنسيين، نجد جيل دولوز في مؤلفه "نيتشه والفلسفة"، وميشيل فوكو في كتابه "جينالوجيا المعرفة"، كما يظهر بيار هير سوفرين في عمله "زرادشت نيتشه"، وبول فالادير في كتابه "Nietzsche et la critique du christianisme"، بالإضافة إلى ذلك يبرز ميشيل هار في مؤلفه "Nietzsche et la métaphysique" وجان غرانييه في كتابه "Le Problème de la vérité dans la philosophie de Nietzsche".

بالإضافة إلى الجهود التي بذلها الباحث النمساوي رودولف شتاينر في كتابه "نيتشه مكافحا ضد عصره"، هناك أيضاً عمل الباحثة أوفيليا شوت من جامعة جنوب فلوريدا، في عملها بالإنجليزية الذي يحمل عنوان: "Beyond Nihilism: Nietzsche Without Masks".

أما بالنسبة للباحثين العرب، فنجد المصري عبد الرحمن بدوي في كتابه "نيتشه"، بالإضافة إلى فؤاد زكريا الذي درس نفس الموضوع في دراسته عن "نيتشه"، كما يبرز الباحث الجزائري جمال مفرج في كتابه "الإرادة والتأويل"، جميع هذه الأعمال تناولت جوانب مختلفة من موضوع الرسالة.

بالإضافة إلى الدراسات الأكاديمية، تم الاستعانة برسالة الدكتوراه “Nietzsche et la métaphore” التي أعدتها سارة كوفمان تحت إشراف جيل دولوز في فرنسا، كما تم الاستعانة برسالة الدكتوراه “نقد نيتشه للحدث” التي أعدها نورالدين الشابي بإشراف علي الشنوفي من تونس، علاوة على ذلك، هناك رسالة الدكتوراه “نيتشه وسياسة الفلسفة” التي أعدها مُجد أندلسي من المغرب، ورسالة الدكتوراه “نقد الحدث في فكر نيتشه” التي أعدها مُجد الشيخ، أيضا من المغرب.

ما الذي يميز دراستي عن باقي الدراسات الأكاديمية الأخرى؟

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف المشروع الفلسفي لفريدريك نيتشه من خلال نقده العميق للميتافيزيقا الغربية، يتم ذلك من خلال تحليل بنيوي وتأويلي يتجاوز القراءات السطحية أو المجتزأة، انطلقت الدراسة من فرضية رئيسية تفيد بأن نيتشه لا يقتصر على نقد الأفكار الفلسفية الكبرى مثل مفهوم الإله، الحقيقة، والأخلاق، بل يطرح أيضا تساؤلات جذرية حول هذه المفاهيم، مما يؤدي إلى تدمير المعنى التقليدي وإعادة بناء أفق جديد لمعنى الحياة.

يتميز هذا المسار بتماسكه المفاهيمي والزمني والتحليلي، حيث تتحول الميتافيزيقا في فكر نيتشه من مسألة إلهية إلى بنية ثقافية وأخلاقية تتطلب تغييرا جذريا، هذا التفكيك المتسلسل لا يظهر بصيغته الكاملة في الدراسات الأخرى، التي غالبا ما تقدم رؤى أحادية أو ثنائية، إذ تميل هذه الدراسات إلى تناول كل مجال بشكل منفصل، مثل فصل الأخلاق عن اللاهوت، دون التركيز على الترابط العضوي بينهما كما يفعل نيتشه.

يركز نورالدين الشابي في نقده على مفهوم الحدث، مستندا إلى انتقادات نيتشه لهذه الظاهرة التي يعتبرها مشروعا عقلانيا ميتافيزيقيا، ومع ذلك، يختلف تمييزي عن هذا النقد من خلال عودتي إلى الجذور الأنطولوجية واللاهوتية التي سبقت الحدث، كما أعمل على تحليل تفكيك التصورات الميتافيزيقية العميقة لدى نيتشه، قبل أن تظهر الحدث كمظهر متأخر لهذه البنية.

يتناول مُجد الشيخ نقد الحدث عند نيتشه من خلال استكشاف العلاقة بين نيتشه والعقل الغربي وتاريخ الحدث، من جهتي، تشمل أطروحتي الفصل الجنياولوجي والنقد اللاهوتي، مما يمنحها منهجا أكثر شمولية في تحليل الميتافيزيقا، حيث تُعتبر هذه الأخيرة تقليدا مهيمنا في الغرب وليس مجرد مرحلة عابرة.

في عمل مُجَّد الأندلسي بعنوان "نيتشه وسياسة الفلسفة"، يتمحور التركيز حول الدور السياسي للفكر الفلسفي لدى نيتشه، أما تميزي عن هذا العمل، فيظهر في تركيزي على نقد اللاهوت وإعادة تقييم القيم، مما يضيف بعداً أخلاقياً-أنطولوجياً لأطروحتي لم يتم تناوله بشكل مباشر في مقارنة الأندلسي.

في كتابها "نيتشه والاستعارة"، تركز سارة كوفمان على الأبعاد البلاغية والأسلوبية في فكر نيتشه، حيث تستعرض استخدام اللغة والاستعارة كأدوات تحليلية، ومع ذلك، لا تتناول الجوانب البنائية لفلسفته بعمق، من ناحيتي، أستند إلى المفاهيم النقدية الكبرى مثل الإله، الجنياولوجيا، واللاهوت كمدخل لفهم الميتافيزيقا كنظام تفكير، بدلا من الاقتصار على المنظور اللغوي أو البلاغي.

خلاصة تميزي: لا تقتصر دراستي على تحليل تقليدي لفكر نيتشه، بل هي إعادة تقييم لدور الفلسفة والنقد في العصر الحديث، أتعامل مع نيتشه ليس كـ "كاتب مثير للجدل"، بل كفيلسوف يسعى إلى إنشاء عالم جديد على أنقاض الميتافيزيقا الغربية.

1. المدخل المثير: "وعي مفاجئ" يفتح الفصل الأول بانفجار فلسفي يسعى إلى هدم النظام القديم للمعنى! بخلاف بعض الدراسات التقليدية التي تناولت نيتشه بأسلوب "تحليلي بارد"، يتناول هذا العمل الموضوع من أعماق نقطة: انهيار الأسس - موت الإله وسقوط الثوابت.

2. رؤية تأويلية للنقد: يقدم الفصل الثاني تعريفاً جديداً للنقد، حيث يُعتبر ليس مجرد أداة سلبية، بل فعلاً إبداعياً يساهم في إعادة تشكيل الوعي والمعنى، وهذا ما يميزني عن كوفمان، التي ركزت على دراسة الاستعارة في أعمال نيتشه دون أن تتناول مفهوم "النقد كحدث حضاري شامل".

3. تحليل نقدي للغريزة اللاهوتية أتناول الغريزة اللاهوتية على أنها "سوء فهم للظواهر"، ثم أستعرضها في إطار الفلسفة بشكل عام، وهنا يتجلى إبداعي! فلم أقتصر على الوصف فحسب، بل قمت أيضاً بفتح ملف التكرار اللاواعي للميتافيزيقا.

4. ربط الأخلاق بالإنتاج البشري، في الفصل الخامس، تُعرض القيم الأخلاقية كنتاج بشري، مما يتماشى مع تحليل الحداثة الذي قدمه نور الدين الشابي، ومع ذلك، يتجاوز هذا الطرح من خلال تقديم نقد واضح لنوايا "الخلق الأخلاقي" وكشف الأسس النفسية والسلطوية التي يستند إليها.

5. نهاية بناءة: البحث عن معنى للحياة، نيتشه ليس ناقدا سلبيا، وقد أوضحت ذلك! في الفصل السادس، يتبين كيف يسعى نيتشه إلى تأسيس معنى ثابت للحياة بدلا من الاعتماد على المعاني التقليدية، وهذا يمكننا من فهم "إرادة القوة" ليس كقوة مدمرة، بل كقوة إبداعية!

واجهتنا عدة صعوبات أثناء تحرير هذه الرسالة، وأولها كان أسلوب الكتابة الذي اتبعه نيتشه، والذي لم نكن معتادين عليه في مجال الفلسفة، فلم يكن نيتشه يكتب نصوصا متصلة ومتماسكة، بل كانت معظم كتاباته تتألف من شذرات وفقرات ومقالات وقصائد وحكم مستقلة، كما أنه لم يسع لبناء نظام فلسفي كما فعل ديكارت وكانط وهيغل، ليس لأنه لم يكن قادرا على ذلك، بل لأنه رفض فكرة النظام الفلسفي بشكل عام.

أسلوبه في القراءة والتأويل لم يكن تقليديا كما هو متعارف عليه في الفلسفة، لم يكن نقده عقلانيا منطقيا، بل كان يركز بشكل أساسي على تحليل الفلسفة الكلاسيكية، استخدم في ذلك أساليب سيكولوجية وشعرية، حيث كانت كتاباته تحمل دلالات عميقة تعتمد على الانزياح والمفارقة والسخرية والإيحاء والتميز والإرباك والإدهاش، مع التركيز على العصف الذهني بدلا من الاعتماد على الحجج الفلسفية المنطقية، يكفي أن نقارن أفكاره بأفكار ديكارت أو سبينوزا أو كانط لنلاحظ ذلك، كان يسعى إلى زعزعة الثقة في الأفكار من خلال هذه الأدوات، لكنه لم يكن معنيا بنقدها من منظور منطقي، بل اعتبر النقد المنطقي نوعا من الخداع والتدهور الثقافي الذي لا يليق بفيلسوف أصيل.

على الجانب الآخر، لم يقدّر نيتشه بدراسة الميتافيزيقا من منظور تاريخيها كما هو معتاد في الفلسفة، بل تناولها من خلال عدسة اللاهوت إذ يرى أن هذا المجال هو الأنسب لفهم الفلسفة، حيث يعتبر الميتافيزيقا ظاهرة ينبغي فهمها ليس في سياق تاريخها الخاص، بل في علاقتها بتاريخ القساوسة الذين ادعوا باستمرار أنهم يتحدثون من عمق الأشياء.

فصل تمهيدي:

الأسس والمفاهيم الأساسية في فلسفة نيتشه

أولاً: المدخل المفاهيمي للفكر النيتشوي

ثانياً: العوامل والسياقات التي أسهمت في تشكُّل فكر نيتشه

يعتبر فكر نيتشه نقطة تحول هامة في تاريخ الفلسفة الغربية، حيث يتميز بطابعه التفكيكي والجذري تجاه الموروث الميتافيزيقي الذي هيمن منذ أفلاطون وحتى العصر الحديث، لا يقتصر نقد نيتشه للميتافيزيقا على إظهار تناقضاتها الداخلية، بل يتجاوز ذلك ليستهدف جذورها القيمية والرمزية، لفهم مشروعه النقدي، من الضروري أولاً استكشاف البنية المفاهيمية التي يعتمد عليها، بالإضافة إلى الكشف عن السياقات الفكرية والوجودية التي ساهمت في تشكيل رؤيته الفلسفية.

أولاً: المدخل المفاهيمي للفكر النيتشوي

إن مشروع نيتشه الفلسفي في نقد الميتافيزيقا الغربية لا يقوم على تفكيك مباشر للأنظمة الفلسفية الموروثة فحسب، بل يركز على إعادة تشكيل جذرية للمفاهيم التي استندت إليها هذه الأنظمة، فنيتشه لا يهاجم الميتافيزيقا عبر تفنيد أطروحاتها بوسائلها ذاتها، وإنما من خلال نفس الأسس التي جعلتها ممكنة، مثل المعنى والقيمة واللاهوت والأخلاق والعقل، إلى جانب تطويره أدوات مفهومية خاصة مثل الجنيالوجيا والتأويل والتقويم وإرادة القوة والعود الأبدي.

01- الميتافيزيقا Metaphysics – من البناء إلى التفكيك

تُعتبر الميتافيزيقا، كما تطورت منذ زمن أفلاطون، محاولة لتأسيس عالم ثابت ومثالي يتجاوز العالم الحسي المتغير، وقد تجسدت هذه الفكرة في ثنائية أفلاطونية تفصل بين "عالم المثل" الذي يمثل الحقيقة العليا، و"العالم الحسي" الذي يُعتبر عالماً ناقصاً وظلالاً لذلك العالم المثالي، واستمر هذا التصور مع أرسطو، الذي عرّف الميتافيزيقا بأنها "علم الوجود بما هو وجود"¹، مما يعني البحث في المبادئ الأولى الثابتة للكائن.

لكن نيتشه يرى أن هذه الميتافيزيقا لم تكن بريئة، بل كانت دائماً مسكونة بنزعة نفى الحياة وتحقير الجسد، وقد تجلّت هذه النزعة لاحقاً في اللاهوت المسيحي والفكر الأخلاقي الحديث، ويقول: "لقد اخترعنا العالم المثالي لكي نتجنب العيش في هذا العالم"²

¹ - Aristotle, **Metaphysics**, trans. W. D. Ross, in *The Basic Works of Aristotle*, ed. Richard McKeon (New York: Modern Library, 2001), Book I.P689.

² - Nietzsche Friedrich, **Twilight of the Idols**, trans. R. J. Hollingdale, Penguin, London, 2003, "How the 'True World' Finally Became a Fable", §6.

في هذا الاقتباس من كتاب "غسق الأوثان"، يسلط نيتشه الضوء على أن الميتافيزيقا كانت بمثابة مشروع للهروب من العالم الحسي، من خلال إنشاء ثنائيات مثل (ظاهر/حقيقي، جسد/روح) التي أفرغت الحياة من معناها الحسي والزمني، ومن ثم، يتحول نقد الميتافيزيقا عند نيتشه إلى نقد وجودي وأخلاقي قبل أن يكون نقدا معرفيا.

02- النقد Criticism عند نيتشه – المطرقة كرمز للفحص والهدم

إذا كان كانط قد قام بنقد الميتافيزيقا بهدف تأسيسها على أسس جديدة من خلال نقد العقل المحض، فإن نيتشه يتبنى نقدا هداما وتفكيكيا لا يسعى إلى إصلاح الميتافيزيقا، بل إلى تقويضها من جذورها، فهو يعتبر أن الفلسفة الغربية قد بُنيت على "أوهام لغوية"، مما جعل مفاهيم مثل "الجوهر"، "الذات"، "الإرادة الحرة"، و"الحق" تُعتبر مسلّمات غير قابلة للتفكير، بل تُقبل دون تمحيص، ومن هنا، جاء مشروعه الفلسفي كدعوة لـ "إعادة تقييم كل القيم" (Revaluation of all values).

بناءً على ذلك، يتجلى النقد لدى نيتشه في عدة أبعاد: فهو يتضمن نقدا إبستمولوجيا للبنية المفاهيمية للميتافيزيقا، ونقدا أخلاقيا للقيم التي كرسّها، بالإضافة إلى نقد أنثروبولوجي للإنسان الذي تشكّل وفقا لهذه الرؤية الثابتة والمثالية للعالم.

عندما ينتقد نيتشه أسس الميتافيزيقا الغربية، لا يقوم بذلك من منظور فيلسوف يقدم بدائل نظرية، بل من موقع "فيلسوف المطرقة"، كما يصف نفسه، فهو لا يسعى إلى البناء، بل إلى التدمير الفلسفي كشرط ضروري للإبداع.

ولعل استعارة "المطرقة" التي يستعملها في "غسق الأوثان" تعبّر عن هذا التوجه، حيث يسأل: "هل ترغبون في اسم جديد لفلسفتي؟ — إنها فلسفة المطرقة"¹، في هذا السياق، تُعتبر "المطرقة" أكثر من مجرد أداة هدم، بل هي وسيلة للفحص أيضاً (كما يُختبر صوت التماثيل المجوفة)، وهذا يعني أن نيتشه يمارس نقدا مزدوجا: فهو يهدم

¹ - Nietzsche Friedrich, *Twilight of the Idols*, Op. cit, §33.

الأوثان الميتافيزيقية، وفي الوقت نفسه يكشف عن البنى الخفية التي أنتجت تلك الأوثان، إنه يقوم بـ"نقد للقيم" و"نقد للأدوات الفكرية التي تُنتجها".¹

03- الحقيقة The Truth – وهم الضرورة وسلطة التأويل

في صميم النقد الذي يقدمه نيتشه للميتافيزيقا، نجد إعادة تعريف جذرية لمفهوم "الحقيقة"، لم تعد الحقيقة، في نظره، مجرد مرآة تعكس الواقع، بل أصبحت شبكة من الاستعارات التي ترسخت عبر الزمن وأُعتبرت واقعية، كما يقول نيتشه: "ليست هناك حقائق، فقط تأويلات".²

هذا الموقف يسلط الضوء على أن أي ادعاء ميتافيزيقي حول الحقيقة المطلقة يُعتبر محاولة للسيطرة على الحياة والتجربة، كما يعيدنا إلى رؤية نيتشه للغة كأداة للإبداع والتأويل، بدلا من كونها وسيلة لكشف الحقائق، بالإضافة إلى ذلك، يرى نيتشه أن القيم الأخلاقية ليست عالمية، بل هي نتاج تاريخي وصراعي، تعكس إرادات القوة التي انتصرت، وليس حقائق أخلاقية مطلقة.

إن نقد نيتشه للميتافيزيقا لا يقتصر على المفاهيم فحسب، بل يمتد إلى آليات إنتاج هذه المفاهيم، فهو لا يكتفي بدم الميتافيزيقا، بل يسعى لتجاوزها من خلال فتح آفاق تأويلية جديدة تؤسس لمفاهيم الحياة، الجسد، الإرادة، والمعنى بمعايير تختلف تماما عن التراث العقلاني الغربي.

04- المعنى Meaning

يرتبط مفهوم "المعنى" في الفلسفة بقدرة اللغة أو الظواهر أو التجارب على الإشارة إلى شيء ما أو التعبير عن محتوى معين، نيتشه يعيد النظر في مفهوم "المعنى"، من حيث هو ليس جوهرًا ثابتًا يُكتشف، بل هو نتاج لفعل إرادي وتأويلي، فالحياة، وفقا له، لا تحمل معنى مسبقا، بل يُعطى لها المعنى من خلال التأويل البشري، والذي هو بدوره انعكاس لإرادة القوة.

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche and Philosophy**, trans. Hugh Tomlinson, Columbia University Press, New York, 2006, P88.

² - Nietzsche Friedrich, **The Will to Power: An Attempted Transvaluation of All Values**, Trans: Anthony M. Ludovici, Vol. I, First Edition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1914, §481.

05- القيمة Value

تشير إلى ما يُعتبر مرغوباً أو ذا أهمية، سواء في مجالات الأخلاق أو الجمال أو الفكر، يرى نيتشه أن القيم ليست معطى موضوعياً، بل هي "تأويلات" ناتجة عن قوى تاريخية ونفسية، وليست حقائق ثابتة¹. يؤكد نيتشه أن القيم ليست أبدية أو موضوعية، بل هي نتاج تاريخي مشروط، فالقيم الأخلاقية السائدة، مثل الخير والشر، لم تُصاغ في فراغ ميتافيزيقي، بل جاءت نتيجة لصراعات القوى، وبالتالي، فإن نقد نيتشه للقيم يمثل في جوهره نقداً للميتافيزيقا الأخلاقية.

06- اللاهوت Theology

يعتبر نيتشه أن اللاهوت المسيحي هو امتداد للميتافيزيقا الأفلاطونية، حيث أن كلاهما يؤسس لعالم مغاير ينفي الوجود الحسي، إن إعلان نيتشه عن "موت الإله"² يعكس انخيار هذا البناء الرمزي الذي يمنح العالم معنى متعالياً ويشرعن القيم الأخلاقية المطلقة.

07- العدمية Nihilism

العدمية، عند نيتشه، هي النتيجة الحتمية لانخيار المنظومة الميتافيزيقية التي وعدت بالمعنى والغاية، وهي ليست مجرد موقف سلبي، بل مرحلة انتقالية نحو إمكان خلق قيم جديدة. إنها "أزمة" لا بد منها كي يُولد الإنسان المتفوق.

08- الأخلاق Ethics

يُميز نيتشه بين "أخلاق السادة" و"أخلاق العبيد"، حيث تنبع الأخلاق الأولى من تأكيد الذات والقوة، بينما الثانية تنشأ كرد فعل على القوة وتشرعن الضعف والتواضع والامتثال، وفقاً لنيتشه، تمثل الأخلاق التقليدية تجسيدا لميتافيزيقا تنكر الحياة³.

¹ - Nietzsche Friedrich, **On the Genealogy of Morals**, trans. Walter Kaufmann and R. J. Hollingdale, Vintage Books, New York, 1967, Essay I, §§10-17.

² - Nietzsche Friedrich, **The Gay Science**, trans. Walter Kaufmann, Vintage Books, New York, 1974, §125, P181.

³ - Nietzsche Friedrich, **On the Genealogy of Morals**, Op. cit, Essay II, §22; Essay III, §11.

09- العقل Mind

يُعتبر العقل، وفقا للمفاهيم الميتافيزيقية، وسيلة للوصول إلى الحقيقة الشاملة، بينما يرى نيتشه أنه مجرد وظيفة حيوية تخدم الحياة، ويعتبر أن تفضيل العقل على الغريزة والجسد هو نتيجة من نتائج الميتافيزيقا التَّسْكِيَّة¹.

10- التأويل (الهرمينوطيقا) Hermeneutics

يتعلق التأويل بفهم النصوص والمعاني، وقد ارتبط تقليديا بالدراسات اللاهوتية، ثم تطور على يد فلاسفة مثل شلايرماخر، دلتاي، غادامر وريكور، بالنسبة لنيتشه، فإن التأويل لا يُعتبر مجرد أداة لفهم المعنى، بل يُعبر عن القوة، حيث يحمل كل تأويل وراءه إرادة للسيطرة أو للبقاء².

في فلسفة نيتشه، يُعتبر التأويل أداة لصنع الحقيقة بدلا من كشفها، فالحقيقة ليست سوى جيش من الاستعارات، التي يسهل نسيان طبيعتها المجازية، بالنسبة لنيتشه، لا يتم تفسير العالم، بل يُؤوَّل من منظور القوة.

11- التقييم Evaluation

يشير مفهوم "التقييم" إلى إعادة تقييم القيم والمعايير السائدة، عند نيتشه، يتجلى هذا المفهوم في مشروعه المعروف بـ"إعادة تقييم القيم"، الذي يهدف إلى قلب البنية الأخلاقية المسيحية والميتافيزيقية التي هيمنت على الغرب لقرون، لصالح قيم جديدة تنبع من إرادة الحياة.

يستخدم نيتشه هذا المفهوم ليرز أن ما يُعتبر "خيرا" أو "شرا" ليس له قيمة مطلقة، بل يتحدد وفقا لموقعه في صراع القوى.

12- الجنيالوجيا Genealogy

الجنيالوجيا هي منهج فلسفي يتبناه نيتشه، يركز على تتبع أصول الأفكار والقيم، ليس باعتبارها معطيات عقلية أو فطرية، بل كنتائج لصراعات تاريخية، في كتابه "جنيالوجيا الأخلاق"، يوضح نيتشه كيف نشأت الأخلاق من صميم الدين والمعاناة، وليس من العقل أو الطبيعة³.

¹ - Nietzsche Friedrich, *On the Genealogy of Morals*, Op. cit, Essay III, §§7-12.

² - Foucault Michel, *Language, Counter-Memory, Practice*, ed. Donald F. Bouchard, Cornell University Press, Ithaca, 1977, P139.

³ - Nietzsche Friedrich, *On the Genealogy of Morality*, Op. cit, Essay I, §§10-14.

13- إرادة القوة The will to power

إرادة القوة تشكل جوهر فلسفة نيتشه، حيث لا تقتصر على الرغبة في السيطرة فحسب، بل تُعتبر دافعا أساسيا لكل كائن حي نحو التوسع، التمكين، وتحقيق الذات، ويعتقد نيتشه أن الحياة لا يمكن فهمها إلا من خلال هذه الإرادة¹.

14- العود الأبدي Eternal Return

تعتبر فكرة العود الأبدي، التي تعني العودة الأبديّة لنفس الحياة بكل تفاصيلها، أداة وجودية واختبارا فلسفيا، يطرح نيتشه هذه الفرضية ليس كحقيقة كونية، بل كتحدٍ للإنسان: هل يمكنك أن تعيش حياتك وكأنك ستعيشها إلى الأبد؟² هذا المفهوم يهز الرؤية الميتافيزيقية التي تفصل بين الحياة الأرضية والعالم المتعالي.

ثانيا: العوامل والسياقات التي أسهمت في تشكّل فكر نيتشه

لا يمكن فهم الفلسفة النيتشوية دون النظر إلى العوامل التاريخية والنفسيّة والثقافية والفكرية التي ساهمت في تشكيلها، فقد كان نيتشه نتاجا لعصر مليء بالاضطرابات الفكرية، بالإضافة إلى صراعات داخلية وشخصية أثرت بعمق على أفكاره ونقده للمفاهيم الميتافيزيقية السائدة، يهدف هذا العنوان إلى استكشاف العوامل الأساسية التي ساهمت في تشكيل رؤيته الفلسفية، مع التركيز على العناصر التكوينية التي ألهمته أو دفعته إلى إعادة النظر بشكل جذري في تراث الفلسفة الغربية.

01- السياق الديني والثقافي

وُلد نيتشه في عام 1844 في أسرة بروتستانتية محافظة، حيث كان والده قسًا لوثرانيا، في بداية حياته، تأثر بالقيم المسيحية، لكن هذه القيم أصبحت لاحقا هدفا لهجماته الفكرية، كما عبّر عن ذلك بقوله: "إن المسيحية هي لعنة، إنها وصمة عار على الإنسانية."³

¹ - Nietzsche Friedrich, **The Will to Power**, Op. cit, §1067.

² - Nietzsche Friedrich, **The Gay Science**, Op. cit, §341.

³ - Nietzsche Friedrich, **The Antichrist**, trans. Walter Kaufmann, Vintage Books, New York, 1968, §14.

يعكس هذا الاقتباس التوتر العميق الذي ميز علاقة نيتشه بالمسيحية، فهو لا يقتصر على نقدها كنظام لاهوتي، بل يعتبرها أيضا مرضا أخلاقيا أفسد الإرادة البشرية، يتجاوز النقد هنا البعد الديني ليصل إلى رؤية وجودية تعتبر المسيحية نفيا للغريزة والحياة والإبداع الإنساني.

02- التأثير الفلسفي والإغريقي

كان لنيتشه تكوين كلاسيكي قوي، وقد تأثر بشكل عميق بالفكر الإغريقي، لاسيما بفلاسفة ما قبل سقراط، في عمله الأول "مولد التراجيديا"، أبدى إعجابا خاصا بشخصية ديونيسوس، التي تمثل، في رؤيته، الروح الحيوية والفوضوية للحياة، مقابل البعد الأبولوجي الذي يرتبط بالنظام والعقل، وقد عبّر عن ذلك بقوله: "إن الفن الديونيسي يُجبر الفرد على نسيان ذاته، ليصبح جزءا من كيان كوني أكبر".¹

يُظهر هذا القول أهمية الفن في فلسفة نيتشه كوسيلة للانتقال من الذات إلى تجربة كونية تتجاوز الفرد، كما يُشير إلى تفضيل نيتشه للمصادر غير العقلانية، المرتبطة بالحياة الفطرية والعواطف واللاشعور، على حساب الأنظمة التي تنتجها الميتافيزيقا العقلية.

تأثر نيتشه بفكر شوبنهاور، خاصة في نقده للميتافيزيقا التقليدية، ومع ذلك، سرعان ما رفض نيتشه التشاؤم الذي قدمه شوبنهاور، ودعا بدلا من ذلك إلى تبني إرادة القوة بدلا من إرادة النفي، يُعتبر هذا التحول من التشاؤم إلى قوة الإبداع محورا أساسيا لفهم قطيعة نيتشه مع إرادة الإنكار التي رآها في الدين والفلسفة التقليدية.

03- المؤهلات الأكاديمية والدراسية

تلقى نيتشه تعليمًا صارما في الفلسفة واللغات الكلاسيكية، وتم تعيينه أستاذا في جامعة بازل في سن مبكرة، ومع ذلك، لم تُرضِ هذه الحياة الأكاديمية طموحاته الفكرية، وقد عبّر لاحقا عن استيائه من الروتين الأكاديمي والمثقفين التقليديين، الذين وصفهم بـ "كهنة الحقيقة المزيفة، في كتابه "الفجر"، كتب: "المثقفون لا يسعون وراء الحقيقة، بل يبحثون عن الراحة التي توفرها الأكاذيب الجاهزة".²

¹ - Nietzsche Friedrich, **The Birth of Tragedy**, trans. Walter Kaufmann Vintage Books, Vintage Books, Vintage Books, New York, 1967, §1.

² -Nietzsche Friedrich, **The Dawn of Day**, Trans: J.M. Kennedy, Première édition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1911, The New Passion. §429.P221.

يحمل هذا القول دلالة نقدية قوية على الدور المؤسسي للمعرفة، فنيته هنا، يقوم نيتشه بتفكيك صورة المثقف كحامل للحقيقة، ويصوّره كشخص يكتفي بتكرار الأفكار الجاهزة، يتجلى هذا الموقف في معظم أعمال نيتشه التي ترفض التلقين والامتثال، وتدعو إلى التفكير الإبداعي الذي يتسم بالمخاطرة ويزعزع الأسس التقليدية.

04- تجربة المرض والشعور بالوحدة

عانى نيتشه من مشكلات صحية مزمنة، خاصة في عينيه وجهازه العصبي، مما أدى إلى تقاعده المبكر وانعزاله، ومع ذلك، كانت هذه الوحدة الجسدية والعقلية، بشكل متناقض paradoxically دافعا لإنتاجه الفكري الغزير، في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، تجسد الشخصية الرئيسية صورة عن نيتشه نفسه في عزله، حيث يقول: "من أراد أن يلد نجمة راقصة، لا بد أن يحمل في نفسه فوضى".¹

في هذا القول، تلخص فلسفة نيتشه في مفهوم نشوء المعنى من الفوضى، فالوحدة ليست مجرد عزلة، بل هي شرط وجودي لتجاوز المألوف، يرى نيتشه أن أعظم الإبداعات تنبع من المواجهة المباشرة مع المعاناة واللايقين، لذلك، تعتبر العزلة بالنسبة له فضاءً فلسفياً لإعادة تشكيل الإنسان وفقاً لمعايير الخاصة.

05- السياق التاريخي والفلسفي الحديث

عاش نيتشه في فترة شهدت تحولات جذرية في أوروبا، مثل صعود القومية، الثورة الصناعية، تراجع السلطة الكنسية، وظهور القيم البرجوازية، اعتبر نيتشه أن هذه التحولات تمثل انهياراً للمعنى وفقداناً لـ"الله" كمصدر للقيم، مما يعكس دعوته لتجاوز الإنسان للمطلقات، كما عاصر نيتشه ظهور العقلانية العلمية والمادية الحديثة، وشهد بداية تفكك السرديات الكبرى، وقد عبّر عن تشككه في النزعة العلمية بقوله: "العلم نفسه يعتمد على إيمان، إيمان بأن الحقيقة أفضل من الوهم".²

يمثل هذا التصريح نقطة تحول مهمة في نقد نيتشه للفكر الحديث، حيث يكشف عن الأسس الإيمانية التي تتواجد حتى في العلم نفسه، فهو يشير إلى أن ما يبدو عقلانياً أو "موضوعياً" ليس خالياً من افتراضات ميتافيزيقية، ومن هنا، يدعو نيتشه إلى تفكيك الميتافيزيقا وكل يقين يُعتبر حقيقة نهائية.

¹ -Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra: A Book for All and None**, Trans: Thomas Common, First Edition, Random House, New York, 1909. Prologue. §5.

² -Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil: Prelude to a Philosophy of the Future**, Trans: Helen Zimmern, Third Edition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1911. §10.

06- القطيعة مع الفلسفة الميتافيزيقية

تعتبر القطيعة مع الميتافيزيقا أساسا رئيسيا في مشروع نيتشه الفلسفي، في البداية، تأثر نيتشه بشوبنهاور، الذي قدم له رؤية متشائمة للحياة تعتمد على الإرادة العمياء، ومع ذلك، سرعان ما تجاوز نيتشه أستاذه في كتاباته اللاحقة، حيث اعتبر أن الميتافيزيقا تمثل "أكذوبة العقل الذي يخاف من الحياة"¹. ومن هنا، تجلت نزعتة التراجيدية تجاه العالم، ليس باعتباره مأساة يجب الهروب منها، بل كفضاء للتجربة القوية والتحول المستمر.

07- الابتعاد عن الفكر الألماني التقليدي

على الرغم من جذوره الألمانية، كان نيتشه ناقدا صارما للفكر القومي والثقافي السائد في ألمانيا خلال القرن التاسع عشر، انتقد الجامعات، والفلسفة الهيكلية، والاتجاه نحو الطاعة والنظام، وقد كتب قائلا: "أوروبا تعاني من مرض ألماني يُدعى الفلسفة الرسمية"²، معبرا عن قلقه من أن تتحول الثقافة الألمانية إلى أداة للخضوع الجماعي بدلا من أن تكون وسيلة للتحرر.

08- الجانب الجمالي والفني في الكتابة

تميزت كتابات نيتشه بأسلوب أدبي فريد يجمع بين الفلسفة والشعر والرمزية، فقد قدم شذرات وتأملات بدلا من أنظمة مغلقة، مما يعكس اختياره الجمالي والفلسفي في آن واحد، حيث يعبر عن رفضه للمطلقات والنهايات، كما أكد ذلك بقوله: "أنا لست إنسانا، بل ديناميت!"³، مما يبرز طابعه الثوري تجاه كل الثوابت.

09- الاتجاه الجنيالوجي والنقد التاريخي

في أعماله الأخيرة، وخاصة في كتاب "جنيالوجيا الأخلاق"، قام نيتشه بتطوير منهج جنيالوجي يدرس أصول المفاهيم الأخلاقية ليس كحقائق ثابتة، بل كنتائج لصراعات القوة والتاريخ، وقد اعتبر أن القيم تنبع من إرادات السيطرة بدلا من أن تكون مستندة إلى العقل أو الدين، كما أشار إلى أنه "لا توجد حقائق، بل تأويلات"، مما يعكس طابع فكره النقدي تجاه الميتافيزيقا.

¹ -Nietzsche Friedrich, *Twilight of the Idols*, Op. cit, "Reason in Philosophy", §1.

² -Nietzsche Friedrich, *Beyond Good and Evil: Prelude to a Philosophy of the Future*, Op. cit, §204.

³ - Nietzsche Friedrich, *Ecce Homo*, Trans: Anthony M. Ludovici, The Macmillan Company, New York , 1911, "Why I Am a Destiny," §1.

يمكن تلخيص فكر نيتشه على أنه نتاج تفاعل معقد بين تجربته الشخصية والسياقات الفكرية والتاريخية والثقافية المحيطة به، وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى ظهور فكر متمرد وساخر، يرفض جميع أشكال اليقين، لذلك، يمكن القول إن فهم هذه العوامل يعد ضروريا لاستيعاب طبيعة مشروعه النقدي للميتافيزيقا، ليس فقط كموقف نظري، بل كخيار وجودي جذري.

الفصل الأول:

وعي مفاجئ انهيار النظام القديم للمعنى

المبحث الأول: سحب البساط موت فكرة الإله

أولاً: محاولة تفسير الحدث

ثانياً: كيف قتل العلم الإله؟

المبحث الثاني: فقدان التوازن والدخول في حالة من الفراغ

أولاً: مخاطر فقدان المعنى

ثانياً: فرصة للبحث عن معنى جديد

المبحث الثالث: اختيار خاطئ لاكتساب المعنى

أولاً: الإنسان الأخير هو واقع تم التنبؤ به

ثانياً: الإنسان الحديث ليس إلا تجسيدا للإنسان السابق

نتائج الفصل.

مرت حوالي مئة وواحد وأربعون عاما منذ أن طرح نيتشه مفهوم "موت الإله" Death of God مما أثار جدلا واسعا بين طلاب الفلسفة منذ القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا، هذه العبارة واحدة من أخطر العبارات في الفلسفة، حيث يعرفها كل من قرأ كتاب "العلم المرح" The Gay Science وقد يُساء فهمها أحيانا*، لأن الأمر رهيب كما يخبرنا نيتشه أن يظل المرء صامتا بينما لديه الكثير ليقوله، فعدم القدرة على تبادل الأفكار مع الآخرين يُعد من أسوأ أنواع العزلة¹، إنها بمثابة صدمة للعالم وسابقة فريدة في تاريخ الغرب، حيث تعكس ظاهرة فقدان المعنى في الثقافة وتثير شعورا بالالاقيمة وخيبة أمل عميقة، كما تكشف عن مصير القيم والأفكار التي نسجت الإنسانية على مدى ألفي عام، ولكن كيف يمكننا فهم ما يقصده نيتشه بدقة عندما يتحدث عن اختفاء النظام القديم للمعنى بشكل مفاجئ؟

المبحث الأول: سحب البساط موت فكرة الإله

ظهرت هذه العبارة لأول مرة** في كتاب "العلم المرح" لنييتشه عام 1882، ولم تكن في سياق احتفالي بل في سياق جنائزي ساخر، حيث كان نيتشه يخاطب معاصريه من خلال شخصية رجل مجنون يحمل مصباحا ويبحث عن الإله في الشوارع والأسواق، قال: "مات الإله وسيظل ميتا، ونحن من قتلناه، كيف سنعزي أنفسنا ونحن أكبر القتلة؟ إن أقدس ما كان يمتلكه العالم حتى الآن قد نزع دمه بطعنات، من سيمسح هذا الدم عن أيدينا؟.. أي ألعاب مقدسة يجب علينا أن نبتكر؟ أليست عظمة هذه الفعلة شيئا يفوق طاقتنا؟"².

* - كان نيتشه دائما عرضة لسوء الفهم، يقول في رسالة لناشره: "في السنوات القادمة، سيلتفت الناس إلى كتيبي.. سيحتاجون إلي ويسعون جاهدين لفهمي وتفسير أفكاري.. فكيف سيتمكنون من فهمي؟ وأحسب أن أسوأ الحماقات قد تقترف بهذا الخصوص". (نقلا عن: سنا صباح آل خالد، حول فلسفة نيتشه، مجلة الفلسفة، المجلد 13، العدد 13، الجامعة المستنصرية كلية الآداب قسم الفلسفة، العراق، 2016، ص 61).

¹ - نقلا عن: بلو دانيال، تشكّل فريديريك نيتشه، ترجمة: محمد الفشتكي، الطبعة الأولى، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2018، ص 230.

** - ذكرت مرة ثانية في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، الذي نُشر بين عامي 1883 و1885، يروي نيتشه قصة رحلة زرادشت الروحية، خلال هذه الرحلة، يلتقي زرادشت برجل قديس مسن وزاهد، يعبر عن كراهيته للبشرية وجهه لله، يسأل زرادشت القديس عن دوره في هذه الغاية، فيجيب القديس بأنه ينظم الأناشيد ليتروم بها، ويعبر عن شكره لله، حيث يختلط ضحك وبكاؤه في مناجاته، ثم يسأل القديس زرادشت عن الهدية التي يحملها له، فيرد زرادشت بالحناءة، قائلا: ماذا يمكنني أن أعطيك؟ دعني أرحل سريعا حتى لا آخذ منك شيئا، وعندما انفرد زرادشت قال في نفسه: إنه لأمر جد مستغرب، ألم يسمع هذا الشيخ في غايه أن "الإله قد مات!" (Voir la: Nietzsche Frédéric, Ainsi parlait Zarathoustra: Un livre pour tous et pour personne, Trad: Henri Albert, Première partie, le prologue de zarathoustra, vingt-neuvième édition, Société du Mercure de France, Paris, 1914, §2, p11.)

² - Nietzsche Frédéric, Le Gai Savoir, Trad: Henri Albert, Livre troisième, quatrième édition, Société du Mercure de France, Paris, 1901, §125, p180.

أولاً: محاولة تفسير الحدث

يظهر من هذه الفقرة أن نيتشه لم يكن يقصد أن هناك إلها قد مات بالمعنى الحرفي للكلمة، بل كان يشير إلى أن تصوراتنا عنه هي التي انتهت، وبالتالي فهو لا ينفي وجوده بل يعلن عن موته، حيث يتجاوز تصويره النظرة الإلحادية، بل إن دلالاته أسوأ من الموت، إذ يعتبر أن الإله قد قُتل، ويحمل نفسه ومعاصريه مسؤولية هذا القتل، لذا فإن هذا الحدث لا يعكس وجهة نظر شخصية بقدر ما ينقله بشكل موضوعي كما وجدته في وعي الإنسانية الحديثة، حيث يُعتبر "ميتاً في نفوس أهل زمانه"¹، يمكن القول إن هذه العبارة لا تندرج ضمن جدل اللاهوت الديني، بل تتعلق بالوعي الفلسفي بحدث حديث².

استناداً إلى قصة المجنون، نلاحظ أننا دخلنا عصرًا تلاشى فيه الإيمان بالله، كيف حدث ذلك؟ الأمر المثير للدهشة هو أن المجنون يزعم أننا قتلناه، لكن تبقى تداعيات هذا الادعاء غامضة في الوقت الراهن، وقبل أن يغادر يلقي فانوسه على الأرض ويقول: "لقد جئت مبكراً، لم يحن وقتي بعد، هذا الحدث الرائع لا يزال في طريقه ولم يصل بعد إلى آذان الناس.. ومع ذلك، هم من قاموا بهذا الفعل!"³.

بعد عصر التنوير * Age of Enlightenment أصبحت فكرة الكون الذي تحكمه القوانين الفيزيائية بدلاً من العناية الإلهية حقيقة واقعية، لقد أظهرت الفلسفة أن الحكومات لم تعد بحاجة إلى الالتفاف حول فكرة الحق الإلهي لكسب شرعية وجودها، وإنما من خلال موافقة أو عقلانية المحكومين، تلك النظريات الأخلاقية الكبيرة والمتسقة يمكن أن توجد بدون الرجوع إلى الإله، لم تعد أوروبا بحاجة إلى الإله كمصدر ومرجعية للأخلاق أو القيمة أو النظام في الكون، هذه الفلسفة العلمانية المتزايدة في الغرب دفعت نيتشه إلى إدراك أن الإله لم يمت فقط، بل إن البشر هم من قتلوه بثورتهم العلمية ورغبتهم في فهم العالم بشكل أفضل.

¹ - كامو ألبر، الإنسان المتمدن، ترجمة: نهاد رضا، الطبعة الثالثة، منشورات عويدات، بيروت، 1983، ص 89.

² - Joan Stambaugh, *The Other Nietzsche*, First Edition, State University of New York Press, Albany, 1994, P3.

³ - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre premier, Op. cit, §125, pp188-189.

* - تعتبر حركة فلسفية نقطة انطلاقها موضع جدل بين المؤرخين، ففي كتاب "أزمة الضمير الأوروبي" (1935) يعيد بول هازار جذور التنوير إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر، بينما يرى كريستوفر هل في كتابه "الأصول الثقافية للثورة الإنجليزية" (1965) أن أفكار التنوير كانت منتشرة في إنجلترا خلال القرن السادس عشر، ومن هنا تتضح العلاقة بين عصر النهضة وعصر التنوير، ومع ذلك فإن الرأي السائد هو أن القرن الثامن عشر هو عصر التنوير، الذي أطلق عليه لقب "الفلاسفة"، وقد عبّر إيمانويل كانط عن جوهر التنوير في مقال نشره عام 1784 بعنوان "جواب عن سؤال: ما الأنوار؟"، حيث قال: "كن جريئاً في إعمال عقلك"، وهو ما يُعتبر شعار التنوير. (أنظر: مراد وهبة، *المعجم الفلسفي*، الطبعة الخامسة، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007، ص 219-220).

يلاحظ نيتشه أن الرؤية العلمية الجديدة للعالم أثرت بشكل عميق على الفكر الديني وزعزعت مفهوم الإله في وعى البشر، ما واجهه في عصره كان بمثابة "جثة الإله" التي ترقد على هامش طريق الضياع، مما يعكس واقع القرن التاسع عشر، "فهذا القرن هو الذي كشف عن جثته"¹، وقد ظل هذا الحدث لفترة طويلة غامضا وسريا في عقول العلماء والمفكرين، وكان من الضروري أن يحدث تغيير جذري في الأفكار والقيم قبل أن يصل خبر هذا الحدث إلى وعى الجمهور وقراء الصحف.²

عبارة "موت الإله" هي ظاهرة رصدها نيتشه في القرن التاسع عشر، حيث شهدت مكانة الإله تراجعاً ملحوظاً نتيجة للتقدم العلمي والصناعي والثورات السياسية، بدأ الإيمان بالإله يتلاشى تدريجياً، مما يجعل هذا الحدث محورياً في تلك الفترة، لذا يتعين على الفلاسفة تقديم تفسيرات له، ويمكن فهمه على أنه "زوال مفهوم الآخرة من الثقافة الغربية"³، حيث فقدت الحياة الإنسانية الأمان الإلهي الذي كانت تعتمد عليه في السابق.

لا شك أن مناقشة كائن متعال تمثل نقطة التقاء بين اللاهوت والفلسفة والأخلاق، هذه الفروق الجوهرية التي تتجلى في التباين بين العالم الحسي والعالم المعقول تميز الثقافة الغربية، لذا يعبر كل فرد عن هذه الفكرة بلغته الخاصة، حيث يتحدث رجل الدين عن المقدس والمهندس، بينما يتناول الفيلسوف المحسوس والمثل، والظاهرة والشيء في ذاته، من جهة أخرى، يستعرض عالم النفس والأخلاق العلاقة بين الروح والجسد، في حين يعارض العالم الواقع المتغير بالقوانين الرياضية.

تجمع هذه الرؤى المتنوعة، المستمدة من آفاق مختلفة، إرادة واحدة مشتركة تتمثل في نظرة سلبية تجاه الحياة، بالنسبة لهذه الرؤى، لا يُعتبر هذا العالم ذا قيمة، وكل ما يُرى فيه هو مجرد وهم، تتغلغل هذه النظرة المفارقة في عمق الثقافة الغربية، وقد شكلت أساساً للعديد من المعتقدات التي لا تقبل النقاش، وهكذا كان المجتمع الغربي يُعاني من وطأة العوالم الماورائية والقيم والمؤسسات المرتبطة بالعالم الآخر.

¹ - Boudot Pierre, **Nietzsche et l'au-delà de la liberté**: Nietzsche et les écrivains français de 1930 à 1960, Première édition, Aubier-Montaigne, Paris, 1970, p150.

² - Spénlé Jean-Edouard, **Nietzsche: et le problème européen**, sans édition, Librairie Armand Colin, Paris, 1943, p153.

³ - بيار هير سوفرين، زرادشت نيتشه، ترجمة: أسامة الحاج، الطبعة الثانية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2002، ص49.

يمكن تلخيص الثقافة الغربية بأنها تتسم بالحذر الشديد تجاه كل ما يُعرض بشكل مباشر، وذلك بهدف الوصول إلى استنتاجات حول الكائن الذي يُعتبر الشرط الأساسي لعالم الظواهر، لذلك إذا أراد الإنسان أن يصبح عالماً أو فيلسوفاً أو مثقفاً بشكل عام، ينبغي عليه أن يتعلم كيفية التعامل بحذر مع المعطيات، وأن يدرك أن هناك شيئاً أكثر أهمية يكمن وراء كل ذلك، يسعى كل شخص، سواء كان لاهوتياً أو فيلسوفاً أو عالماً، في مجاله الخاص، إلى فهم هذا الجانب الأعمق بشكل أفضل.

يمكننا أن نلاحظ أن الفكر الغربي تأثر بشكل عميق بأفلاطون* (347-427 ق.م) Plato تُعتبر هذه الثقافة عنصراً أساسياً في التاريخ، حيث وضعت نظاماً للمراتب ودرجات الوجود، الذي يستند إلى الاعتقاد بوجود عالم آخر مواز لهذا العالم، يُعرف بعالم الحقائق في مقابل عالم الظواهر، وتترتب على هذه التفرقة بين ظواهر الأشياء وحقائقها العديد من التدايعات، فالتاريخ الفلسفي بشكل عام يسير وفق الخط التراتبي الذي وضعه أفلاطون، ويستمد من ثنائياته المتضادة التي تؤسس لفارق الوجود.

لقد هب أفلاطون الأرضية لقيام الديانة المسيحية، التي قدمت لنا عالماً مزيفاً قائماً على الركام الأفلاطوني الثنائي المتناقض، فلا يوجد أي تناقض بين مفهوم عالم المثل والإله المسيحي، ومن هنا يشير نيتشه إلى أنه كان أول من رأى التباين الفعلي للفرصة المنحطة، التي تتجه نحو الحياة برغبة خفية في الانتقام، إذ تمثل المسيحية، بالإضافة إلى فلسفة أفلاطون، تجسيدا للمثالية بشكل عام¹.

مفهوم الإله لدى نيتشه لا يعبر عن موت إله حقيقي أو حتى عن إلحاد، بل إن هذه العبارة تستهدف في الواقع أفلاطون، الذي قدم فكرة العالم المثالي الميتافيزيقي أو ما فوق الحسي، فالإله يمثل مجال الأفكار، وهو أيضاً يشير إلى موقع الفلاسفة المثاليين، حيث يعكس "غياب هيمنة العالم المعقول على الإنسان"².

* - تُعرض فلسفة أفلاطون من خلال حوارات تتناول نظرية المعرفة ونظرية الوجود، حيث يبين عليها أفكاره حول الأخلاق والسياسة، يبدأ بفحص الإدراك الحسي، ويلاحظ أن موضوعه هو العالم المتغير، الذي يُعتبر عالم الظن، وبالتالي لا يمكن اعتباره معرفة حقيقية، ثم ينتقل إلى الإدراك العقلي، حيث يكشف أن موضوعه هو العالم المعقول، أو عالم المثل، أو الماهيات الثابتة، وهذه تُعتبر المعرفة النظرية التي تتجلى في الرياضيات والفلسفة، يُعتبر الخير في قمة المثل كما في "الجمهورية"، وأحياناً يتساوى مع الحق والجمال كما في "فيلسوف" و"فدروس" و"المأدبة"، يلي المثل الثلاثة: العفة، والشجاعة، والعدالة، والتقوى، بناء على ذلك، يؤسس أفلاطون لنموذج الحكومة المثلى الجمهورية، حيث يكون الحكام من الفلاسفة، لأنهم يدركون مثال الخير. (أنظر: مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 77).

¹ - Nietzsche Friedrich, *Ecce Homo*, Op. cit, The Birth of Tragedy, §2, PP70-71.

² - فوزية ضيف الله، كلمات نيتشه الأساسية ضمن القراءة الهيدغرية، الطبعة الأولى، منشورات ضفاف، بيروت، 2015، ص 264.

يظهر إيمانويل كانط* (Immanuel Kant 1804-1724) في هذا السياق التاريخي كأحد أبرز المطورين لفكرة الثنائية، ويعتبر حلقة من حلقات تواصل المفارقة الأفلاطونية، في نظر نيتشه يُعتبر كانط "أفلاطون ألماني"¹، حيث أسس مفهوم "الشيء في ذاته" ^{**} The thing in itself وجعله بعيداً عن أي نقد، غير خاضع لشروط الإمكان ولا يقبل البرهنة، ومع ذلك يُعتبر هذا المفهوم أساس الوجود، مما يؤدي إلى تقسيم الواقع إلى عالمين مختلفين: عالم الظواهر الحسية الذي يخضع لمفاهيم تنظيمية قبلية، وعالم الشيء في ذاته الذي لا يخضع لقوانين العالم الأول ولا لتصورات، مما يجعله مجهولاً وصعب المعرفة، وبالتالي يمكن القول إن الأفلاطونية تمثل "تهيئة لا تقدر للمثالية الكانطية"².

إن موت الإله يُعتبر في الحقيقة ظاهرة ثقافية، حيث لم يعد هناك من يؤمن في الحضارة الغربية بوجود إله أو بعالم مفارق بأي شكل من الأشكال، هذا الواقع يترتب عليه عواقب خطيرة تتمثل في تدمير الثقافة التي كانت تعتمد بشكل كامل على فكرة الإله، وكذلك القيم الأخلاقية التي كانت تستمد منها، "إنها نهاية الميتافيزيقا، ونحن نشهد على ذلك"³.

* - فيلسوف وعالم ألماني بارز في مجالات متعددة مثل الفيزياء الفلكية، الرياضيات، الجغرافيا، وعلم الإنسان، وُلد في بروسيا، يُعتبر عموماً واحداً من أكثر المفكرين تأثيراً في المجتمع الغربي والأوروبي الحديث، وهو الفيلسوف الرئيسي الأخير لعصر التنوير، عزف كانط التنوير في مقالته الشهيرة "ما هو التنوير؟" بأنه عصر يتشكل تحت شعار "الجرأة من أجل المعرفة"، مما أدى إلى نشوء نمط من التفكير الداخلي المستقل عن قواعد السلطة الخارجية. (أنظر: مصطفى حسينة، المعجم الفلسفي، الطبعة الأولى، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص 108).

¹- Reboul Olivier, *Nietzsche, critique de Kant*, Collection Sup: Le Philosophe, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1974, p10.

^{**} - عند كانط هو الشيء الذي نسلم بوجوده مستقلاً عن معرفتنا له، حتى وإن كانت هذه المعرفة غير ممكنة، يُميز كانط بين ما هو في ذاته، الذي يسميه (النومن) وما ليس في ذاته، أي الظاهرة (الفينومن)، وبالتالي فإن الشيء في ذاته يمثل الحقيقة المطلقة التي تظل مستقلة وبعيدة عن المعرفة الإنسانية، التي تعتمد على الإحساس والعقل. (أنظر: سعيد جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، الطبعة الأولى، تونس: دار الجنوب للنشر، 1994، ص 348).

² - نيتشه فريدريك، مقدمة لقراءة محاورات أفلاطون، ترجمة: محمد الجوة وأحمد الجوة، الطبعة الأولى، دار البيروني للنشر والتوزيع، صفاقس، 1993، ص 7.

³ - فنك أويغن، فلسفة نيتشه، ترجمة: إلياس بديوي، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974، ص 179.

أوروبا إذن قد تخلصت من عزلتها بعد انتهاء عصر الإله المؤسساتي ولم تعد بحاجة إليه، لأنها اكتشفت مصدرا جديدا للأخلاق، لقد أضافت الفلسفة والعلوم عمقا جديدا لقيمتها، حتى أنها لم تعد تحتاج إلى الإله كمصدر إلهام لطبيعتها، لقد مات الإله بكل ما تحمله كلمة الموت من دلالات مأساوية، ولم تعد أوروبا بحاجة إلى أي قوة تهيمن على العالم، مهما كان اسمها كمرجعية للقيم أو النظام الكوني.

لقد شهد الغرب تحولا جذريا في كل ما اعتاد عليه، من حياة عاشها الإله بكل غرور وتسلط وهو يدوس فوقهم، لم تعد ألامه المسيحية تجدي نفعاً، فرغم أن الكثيرين لا يزالون يؤمنون بها، إلا أنها أصبحت محصورة في بعض الفلسفات والمذاهب، لذلك يعتقد البعض أنهم بعيدون عن جثته التي تنبعث منها رائحة الميتافيزيقا والثنائيات المتضادة، لكن الحقيقة أن كل شيء قد تغير، والعالم اليوم يعلن عن قرب نهايته.

يمكن القول إن الحضارة الغربية قتلت الإله، ومعه زال المفارق بعلومها ومنطقها، ساد عالم الأحاسيس على عالم الخيال، حيث تم رفض القوانين الإلهية وأخلاقها، انتهى عصر الآلهة ودياناتهم، وسقطت السلطة الدينية التي كانت تنظم حياة البشر، لم يعد بإمكان الحكام الاعتماد على الإله لدعم مؤسساتهم، ولم تعد هناك قوى خارقة تتحكم في مجريات العالم أو تمنح الحياة معناها، مما جعل كل فرد يواجه عبث وجوده بمفرده.

ثانيا: كيف قتل العلم الإله؟

لم يقتصر نيتشه على وصف حدث موت الإله، بل طرح سؤالا حول القاتل الحقيقي! فالمسؤول عن قتل الإله هو الإنسان، ولكن من هو هذا الإنسان وكيف فعل ذلك؟ بدأ العلم الحديث في تفسير العالم بطرق لم تعد بحاجة إلى مفهوم الألوهية لتفسير ظواهره، مما جعل فكرة الله تبدو غير ضرورية.

سيشهد العالم تحولا جذريا نحو تفسير علمي للوجود، حيث ستظهر إبستمولوجيا* Epistemology جديدة تركز على دراسة أسباب الظواهر، مع الاعتقاد بأن هذه الأسباب تكمن في العالم المادي وليس في عوالم أخرى، وبالمثل ستحلل جميع الظواهر الطبيعية لتظهر أن الأسباب الموضوعية التي تؤثر في تطورها موجودة داخلها

* - دراسة مبادئ العلوم وفرضياتها ومنهجها ونتائجها دراسة نقدية ترمي إلى إبراز بنيتها ومنطقها وقيمتها الموضوعية. (أنظر: لالاند أندري، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بيروت: منشورات عويدات، 2001، ص356). من أبرز المفاهيم التي نتجت عن الإبستمولوجيا هي مفهوم القطيعة الإبستمولوجية ومفهوم العائق الإبستمولوجي. (أنظر: سعيد جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، مرجع سابق، ص13).

ولا تتعلق بقوى خارقة، في هذا السياق سيواجه مفهوم الإله تحديا كبيرا، كونه تصورا معرفيا يتضمن تفسيرات مقدسة، ومع تقدم النظريات العلمية الحديثة ونجاحها المتواصل من خلال المنهج العلمي التجريبي، ستتراجع مكانة الإله في المجال العلمي حتى يتم استبعاده تماما.

01- الفيزياء الحديثة أخرجت الإله من التفسير الكوني

يمكننا تقريبا تحديد هذه التصورات بالعصر الذي تخلى فيه العلماء عن سؤالهم التقليدي الذي طالما واجهوا به الطبيعة دون جدوى، وهو سؤال "لماذا؟"، الذي كان يتعلق بجوهر الأشياء وماهياتها، بدلا من ذلك بدأوا في طرح سؤال أكثر واقعية يتعلق بكيفية حدوث الظواهر وتفسيرها من خلال أسباب قريبة يمكن ملاحظتها.

بدأ إسحاق نيوتن* (1642-1727) Isaac Newton في تطوير نظرية شاملة حول ميكانيكا الكون، حيث طرح تساؤلات حول القوة التي تؤدي إلى سقوط الأجسام، وفي نهاية المطاف توصل إلى صياغة قانون الجاذبية، معتبرا إياها قوة كونية تؤثر على حركة الأجرام السماوية، وقد أدى ذلك إلى ظهور مفهوم جديد للعلية، حيث أصبحت تُفهم كعلاقة حتمية، قدم نيوتن تصورا آليا لميكانيكا الكون، مما ساهم في الاعتقاد بأننا قادرون على فهم الكون دون الحاجة إلى افتراض وجود علة خارجية، فقد أصبحت القوانين الطبيعية وحدها كافية للتحكم في حركة المادة والأحداث، وفي كتابه "البصريات"، أشار نيوتن إلى أنه يجب علينا أولا فهم "الخصائص التي تتحكم في الجاذبية قبل أن نبحث عن العلة التي تسببها"¹.

* - عالم طبيعة إنجليزي، يُعتبر مؤسس الميكانيكا التقليدية، حيث وضع قانون الجاذبية الكونية الذي ينص: على أن قوتي التجاذب بين جسمين ماديين تتناسب طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسيا مع مربع المسافة بين مركزيهما، كان له تأثير كبير على تطور المادية الآلية، في عام 1669، تولى منصب أستاذ في جامعة كامبردج، وفي عام 1703، أصبح رئيسا للجمعية الملكية، يتضمن مؤلف نيوتن الرئيسي "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" (1687) ثلاثة قوانين للحركة: قانون القصور الذاتي، قانون تناسب القوة والسرعة، وقانون تساوي الفعل ورد الفعل، وقد استنبطت من هذه القوانين نتائج عديدة تشكل أساس الميكانيكا التقليدية. (أنظر: روزنتال ويودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، مراجعة: صادق جلال العظم وجورج طرايشي، الطبعة التاسعة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2011، ص554).

¹ - نيوتن إسحاق، رسالة في البصريات، نقلا عن: عبد السلام بنعبد العالي ومُجد سبيلا، دفاتر فلسفية، نصوص مختارة: المعرفة العلمية 3، الطبعة الثالثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1996، ص67.

كما أنه شارك فلاسفة عصره في توضيح العلاقة السببية بين الظواهر وأسباب حدوثها، وقد عبّر عن ذلك في بداية القسم الثالث من كتابه "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" *The Mathematical Principles of Natural Philosophy* من خلال وضع قواعد منطقية تساعد العلماء في استنتاج قضايا وقوانين عامة، والتي أطلق عليها مبادئ الفلسفة التجريبية، وقد صاغ هذه القواعد كما يلي: القاعدة الأولى تنص على عدم قبول أي تفسير للظواهر ما لم يكن له سبب ضروري، أما القاعدة الثانية، تشير إلى أنه إذا وُجدت عدة ظواهر طبيعية متشابهة قيد البحث، فيجب أن يكون لها سبب واحد¹، وأخيرا القاعدة الثالثة تتطلب أن يتم إثبات صحة القضايا الفيزيائية من خلال التجربة، وعدم المجازفة بأي فرضية ما لم يتم تأييدها بالتجربة مسبقا².

لقد شهدت نظرة الإنسان تحولا كبيرا، مما أدى إلى تغيير فهمه للكون، فلم يعد الكون، كما وصفه نيوتن، مجرد تفسير يعتمد على مصدر خارجي للوجود، بل أصبح التفسير النيوتوني واستخدام الميكانيكا أداة فعالة في مجالات العلوم الطبيعية، يسعى العلماء الآن إلى فهم الظواهر الطبيعية من خلال التجارب والملاحظات الموضوعية، وتفسيرها وفقا للقوانين التي تم التوصل إليها من خلال صياغة العلاقات بشكل رياضي.

بدأ الكون يظهر كآلة هائلة تعمل بنظام دقيق، حيث تفتقر المادة إلى أي غموض وتعتبر الوحدات الأساسية للواقع، وقد أوضح بيير لابلاس* (1827-1749) Pierre Laplace هذا المفهوم بشكل أفضل عندما اعتبر أنه ينبغي علينا تصور الحالة الراهنة للعالم كنتيجة لحالته السابقة، وأيضا كسبب للحالة التي سيتجه نحوها في المستقبل³.

¹ - Newton Isaac, *Principes mathématiques de la philosophie naturelle*, Trad: Émilie du Châtelet, Tome1, sans édition, M. D.CCLIX, Paris, 1966, pp2-3.

² - سالم يفوت، مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر: مظاهر النزعة الاختبارية لدى الوضعيين الجدد، الطبعة الأولى، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ت، ص66.

* - رياضي وفلكي فرنسي، يُستحقّ الثناء على إسهاماته في تطوّر الرياضيات الفلكية، قام بتلخيص وتوسيع أعمال العلماء السابقين في هذا المجال من خلال مؤلفه المكون من خمسة مجلدات بعنوان "ميكانيكا الأجرام السماوية" (1799-1825)، هذا العمل الأساسي أحدث تحولا في دراسة الهندسة، حيث انتقل بها من الأسلوب التقليدي إلى منهج يعتمد على التفاضل والتكامل، مما أتاح فرصا جديدة للتحدي والاكتشاف.

³ - Laplace Pierre, *Essai philosophique sur les probabilités*, Sixième édition, Bachelier, paris, 1840, p3.

فلو كان هناك عقل قادر على استيعاب جميع القوى التي تحكم الطبيعة ومواقع الكائنات في لحظة معينة، وامتلك القدرة على تحليل هذه المعلومات، لتمكن من التعبير عن حركة الأجرام السماوية الضخمة وحركة الذرات الأخف وزنا بصيغة موحدة، سيكون علمه دقيقا وثابتا، مما يتيح له رؤية الماضي والمستقبل بوضوح كما يرى الحاضر.

تناول لابلاس مفهوم الحتمية* **Determinism** على مستويين: الأنطولوجي **Ontological** والإبستمولوجي، من الناحية الأنطولوجية، تعتمد الحتمية على وجود حالات محددة بدقة وضرورة الانتقال بينها، بالإضافة إلى وجود أسباب تفرض هذا الانتقال بشكل قاطع، أما من الناحية الإبستمولوجية، فهي تتعلق بتحديد تلك الحالات، وكيفية الانتقال بينها، وكشف الأسباب التي تؤدي إلى هذا الانتقال¹.

مع تقدم العلم أصبح بإمكان الإنسان فهم ظواهر العالم وأسبابها بشكل أفضل، اعتقد بعض المفكرين مثل لابلاس أن الحاجة إلى وجود إله تتلاشى مع توفر التفسيرات العلمية الواقعية، فهو يرى أن النظام السماوي يمكن تفسيره من خلال الميكانيكا فقط، دون الحاجة إلى تدخل إلهي²، إذا توفرت الظروف والمعرفة الكافية، يمكننا حساب بدقة ما سيحدث في المستقبل بعد فترة زمنية معينة، وبالتالي لا يحتاج لابلاس إلى مفهوم "إله الفجوات"^{**} **God of the gaps** الذي يؤمن به البعض كسبب لكل شيء ومعرفة كل شيء، من خلال العلم نحن قادرون على تفسير وتحليل واكتساب معرفة شاملة.

* - تشير الحتمية بشكل عام إلى أن كل حدث، مهما كان، يُعتبر حالة جزئية من حالات تخضع لأحد قوانين الطبيعة، وغالبا ما تُعبّر عن ذلك بالقول: لكل حدث سبب، أو أن الطبيعة تسير وفق نظام ثابت، ومن الصيغ المعروفة التي وضعها لابلاس، أنه إذا كانت لدينا معرفة دقيقة بحالة الكون في لحظة معينة، فإنه من الممكن من حيث المبدأ التنبؤ بكل ما سيحدث بعد تلك اللحظة في تاريخ الكون. (أنظر: جوناثان رى - وج.أو. أرمسون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل وآخرون، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013، ص135).

¹ - رابح عيسو، الحتمية بين الفيزياء النيوتونية والفيزياء الكوانتية، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد9، العدد3، جامعة وهران2 محمد بن أحمد، الجزائر، جوان 2020، ص280.

² - دومينيك لوكور، فيم تفيد الفلسفة إذن؟ من علوم الطبيعة إلى العلوم السياسية، ترجمة: محمد هشام، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011، ص ص 82-83.

^{**} - أو ما يُعرف بإله الفراغات، وهي ظاهرة تتعلق بالاستعانة بالله لتفسير الأمور التي لم يتمكن العلم من توضيحها، هذه الظواهر تمثل الفجوات التي لم يستطع العلماء سدها حتى الآن، ويستغلها البعض كدليل على وجود الله كالتفسير الوحيد لهذه الفجوات التي عجز العلم عن فهمها، (لم يكن نيوتن نفسه متأكدا من ذلك، حيث ترك الباب مفتوحا لاحتمالية وجود العناية الإلهية لضمان استقرار النظام الفلكي بسبب مشكلة الاضطرابات الكونية، لكن جاء لابلاس ليغلق هذا الباب).

02- نظرية التطور: غياب التصميم البيولوجي

أحدثت نظرية التطور* Theory of evolution التي وضعها العالم تشارلز داروين** (1809-1882) Charles Darwin ثورة معرفية كبيرة في سبيل فهمنا لأنفسنا ومكانتنا في هذا العالم، لقد كانت لهذه النظرية تأثيرات فلسفية مثيرة للجدل، حيث تتعارض من جهة مع النظرة الدينية التي تؤمن بالخلق المباشر والمستقل، ومن جهة أخرى تهمز غرورنا البشري الذي يجعلنا نعتقد أننا كائنات فريدة ومنفصلة عن باقي الكائنات الحية، ساهمت هذه النظرية في تغيير جذري في رؤيتنا للحياة، إذ أزال مفهوم التصميم Design وجعلتنا نتأمل جميع أشكال الحياة العضوية من منظور التطور، وقد بدأ هذا التحول عندما نشر داروين كتابه "حول أصل الأنواع" On the Origin of Species عام 1859.

قبل ظهور داروين كان هناك اعتقاد سائد يفسر وجود الكائنات الحية على سطح الأرض بشكلها ونوعها المحدد دون أي تغير أو تطور، كان يُعتقد أن هذا يعود إلى تدخل قوى غامضة تمتلك قدرات خارقة، حيث تم تشكيل وخلق أجساد هذه الكائنات، كل منها بشكلها واسمها، ثم أعطيت الحياة، ومنذ ذلك الحين وحتى الآن، لم تتطور أو تتغير هذه الكائنات العضوية، إذ ظلت بنفس التركيبة والتشكيلة والحجم منذ بدايتها وحتى اليوم.

* - تعتبر نظرية التطور في الكائنات الحية، كما صاغها تشارلز داروين، تلخيصاً لنتائج قرون من الممارسات الانتقائية، بالإضافة إلى إنجازات علم الأحياء (البيولوجيا) وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وعلم أشكال النبات، فضلاً عن ملاحظاته الشخصية التي جمعها خلال رحلاته حول العالم، وفقاً لداروين، فإن العوامل الأساسية في تطور الكائنات الحية تشمل التحول والوراثة، إلى جانب الانتقاء، سواء كان صناعاً في الظروف المحلية أو طبيعياً في البيئة، ويشير إلى أن الكائنات الأكثر ملاءمة هي التي تبقى وتتزوج في صراعها من أجل البقاء، تحت تأثير العوامل البيئية، كما أن الانتقاء الطبيعي يعمل على تحسين بنية ووظائف الكائنات الحية بشكل مستمر، مما يعزز قدرتها على التكيف مع محيطها، قدمت نظرية التطور أول تفسير علمي لتنوع الأنواع البيولوجية ونموها، وأصبحت حجر الزاوية لعلم الأحياء الحديث، وقد أثبتت هذه النظرية فشل الطريقة الميتافيزيقية في التفكير، ووجهت ضربة للآراء المثالية حول الطبيعة الحية، لتصبح الأساس العلمي الطبيعي للنظرة المادية الجدلية للعالم، ومن بين أبرز مؤيدي ومطوري نظرية التطور كان توماس هكسلي Thomas Huxley (أنظر: روزنتال ويودين، الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، ص 536).

** - عالم طبيعة إنجليزي درس في جامعة كامبريدج وأسس نظرية التطور التاريخي للكائنات الحية، قام بتوسيع المعرفة البيولوجية واهتمامات الزراعة في عصره، وزودها بمعلومات غزيرة حصل عليها من رحلته حول العالم بين عامي 1831 و 1836، والتي استخلص منها أفكاره حول تطور الحياة، في كتابه "أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأجناس المختلفة في صراع الحياة" الذي صدر عام 1859، وضع الأسس الرئيسية لنظرية التطور، كانت أعماله لها تأثير كبير في ظهور البيولوجيا العلمية ومكافحة المثالية واللاهوت والميتافيزيقا، وساهمت في تأسيس العلم الطبيعي على أسس المادية الجدلية. (أنظر: نفس المرجع، ص 192).

ما يعزز هذه الفكرة هو حجة صانع الساعة * Watchmaker analogy ، التي طرحها العالم اللاهوتي وليام بيلي ** (1805-1743) William Paley في كتابه الشهير "اللاهوت الطبيعي" Natural theology عام 1802، تُعتبر حجة التصميم بمثابة أساس للاستدلالات المسموح بها، حيث تقودنا هذه الاستدلالات من وجود النظام الواضح في العالم الطبيعي إلى استنتاج وجود تصميم، ومن ثم إلى وجود خالق حكيم، يشير بيلي إلى أن الساعة تعكس تصميمًا رائعًا، لكن العالم العضوي يقدم أمثلة على تصميم أكثر إثارة للإعجاب، حيث يتجلى فيه الكثير من الجمال والنظام، مما يجعل من الصعب إنكار وجود مصمم ذكي قد خلق هذا العالم¹.

يبدو أن كل نوع من الكائنات الحية يمتلك هدفًا محددًا، وأن الأحداث في الكون تحدث كما لو كانت تخضع لأهداف بشرية، تشير حجج التصميم إلى رغبة البشر في فهم نية الخالق من خلال دراسة الطبيعة، يبدو أن العالم العضوي يوفر بيئة أكثر أمانًا لاستنتاجات حول وجود مصمم، حيث كان علم اللاهوت الطبيعي يسعى لإثبات "النية النهائية للخالق فيما يتعلق بكل بنية"²، وبالتالي تم اكتشاف وجود مركزية بشرية تشبه مركزية الأرض، حيث كانت الظواهر تشير إلى أن الأرض تحتل مكانة مركزية في الكون، ومع ذلك دحضت مركزية الشمس هذا الاعتقاد، والآن يؤكد اللاهوت الطبيعي وجود مركزية للوجود البشري في العالم الحي.

واجهت هذه النظرة إلى العضويات مشكلة تتمثل في عدم قدرتها على تفسير التشابه الكبير في التركيبات الداخلية والشكلية بين الحيوانات البحرية والبرية، كما أنها لم تقدم تفسيرات حول أسباب الاختلاف في الأحجام والألوان، ولم توضح لنا سبب وجود حيوانات بلا أرجل أو عيون، بالإضافة إلى ذلك، لم تفسر أسباب انقراض بعض الحيوانات واستمرار أخرى، ولم توضح سبب ظهور حيوانات وطيور جديدة لم نكن نعرفها من قبل.

* - حجة غائية تشير إلى أن دقة الصنع تعكس حكمة الصانع، تستند هذه الحجة إلى الفارق بين اكتشاف شيء معقد ومنظم له هدف، مثل الساعة الدقيقة، وشيء بسيط وغير منظم، مثل الحجر في موضعه، لقد كانت هذه الحجة ذات أهمية كبيرة في اللاهوت الطبيعي وحجة التصميم الذكي، حيث تُستخدم لإثبات وجود الخالق.

** - كان تيريرا مسيحيًا إنجليزيًا وفيلسوفًا يؤمن بمذهب النفعية، يُعرف بتقديمه حجة لوجود خالق للكون من خلال مفهوم العلة الغائية، وذلك في عمله "العلّة الغائية الطبيعية"، وقد استخدم هذا العمل في المثال الشهير لحجة النظام في الوجود، أو ما يُعرف بحجة صانع الساعة، والتي قام دعاء التصميم الذكي بتطويرها لاحقًا إلى مفهوم التعقيد غير القابل للاختزال.

¹ - نقلا عن: فريدل فاينرت، كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخ وفلسفة العلم، ترجمة: أحمد شكل، الطبعة الأولى، مؤسسة هنداي، القاهرة، 2019، ص150.

² - Loren C. Eiseley, **Darwin's Century: Evolution and the Men who Discovered it**, 2nd Edition, Victor Gollancz, London, 1959, P178.

أظهرت نظرية التطور أنه لا يوجد تصميم واضح في الطبيعة، بل إن ما يبدو كتصميم هو مجرد وهم، وإذا كان من الممكن تشبيهه بصانع الساعات في الطبيعة، فهو "صانع ساعات أعمى"¹، فالمصمم الجيد يحدد هدفاً معيناً ويعمل على تحقيقه، لكن ما نراه في الطبيعة يختلف عن ذلك، نجد في الحيوانات سمات لا تبدو لها فائدة واضحة، وهي في الواقع بقايا لخصائص كانت موجودة في أسلافها، لذا لا يمكن اعتبار هذه السمات نتائج تصميم واضح، بل هي نتيجة لعملية الانتقاء الطبيعي * Natural selection التي تعتمد على السمات الموجودة مسبقاً.

كما نلاحظ أن التغيرات التي تحدث في العالم بشكل مستمر ترفض الصفات السلبية وتحتفظ بالإيجابية، بل وتضيف إليها أيضاً، تحدث هذه التغيرات بصمت ودون أن نلاحظ، حتى تمر فترات زمنية طويلة وعصور بعيدة².

لنفترض أن هناك شخصاً استطاع أن يثبت أن الساعة لم تُصنع بواسطة أحد بشكل مباشر، بل كانت نتيجة تعديل لساعة أخرى كانت تعرض الوقت بشكل غير دقيق، وكانت هذه الساعة ناتجة عن تصميم بدائي لا يمكن اعتباره ساعة، حيث لم تحتوي على أرقام على واجهتها وكانت عقاربها بسيطة، وعندما نعود بالزمن إلى الوراء، نصل في النهاية إلى أسطوانة دوارة تُعتبر أقدم مادة بدائية يمكن تتبعها لهذه البنية بأكملها.

عند التعمق في الموضوع، يتضح أن جميع هذه التغيرات نشأت أولاً من رغبة البنية في التغيير المستمر، وثانياً من وجود عوامل بيئية ساهمت في توجيه هذه التغيرات نحو تعبير دقيق عن الزمن، وهذا ما أدى إلى استبعاد التغيرات في الاتجاهات الأخرى، مما يشير إلى تراجع قوة حجة بيلى³.

¹- Dawkins Richard, **The Blind Watchmaker: Why the Evidence of Evolution Reveals a Universe Without Design**, Second Edition, W. W. Norton & Company, New York, 1996, P5.

* - وفقاً لداروين، فإن التنافس الحيوي يعمل كآلية تؤدي إلى بقاء الأقوى والأصلح والأكثر قدرة على التكيف، حيث أشار إلى أنه "عندما يتناول التنافس التغيرات العرضية الصغيرة التي تطرأ على أفراد النوع، فإنه يؤدي إلى استبعاد التغيرات الضارة وتعزيز التغيرات المفيدة التي تسهم في بقاء النوع"، وهذا يعني أن الأفراد الذين يمتلكون تغيرات مفيدة تساعد على التكيف مع بيئتهم يكونون أكثر قدرة على البقاء مقارنة بأولئك الذين لا يمتلكون هذه التغيرات، وبالتالي يسهم الانتقاء الطبيعي في بقاء الأنواع القوية وزوال الأنواع الضعيفة التي لم تتمكن من التكيف مع تحديات الحياة. (أنظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي: باللفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1982، ص148).

²- داروين تشارلز، أصل الأنواع: نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي، ترجمة: مجدى محمود المليجي، تقديم: سمير حنا صادق، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص135.

³- Huxley, Thomas Henry, **Criticisms of "The Origin of Species"**, Darwiniana, Vol. II, in Collected Essays, 2nd Edition, Macmillan, London, 1894, pp80-106.

اقترح داروين آلية تفسر الوظائف بشكل سبي، حيث يوضح كيفية تشكيل الأعضاء لأداء مهامها، فقد تكيفت الكائنات الحية مع ظروف مناخية معينة على كوكب الأرض، مما يعني أنه في حال تغيرت هذه الظروف البيئية، ستتأثر جميع مكونات الحياة على الأرض، بناء على ذلك اعتمد داروين على مفهوم الانتقاء الطبيعي كبديل لفكرة التصميم الذكي، حيث اعتبر أن هذا المفهوم يفسر الظواهر المعقدة للحياة التي لا يمكن فهمها من خلال وجود مصمم ذكي، فرغم أن هذه الظواهر قد تبدو وكأنها نتيجة تصميم مدروس، إلا أنها ليست نتاجا لتخطيط مسبق.

تستند نظرية التطور إلى مبدئين أساسيين هما التطور والانتقاء الطبيعي، ولا يمكن فهمها بشكل كامل دون مراعاة هذين المبدئين معا، وهذا يعني أن جميع أشكال الحياة على كوكب الأرض مترابطة ومتصلة ببعضها البعض، يعود تنوع الحياة إلى التعديلات التي تحدث نتيجة الانتقاء الطبيعي، حيث تُفضل بعض الصفات على غيرها وفقا لظروف البيئة المحيطة، يمكن تلخيص النظرية ببساطة بأنها عملية توريث مع تعديل، وغالبا ما تُعبر عنها بعبارة "البقاء للأصلح"، التي لا تشير إلى قوة الكائن الحي أو قدراته الجسدية، بل إلى قدرته على البقاء والتكاثر.

03- العقد الاجتماعي فعل إرادي للأفراد في مواجهة الحق الإلهي

في ميدان السياسة، دعا الفلاسفة إلى إنشاء أنظمة حكم تستند إلى العقل والطبيعة البشرية، دون الاعتماد على أي مصادر خارجية، فلا يوجد حق إلهي مقدس للملوك، كما أن أوامر الكنيسة وتعاليمها لا تملك الحق في التدخل في تحديد نظام الحكم أو السيطرة عليه، يجب أن يتمتع كل من السلطة السياسية والدينية باستقلالية في مجالهما الخاص، مع ضرورة الفصل بينهما، العقل هو المشرع الوحيد القادر على وضع قوانينه بنفسه، ولا يحق لأي سلطة أخرى فرض أي قانون عليه.

تنطلق فكرة العقد الاجتماعي * The Social Contract من فرضية أن تشكيل المجتمع لم يكن نتيجة طبيعية، بل كان نتيجة لاتفاق مصطنع بين مجموعة من الأفراد، وبناء على ذلك تُعتبر الدولة ظاهرة إرادية ناتجة عن

* - نظريات تحاول أن تفسر واجب الولاء تجاه القوانين والسلطة المدنية، وذلك بالرجوع إلى عقد أو وعد بالطاعة يقدمه الفرد في مقابل المنافع التي يكسبها من المجتمع المدني، الذي يقوم على أساس هذا التعاقد، ولها صيغ كثيرة منها ما قال به روادها هوبز في كتابه "اللفيائن"، ولوك في كتابه "رسالة ثانية في الحكومة المدنية"، وروسو في كتابه "العقد الاجتماعي"، وتختلف هذه الصيغ في تحديد أطراف التعاقد وشروطه. (أنظر: جوناثان رى - وج.أو. أرمسون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص200).

اتفاق واع بين هؤلاء الأفراد، يهدفون من خلالها إلى حماية مصالحهم، فالإرادة تُعد الأساس الذي يقوم عليه العقد الاجتماعي، حيث يتخلى الأفراد عن حالتهم الطبيعية للانضمام إلى المجتمع المدني، يتفق الناس على عقد ينظم حياتهم ويضمن حمايتهم، وبالتالي يسعون إلى إنشاء نظام علماني يحدد صلاحيات الحكام ويجعلهم مسؤولين أمام الشعب.

ستعزز قوة هذه النظرية بفضل روادها الذين يتفقون على أن الدولة تتشكل من خلال عقد اجتماعي، وأن السلطة الحكومية تستمد شرعيتها من هذا العقد الذي يُطبّق في الواقع، ومع ذلك يختلف هؤلاء الرواد في عدة جوانب، مثل حالة الإنسان قبل إبرام العقد، والأطراف المعنية فيه، ومحتوى العقد، بالإضافة إلى النتائج والتأثيرات الناتجة عن توقيع هذا العقد.

3-1 توماس هوبز: تقديس الدنيوي وتدنيس المقدس

أدت تجربة الحرب الأهلية الإنجليزية (1642-1651) إلى استنتاج توماس هوبز* (1588-1679) Thomas Hobbes بأن الناس قد أبرموا نوعاً من الاتفاق أو العقد فيما بينهم، بهدف التحرر من الخوف الذي يسيطر عليهم من بعضهم البعض، ورغبتهم في تحقيق النظام والأمان والاستفادة من مزايا الحق والقانون، في إطار هذا الاتفاق، تنازل الأفراد عن حريتهم في التصرف ومنحوا هذه السلطة للحاكم، الذي يجب أن يتمتع بسلطة مطلقة وغير مقيدة، ليكون هو الوحيد القادر على الحفاظ على النظام¹، ومع ذلك ينبغي أن تكون سلطة الحاكم دنيوية، وهدفه الأساسي هو مصلحة الأفراد والحفاظ على السلم.

يمثل الصالح العام الرابط الذي يجمع بين أفراد المجتمع، وعندما يتراجع النفع والخير العام، تصبح العلاقات بين الأفراد هشة ومعرضة للفوضى، مما يهدد الدولة بالسقوط والانهيار، وقد أشار هوبز في كتابه "اللفيathan" Leviathan إلى أن الناس، عندما يعيشون دون سلطة مشتركة تثير الرهبة في نفوسهم، يدخلون في حالة من

* - فيلسوف مادي إنجليزي تأثرت أفكاره بثورة القرن السابع عشر البورجوازية في إنجلترا، من أبرز مؤلفاته: "في المدينة" عام 1642 و"لفيathan" عام 1651، في فلسفته يرفض نظريات الأصل الإلهي للمجتمع فيما يتعلق بالقانون والدولة، ويعتبر في نظرية العقد الاجتماعي أن الملكية المطلقة هي أفضل أشكال الحكم. (أنظر: روزنتال ويودين، الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، ص563).

¹ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1957، ص45. أنظر أيضاً: بلر روبرت روزويل، تاريخ العالم الحديث، ترجمة: حسن علي الذنون، الجزء الثاني، د.ط، مكتبة دار المتنبي، بغداد، 1964، ص99.

الحرب تُعرف بـ "حرب الكل ضد الكل"¹، في هذه الحالة، لا يوجد قانون أو عدالة، إذ لا يمكن تطبيق هذين المفهومين دون وجود سلطة تفرضهما، وبالتالي، تصبح حياة الإنسان منعزلة وفقيرة وقذرة ووحشية وقصيرة، كما وصفها هوبز، وهذا ما يدفع الناس، وفقا له، إلى إبرام عقد اجتماعي يتنازلون فيه عن حريتهم المطلقة لصالح سلطة عليا، الدولة أو "اللفيathan" التي تحافظ على الأمن وتضمن الاستقرار.

تُعتبر القوة عنصرا أساسيا في الدولة لمنع تفشي الجوانب السلبية في الطبيعة البشرية، وهذا ما دفع هوبز إلى وصف حياة الأفراد وضرورة خضوعهم لحكم ملكي مطلق، فقد صوّر القوة والسيطرة التي يمارسها الحاكم على الشعب في سياق العقد الاجتماعي، مشيرا إلى أن الناس لن يتمكنوا من الاستمتاع برفقة بعضهم البعض إلا في وجود قوة قادرة على إخافتهم جميعا.

منح هوبز الحاكم سلطة مطلقة بهدف تقييد سلطة الدين، ورغم الادعاءات بأن هوبز كان يميل نحو الاستبداد السياسي، إلا أنه كان يسعى نحو العقلانية، فهو يرفض المبررات الميتافيزيقية ولا يقبل الحكم بناء على الحق الإلهي * Divine right بالنسبة له، يجب أن يكون الحكم مستندا إلى مصلحة الأفراد وبناء على مبررات السلام وحماية الحقوق المدنية، لذا ينبغي أن تكون السلطة الروحية خاضعة للسلطة الزمنية، حيث إن الحكم المدني قادر على حماية المعتقدات وأماكن العبادة، وبالتالي يجب أن تكون هناك سلطة واحدة للدولة، ويجب على الدين أن يخضع للقانون المدني والسلطة السياسية.

¹ - Hobbes Thomas, **Leviathan**, ed. Richard Tuck, Cambridge University Press, Cambridge, 1996, 88.

* - مفهوم ديني وسياسي يُستند إليه من قبل الملوك الذين يحكمون بسلطة مطلقة لتأكيد شرعيتهم، حيث يعتبرون أن أي شكل من أشكال العصيان أو التمرد عليهم هو إثم في حق الله، يستندون في ذلك إلى رسالة بولس الرسول التي تقول: "لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِّلسَّلَاطِينِ الْفَائِقَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلَّا مِنَ اللَّهِ، وَالسَّلَاطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرْتَبَةٌ مِنَ اللَّهِ". (أنظر: رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 13:1)، بناء على ذلك، يُعتبر أنه لا يحق للأفراد أو المؤسسات في الدولة محاسبة الملك، حتى وإن كان غير كفء، لأنه يشغل منصبا أعلى بتفويض إلهي، وبالتالي فإن الحكم عليه يعود إلى الله وليس إلى رعاياه. (أنظر: سباين جورج، **تطور الفكر السياسي**، ترجمة: راشد البراوي، الكتاب الثالث، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1971، ص477)، كان الملك جيمس الأول ملك إنجلترا (حكم من 1603 إلى 1625) من أبرز المدافعين عن الحق الإلهي للملوك، لكن هذا المبدأ بدأ يتلاشى تقريبا من السياسة الإنجليزية بعد الثورة المجيدة (1688-1689) في أواخر القرن السابع عشر والثامن عشر، في المقابل استمر ملوك فرنسا مثل لويس الرابع عشر (1643-1715) في الاستفادة من نظرية الحق الإلهي، رغم أن العديد منهم لم يكن لديهم اعتقاد ديني حقيقي بها، وقد أدت الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية والحروب النابليونية إلى تقويض مصداقية هذه العقيدة بشكل كبير. (See the: divine right of kings, Encyclopedia Britannica | Britannica, This article was most recently revised and updated by Brian Duignan, 18January 2024, <https://www.britannica.com/topic/divine-right-of-kings>)

3-2 جون لوك: الدولة والكنيسة خطان متوازيان

تأسس الدولة وفقا لفكر جون لوك* (1704-1632) John Locke كان بغرض حماية الملكية وضمان حق كل فرد في التمتع بممتلكاته وأغراضه، في الحالة الطبيعية لم يكن لدى الإنسان حقوق طبيعية مضمونة إلا بشكل مؤقت، وذلك بسبب غياب ثلاثة شروط أساسية لحماية الملكية من التعديات المحتملة: وجود قانون واضح ومعلن، وجود قاض يتمتع بالكفاءة والنزاهة، ووجود قوة قادرة على تنفيذ قرارات القاضي، نتيجة لعدم توفر هذه الشروط، كانت حماية الممتلكات غير مضمونة¹.

بالإضافة إلى ذلك كان كل فرد يتحيز نحو مصالحه الشخصية ويظهر لامبالاة تجاه حقوق الآخرين، لذلك قد يتخلى الأفراد عن وضع يفتقد إلى الأمان، ويتفقون على إنشاء مجتمع مدني بناء على اتفاقيات خاصة، حتى ولو كان ذلك يعني التخلي عن بعض الحريات الفردية.

يفسر لوك العلاقة بين الملكية وضرورة حمايتها بشكل واضح، حيث تعتبر الملكية شرطا أساسيا للحياة الإنسانية، وبما أن الهدف النهائي من وجود المجتمع والدولة هو حماية ممتلكات الأفراد وحقوقهم، فإن نقل السلطة من الأفراد وتحويلها إلى العامة يعتبر أمرا ضروريا، وهذه الضرورة تكمن في جعل الأفراد كائنات اجتماعية قادرة على التعايش بسلام دون الحاجة إلى استخدام القوة.

بعبارة أخرى إذا لم يتمكن الأفراد من الدفاع عن حقوقهم الطبيعية بفعالية، فإن إنشاء مجتمع مدني يصبح أمرا ضروريا، ومع ذلك يجب أن يقوم هذا المجتمع على أسس الحرية وليس على أساس القمع².

* - فيلسوف ومنظر سياسي واقتصادي إنجليزي، يُعتبر رائد المذهب الحسي، وُلِدَ في رينغتون بالقرب من بريستول عام 1632 وتوفي في مقاطعة إسكس، ينتمي إلى عائلة بروتستانتية "طهرانية" من الطبقة الوسطى، التحق بجامعة أكسفورد عام 1652، وانتُخب باحثا في الدراسات العليا عام 1656، لكنه فُصل منها لأسباب سياسية، نُفي إلى فرنسا بسبب معارضته للسياسيين، حيث أقام في موبيليه ثم انتقل إلى هولندا، عاد إلى إنجلترا عام 1688 في عهد وليم أورانج الذي أتاح حرية سياسية جديدة في البلاد. (أنظر: رحيم أبو رغيغ الموسوي، الدليل الفلسفي الشامل، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، بيروت: دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2015، ص326).

¹ - شوفالييه جان جاك، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة: مُجدد عرب صاصيلا، الكتاب الثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص382.

² - إهرنبرغ جون، المجتمع المدني: التاريخ النقدي للفكرة، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ص173.

بمعنى أنه لا توجد سلطة مطلقة أو حكومة مقدسة، ولا ملوك يحكمون باسم الحق الإلهي، فالسلطة نسبية، والحكومة دنيوية، والدولة مدنية، يستمد الحكام شرعيتهم من الشعب عبر عقد اجتماعي يلتزمون فيه بتطبيق القانون واحترام مبدأ الفصل بين السلطات واستقلال المجتمع المدني عن الكنيسة، إن مهمة الدولة هي إدارة شؤون الحياة على الأرض، وليس من واجباتها توجيه الناس إلى الجنة أو النار.

نحن هنا نتناول مفهوم ممارسة السيادة من قبل الشعب، حيث تم استعادة هذه السيادة من الحكام الذين منحوا هذا الحق في البداية، إن إعادة السيادة إلى الشعب تهدف إلى إنشاء نوع من الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، وتنبع هاتان السلطتان من السلطة العليا التي يمارسها المجتمع المدني في إطار أدائه لوظائفه في حماية الملكية ومعاينة المعتدين عليها، فالجماعة التي تصوغ القوانين الضامنة لحقوق الأفراد هي التي تتولى "تعيين أفراد للقيام بمهام السلطة وتنفيذ القوانين، بالإضافة إلى الفصل في النزاعات التي قد تنشأ بين أفراد المجتمع، سواء كانت تتعلق بمطالبة بحق أو فرض عقوبة"¹.

في هذا السياق يشير لوك إلى أن من واجب الحاكم المدني تطبيق القوانين بشكل شامل لضمان حقوق الجميع، وكذلك لضمان حق كل فرد في امتلاك الممتلكات بشكل عادل، وإذا حاول أي شخص انتهاك قوانين العدالة والمساواة التي وضعت لحماية هذه الحقوق، يجب أن يُمنع من ذلك من خلال الخوف من العقاب، الذي يتمثل في حرمانه من الفوائد التي يستحقها²، بالإضافة إلى ذلك تقتضي الأخلاق أن يحترم الملك والديه، لكن ليس لهما الحق في التدخل في شؤون الدولة والسياسة، ولا ينبغي لهما فرض آرائهما عليه لمجرد كونهما والديه³.

يضمن مبدأ فصل السلطات توزيع السلطة بين هيئات مختلفة، مما يحد من سلطة الحكومة، وبالتالي يتحقق الهدف من تأسيس الدولة، وهو توفير حياة سلمية للفرد الذي يتخلى عن حالة الطبيعة، حيث يتمتع بحقوقه وحرياته وممتلكاته.

3-3 روسو: لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين

¹ - لوك جون، في الحكم المدني، ترجمة: ماجد فخري، الطبعة الأولى، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، 1959، ص75.

² - لوك جون، رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنة، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية، 1997، ص24.

³ - إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم، د.ط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص287.

استند مؤلف كتاب "العقد الاجتماعي" إلى بعض أفكار هوبز المتعلقة بالأمن والقوة والبقاء، كما اعتمد على بعض آراء لوك حول الحرية والمساواة والعلمانية، ومع ذلك يتميز جان جاك روسو* (1712-1778) Rousseau Jean-Jacques بتوجهه الأعمق نحو الحداثة السياسية، التي لا يمكن فهمها دون الإشارة إلى الديمقراطية والعلمانية، وبالتالي يمكن القول إن الخط الفكري لروسو يسير في اتجاه مغاير لفكر القرون الوسطى، حيث يرى أن الحكم والسياسة تنتميان إلى الحق الإنساني بدلا من الحق الإلهي.

الدولة تمثل إرادة الجميع وليس فقط رجال الدين، حيث تعكس المصلحة العامة مصلحة الأفراد ولا تعبر عن مصالح فئة معينة من المجتمع مثل رجال الكهنوت، الإرادة العامة تشكل الأساس للعقد الاجتماعي، وهي التي تمنح السلطة شرعيتها، إذ تنبع من الشعب، لذلك يشير روسو إلى أنه عند إبرام العقد الاجتماعي، نضع كل فرد وقدراته تحت سلطة الإرادة العامة، ونتقبل جميعاً كأعضاء في جسم واحد لا يمكن فصله عن الكل¹.

لقد كانت هذه النظريات مصدر إلهام ودافع للعديد من الأفكار والنظريات الفلسفية والسياسية التي ظهرت بعد انتشارها، فقد ساهمت في تحفيز الثورتين الأمريكية (1765-1783) والفرنسية (1789-1799)، كما أنها كانت تشير إلى بداية نهاية الحكومات المطلقة التي هيمنت على أوروبا لقرون طويلة، سواء بدعم من الكنيسة أو من خلال قوة الطغيان المدني بمفرده.

تأثر العالم الحديث وحركات التحرر بشكل مباشر وغير مباشر بنظريات العقد الاجتماعي، التي سلطت الضوء على أهمية دور الشعوب في حياة الأفراد، وقد أكدت هذه النظريات على أن الشعوب هي التي يجب أن تعبر عن آرائها وليس الحكومات، كما تناولت لأول مرة مفهوم الحق الإلهي الذي كان يستند إليه الملوك والأباطرة

* - أديب وكاتب وفيلسوف فرنسي، يُعتبر من أبرز المفكرين في التاريخ، من أهم مؤلفاته "العقد الاجتماعي"، الذي يعبر فيه عن آرائه حول شرعية الحكومة، حيث يرى أنها لا تكون مبررة إلا إذا كانت بيد الشعب، لقد ترك تأثيراً عميقاً في التاريخ الأوروبي، خاصة خلال الثورة الفرنسية، كما قام بتطوير مفهوم "الإرادة العامة" و"إرادة الجميع"، حيث عرّف الأولى بأنها تعبر عن إرادة مجموعة من الناس تسعى لتحقيق أهداف مشتركة، بينما الثانية تمثل مجرد تجمع من الإرادات الفردية الأنانية، ومن بين أعماله الأخرى "خطاب في أصل التفاوت بين البشر" الذي صدر عام 1755. (أنظر: رحيب أبو رغيغ الموسوي، الدليل الفلسفي الشامل، مرجع سابق، الجزء الثاني، 2013، ص 22-23).

¹ - روسو جان جاك، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة: عبد العزيز لبيب، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011، ص 95.

في حكمهم، وأكدت بجرأة أنه لا يوجد شخص يمتلك الحق الإلهي في التحكم بحياة الآخرين، وأن الله لم يفوض أحدا للسيطرة على مصائر البشر وفقا لرغباته الشخصية.

المبحث الثاني: فقدان التوازن والدخول في حالة من الفراغ

على مر العصور كانت فكرة وجود إله أو آلهة تشكل الركيزة الأساسية للرؤية الغربية للعالم، حيث لعبت هذه الفكرة دورا محوريا في تشكيل الثقافة الإنسانية، مما منحت الحياة والوجود معنى * Meaning وقيمة ** Value عميقة، استلهمت أعظم المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية من الدين، وتناولت الأعمال الفنية البارزة في عصر النهضة *** مواضيع دينية، بالإضافة إلى ذلك كانت فكرة الإله مركزية في تفكير الفلاسفة **** وكانت الكنيسة تهيمن على جميع أنظمة التعليم، كما أن المبادئ الأخلاقية التي يتبناها الغرب كانت تستند إلى سلطة الدين، الذي كان يقدم الحافز للتمسك بهذه القيم من خلال وعد الثواب للفضيلة والعقاب للذيلة، فما الذي يحدث عندما يتعرض هذا الأساس للتدمير؟

يتضح من رؤية نيتشه وما يفرضه عليه صدقه من ضرورة التعبير أن تدمير هذا الأساس يحمل طابعا مزدوجا، فهو ينطوي على مخاطر كبيرة، لكنه في المقابل يفتح أمامنا آفاقا جديدة، لا يوجد أي مبرر للتظاهر بأن الإله لا يزال موجودا، ويجب علينا أن نفهم ذلك بوضوح ودون تردد.

* - بمثابة المدلول، أي ما أراده ويقصد به الإنسان. (أنظر: معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية (الاصطلاحات والمفاهيم)، المجلد الأول، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، 1986، ص764).

** - قيمة الشيء من الناحية الذاتية هي الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوبا ومرغوبا فيه عند شخص أو طائفة معينة من الأشخاص. (أنظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص212).

*** - مثل لوحة "العشاء الأخير" Last Supper التي رسمها ليوناردو دا فينشي (Leonardo da Vinci 1519-1452).

**** - أمثال توما الأكويني Thomas Aquinas ورينيه ديكارت Rene Descartes وجورج بيركلي George Berkeley وغوتفريد فيلهلم لايبنتس Gottfried Wilhelm Leibniz.

أولا: مخاطر فقدان المعنى

في كتاب "فجر النهار" The Dawn of Day يتساءل نيتشه عن مصير المجتمع في حال تلاشت العادات والتقاليد التي تدعم سلطة الآلهة والكهنة والمخلصين، وعندما تختفي الأخلاق بمعناها التقليدي¹، بعبارة أخرى ماذا سيحدث عندما يموت الإله؟

يجيب على هذا السؤال في كتابه "العلم المرح"، حيث يشير إلى أنه عندما نتخلص من التفسير المسيحي ونعتبره كعملة مزيفة، يواجهنا سؤال مثير للجدل طرحه أرتور شوبنهاور^{*} (1860-1788) Arthur Schopenhauer هل للوجود معنى واحد فقط؟² يتطلب هذا السؤال وقتا طويلا لفهمه بشكل كامل، وفقا لنيتشه ينطلق تساؤل شوبنهاور من وعى، سواء كان ظاهرا أو خفيا، بما آلت إليه القيم التي تحكم الثقافة الغربية، والتي تعاني من التفكك والتلاشي، وقد أدى ذلك إلى شعور بالعبث والفراغ وغياب المعنى بعد موت الإله.

01- الشعور بالعبث**

يبدو أن نيتشه يعتقد أن ردة الفعل الأولى ستكون مربكة ومرعبة، فقسم المجنون الذي تم ذكره سابقا مليء بالأسئلة المقلقة، إن الانزلاق نحو الفوضى ليس سوى أحد الاحتمالات، كيف فعلنا ذلك؟ كيف استطعنا أن نفرغ البحر من أعطانا الإسفنجية لمحو الأفق بأسره؟ ماذا فعلنا عندما أبعدا هذه الأرض عن شمسها؟ إلى أين تتجه الآن؟ ما الذي تقودنا إليه حركتها؟ هل تبتعد عن جميع الشمس³؟

¹-Nietzsche Friedrich, *The Dawn of Day*, Op. cit, §96, P95.

^{*} - فيلسوف ألماني ميتافيزيقي، عُرف بمقالاته الجريئة وكتابه الرئيسي "العالم إرادة وفكرة"، كان لمقالاته الهجائية في فلسفة الجامعات أساس شخصي، حيث قدم طلبا ليكون محاضرا في جامعة برلين، وتم قبول طلبه بعد عرضه على لجنة كان هيجل أحد أعضائها، بعد ذلك قرر شوبنهاور أن يلقي محاضراته في نفس الوقت الذي كان يحاضر فيه هيجل، على الرغم من أن ما يُذكر في بعض الكتابات حول هذا الموضوع يشير إلى أن شوبنهاور قد فرغت مادته قبل انتهاء الفصل الدراسي. (أنظر: جوناثان رى - وج.أو. أرمسون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، ص195).

²- Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Cinquième, Op. cit, §357, p336.

^{**} - أصبح هذا المفهوم شائعا بين الوجوديين المعاصرين للإشارة إلى استحالة تقديم تفسير ذي معنى لوجود الإنسان والأشياء بشكل عام، تعتبر تجربة العبث وفقا لسارتر وكامو، هي التجربة الأساسية للوجود كما يعيشها الإنسان، وقد تجلّت هذه التجربة في شكل قلق وضيق عند هايدغر، وفي الشعور المرير بعدم وجود أي هدف للحياة والوجود عند سارتر، وفي غموض عبثية وضعنا الإنساني عند كامو، وفي الشعور بالفشل والإحباط المحتوم عند ياسينس. (أنظر: سعيد جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، مرجع سابق، ص280).

³- Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre troisième, Op. cit, §125, p180.

لقد كان الإله القديم يرمز إلى الشمس بالنسبة للأرض، لكن الإنسان فصل بينهما وانتزع أحدهما من الآخر، ونتيجة لذلك أصبحت الأرض كوكبا تائها في فراغ لا نهائي من الظلام، وفقد العالم مركزه، واختفت الشمس، وتحولت الثقة العميقة التي كانت موجودة إلى شك، مما جعل عالمنا يبدو يوما بعد يوم أكثر شفقة وحذرا وغرابة وقدامة¹.

لم يعتبر نيتشه أن وقوع هذا الحدث أمر إيجابي بأي شكل من الأشكال، إذ أن غياب الإله يضع النظام العقائدي الأساسي في أوروبا في خطر، لذا يشير إلى أنه عندما نتخلى عن الديانة المسيحية، يجب علينا أيضا التخلي عن الحق في الأخلاق المسيحية، فالمسيحية تمثل نظاما ورؤية شاملة للعالم، وعندما نفقد الإيمان بالإله، فإننا نكون قد دمرنا كل شيء²، يعكس هذا الحدث الوعي المفاجئ بفقدان قوة الإيمان المسيحي، ويظهر أن نظام قيم الثقافة الغربية قد فقد توازنه تماما.

لذلك نحن أمام حدث بالغ الأهمية في سياق الحداثة* Modernity لكنه لم يفهم بشكل كافٍ، أو بالأحرى لم يدرك تأثيره العميق على الحضارة الغربية، فالحدث بحد ذاته ضخم وعميق، ويتجاوز قدرة الكثيرين على استيعابه، لذا لا يمكننا أن ندعي أن الخبر قد انتشر وأن أحدا قد استوعب ما حدث بالفعل، أو أدرك ما ينبغي أن ينهار مع اختيار الاعتقاد السائد، لأنه يمثل الأساس الذي استندت إليه تلك المعتقدات، ومن المتوقع أن تحدث هزات في المستقبل القريب³.

إذن فإن تدمير النظام القديم للمعنى جاء محملا بالمخاطر، حيث أظهر الإنسان أسوأ جوانبه، مما وضع الكثيرين في مواجهة خطر اليأس أو الشعور بعدم جدوى الحياة، ما الهدف من الحياة في غياب الإله؟ لقد أدرك العالم الغربي الآن أن الإله لم يضعنا في مركز الكون، وأن العالم ليس مصمما خصيصا من أجلنا، يتساءل الإنسان

¹ - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Cinquième, Op. cit, §343, p299.

² - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Trad: Henri Albert, septième édition, Mercure de France, Paris, 1908, Flâneries inactuelles, §5, p73.

* - مفهوم غربي يعبر عن تحوّل جذري على جميع الأصعدة، سواء في المعرفة أو في فهم الطبيعة أو في دلالة التاريخ، إنه يمثل بنية فكرية شاملة، ويعكس الوعي الجديد الذي يتفاعل مع متغيرات الحياة والتطورات الحضارية، مع الانفصال عن قيود الماضي والتحرر من هيمنة الأجداد، يتم ذلك من خلال إحداث قطيعة جذرية مع التراث والتقاليد. (أنظر: مجّد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2000، ص20).

³ - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Cinquième, Op. cit, §343, p300.

اليوم عن معنى الحياة في غياب الإله، ويعتقد أنه تطور من كائن وحيد الخلية، وأنه أخيرا عرف حقيقة العالم الذي يعيش فيه.

يعلق ميشال هار* (1937-2003) Michel Haar على خطاب الأخرق مشيرا إلى أن هذا الخطاب يعكس وعى نيتشه بأزمة¹، تعيشها الثقافة الغربية، يعني هذا الخطاب ضرورة تحاوي سندات فكرنا وحياتنا²، التي استندت إليها هذه الثقافة لفترة طويلة، إنه يضع الإنسانية الغربية الحديثة في مواجهة الفراغ، حيث يصبح كل شيء بلا معنى ومتساويا، وقد فات أوانه، تحف الينابيع ويتراجع البحر، لكن الهاوية لا ترغب في ابتلاعنا، أين يمكننا العثور على بحر يمكننا أن نغرق فيه؟ لقد أصبحنا متعبين لدرجة أننا لم نعد قادرين على الموت³.

كما يلاحظ الأخرق، فإن موت الإله يعني ببساطة أن الأرض ستبتعد عن شمسها، ومن الواضح أن مجاز الشمس وعلاقتها بالأرض لم يكن محصورا في وعى نيتشه بالثورة الكوبرنيكية** فحسب، بل امتد أيضا إلى أفلاطون، فالشمس هي التي تنير الوجود وتحدد الأفق الذي يظهر فيه الوجود الحقيقي، وهي الكل الذي يحتوي على الحقيقة، تماما كما يفعل البحر.

عندما تغيب الشمس وينفصل العالم الحقيقي عن الأرض، يتلاشى الأفق نفسه، وتختفي الأسس التي كانت توجه البشرية وتحميها⁴، وبالتالي لم يعد بالإمكان الاعتماد على أي شيء يتجاوز الإنسان، فقد فقدت الأشياء ألوها القديمة مع موت الإله، "يا له من تحوّل في إضاءة وألوان كل شيء!"⁵.

* - فيلسوف ومترجم فرنسي متخصص في أعمال نيتشه، شغل منصب أستاذ تاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة في جامعة باريس الثانية عشرة، ثم انتقل ليكون أستاذا للفلسفة في جامعة باريس الأولى - بانثيون السوربون.

¹ - Haar Michel, **Nietzsche et la métaphysique**, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1993, p71.

² - Baroni Christophe, **Nietzsche éducateur: de l'homme au surhomme**, sans édition, Buchet/Chastel, Paris, 1961, p251.

³ - Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Deuxième partie, le devin, pp191-192.

** - نسبة إلى نيكولاس كوبرنيكوس (1473-1543) Nicolaus Copernicus وهو رياضياتي وفيلسوف وفلكي بولندي، يُعتبر مؤسس علم الفلك الحديث، كان أول من وضع نظرية مركزية الشمس، حيث اعتبر الأرض جسما يدور في فلكها، وذلك في كتابه "حول دوران الأجرام السماوية".

⁴ - Smith, Gregory Bruce, **Nietzsche, Heidegger, and the transition to postmodernity**, 1st edition, University of Chicago Press, Chicago, 1996, p71.

⁵ - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §152, p198.

عبر نيتشه عن قلقه من أن هذه المعرفة قد تؤدي إلى تشاؤم الإنسان، لذا يشير إلى أننا نتجه نحو منحدر طويل، ونتخبط في جميع الاتجاهات، هل لا يزال هناك مكان أعلى وأسفل؟ هل لا زال الجو أبرد مما كان عليه؟ هل يستمر الوقت في المرور ليلاً بلا انقطاع؟ هل ينبغي علينا إشعال الفوانيس منذ الصباح؟ هل لا زلنا نسمع صدى حافري القبور الذين دفنوا الإله؟¹.

عندما كتب نيتشه في مؤلفه "إرادة القوة" The will to power تجلى لديه خوفه من العدمية* Nihilism وردود أفعالنا تجاهها، حيث يخبرنا أن ما سيرويه لنا هو تاريخ القرنين القادمين، يصف ما سيأتي وما لن يأتي مخالفاً لما يقوله، العدمية في تزايد مستمر، الحضارة الغربية بأكملها تحتز منذ فترة طويلة تحت ضغط يصل إلى حد التعذيب، وتزداد قلقاً وعنفاً وغم يكبر من عقد لآخر، وكأنها تتجه نحو كارثة تشبه نهرًا يتدفق نحو مصبه، لم تعد تفكر بل أصبحت تخشى التفكير.²

لقد عانى الناس من غموض الغاية من وجودهم، ويبحثون عن إجابة لسؤالهم الذي يراودهم: لماذا يعيشون ويستمررون في الوجود؟ نتيجة لذلك يشعرون بأنهم تعرضوا للخداع في جميع القيم التي اعتنقوها حتى الآن، يتحول هذا الشعور إلى يأس وإنكار لكل شيء، ويبدو أن العديد منهم يسرون في طريق مسدود نحو العدم والفراغ.³

لذلك لن يُفاجأ نيتشه بالأحداث التي شهدتها أوروبا في القرن العشرين، مثل الشيوعية والنازية والقومية، بالإضافة إلى الأيديولوجيات الأخرى التي انتشرت في القارة العجوز بعد الحرب العالمية الأولى، والتي سعت إلى منح الإنسان معنى وقيمة، سواء من منظور طبقي أو عرقي، بطريقة تشبه المسيحية التي تعطي معنى لابن الله وتمنح الحياة على الأرض قيمة من خلال ارتباطها بالسماء.

¹ - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Troisième, Op. cit, §125, p180.

* - تستخدم عند نيتشه للإشارة إلى وصف الأزمة القاتلة التي أصابت العالم الحديث، وهي انهيار القيم العامة التي أدت إلى غمر الإنسانية في ظلام العبث، حيث فرضت عليها يقينا متشائما يجعل كل شيء بلا قيمة. (أنظر: جان غرانبيه، نيتشه، ترجمة: علي بو ملح، الطبعة الأولى، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ص33).

² - Nietzsche Friedrich, *The Will to Power: An Attempted Transvaluation of All Values*, Op. cit, Preface, §2, P1.

³ - مشير باسيل عون، نظرات في الفكر الإلهي الحديث، الطبعة الأولى، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003، ص38.

كانت البنية الاجتماعية في الماضي تستند إلى الأعراف السائدة، مما جعل الأهداف واضحة ومحددة ومفروضة من قبل سلطة خارجية تفوق الإنسان، وعندما تحلّى الناس عن الإيمان بهذه السلطة، فقدوا المعنى وافتقدوا جزءا كبيرا من كرامتهم في نظر أنفسهم، فقد كان الإنسان هو محور الوجود وبطل التراجيديا، وهناك ثلاث حالات نفسية تؤدي إلى هذا اليأس والقلق:

1-1 خداع في أن للوجود هدف ومعنى محدد: خيبة الأمل الناتجة عن البحث عن هدف مزعوم للصيرورة * Becoming عندما حاول الناس إعطاء كل ما يحدث معنى غير موجود فيه، ومع مرور الوقت يدركون أنهم كانوا مخطئين في افتراض وجود هذا المعنى، مما يؤدي بهم إلى فقدان الشجاعة وإنكار القيم، وهذا ما يجعلهم يشعرون بالخجل أمام أنفسهم، وهذه الخيبة ترتبط إما بوجود هدف محدد أو بإدراك أن الفرضيات التي وضعوها حول الهدف غير كافية¹، وفي النهاية يؤدي ذلك إلى إنكار القيم والمعنى في الحياة.

2-1 خداع في أن بالوجود وحدة عليا ونظام صارم: لقد تم اعتبار كل ما يحدث منشأ من كائن كلي، ويحدث بشكل منهجي ومنظم، هذا ما يجعل من النفس تشعر بالإعجاب والاحترام تجاه هيمنة وتحكم علويين، طريقة للوحدة، أي شكل من أشكال "الوحدانية"²، وحدة الوجود ** Pantheism ومع ذلك نكتشف فيما بعد أن هذه الوحدة المفترضة غير موجودة في الواقع، نشعر بخيبة أمل من هذه الوحدة وننكر قيمة الوجود.

* - هو كون الموجود في حالة تغير مستمر، ومشكلة الصيرورة أثبتت في الفكر اليوناني قبل سقراط على هذا النحو: هل الوجود ثابت أم في حالة صيرورة؟ اعتبر الإليون أن الوجود ثابت، بينما رأى هيرقليطس أنه في حالة صيرورة، حاول الفيثاغوريون التوفيق بين الرأيين، حيث قالوا إن الموجودات تتغير، لكنها تخضع في تحولها لقوانين رياضية ثابتة، والاتجاه العام عند أفلاطون هو النظر إلى المحسوسات على أنها في حال صيرورة، بوصفها نسخا من الصور أو المثل، والوجود المضاد عنده ليس موجودا بالمعنى الحقيقي، بل هو وجود الصور، الذي يُعتبر وجودا ثابتا، وهو الحقيقي والأحق بلقب الوجود. (أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ص49).

¹ - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance: Essai d'une transmutation de toutes les valeurs**, Trad: Henri Albert, Tome. I, Première édition, Mercure de France, Paris, 1903, Critique du nihilisme, §5, p39.

² - Ibidem.

** - أو الحلولية تعني الاعتراف بأن الله والعالم هما كيان واحد لا يتجزأ، يمكن فهم هذا المفهوم من خلال معنيين: الأول هو أن الله هو الواقع الوحيد الذي تتواجد فيه جميع الأشياء، حيث لا يُعتبر العالم شيئا منفصلا بل هو تجليات الله وأحواله غير الجوهرية، وهذا هو رأي الفيلسوف سبينوزا Spinoza أما المعنى الثاني، فيشير إلى أن العالم هو الواقع الوحيد، وأن الله ليس سوى مجموع الوجود، وهو ما يعتقده كل من ديدرو Diderot، ودلباك Delpac اللذين يُعرفان بمفهوم الحلولية المادية أو الحلولية الطبيعية. (أنظر: سعيد جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، مرجع سابق، ص175).

1-3 خداع أن هذا العالم غير حقيقي، وأن هذه الحياة مجرد أوهام: إدانة لعالم الصيرورة واعتباره مجرد وهم، مع اقتراح وجود عالم حقيقي وراءه، ومع ذلك عندما يدرك الإنسان أن هذا العالم قد تم تشكيله لتلبية احتياجاته النفسية¹، يبدأ نوع جديد من الإنكار يتمثل في الشك حول وجود عالم حقيقي خلف الستار، هذا الشك ينتهي بالإنكار، مما يحرم الإنسان من الإيمان بالوجود الواقعي، لكن عالم الصيرورة حتى حينما يصير العالم الحق، يظل الإنسان الحديث غير قادر على تقبله وتحمله، مما يزيد من شعوره بالفراغ وفقدان القيمة والمعنى.

إذن في هذه الحالة لا يبقى أمام الإنسان خيار سوى اتخاذ أحد الخيارين التاليين: إما أن يتجاهل هذا العالم الآخر ويعتبره مجرد خرافة ووهما، مما سيؤدي به إلى فقدان الأمل ويصبح كل شيء بلا قيمة في نظره، أو أن ينكر وجود الواقع، مما يعني أنه ينكر ذاته ولا يرى أي قيمة لحياته بأي شكل من الأشكال، وبغض النظر عن النتيجة التي يصل إليها، فإنه يستمر في الإنكار الكامل: إما من خلال إنكار جميع القيم، أو من خلال إنكار قيمة الحياة نفسها²، فالرجل الإنكاري هو الذي يحكم على العالم كما هو موجود بأنه لا ينبغي أن يكون موجوداً، ويحكم على العالم كما ينبغي أن يكون بأنه غير موجود، والنتيجة عن ذلك هي أن الوجود لا يحمل أي معنى³.

ما الذي حدث بشكل عام؟ لقد شعر الغرب بعدم القيمة، بعدما اتضح له أنه لا يستطيع تفسير الطبيعة العامة للوجود من خلال القيم الثلاث: "الهدف" The Goal "الوحدة" Unity "الحقيقة" The Truth، كل ذلك لا يسفر عن تحقيق أي شيء⁴، فالوحدة التي تظهر وسط تنوع الأحداث غير موجودة، وطبيعة الوجود ليست حقيقية بل مزيفة، لذلك لا يوجد سبب منطقي يدفع الغرب للاقتناع بوجود عالم حقيقي.

بهذا الشكل تم إلغاء المقولات الثلاث التي كانت تمنح الغرب قيمته ومعناه في العالم، وبالتالي يبدو أن العالم الآن خال تماماً من القيمة، إن تصور وجود بلا معنى أو هدف هو فكرة مخيفة حقاً، تشبه الصحراء التي تكشف

¹ - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, Critique du nihilisme, §5, p40.

² - عبد الرحمن بدوي، نيتشه، الطبعة الخامسة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975، ص158.

³ - معمر قادم، نيتشه وأزمة القيم في الحضارة الغربية الحديثة، مجلة أبعاد، المجلد/العدد2، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد، الجزائر، جانفي 2015، ص126.

⁴ - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, Critique du nihilisme, §5, pp40-41.

عنها الثقافة الحديثة، فما الذي يمكن أن يكون؟ إنه العدم، الذي لا ينتج سوى المزيد من العدم، حيث يتسع الفراغ تدريجياً¹.

إذن لم تجد أمامها سوى عالم فارغ يفتقر إلى المعنى، حيث يتجلى الوعي بغياب القيم وفقدانها لأهميتها، يسود في هذا العالم النفسي والتعطيم واليأس والضعف والقلق، حتى تصل الأمور إلى مرحلة الازدراء والكوارث، "أليس الكذب شيئاً إلهياً؟ ألا تكمن قيمة كل الأشياء في كونها باطلة؟ أليس اليأس مجرد نتيجة للإيمان بالحقيقة الإلهية؟"²

02- معنى العدمية (توضيح بشأنها)

وفقاً لجيل دولوز* (1995-1925) Gilles Deleuze في كتابه "نيتشه والفلسفة"، تُعتبر العدمية عند نيتشه ذات طبيعتين: الأولى تتعلق بخلق الإله، وهي سمة عامة في التاريخ الغربي، بينما الثانية تعبر عن فقدان القيم لقيمتها، وهي سمة تميز الحداثة الأوروبية، حيث يمثل موت الإله، لذا من الضروري التمييز بين العدمية كفراغ وخواء في الحياة، وبين العدمية كفقدان للقيم لقيمتها.

فالمعنى الأول لا تعني الوجود أو اللاقيمة، بل تعني قيمة عدم أولاً، وتأخذ الحياة قيمة العدم بناء على مدى نفيها وتقليل قيمتها، وتقليل القيمة يتطلب دائماً وجود خيال وهمي، فبواسطة الخيال والوهم نقل من قيمة الحياة وتعارض معها بشكل ما، وبذلك تصبح الحياة ككل وهمية³، وتظهر كظاهرة فقط، مما يمنحها قيمة العدم بشكل عام، وتعتبر فكرة وجود عالم آخر، يتجاوز الحواس بجميع أشكاله، مثل الله والجوهر والخير والحقيقة، فكرة تمثل العنصر الأساسي لكل خيال.

¹ - Flam Léopold, "Solitude et étrangeté de Nietzsche dans la pensée de Heidegger", Nietzsche aujourd'hui, 1. Intensités, Centre Culturel de Cerisy-la-Salle, Union générale d'édition 10/18, Paris, 1973, p404.

² - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, Le Nihilisme européen, §19, p64.

* - فيلسوف فرنسي بدأ دراسته للفلسفة في جامعة ليون ثم انتقل إلى جامعة فنسين، حيث بدأ في إعداد سلسلة من الدراسات والأبحاث حول تاريخ الفلسفة، كانت أطروحته بعنوان "الاختلاف والتكرار"، والتي سعت إلى إثبات أن مفهوم الاختلاف هو الأساس الحقيقي للفلسفة، وقد انتقد جميع الفلاسفة الذين حاولوا إلغاء الاختلاف، باستثناء كانط، كما أعرب عن دعمه للسفسطائيين واعتبرهم دعاة الاختلاف، بينما هاجم أفلاطون واعتبره سبباً في جعل الفكر البشري يعاني من الجمود والخنوع، وقد التزم بمفهوم الاختلاف أو "الفارق" تأثراً بفلسفة نيتشه، من بين مؤلفاته: "نيتشه والفلسفة" (1962) و"الاختلاف والتكرار" (1968). (أنظر: رحيم أبو رغيغ الموسوي، الدليل الفلسفي الشامل، مرجع سابق، الجزء الأول، 2013، ص515).

³ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Première édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1962, p169.

بمعنى تشير العدمية كإرادة نفي إلى أن الحياة تفتقر إلى القيمة والمعنى، مما يدعو إلى الانسحاب الكامل منها والبحث عن عالم آخر، فالشخص العدمي يتسم بالميل نحو التشاؤم، حيث يعتقد أن الحياة كما هي أفضل أن تكون غير موجودة، وأن الحياة المثالية لا وجود لها أو أنها مجرد وهم، وهذا ما يجعل الحياة تبدو مملّة وضعيفة ومليئة باليأس، وفي النهاية تمثل "تجسيدا لغريزة الانحطاط"¹.

عبّرت الفلسفة الأفلاطونية والديانة المسيحية عن هذا المعنى*، حيث تركز كلاهما على رفض العالم الحسي وإلغاء كل ما هو متغير، وتحتفي بالثوابت والعقل وكل ما هو متعال، في هذا السياق تحتاج العدمية إلى عوالم أخرى، فنحن أمام رؤية تدعي أن لا شيء في هذا العالم له قيمة، مما يؤدي إلى خلق عالم يتضمن الوحدة والذاتية والحقيقة التي تفتقر إليها الحياة الحالية، ومع موت الإله انهار هذا العالم المتعالي وفقدت القيم معناها وأهميتها.

تحمل العدمية دلالة أخرى تُعتبر أكثر خطورة، حيث لم تعد تعبّر عن إرادة النفي فحسب، بل أصبحت تعكس رد فعل موجه ضد العالم المادي والقيم العليا، يتم إنكار وجود هذه القيم وصحتها بشكل كامل، مما يؤدي إلى فقدان أي شيء حقيقي واعتبار كل شيء مباح²، لم يعد الأمر مجرد تقليل لقيمة الحياة بواسطة قيم عليا، بل أصبح تقليلاً لقيمة القيم العليا نفسها، ينتشر هذا المفهوم بشكل واسع، حيث لا يوجد شيء خلف الستار، إن العلامات المميزة التي تُعطى للأشياء الحقيقية هي في الواقع علامات على عدم وجودها، علامات العدم³.

بهذا الشكل ينكر العدمي وجود الله، والخير، وحتى الحقيقة، حيث يرى أن كل ما هو غير محسوس ليس له وجود حقيقي، لا شيء يحمل قيمة، لقد مات الإله، لم يعد عدم الإرادة مجرد تعبير عن إرادة العدم، بل أصبح نفياً لأي رغبة في الحياة، "الثلج يغطي كل شيء، والحياة صامتة بلا معنى، ما الجدوى من ذلك؟ لم يعد هناك شيء ينمو أو يتطور هنا بعد الآن"⁴.

¹- Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, La Morale en tant que manifestation contre nature, §5, p39.

* - تُعرف بالعدمية النافية، وهي تعبير عن إرادة تهدف إلى تقليل قيمة الحياة تحت مسمى القيم العليا، إنها تمثل سيادة اللاهوت والميتافيزيقا والأخلاق بما هي تأويلات وتقويمات وحيدة للوجود، وهي تقويمات تقوم في أساسها على إنكار الحياة، وتقلل من قيمة الجسد والغرائز والرغبات لصالح قيمها الزهدية العليا.

²- Ofelia Schutte, *Beyond Nihilism: Nietzsche without Masks*, First Edition, The University of Chicago Press, Chicago, 1984, P2.

³- Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, La raison dans la philosophie, §6, p30.

⁴- Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Trad: Henri Albert, troisième dissertation, troisième édition, Mercure de France, Paris, 1900, §26, p208.

في كتابه "الكينونة والزمان" Being and Time أشار مارتن هايدغر* (1889-1976) Martin Heidegger إلى تدهور القيم التقليدية وسقوط المثل العليا عن عروشها، مما أدى إلى تحطم الأصنام وفقدان الوجود لأي قيمة، بالإضافة إلى غياب الرؤى التاريخية¹، بناء على ذلك وصف جان فرانسوا ليوتار (1924-1998) Jean-François Lyotard هذا الانحدار بأنه تراجع الثقة في السرديات الكبرى².

عبّرت فلسفة شوبنهاور التشاؤمية عن هذا المعنى** حيث يُعتبر هو الممثل الحقيقي لهذه الفلسفة من خلال طرحه سؤالاً محورياً: هل للوجود معنى واحد فقط؟ هذا السؤال المقلق نشأ من الوعي بكارثة موت الإله، مما يجعله يرى أن الحياة لا تستحق الانغماس فيها أو الاهتمام بها، لأنها قائمة على الأوهام والمعاناة، وبالتالي فهي لا تستحق العيش ولا تحمل قيمة، فالحياة عبثية، ونحن أمام نوع من البشر الأكثر تفاهة في أوروبا، أولئك الذين فقدوا شجاعتهم في أن تكون لهم إرادة وهدف³.

هذا المعنى الثاني لا يمكن استيعابه دون الرجوع إلى كيفية اشتقاقه من المعنى الأول الذي يفترضه، فقد كانت الحياة قبل قليل، تُقلل من قيمتها تحت مسمى القيم العليا، أما الآن فإن الإنسان يجد نفسه وحيداً مع الحياة، التي هي ذاتها التي تم تقليل قيمتها، تستمر هذه الحياة الآن في عالم يفتقر إلى القيم والمعنى والهدف، وتتحرك دائماً نحو عدمها الخاص⁴.

* - فيلسوف ألماني، درس في جامعة فرايبورغ تحت إشراف إدموند هوسرل، مؤسس الظاهريات، أصبح أستاذاً في الجامعة عام 1928، وركز اهتمامه الفلسفي على قضايا الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل، من أبرز مؤلفاته: "الوجود والزمان" (1927)، "المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا" (1961)، "نداء الحقيقة: في ماهية الحرية الإنسانية" (1982)، و"نيتشه" (1983).

¹ - Heidegger Martin, **Être et Temps**, Trad: François Vezin, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1986, pp34-37.

² - Lyotard Jean-François, **Le Postmoderne expliqué aux enfants: Correspondance 1982-1985**, Deuxième édition, éditions Galilée, Paris, 1988, p46.

** تُعرف بالعدمية السلبية أو التشاؤمية، حيث تعبّر عن حالة من الاستسلام للقدر دون أي محاولة للمقاومة، تتجلى هذه الحالة في عجز يُظهر انعدام الإرادة وضعف الحماس، مما يعكس غياب الإرادة بشكل عام، سواء كانت إرادة الإثبات أو النفي، إنها تعكس عدم القدرة على اتخاذ موقف، سواء بالرفض أو القبول، وتُعتبر بمثابة استقالة من الإرادة بدلاً من تحفيزها لابتكار قيم جديدة.

³ - Huan Gabriel, **La philosophie de Frédéric Nietzsche**, sans édition, Ancienne Librairie Fontemoing & Cie, Paris, 1917, p135.

⁴ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p170.

في كتابه "المسيح الدجال" The Anti-Christ يبرز نيتشه أن هذا العالم الخيالي ينشأ من كراهية كل ما هو طبيعي وواقعي، إنه يعكس قلقا واستياء عميقين تجاه الواقع، مما يفسر كل شيء، من هو الشخص الوحيد الذي يمتلك الدوافع للهروب من الواقع عبر الكذب؟ إنه الشخص الذي يعاني من الواقع، ولكن هذه المعاناة تشير إلى أن الفرد يعيش تجربة فاشلة، إن هيمنة مشاعر القرف على مشاعر المتعة هي السبب وراء هذه المتخيلات الأخلاقية والدينية، وهذا النوع من الهيمنة يشكل الأساس الذي يقوم عليه الانحطاط¹.

قبل قليل كانت هناك تناقضات بين الجوهر والمظهر، حيث كان يُعتقد أن الحياة ليست سوى مظهر خارجي، أما الآن فقد تم استبعاد الجوهر مع الإبقاء على المظهر، مما جعل هذه الحياة التي نعيشها تظل سطحية فقط، وبالتالي يركز المعنى الأول للعدمية على إرادة النفي، بينما يتعلق المعنى الثاني بحياة منفصلة تفتقر تماما إلى أي معنى، يمثل المعنى الأول عدمية نافية، في حين يعبر المعنى الثاني عن عدمية منفصلة².

يعتبر نيتشه أن هذه الظاهرة تمثل نتيجة حتمية لمسار تاريخي قدرى³، وذلك عند النظر إلى الأسس الأولى التي بُنيت عليها الحضارة الغربية، والتي تعود جذورها إلى سقراط وأفلاطون، حيث تظهر علامات الانحطاط، وقد حذر نيتشه البشرية من هذه الكارثة التي تلغي كل ما هو إنساني في الإنسان، ففي معناها العميق تصبح الحياة فارغة وعبثية وتفتقر إلى المعنى، إذ فقدت القيم القديمة التي كانت تستند إلى مشروعية متعالية، بشكل عام تمثل العدمية تجربة موت في عالم فارغ، حيث يعاني الإنسان من عواقب قتله للإله.

إنها تجربة وضع حرج غدا را هنا بشكل فضيع، حيث تقترب العدمية الحديثة كأنها انفجار عنيف⁴، وستستقر في النفوس كإحساس مرعب بفقدان المعنى، وتجذب تعبيرا عنها في الملل والضجر، حيث يشعر الإنسان الحديث بالملل من نفسه، إذ لا شيء يحتفظ بقيمته، وكل الأشياء تتساوى، تضعف وتزول.

¹- Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Trad: Henri Albert, septième édition, Mercure de France, Paris, 1908, §15, pp19-20.

²- Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p170.

³- Heidegger Martin, *Chemins qui ne mènent nulle part*, Trad: Wolfgang Brokmeier, Première édition, Librairie Gallimard, Paris, 1962, p.268

⁴- Haar Michel, *Nietzsche et la métaphysique*, Op. cit, p30.

غياب الأهداف النبيلة، بل غياب الهدف ذاته، واختفاء معنى الحياة، يعبر نيتشه عن ذلك بقوله: "سيأتي قريبا يوم سيكلفنا غالبا لأننا كنا مسيحيين لمدة ألفي سنة، نحن على وشك فقدان نقطة ارتكاز تمكنا من الحياة، ولا نعرف إلى أين يجب أن نتوجه"¹.

يُعتبر الانحطاط أقصى تجليات العدمية، حيث يعكس موت الإنسان الأوروبي وانهيائه الروحي والفكري، ويُعد بمثابة انتحار للإنسانية، لقد تلاشت أحلام البشرية في العنور على قوى تعيد إليها الأمل وتساعد في استكشاف ذاتها، والآن تعاني الإنسانية من تبعات الفكر المنحط، الذي ترك الميتافيزيقا تنسج خيوطها العنكبوتية حوله، مما يجعل الإنسانية تبدو أكثر عجزا وخضوعا، في حين يبقى الإنسان بلا مقاومة.

يمكن تلخيص العدمية على أنها المحرك الرئيسي للتاريخ الثقافي الغربي، حيث تتكون من مجموعة من اللحظات وتخضع لعدة مراحل: تبدأ بتأسيس القيم العليا، تليها مرحلة تراجع هذه القيم وانحسارها، ثم تمر بفترة من الوجود الخالي من المعنى والقيمة، لتنتهي بدعوة لإقامة قيم جديدة تحل محل القيم القديمة².

03- استمرار ظلال الإله الميت (أثر خطواته)

أصبح موت الإله واقعا ثقافيا حيث لم يعد هناك من يؤمن به أو بقيمه العليا، سواء من الناحية الأخلاقية أو المعرفية، لكن المشكلة تكمن في استمرار وجود الإيمان به بشكل غير مباشر، مما يجعل البشر متعلقين بنزعات جديدة تخلق آلهة جديدة تسيطر على عقولهم وأجسادهم بأسماء وأشكال جديدة، هذه المحاولات تهدف إلى سد الفجوة التي تركها الإله بقيم جديدة، لكنها لا تتجاوز كونها ظلالا للإله الميت، "إن محاولات الهروب من العدمية دون قلب قيمة القيم، تؤدي إلى توليد النقيض وتجعل المشكلة أكثر تعقيدا"³.

بعبارة أخرى لا يمكننا الهروب بسهولة من هذا الأمر، فتصرفاتنا ورغباتنا وطرق تفكيرنا المعتادة تعيقنا عن الهروب المباشر من عواقب تبني المعتقدات الميتافيزيقية، حتى إذا وصلنا إلى مرحلة لا يؤمن فيها أحد بالله، فإن ذلك لا يعني أن كل ما يرتبط بهذا الإيمان سيختفي معه.

¹- Nietzsche Friedrich, **Œuvres philosophiques complètes XIII: Fragments posthumes**, Textes et variantes établis par, G. Colli et M. Montinari, Trad: de l'allemand par Henri-Alexis Baatsch et Pierre Klossowski, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1976, p261.

²- Heidegger Martin, **Nietzsche**, Trad: Pierre Klossowski, Tome. II, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1971, p224.

³- Nietzsche Friedrich, **Fragments posthumes XIII**, Op. cit, p126.

لقد مات الإله بعد أن ترك مكانه في العالم العلوي، ورغم أن هذا المكان أصبح خالياً، إلا أنه لا يزال يحتفظ بوجوده، إنه مكان يحتاج بطريقة ما إلى أن يُملأ من جديد بقيم جديدة بدلا من الإله الذي غاب، ومع ذلك تكمن المشكلة في أن هذه القيم تُقدم نفسها كمثل عليا*، وقد وصف نيتشه هذه الحالة بشكل مؤسف، حيث ألقى شبابه في بحارهم على أمل العثور على أفضل الأسماء، لكنه اكتشف أنه قد جرف رأس إله قديم¹.

كما أوضح نيتشه في أجزاء أخرى من كتابه "العلم المرح"، فإن قوله بأن الإله قد مات لا يقتصر فقط على المعتقدات الدينية، من وجهة نظره هناك عناصر دينية متجذرة في طريقة تفكيرنا اليومية، والتي قد نكون غير مدركين لها، على سبيل المثال من السهل جدا أن نتحدث عن الطبيعة وكأنها موجهة أو ذات هدف، وعندما نصف الكون بأنه آلة ضخمة، فإننا نفترض وجود مصمم لهذه الآلة.

لذلك يحذرنا من اعتبار الكون ككائن حي، ويدعونا للتخلص من هذه الأفكار ومن همومنا، يتساءل: متى ستتوقف ظلال الإله عن حجب النور عنا؟ ومتى سنتمكن من التحرر تماما من صفة الألوهية المرتبطة بالطبيعة؟² لذلك يأمل أن نعيش كبشر يتفاعلون مع الطبيعة النقية التي تم اكتشافها وتحريرها من جديد.

ربما يكون الأهم في هذا السياق هو افتراض ما يسميه العلماء "الحقيقة الموضوعية"، وهي الطريقة التي يمكن من خلالها رؤية العالم من منظور الإله، ولا نقصد بذلك أنها إحدى وجهات النظر من بين العديد من المقاربات الأخرى، بل هي الرؤية الصحيحة والوحيدة، لذا يشير نيتشه إلى أن التفسير العلمي للعالم، كما يراه العلماء، هو مجرد تفسير واحد من بين تفسيرات متعددة، وهو الأقل غنى بالمعاني الممكنة³، وبالتالي بالنسبة لنيتشه فإن كل معرفة تنبع من وجهة نظر محدودة وغير شاملة.

* - تنطبق على فكرة الواجب في الفلسفة الكانطية، بما في ذلك نظريات السعادة الكونية مثل الاشتراكية، بالإضافة إلى نظريات التقدم والديمقراطية الحديثة.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Deuxième partie, des poètes, p184.

² - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §109, p161.

³ - Ibid, Livre Cinquième, Op. cit, §373, p370.

هناك تيارات تدّعي أنها قطعت صلتها بالماضي، بما في ذلك اللاهوت والفلسفة والأخلاق، لكن الحقيقة هي أنها لم تفعل سوى خلق آلهة جديدة، أو بالأحرى أخرجت الآلهة القديمة من مغاراتها، ولذلك يُشير نيتشه في كتابه "العلم المرح" إلى أنه بعد وفاة بودا* Buddha تم عرض ظله في مغارة لعدة قرون، وكان هذا الظل مخيفاً ورهيباً، فقد مات الإله، لكن هذه هي طبيعة البشر، حيث ستظل هناك مغارات تُعرض فيها ظلاله ربما لآلاف السنين¹، هذه النزعة تسعى إلى إنشاء قيم جديدة، لكنها في النهاية تحتفظ بمكانة الآلهة القديمة.

استمرت القيم التقليدية في الاحتفاظ بمكانتها حتى بعد الثورة الفرنسية وعصر التنوير، بالإضافة إلى الفلسفات العقلانية والإنسانية التي تنتقد مفهوم الإله، ورغم الجهود المبذولة للابتعاد عن مفاهيم الدين والقيم المستمدة من اللاهوت، إلا أن الإنسان لا يزال مرتبطاً بها ويتصرف كما لو أن الإله لا يزال موجوداً، حاول البعض استبدال الأسس القيمية الإلهية بأسس إنسانية، لكن دون جدوى، حيث استمرت القيم القديمة في الهيمنة والسيطرة.

على الرغم من أنها قدمت نفسها بشكل خجول كمن تتحدى الإله، ولم تكن جريئة في ذلك، إلا أنها استبدلت الإيمان بالعقل والإرادة الإلهية بالإرادة الحرة، واستبدلت الأمر القطعي بالأمر الإلهي، وهكذا أصبح الأمر وكأنه إله جديد لا يختلف عن غيره، حيث تدور هذه الفلسفات حول مركز يركز عليه الإنسان، مثل العقل أو الإرادة أو الضمير الأخلاقي أو الحرية أو القانون أو الروح، في هذه الحالة يصبح الإنسان هو مصدر اليقين والحقيقة، لكن في الواقع كل هذه المفاهيم ليست سوى أصنام جديدة تشتت انتباهنا.

يظهر الآن تيار جديد من العدمية يُعرف بالعدمية الناقصة، حيث كانت العدمية في أشكالها السابقة تنفي الحياة بالاعتماد على القيم الروحية والدينية، أما الآن فإن العدمية تنفي هذه القيم التقليدية وتستبدلها بقيم إنسانية، حيث تحل الأخلاق محل الدين وتحل المنفعة والتقدم محل القيم الإلهية، لا شيء قد تغير لأن الحياة بقيت كما هي، العبودية ذاتها التي كانت تسود تحت القيم الإلهية تسود الآن تحت القيم الإنسانية.

* - تاريخياً وُلِدَ بودا حوالي 500 أو 480 قبل الميلاد في شمال شرق الهند، وكان ينتمي إلى عائلة نبيلة من الأمراء، أُطلق عليه اسم سيذارتا عند ولادته، كما عُرف أيضاً باسم غوتوما، وهو أحد الألقاب النبيلة، تُعرف أحداث حياته بشكل جيد، ومن أبرزها تخليه عن ملذات الحياة الدنيا في سن التاسعة والعشرين، وتركه للرهبانية التي كان يعيش فيها، ليكرس نفسه لحياة الكفارة والتوبة، عاش بودا لمدة ثمانين عاماً. (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، الطبعة الثالثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2006، ص 197).

¹ - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Troisième, Op. cit, §108, p161.

إذن الحمار* الذي كان يحمل الذخائر الإلهية، أصبح الآن يحمل قيم إنسانية عدمية، هذه خطوة إضافية في صحراء العدمية، حيث يدعي البعض أنهم يفهمون الواقع، لكن الحقيقة تكمن فقط في الإحاطة بما تبقى من القيم العليا، أي بما تبقى من إرادة العدم، لذا يشير نيتشه إلى ضرورة أن يتعلم هؤلاء كيف يضحكون على أنفسهم، فليس من المستغرب أن يكونوا نماذج فاشلة أو أنصاف فاشلة، لأن نصفهم محطم¹.

يسعى نيتشه إلى التحرر من الاعتماد على الثنائية من خلال إعلانه عن موت الإله، ونتيجة لذلك يتلاشى المركز ذاته، حيث قام بقتل الإله من أجل إحياء العالم، كان العالم متمركزا حول الإله بطرق غير مباشرة، وإذا ما تم قتل الإله فسوف تتلاشى تلك القيم كذلك، وبالتالي يجب أن تأتي قيم بديلة تحل محلها، قيم تجسد إرادة القوة والصحة والإثبات، وتستمد وجودها من الحياة بدلا من العالم الآخر الإلهي أو العقل المجرد.

ثانيا: فرصة للبحث عن معنى جديد

أشرنا في بداية حديثنا إلى أن موت الإله يُعتبر حدثا يحمل دالتين متعارضتين، فهو ينطوي على مخاطرة كبيرة تتمثل في فقدان المعنى، ومع ذلك لا ييأس نيتشه لهذا الأمر كما فعل شوبنهاور، بل يرى في ذلك فرصة عظيمة للتحرر من أوهام الميتافيزيقا وثقل القيم والقيود المرتبطة بالعالم الآخر، ينظر نيتشه إلى هذا الحدث كإشراق جديدة، تمنحنا فرصة لإعادة اكتشاف أنفسنا بالكامل والعيش بصدق في هذا العالم.

في نظر نيتشه كانت هذه الحادثة تمثل فرصة للإنسانية الحديثة للتحرر وابتكار قيم جديدة، ولكن للأسف لم تُستغل هذه الفرصة كما ينبغي، لذا يشير إلى أن العقول الحرة، عند تلقيها خبر موت الإله القديم، تشعر وكأن أشعة فجر جديد تلامس قلوبها، مما يثير مشاعر الامتنان والدهشة والقلق والترقب، فيصبح الأفق صافيا من جديد، وتستعيد سفننا حريتها لاستئناف رحلتها، حيث يصبح البحر مفتوحا أمامنا كما لم يحدث من قبل².

* - في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، يشير نيتشه إلى ظل الإله من خلال حوار بين زرادشت ورئيس الأخبار، حيث يتساءل زرادشت: "كيف استطعت، أيها الحبر الكبير، أن تعبد حمارا كأنه إله دون أن تحون نفسك؟" فيرد الحبر قائلا: "أعتذر منك يا زرادشت، فأنا أعلم أكثر منك عن أمور الإله، ومن الأفضل أن نعبد الإله في صورة حمار بدلا من ألا نعبد على الإطلاق". (Voir la: Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Quatrième partie, la fête de l'âne, §1, pp454-455.)

¹ - Ibid, Quatrième partie, de l'homme supérieur, §15, p426.

² - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Cinquième, Op. cit, §343, pp300-301.

إذا كان نيتشه يشعر بالفرح لموت الإله، فذلك لأن هذا الحدث يفتح أمامنا آفاقاً جديدة، يصبح كل شيء ممكناً، حتى أكثر الآمال جنوناً، يمكن أن تنشأ ثقافة جديدة تتفوق على الثقافة القديمة، انطلاقاً من واقع أنه لم يعد هناك كائن مفارق ليتولى فرضها، إن إلغاء مفهوم الآخرة يُعتبر هبة حقيقية، حيث يحرر الإنسان من قيودها، لذا يشير نيتشه إلى أنه يحمل هدية* للبشرية، وليس الأمر مجرد صدقة بسيطة، فنيتشه يمتلك ثراءً فكرياً يجعله في غنى عن تقديم مثل هذه الهدايا، ولكن الأمر يتعلق بإعادة النظر في الإنسانية، واستعادة الكرامة التي فقدها الإنسان نتيجة الاغتراب** Expatriation

مات الإله، ولكن هذه العبارة ليست مجرد تعليق أو خطاب حوله، بل هي دعوة للإنسان ليصبح حراً ومسؤولاً عن مصيره، وليحدد قيمه بنفسه دون أن يخضع لأي إله يعيقه، هذا هو الهدف الحقيقي لنيتشه في إنكاره للإله، حيث يسعى لتحرير الإنسان من قيود الإله وتشجيعه على أن يكون قوياً ومستقلاً، "ليس نفياً لمجرد النفي، بل هو حب للإنسان"¹، وهذا ما يعلنه من خلال شخصية زرادشت*** Zarathustra عندما يتحدث عن نطق الناس باسم الإله أثناء تأملهم في اتساع البحار، فهو مجرد فرضية، لذا لا تدعوا ذلك يعيق إبداعكم ورغبتكم في الابتكار².

* - إن النور الذي يسعى نيتشه لنشره، والسر الذي احتفظ به لنفسه على مدى عشر سنوات، والنار التي كانت مخفية تحت الرماد هناك على الجبل، والتي يرغب الآن في أن تشمل بها البشرية، هو خبر يبعث على الفرح بالنسبة له، وهو أن الإله قد مات، إنه يسعى إلى إبداع ثقافة جديدة لا تتبع الفكر السقراطي ولا المسيحي.

** - أو الاستيلاء حالة يكون فيها الفرد مملوكاً لشيء آخر غير ذاته.

¹ - Biser Eugen, "Ni antéchrist ni à la recherche de Dieu", Incursion de Nietzsche dans le no man's land "par delà Dieu", Nietzsche Aujourd'hui, 2. passions, Centre Culturel de Cerisy-la-Salle, Union générale d'édition 10/18, Paris, 1973, p269.

*** - مصلح ديني إيراني عاش بين عامي 660 و583 قبل الميلاد، واجه مذهب تحديات من الطبقة الكهنوتية، لكنه وجد الحماية لدى الأمير فشتاسب، مما ساعد على انتشار إصلاحاته تدريجياً، يحتفظ كتاب الأفيستا بمقاطع من أشعاره التي يتحدث فيها مع إله آهورا مزدا، تتميز الزرادشتية بوعي عميق للخير والشر وبحس قوي للاختيار الأخلاقي، وقد اتخذت طابعاً مثنياً مفرطاً على يد أتباعه، حيث اختار نيتشه زرادشت بطلاً لكتابه "هكذا تكلم زرادشت". (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص 343).

يوضح نيتشه سبب اختياره لزرادشت قائلاً: "لا أحد سألني عمّ يعنيه اسم زرادشت على لساني، أي على لسان اللاأخلاقي الأول، اسم زرادشت: ما كان يمثل الطابع الفريد الهائل لهذه الشخصية الفارسية عبر التاريخ هو بالضبط نقيض هذا الذي نحن بصده الآن، لقد رأى زرادشت في الصراع القائم بين الخير والشر الدوَّالِبَ المحرك للأشياء، إن ترجمة الأخلاق ميتافيزيقاً على أنها طاقة، وسبب، وهدف في حد ذاته لهُ من صنيعه". (أنظر: نيتشه فريدريك، هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، الطبعة الثانية، منشورات الجمل، بيروت، 2006، لم أنا قدر، فقرة 3، ص 155).

² - Nietzsche Frédéric, Ainsi parlait Zarathoustra, Op. cit, Deuxième partie, Sur les îles bienheureuses, p117.

يبدو أن موت الإله يفتح أمام الإنسانية فرصة لاكتشاف طريق جديد، حيث يجب عليها وضع سنن جديدة بعد أن فقدت القيم قيمتها¹، كما لاحظ نيتشه فإن العالم قد فقد معناه بموت الإله، ولكن ينبغي علينا ألا نبحث عن مصدر وهمي جديد للطمأنينة، بل يجب علينا أن نخلق قيمة جديدة، وهذا يعني أن هذه الأزمة لا تعزلنا في وضع لا يمكن تغييره، بل تدفعنا للبحث عن جذور الأيديولوجيا التي ساهمت في الانحدار، لنتمكن من خلق قيم تحتفي بالحياة، فإذا أراد الإنسان التحرر من القيود التي كبلته حتى الآن، فعليه أن يتخلص منها ويؤسس قيمه بنفسه.

المبحث الثالث: اختيار خاطئ لاكتساب المعنى

إن فكرة موت الإله في فلسفة نيتشه لا تقدم حلولاً مباشرة لمشكلات الإنسانية، بل بقدر ما تهيئ لها الحلول إذا أرادت أن تصل إلى مرتبة النضج، ومع ذلك لم تستفد الإنسانية الحديثة من هذه الفرصة لتحقيق نضجها الحقيقي، بالنسبة لها فإن غياب الإله يعني أن كل شيء يصبح مباحاً، ولا يوجد مبرر يمنع أو يحرم الذات من أي شيء.

يتحول النقد النيتشوي هنا إلى شكل من أشكال القلق، حيث يواجه الإنسان الحديث مخاطر كبيرة من الفشل إذا اختار الطريق الخاطئ، فإذا انحرف عن المسار الصحيح، قد يجد نفسه مهدداً بالانغماس في أعماق التخلي الرباني الأكثر سوءاً، حيث تتلاشى جميع القيم الأخلاقية، لذلك حان الوقت للإنسان أن يحدد هدفاً واضحاً أمامه، وأن يزرع ما ينمو من أعماق رغباته، طالما أن الأرض لا تزال تحتفظ بجزء من خيراتها، لأن هناك يوماً قد نفقد فيه كل شيء.

أولاً: الإنسان الأخير هو واقع تم التنبؤ به

يحذر نيتشه المجتمع الغربي من "الإنسان الأخير"^{*} The Last Human الذي يُعتبر الأكثر احتقاراً بين البشر، هذا الإنسان يعترف بغياب أي أساس للقيم القديمة ويدرك أن الإله قد مات، ومع ذلك يشعر بالإحباط

¹- William E. Duvall, "The Nietzsche temptation in the thought of Albert Camus", History of European Ideas: Vol. 11, No. 1-6, January 1989, P955.

^{*} - كناية عن شخص يشعر بالملل من الحياة بسبب فقدانه للمعنى، ولا يتحمل المخاطر، بل يسعى فقط إلى الراحة والأمان.

من رؤية زوال جميع أشكال الإكراه، لكنه لا يسعى لابتكار قيم جديدة تعكس قيم الفعل، إنه يدرك أنه لم يعد هناك أخلاق أو واجب أو قواعد للحياة، مما يجعله يخلط بين اللاخلاقية واللا أخلاقية* Immorality

إنه تجسيد لوهم الإرادة في شخصه، حتى أصبح عاجزاً عن التفكير في معنى وجوده، يقف متسائلاً عما إذا كان يستحق الحب أو الإبداع أو الشغف، لقد فقد كل القيم المثالية وكل قوته في التغلب على نفسه، لم يعد يمتلك الشجاعة لفعل أي شيء، ولا يسعى وراء أي جديد، ولا يجرؤ على المخاطرة، أصبح ماضيه باهتاً ومليناً بالملل، وقد سئم من اللعبة، تلاشت فيه القوة الإبداعية التي تميز الطبيعة البشرية، وهو يعيش حياة بائسة في الواقع.

إذن الإنسان الأخير هو تعبير عن الشخص الذي شهد جميع مظاهر الموت التي أثرت على المسيحية والقيم الثنائية والميتافيزيقية، هذا الشخص يرفض جميع هذه القيم المطلقة ويتساءل: إلى أين سيتجه في هذا المسار؟ ربما إلى الهاوية، أو ربما من الأفضل أن تكون القيم غير موجودة على الإطلاق، وأن تغيب الإرادة، مما يؤدي إلى انطفاء الإنسان بشكل سلبي، لذلك يعتقد ميشال فوكو** (1984-1926) Michel Foucault أن ما يتضح اليوم، وهو ما أدركه نيتشه، هو ليس فقط موت الإله، بل أيضاً موت الإنسان¹.

هذه الطريقة قضى الإنسان الأخير على كل شيء، حيث تخلى عن المعتقدات التقليدية مثل الإله والعالم الآخر، ورغم ذلك يشعر بأن هذا العالم يفتقر إلى القيمة والمعنى، مما يؤدي إلى تدهور غرائزه القوية، وبما أنه لا يسعى لتحسين وضعه أو تغيير صورته الحالية، فإنه يعيش كطفيلي على الحياة، ورغم أن سلالته لن تنقرض، إلا أنها تشبه البراغيث، وسيكون الإنسان الأخير الأطول عمراً بين البشر².

* - كل ما يتعارض مع قواعد السلوك المعترف بها في زمن ومكان محددين يُعتبر مضاداً لها، والإنسان اللاأخلاقي، هو الذي لا يقر بالقيم الأخلاقية السائدة ويسعى إلى عكسها. (أنظر: إبراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، د. ط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص 158).

** - مفكر فرنسي حصل على شهادة التبريز في الفلسفة، وعمل كأستاذ في كلية الآداب في كليرمون فران قبل أن يتولى كرسي تاريخ مذاهب الفكر في الكوليج دي فرانس بباريس، وقد توقف كفيلسوف عند الحدود غير المعروفة كثيراً بين الإستمولوجيا وتاريخ العلوم والأفكار، مستكشفاً الأحداث التي شكلت عقلانية الحضارة الحديثة منذ بداية القرن السابع عشر، من بين مؤلفاته: "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" (1961)، "ولادة العيادة" (1963)، "أركيولوجيا المعرفة" (1969)، "إرادة المعرفة" (1976)، و"تاريخ الجنس" (1984). (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص 469).

¹ - نقلاً عن: نور الدين الشابي، فوكو قارناً نيتشه: حول التأويل والجينولوجيا والمعرفة، الطبعة الأولى، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت، 2016، ص 51.

² - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Première partie, le prologue de zarathoustra, §5, p18.

لا مفر من هذا الواقع المؤلم، حيث ينتهي الإنسان الأخير في النهاية بلا قيمة وبدون معايير يحكم بها على ذاته، سيجد نفسه محاصراً باليأس وعاجزاً عن الخروج من هذه الحالة، ولن يتمكن من العثور على مخرج، فما الذي يمكن فعله في مثل هذه الظروف؟ وما الذي سيتخلى عليه؟

من المعروف أن التراث الأخلاقي الغربي، وبالأخص في مجالات اللاهوت والفلسفة، يعتمد على تمييز ثلاث فئات من القدرات: المعرفة، العمل، والعاطفة، يتم تحديد السلوك الجيد بناءً على هذه القدرات، حيث ينبغي على الإنسان أن يتحلى بالأخلاق من خلال معرفته بالحكمة، وممارسته للشجاعة، وقدرته على التحكم في انفعالاته من خلال الاعتدال، يجب أن تُعطى كل قدرة دورها المناسب بشكل عادل، وأن تُمارس الفضائل بشكل صحيح لتحقيق الثواب الذي تستحقه.

في الفلسفة اليونانية القديمة، كان أفلاطون يرى أن الإنسان يمتلك ثلاث قوى رئيسية: العقل، والغضب، والشهوة، وعندما تتوازن هذه القوى، تتشكل الفضائل التي تتمثل في الحكمة، والشجاعة، والعفة، من خلال تحقيق التوازن بين هذه الفضائل الثلاث يتحقق العدل، الذي يظهر في أداء هذه القوى لوظائفها بشكل معتدل، لذلك يعتبر أفلاطون أن أصول الفضائل تتلخص في أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدالة¹.

يتناغم التراث الأخلاقي المسيحي بشكل كبير مع التراث الأخلاقي اليوناني، في كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية^{*}، تتقارب الفضائل اللاهوتية الثلاث: الإيمان، والرجاء، والمحبة، دون أن تتعارض مع الفضائل الأربعة التقليدية، لقد كان لهذه الفضائل تأثير عميق على الثقافة الغربية، مما يثير تساؤلات حول ما إذا كانت ستظل قائمة بعد وفاة الإله.

¹ - أفلاطون، جمهورية أفلاطون، ترجمة: فؤاد زكريا، الكتاب الرابع، د.ط، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004، ص 305.

^{*} - تعتبر الفضائل الإلهية جوهر الفعل الأخلاقي المسيحي، حيث تنعش هذا الفعل وتمنحه تميزه، إنها التي تعطي للفضائل الأخلاقية شكلها وتحييها، ويمنح الله بها المؤمنين القدرة على السلوك كأبنائه، مما يؤهلهم للحياة الأبدية، تمثل هذه الفضائل عربون حضور الروح وتأثيرها في قوى الإنسان، وتنقسم الفضائل الإلهية إلى ثلاث: الإيمان، والرجاء، والمحبة. (أنظر: المعهد الإكليريكي للبطريركية اللاتينية *Seminary of the Latin Patriarchate of Jerusalem* التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية المقدسة، الفصل الثالث، المقال السابع الفضائل (1803-1876)، رقم: 1813.

(<https://www.slpj.org/cateshism-catholic-church>)

سيكون وضع أخلاق الإنسان الأخير قبل كل شيء، وصفا لما تكون هذه الفضائل لديه، وستفحصها نيتشه واحدة بعد الأخرى، وعندما ننظر إلى هذه الفضائل بعناية، نجد أن الأشخاص الآخرين هم الذين يتخلون بإرادتهم عن جميع الفضائل التي كانت تعتبر مهمة في الماضي، وبالتالي لا يترتب عليهم أي واجبات أو التزامات، مما يجعل كل شيء مباحا بالنسبة لهم في هذه الحياة، يمكن تلخيص هذه الفكرة من خلال العبارة اليايسة التي ذكرها فيودور دوستويفسكي* (1821- 1881) Fyodor Dostoevsky "إذا لم يكن هناك إله، فكل شيء مباح"¹.

كيف استقبل الناس نيتشه من خلال شخصية زرادشت؟ تعرض للسخرية والاستهزاء، وارتفعت أصوات التهليل من الحشد** دون أي خجل، وصل الأمر إلى حد تهديده بالقتل إذا تجرأ على تكرار خطابه، مما أدى إلى طرده من المدينة بسبب كثرة مبغضيه، كان أهل الصلاح والعدل يكرهونه ويعتبرونه تهديدا للناس، لذا كان عليه أن يغادر، وإلا فلن ينجو في المرة القادمة².

على الرغم من عدم قدرته على جذب الناس إليه، إلا أن ذلك لم يدفعه إلى الاستسلام، فنيته روحه صافية تغمرها الأنوار، تشبه تلك التي تضيء قمم الجبال في صباح الباكر، يدرك أنه قد لا يتمكن الجميع من فهم دروسه***، وقد يُنظر إليه على أنه مجرد مهرج، لكنه يؤمن بأن هناك بعض الأفراد القادرين على استيعابه، لذا يشير إلى أنه ينبغي ألا يكون الفراغ عائقا أمام الشخص كي يتمكن من توليد نجمة راقصة³.

* - روائي وكاتب قصص قصيرة وصحفي وفيلسوف روسي، يُعتبر من أبرز الكُتّاب والمؤلفين على مستوى العالم، تتميز رواياته بفهم عميق للنفس البشرية، كما تقدم تحليلا دقيقا للحالة السياسية والاجتماعية والروحية في روسيا خلال القرن التاسع عشر، وتتناول مجموعة متنوعة من المواضيع الفلسفية والدينية.
1 - دوستويفسكي فيودور، الأعمال الأدبية الكاملة: الإخوة كارامازوف، ترجمة: سامي الدروبي، المجلد السادس عشر، الطبعة الثانية، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص8.

** - هو حشد من الجماهير وجده زرادشت عندما وصل إلى المدينة وهي أقرب المدن إلى الغابة، كانت الساحة مليئة بالعديد من الأفراد الذين أعلنوا سابقا عن عرض بهلواني سيقام هناك، استغل زرادشت هذا التجمع ووقف بين الحشود ليخاطبهم. (Voir la: Nietzsche Frédéric, Ainsi parlait Zarathoustra, Op. cit, Première partie, le prologue de zarathoustra, §3, p11.)

2 - Ibid, Première partie, le prologue de zarathoustra, §8, p23.

*** - "إنهم لا يستوعبون ما أقوله، فأنا لست الصوت الذي تحتاجه آذانهم... أشعر وكأنني أتحدث إلى رعاة الماعز في هذه اللحظة". (Voir la: Ibid, §5, p17.)

3 - Nietzsche Frédéric, Ainsi parlait Zarathoustra, Op. cit, Première partie, le prologue de zarathoustra, §5, p18.

ثانيا: الإنسان الحديث ليس إلا تجسيدا للإنسان السابق

يعتبر نيتشه أن الإنسان الحديث هو نتاج مسار فكري وأخلاقي استمر لأكثر من ألفي عام، ويعتقد أنه يمثل نهاية للفلسفة المثالية والديانة المسيحية، مما يعني نهاية لتقويم القيم¹، فقد أنكر الإنسان الحديث القيم السائدة ولم يستبدلها بقيم جديدة كان من المفترض أن تحل محلها، ما يترتب على ذلك هو أن الحياة ستصبح عبثية، مما يؤدي إلى فقدان المعنى والقيمة والهدف فيها².

اعتقد الإنسان الحديث أنه بالتخلص من فكرة الإله، سيتمكن من التحرر من القيود والعقبات، ولكن الحقيقة هي أنه بقتله للإله فإنه قد قتل نفسه أيضا، لأنه إذا لم يكن هناك إله، فإن حياة الإنسان ستصبح عبثا³، وستصبح كل الأمور التافهة والخالية من القيمة مجازة، بل سعى أكثر من ذلك إلى إعادة التمسك بظلال لرؤوس آلهة قديمة بطرق غير مباشرة.

في الواقع كان هذا هو موقف العديد من الأخلاقيين في القرن التاسع عشر، الذين أصروا على الحفاظ على الإلهام المسيحي في الأناجيل الحديثة بعيدا عن قواعده الدينية^{*}، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك تيارات ذات إلهام اشتراكي تنتقد الأيديولوجية البرجوازية، لكنها لا تزال تحتفظ بقيمها، وفي بعض الحالات حتى بالقيم المسيحية.

لذلك يعبر نيتشه عن مشاعر الكراهية والاشمئزاز تجاه الإنسانية الحديثة، التي يراها حقيرة وصغيرة ومنحطة، وغير قادرة على التطور والتجاوز نحو إنسانية أكثر رفعة، يرى أن هذه الإنسانية تسعى للارتقاء ليس من خلال استكشاف ذاتها، بل من خلال الانغماس في عوالم مفارقة أو في ممارسات دينية وأخلاقية، وهذا ما دفعه للتساؤل

¹- Fink Eugen, **La Philosophie de Nietzsche**, Trad: Hans Hildebrand et Alex Lindenberg, sans édition, Les Editions de Minuit, Paris, 1965, p78.

²- سليمة قايد، النزعة العدمية عند نيتشه: حقيقتها، أسسها ومخاطرها على الإنسان المعاصر، مجلة التدوين، المجلد 14، العدد 1، جامعة وهران 2
مُجد بن أحمد، الجزائر، جويلية 2022، ص 189.

³- « L'homme moderne croyait qu'en se débarrassant de Dieu, il se libérerait de tout ce qui l'étouffait et le contraignait. Mais au lieu de cela, il découvrit qu'en tuant Dieu, il n'avait réussi qu'à se rendre orphelin. Car si Dieu n'existe pas, alors la vie de l'homme est absurde. », William Lane Craig, **L'absurdité de la vie sans Dieu**. Article électronique télécharger, Le 22/04/2024.

(<https://www.reasonablefaith.org/translations/french/popular-articles/labsurdite-de-la-vie-sans-dieu>)

^{*} - كما هو الحال مع سان سيمون (1825-1760) في المسيحية الجديدة، أو أوغست كونت (1857-1798) Auguste Comte (1857-1798) في دين البشرية.

بدهشة واستنكار في كتابه "العلم المرح": كيف يمكن لنا أن نكتفي بالإنسان الحالي؟¹، إذن ما الذي يحتقره في الإنسان الحديث؟

إن الشجاعة هي فضيلة النشاط التي تتراجع عند الإنسان الحديث، بعد أن تخلى البشر عن مواجهة قوى الطبيعة، نتيجة لذلك أصبحوا يفتقرون إلى المرونة والقدرة على تحديد متطلباتهم الأخلاقية بأنفسهم في ظل الظروف الصعبة، يصف نيتشه هؤلاء الأفراد بأنهم يبتعدون عن الأماكن التي تفرض عليهم قسوة الحياة بحثا عن الدفء، وفي هذا السياق يتفاعل كل فرد مع جاره، حيث يظهر الخوف والمرض كأخطاء في نظرهم.²

لذا بدلا من أن يستوعبوا قوى الطبيعة وأحداثها، ويفهموا الأعباء الثقيلة للحياة، ويقبلوا عليها بشجاعة وإصرار، ويشعروا بأنهم قادرون على مواجهتها، يلجأ البعض إلى وسائل ضعيفة مثل السلام والمساواة في محاولة لتجنب هذا الواقع قدر الإمكان، ومع تزايد عجزهم وضعف إرادتهم، يشعرون بالاستياء تجاه الوجود والحياة، ويجدون السعادة في الفناء والتخلص من إرادة الحياة، نحن أمام إنسان ضعيف وهش ومريض، ولذلك يصف نيتشه هذا الوضع بتلك الأرض التي تمتلك جلدا، وهذا الجلد يعاني من أمراضه، وأحد هذه الأمراض يُعرف بالإنسان.³

وفقا لتقديرات نيتشه تبدو الإنسانية الحديثة أضعف من سابقتها، حيث تخلت البشرية عن طابعها المهيبة وأصبحت تبدو أصغر حجما وأكثر ضعفا، ومع ذلك يجب أن ندرك واعين أن تصغير وتبسيط الإنسان الأوروبي يخفيان خطرا كبيرا يهدد المجتمع الغربي، هذا المشهد يثير شعورا بالإرهاق والإحباط، إذ يبدو أن كل شيء يتجه نحو الانحدار والتدهور، ويصبح كل يوم أكثر ضعفا وهشاشة، لذلك يصف نيتشه حالة الإنسان اليوم بأنها تثير الإحباط في نفوسنا، وقد تكون العدمية مجرد تعبير عن هذا الإحباط ذاته، لقد سئمنا من الإنسان.⁴

¹ - نيتشه فريدريك، العلم المرح، ترجمة: حسان بورقية ومحمد الناجي، الكتاب الخامس، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1993، الصفحة الكبرى، فقرة 382، ص 249.

² - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Première partie, le prologue de zarathoustra, §5, p18.

³ - Ibid, Deuxième partie, des grands événements, p187.

⁴ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §12, p47.

يتخلون عن الحكمة، التي تُعتبر الفضيلة الأساسية للإنسان العاقل، وبما أنهم لا يهتمون كثيرا بالتبشير، وغير مستعدين للنضال كما فعلت أجيال من الفلاسفة والعلماء والكهنة للدفاع عن معتقداتهم، فإنهم يسعون أولا وقبل كل شيء إلى الاطمئنان وراحة البال، يسود بينهم الحذر، حيث يتعاملون مع الأحداث بسخرية، وعندما يحدث خلاف بينهم، يسعون سريعا إلى حله من خلال التسوية.

أما الحقيقة فليسوا مصرين كثيرا على معرفتها بأنفسهم، بل يفضلون الهروب من الواقع القاسي، ويبحثون عن ملاذ في الأحلام ويتجنبون مواجهة التحديات الصعبة، خاصة مسألة الموت التي يتعدون عنها، كما أشار الفيلسوف بليز باسكال* (1662-1623) Blaise Pascal في النهاية نتناول الكثير من السموم لنموت بطريقة مريحة¹.

يعاني هؤلاء الأفراد من نقص في احترام الذات، وهو تقدير الشخص لجسده وجسد الآخرين، قد لا يكونوا قد تخلوا تماما عن هذا الاعتدال، لكنهم حوّلوه إلى نمط حياة يشبه حياة النساك، مليء بالبؤس والزهد والمعاناة، فيعتبرون إيذاء الجسد والذات هدفا، ويستندون في تصرفاتهم إلى شعورهم العميق بالذنب.

بالإضافة إلى ذلك تتميز الإنسانية الحديث برغبتها اللامحدودة في الرفاهية، التي يرونها مصدرا لسعادتهم، يعيش هؤلاء الأفراد لحظات من الفرح خلال النهار وأخرى في الليل، ويتسمون قائلين إنهم قد ابتكروا مفهوم السعادة بطريقة جديدة²، إنهم يزيلون شرط المعاناة** في سبيل إدراكها، ويقللون من شأنها ليضعوها في مرتبة الرفاهية.

* - رياضي وفيزيائي ومفكر فرنسي، وُلِدَ في مدينة كليرمون فران في إقليم الأوفران في قلب فرنسا، عانى من أزمة روحية عميقة، وثّقها في ما يُعرف بـ "المذكرة"، حيث بدأها بعبارات مثل: "رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب، لا رب الفلاسفة، يقين، شعور، سرور، سلام، إله يسوع المسيح"، أدت به هذه الحنة إلى الانقطاع إلى الله والارتقاء في أحضان المسيح والامتلاء بالمشاعر الدينية العميقة. (أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، الجزء الأول، ص354).

¹ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Première partie, le prologue de zarathoustra, §5, p18.

² - Ibid, p19.

** - يتشارك الفلاسفة القدماء من الإغريق والمسيحيون في تقديرهم لمكانة السعادة، حيث يسعى الفيلسوف القديم إلى تحقيقها، ويعتبر العاقل هو من قد توصل إليها، كان أرسطو يلاحظ أن الجميع يتفق على أن السعادة هي أعلى قيمة يمكن بلوغها، وقد أكد الأبيقوريون والرواقيون هذه الملاحظة، كما يوجد توافق بين أثينا وأورشليم على أن السعادة ليست بالأمر السهل. (أنظر: بيار هيرب سوفرين، زرادشت نيتشه، مرجع سابق، ص96).

لذلك يعتقد بعض الناس في العصر الحديث أنهم قد حلوا جميع المشكلات من خلال إنكار وجود الإله، ويعتبرون أن الحياة الهادئة كفيفة يجعل الإنسان سعيداً، ومع ذلك ندرك أن جميع الملذات الزائدة التي حققها الإنسان حتى الآن لم تكن سوى عامل في تسريع نهايته، تدريجياً يتحول الأفراد إلى جماعة تسعى وراء رفاهية زائفة، بدلا من التفكير في طرح سؤال المعنى¹ بعد موت الإله، إنهم يتجهون نحو سعادة مؤقتة دون أن يسألوا عن مغزى وجودهم، ويتوقون إلى سعادة فارغة.

بسبب حرصهم على السلام والهدوء يتجاهلون العدالة، حيث يخلطون بينها وبين المساواة، هذا يدفعهم إلى الهروب من الصراعات والنزاعات، فلا يسعون إلى الحكم ولا يقبلون بالخضوع، وكلا الخيارين يسبب لهم الإحراج والإرهاق، حتى في حال وجود راعٍ يسعى ليكون خادماً للقطيع، وقد أشار نيتشه إلى أن أسوأ ما رآه بين هؤلاء الناس هو تظاهر الحاكم بفضيلة المحكومين².

إذن تُحدد قيمة كل شيء وفقاً لحجمه ومقداره، وليس بناء على نوعه وخصائصه، وقد بدأ الناس يتحدثون عن الأغلبية والمجموع وأكبر عدد ممكن، مما يشير إلى أن الحياة الروحية قد فقدت قوتها وأصبحت بالفراغ والفقر.

يشكل الأفراد مجموعات تخضع لقيادة شخص معين، حيث يندمج الفرد في الجماعة ويصبح جزءاً منها، مما يؤدي إلى وجود تشابه كبير بين أعضائها وتكوين ما يُعرف بالقطيع * The herd منذ فجر البشرية كانت هناك دائماً تجمعات بشرية مثل القبائل والمجتمعات والعشائر والشعوب والدول والمجموعات الدينية، ورغم تنوع أشكالها وأسمائها، تبقى هذه المجموعات مترابطة بفضل التشابه بين أفرادها.

لذا يعتقد البعض أن الالتزام بهذه الثقافة يعد وسيلة للحفاظ على الجماعة، حيث يبقى الفرد متمسكاً بأفكاره طوال حياته، ليكتشف في النهاية أنه يدافع عن أفكار الآخرين التي عُرسَتْ في عقله، فمعظم الأفكار والعادات والمعايير التي نتبناها في حياتنا اليومية هي في الحقيقة تجسيد حربي لهذه الثقافة.

¹ - Löwith Karl, Nietzsche, **philosophie de l'éternel retour du même**, sans édition, Calmann-Lévy, Paris, 1991, p59.

² - Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Troisième partie, de la vertu qui rapetisse, §2, p243.
* - تصف هذه العبارة العلاقة الفكرية بين الفرد والمجموعة، وقد استمد هذا المصطلح تسميته من سلوك الحيوانات الاجتماعية، بما في ذلك الإنسان، الذي يدفعها إلى العيش معاً في قطعان وجماعات تستجيب بشكل موحد لمؤثر معين، أو تتصرف بشكل أعمى دون التفكير.

إن انصهار الفرد في إطار الجماعة يعني أن هذه الجماعة ستمنحه شعوراً قوياً بالانتماء والأمان، سيسعى الفرد ليكون مقبولا ومحبويا من قبل أعضاء الجماعة، مما يجعله يميل إلى الالتزام والتقدير بدلا من التحدي والمخاطرة، تصبح الجماعة بذلك ملاذا آمنا يحميه من المخاطر، ومع ذلك قد يؤدي هذا الاندماج إلى تكوين أفراد متشابهين، مما يحد من التفكير ويجعل أساليب الحياة متشابهة، حيث يسود الجمود الناجم عن الخوف من التغيير والتفكير المختلف.

إنها ثقافة تدعم الجمهور والمرضى والمنحطين، بينما ترفض الأفراد المنعزلين والمختلفين، يُنظر إلى أي شخص يختلف عن الجماعة على أنه غير مقبول، مما يجعله مضطرا للذهاب إلى ملجأ للمرضى النفسانيين، في هذه الثقافة يصبح الإنسان مجرد أداة تُستخدم لإعادة إنتاج القيم التي تفرضها الجماعة، مما يمنعه من التعبير عن آرائه بحرية، إنه مجتمع يفتقر إلى القيمة تجاه كل تغيير أو تفسير جديد أو تحول في الذات.

هناك العديد من العوامل الخارجية التي تسهم في هذا التراجع، ومن أبرزها هيمنة الجماهير ونفوذها المتزايد، فقد أصبحت الروح الشعبية تفرض معاييرها على كل شيء، وتسعى لجذب العظماء إلى مستواها، هذه العقلية السطحية تمثل تهديدا كبيرا في عصرنا الحالي، حيث "يبدو أن كل شيء يسقط في الماء ولا يغوص أحد إلى الأعماق"¹.

إذن يموت الإله سيموت معه الإنسان، حيث يصف نيتشه هذه المرحلة التي يتداخل فيها وجود الله مع وجود الإنسان، مما يجعل موت الأول مرادفا لموت الثاني²، فالإنسان الحديث لم يعيش الماضي، بل يعيش الحاضر مستخدما أدوات ورثها عن أجداده، مثل فكرة مركزية العقل وثبات الذات وأخلاق الألوهية وإرادة حرة في جوهرها، ورغم إعلان الإنسان الحديث عن موت الإله، فإنه لا يزال متمسكا بهذه المفاهيم، معتقدا أنه قد تخلص منه إلى الأبد، ومع ذلك فقد قتل هذا الإنسان الإله بالفعل، لكنه لم يكمل عملية دفنه، إذ لا تزال رائحة المفارق تنبعث منه وتؤثر عليه.

¹ - عبد الرحمن بدوي، نيتشه، مرجع سابق، ص 155.

² - فوكو ميشيل، الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون، د.ط، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص 281.

نتائج الفصل:

مفهوم "موت الإله" هو تعبير عن ظاهرة رصدتها نيتشه في القرن التاسع عشر، حيث شهدت مكانة الإله تراجعاً تدريجياً نتيجة للتقدم العلمي والثورات السياسية والتطور الصناعي، بشكل عام يمكن فهم هذه الظاهرة على أنها تراجع لمفهوم الروحانية والآخرة في الحضارة الغربية.

لم تعد أوروبا بحاجة إلى القوة التي تهيمن على العالم، سمها ما شئت كمرجعية للقيم أو النظام الكوني، اليوم الفلسفة والعلوم قادرتان على تحقيق ذلك من أجلنا، وقد دفعت هذه الفلسفة إلى إدراك نيتشه أن البشر قد قتلوه بثورتهم العلمية ورغبتهم في فهم العالم بشكل أفضل.

سيتم الاعتماد على تفسير علمي للوجود، مما سيساهم في بناء إبستمولوجيا حديثة تركز على دراسة أسباب الظواهر، ينطلق هذا البحث من الاعتقاد بأن هذه الأسباب موجودة في العالم نفسه ولا تتجاوزها، ويشمل ذلك جميع ظواهر الطبيعة، فالأسباب الموضوعية التي تتحكم في تطورها موجودة فيها ولا علاقة لها بالقوى الخارقة.

يرى نيتشه أن تدمير النظام القديم للمعنى ينطوي على مخاطر جسيمة، إذ قد يؤدي إلى فقدان المعنى وشعور الأفراد باليأس وعدم الجدوى في حياتهم، كما يمكن أن يسفر عن استمرار الإيمان بشكل غير مباشر، حيث يسعى البشر إلى ملء الفراغ الذي خلفه غياب الإله بقيم جديدة، تظهر كظلال للإله الميت، مما يدفع الناس إلى اتباع آلهة جديدة تحمل أسماء وأشكالاً مختلفة.

يعتقد نيتشه أن الإنسانية الحديثة قد وقعت في الفخ الذي كان يخشاه، حيث تخلت عن القيم السائدة دون أن تجد بديلاً لها، وبدلاً من ذلك لم تفعل سوى خلق آلهة جديدة أو إعادة إحياء الآلهة القديمة، على الرغم من الثورة الفرنسية وعصر التنوير والفلسفات العقلانية والإنسانية التي انتقدت مفهوم الإله، إلا أن القيم السابقة استمرت في الوجود، لذا استمر الإنسان في التصرف كما لو كان الله موجوداً، محاولاً استبدال القيم الإلهية بقيم إنسانية، لكن هذا التحول لم يحدث، وظلت القيم القديمة على حالها.

لكن نيتشه لا يفقد الأمل في هذا الأمر، بل يرى أن هذا الحدث الكبير يمثل فرصة رائعة للتحرر من أوهام الميتافيزيقا وثقل القيم والقيود المرتبطة بالعالم الآخر، إنه يفتح أمامنا آفاقاً جديدة، حيث يمكننا إعادة اكتشاف ذاتنا بالكامل لنعيش بصدق في هذا العالم.

الفصل الثاني:

تحديد جديد لدلالة النقد

المبحث الأول: إعادة توجيه مسار التفكير النقدي

أولاً: نقد تجربة إيمانويل كانط

ثانياً: تحويل النقد من الإستمولوجيا إلى الجنيالوجيا

المبحث الثاني: تصحيح مسار القراءة والكتابة

أولاً: الفيلولوجيا فن دقيق للقراءة الجيدة

ثانياً: مسار جديد للكتابة الجيدة

المبحث الثالث: إدخال الزمن في عملية التفكير النقدي

أولاً: قيمة التاريخ بالنسبة للحياة

ثانياً: الحس التاريخي هو الأداة المفضلة للجنيالوجيا

نتائج الفصل.

تعتمد فلسفة نيتشه بشكل أساسي على النقد الجذري للثقافة الغربية، بهدف تحريرها من الميتافيزيقا التي تميز التاريخ الغربي بشكل عام، يشمل هذا النقد جميع جوانب الثقافة، فهو أسلوب في التفكير يتخذ موقفاً ضد منطق التعميم والكلية والنسقية والانغلاق الذي يستبعد الصيرورة، وكأسلوب في القراءة والتأويل، يتخذ شكل التمرد ضد الاتجاهات ذات أحادية الجانب التي تنفي الاحتمال والرؤية المنظورية المتعددة، وكأسلوب في الكتابة يشهر نفسه إلى تحطيم مجمل نظم الكتابة وهيمنة اللوغوس التي تقصي تعاليم الجسد.

ينبع هذا النقد من قناعة راسخة لدى نيتشه بأن الميتافيزيقا تلخص في نظره، جميع الأخطاء* التي ارتكبتها العقل البشري عبر التاريخ، فقد تسربت هذه الأخطاء إلى آليات التفكير والتصورات البشرية حول الطبيعة والوجود، نتيجة لعوامل مثل المنفعة والعادة والنسيان¹، حتى أصبحت حقائق موضوعية تحمل طابعا أنطولوجيا يصعب تجاوزه، ولتحقيق هذا النقد يتطلب الأمر اقتلاع الميتافيزيقا من جذورها وإعادة تشكيل الثقافة الغربية بشكل كامل.

المبحث الأول: إعادة توجيه مسار التفكير النقدي

أحدث التفكير الثوري الذي طرحه نيتشه تحولا في مسار العقلانية الأوروبية، حيث أزاح الستار أمام اختراق الخطوط الحمراء في كل شيء، ولم يعد هناك ما يُعتبر مقدسا، جاء ذلك من خلال تحليل نقدي تاريخي للميتافيزيقا التي ظهرت منذ عصر سقراط، كانت الميتافيزيقا تدعي عادة قدرتها على فهم موضوعات تتجاوز حدود التجربة، وأن هذا الفهم العميق ينشأ من طبيعة العقل البشري، ومع ذلك كان الهدف من نقدها هو إسقاط ادعاءاتها بالترفع والارتقاء عن العالم الدنيوي.

* - يمكننا أن نعتبرها علما يركز على الأخطاء الأساسية التي يرتكبها البشر، لكنه يتعامل معها وكأنها حقائق ثابتة. « The science which treats of the fundamental errors of mankind, but treats of them as if they were fundamental truths.» (See the: Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human: A Book for Free Spirits**, Trans: Helen Zimmern, with introd. by J. M. Kennedy, vol. I, First Edition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1910, §18, p33.)

¹ - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, première dissertation, §2, p21.

أولاً: نقد تجربة إيمانويل كانط

يبدو أن الحديث عن نقد الميتافيزيقا عند نيتشه يصعب دون الرجوع إلى تجربة كانط في تصويره لمنهج النقد، فقد يثيرنا سؤال لماذا كانط بالذات؟ لأنه اعتبر أن عصرنا هو عصر النقد الذي يجب أن يطال كل شيء¹، فالدين والتشريع يحاولان دائماً التبرير بقدسيتهما ورفعتهما، لكنهما يثيران شبهات مشروعة، ولا يستطيعان الوصول إلى التقدير الصادق، إلا إذا تم تمكين العقل من ممارسته للنقد بحرية.

في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه "نقد العقل الخالص" (1781) The Critique of Pure Reason أوضح أن وظيفة النقد لا تتعلق بنقد الكتب، بل بنقد قدرة العقل ذاته²، ولذلك أشار إلى أنه يركز على قدرة العقل في استنتاج المعارف التي لا يمكن الوصول إليها من خلال التجربة، وبالتالي يسعى إلى تحديد إمكانية الميتافيزيقا ومصادرها ونطاقها وحدودها بناء على مبادئ محددة.

ولذلك كان كانط أول فيلسوف أدرك أهمية النقد الذي يجب أن يكون شاملاً بلا استثناء، وكذلك إيجابياً لا يحد من قوة المعرفة دون تحرير القوى الأخرى المهملة³، ولكن ما هي النتائج المترتبة على هذا المشروع الكبير؟ هل يعتقد القراء حقاً أن انتصار كانط على المبادئ العقائدية للاهوتيين في "نقد العقل الخالص" يضر بالمثل الأعلى؟ وهل كان لدى كانط أي نية للإضرار به؟

لكي يتجاوز كانط إشكالية الميتافيزيقا، قام بتمييز بين عالم المعرفة ومجال التفكير، يجب على عقلنا أن يعمل بطريقة تمنع الخلط بين الاثنين، فالعقل مؤهل لفهم العالم الظاهري ويملك الأدوات اللازمة لذلك، بينما الأشياء في ذاتها لا يمكن للعقل إلا أن يفكر فيها، من الخطأ الادعاء بأنه يمكننا معرفتها، لأن الآليات التي يستخدمها العقل صالحة فقط في نطاق العالم الظاهر، بناء على ذلك يستنتج كانط أن العقل غير قادر على إدراك حقيقة الشيء في ذاته، بل يمكنه فقط معرفة العالم الظاهر المرتبط بالزمان والمكان.

¹ - Kant Emmanuel, **Critique de la Raison Pure**, trad: Jules Barni, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1986, p33.

² - كانط عمانوئيل، **نقد العقل المحض**، ترجمة: موسى وهبة، الطبعة الأولى، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص ص 26-27.

³ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p102.

إذا كان كانط يعتبر النقد وسيلة موجهة ضد الميتافيزيقا التقليدية، فإن نيتشه يرى أن هذا النقد هو في الواقع استمرار للميتافيزيقا، لأنه لم يتخلص من الثنائيات في تفكيره، وبالتالي لم يكن لفلسفته النقدية هدف في إحداث تغيير حقيقي، إذ تفترض في عمقها انقسام الواقع إلى عالمين مختلفين ومتفاضلين نوعياً، وهو ما يمثل في نظر نيتشه جوهر الفكر الميتافيزيقي، ولذلك لا ينتقد كانط الميتافيزيقا الدوغمائية* Dogmatism بل يعيد بناء الميتافيزيقا على أسس جديدة مستمدة من دراسة العقل نفسه، حيث تصبح الميتافيزيقا علم حدود العقل¹.

من ناحية أخرى لم يتمكن كانط في رأي نيتشه من تحقيق النقد الحقيقي، لأن هذا النقد يتضمن تناقضاً أساسياً، كيف يمكن للعقل أن يكون ناقداً وموضوعاً للنقد في الوقت نفسه؟ وكيف يمكن له أن ينشطر إلى قسمين، أحدهما ينتقد والآخر يخضع للنقد؟ هذا ما صرح به في الفقرة الثالثة من كتابه "الفجر"، حيث تساءل بدهشة، أليس من الغريب أن نطلب من أداة أن تنتقد كما لها وأهليتها؟ ومن العقل أن يعرف قيمته وقوته وحدوده؟ أليس ذلك شيئاً غير معقول؟².

وفي الكتابات الأخرى يتكرر الطابع الساخر الذي يستهزئ بفكرة نقد ملكة المعرفة، كيف يمكن للأداة أن تنتقد نفسها إذا كانت تعتمد على ذاتها؟ وكيف يمكن للعقل الذي أخطأ في الماضي أن ينتقد نفسه؟!، ولذلك يعتبر نيتشه هذا الأمر مضحكاً، حيث يطالب فلاسفتنا بضرورة بدء الفلسفة بنقد ملكة المعرفة، وأن يكونوا حذرين من نتائج المعرفة السابقة، وأن ينتقدوا ذواتهم بأنفسهم!³

* - أو الوثوقية: حيلة فكرية مخاتلة قائمة على تأكيد المرء لمعتقداته بأمر وسلطان، دون الاعتراف بإمكانية وجود نقص أو خطأ فيها، أو بأن تطويرها يعد ضرورياً لضمان استمرارية فعاليتها. (أنظر: لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلد الأول A-G، الطبعة الثانية، منشورات عويدات، بيروت - باريس، 2001، ص ص 297-298)، على سبيل المثال، يمكن للإنسان أن يدرك ما يتجاوز التجربة من خلال العقل، حيث إن العقل هو الذي يقوم بالنقد والتعديل والتغيير، ولا يوجد ما يمكن أن يتعارض مع أحكامه، فهو السلطة العليا، فمثلاً يعتبر أفلاطون أن عقلنا يرتقي بالطبيعة إلى معارف سامية لا يمكن أن توفرها لنا التجربة.

¹ - Ferdinand Alquié, *La Critique kantienne de la métaphysique*, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1968, p7.

² - Nietzsche Frédéric, *Aurore*, Trad: Henri Albert, Avant-propos, Première édition, Société dv Mercvre de France, Paris, 1901, §3, p8.

³ - Nietzsche Friedrich, *Fragments posthumes XII*, Op. cit, p35.

كان تصوّر كانط في نقد العقل الخالص، نقدا داخليا وفي الوقت نفسه محايدا للعقل باستخدام العقل نفسه، دون الحاجة إلى الشعور أو التجربة أو أي جهة خارجية أخرى، وبهذا لم يعد المنتقد خارج نطاق العقل، وهنا تكمن التناقضات التي لاحظها نيتشه، حيث جعل العقل هو القاضي والمتهم في الوقت نفسه، لذلك يشير إلى أنه لم يحدث أن رأينا عقلا عاجزا عن البرهان¹.

يبدو أن العقل غير قادر على تحديد استعداداته وحدوده بنفسه، فهو لا يختلف عن الأدوات الأخرى التي يمكن مقارنته بها، لا يمكن للعقل أن يقوم بنقد ذاته بمفرده، لأنه لا يمكن مقارنته بعقول أخرى ذات تكوين مختلف، بالإضافة إلى ذلك فإن قدرته على المعرفة لا تتجلى إلا في وجود الواقع الحقيقي، لذلك لكي نقدر العقل يجب أن نكون كائنا ذو معرفة مطلقة، مما يتطلب الاعتراف بوجود شيء في ذاته يتجاوز نطاق الملاحظة الحسية والذهنية².

من ناحية أخرى يتضح أن لهذا النقد أسسا أخلاقية ولاهوتية تتجلى من الداخل، حيث يلاحظ نيتشه في كتابه "ما وراء الخير والشر" Beyond Good and Evil أن الهدف الحقيقي من وضع المقولات لكانط لم يكن نظريا بالفعل كما يدعي، يتمثل في الإجابة عن سؤال: كيف يمكن للأحكام التأليفية قبلها أن تكون؟³، بل كان هدفا عمليا، وهو إنقاذ الميتافيزيقا، وبالتالي إنقاذ الأخلاق معها، وكان ذلك بمثابة مضاد حيوي لها⁴.

بشكل ظاهري يعلن كانط أن اكتشافه لهذه المقولات يضع حدا لادعاءات الميتافيزيقا التقليدية التي تدعي قدرتها على معرفة الأشياء في ذاتها، وذلك من خلال إظهاره عدم انطباق هذه المقولات على موضوعات الميتافيزيقا المزعومة، ولكن الهدف الحقيقي من وجود المقولات في النهاية هو تأكيد وجود ملكة أخلاقية.

إذن باسم العقل العملي، قام كانط بابتكار عقلا مقصودا للحالات التي لا تتطلب الاهتمام بالعقل، حيث تكون حاجة القلب والواجب والأخلاق هي التي تتحدث، ويمكنه تجاوز حدود كل تجربة ممكنة دون مخاطر، بفضل خصائصه الكانطية، يمكن للعقل العملي الذي يؤمن بوجود الله وخلود الروح، أن يشكل ميتافيزيقا عملية مبنية على عالم مفارق للعالم المحسوس، حيث يكون أساسه قانون أخلاقي، وبالتالي فكان لا يعدو كونه غير لاهوتي

¹ - Charles Andler, **Nietzsche, sa vie et sa pensée**, Vol. III, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1979, p397.

² - Nietzsche Friedrich, **Fragments posthumes XII**, Op. cit, p190.

³ - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil: Prelude to a Philosophy of the Future**, Op. cit, Prejudices of Philosophers, §11, P16.

⁴ - Sarah Kofman, **Nietzsche et la Scène Philosophique**, Deuxième édition, Éditions Galilée, Paris, 1986, p277.

مجدّد¹، ذو الميل البروتستانتي * Protestant إن حلم كانط ليس إلغاء التمييز بين العالمين، المحسوس وما فوق المحسوس، بل هو نجاح لاهوتي بامتياز.

بتعبير آخر عندما يتعلق الأمر بحاجتنا الدينية والأخلاقية، يتنازل العقل النظري عن حقه في التحليل والنقد، ويفسح المجال أمام العقل العملي، هذا الأخير لا يهدف إلى النقد بقدر ما يسعى إلى طمأنة النفس، لأن "الإمبراطورية الأخلاقية"² كما وصفها نيتشه، غير قابلة للبرهنة والاعتراض طالما بقيت خارج نطاق الفهم.

بالنسبة لنيتشه يعني ذلك أن كانط لم يعتمد على النقد من أجل العلم، بل كان يهتم من جهة بالعقيدة والأخلاق، ومن جهة أخرى يبدو أن كانط في نقد العقل العملي يستعيد المطلقات التي كان يعتقد أن النقد العقل الخالص قد دمرها، بالإضافة إلى ذلك يعود سبب جعل العالم الأخلاقي خارج نطاق النقد إلى قناعة كانط بأنه قد يتعرض للتشويه أمام أي محاولة نقدية جادة³.

لكي يمنع نيتشه الوصول إلى العالم الأخلاقي عبر الطريق الكانطي، استند إلى موقف شوبنهاور واعتراضه على العقل العملي، في رأي شوبنهاور كان ينبغي على كانط أن يخضع العقل العملي للحدود التي يفرضها مبدأ السبب الكافي، ومن خلال هذا النقد، يطرح نيتشه تساؤلات حول كيفية خضوعنا نحن البشر لقوانين تأتي من عالم يتجاوز الظواهر؟ وعن طبيعة العلاقة التي تربط بين عالم الظواهر والشيء في ذاته، إذا كان مبدأ العلية ينطبق فقط على الأشياء الحسية؟ ويؤكد أنه لا يوجد أي اتصال بين العالمين⁴.

إن تحليل نيتشه للنقد الكانطي أدى به إلى الاعتقاد بأن هذا النقد لا يمثل النقد الحقيقي، حيث أنه لم يرى من قبل نقدا شاملا وكليا أكثر تسامحا، فالعقل الذي يتحرك بإرادة سلبية يسعى فقط إلى تهدئة النفس، بدلا من التطلع إلى النقد الحقيقي الأكثر جذرية.

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p106.

* - مذهب ديني مسيحي نشأ نتيجة حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوتر (1483-1546م)، يهدف هذا المذهب إلى تحرير الفرد من سيطرة الكنيسة، مما يجعله مسؤولا أمام الله تعالى وحده، وقد تبنت هذا المذهب عدد من الكنائس مثل الكنيسة الإنجيلية والمعمدانية وغيرها، في حين تقابلها الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية الشرقية.

² - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Avant-propos, Op. cit, §3, p9.

³ - جمال مفرج، الإرادة والتأويل: تغلغل النيتشوية في الفكر العربي، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009، ص34.

⁴ - Charles Andler, **Nietzsche, sa vie et sa pensée**, Op. cit, p398.

ثم إن لهذا النقد حدودا في نظر نيتشه، حيث اعتبر أن كانط لم يفعل غير أن دفع إلى الحد الأقصى تصورا قديما للنقد، فقد تصور النقد كقوة يجب أن تستهدف جميع الطموحات نحو المعرفة والحقيقة والأخلاق، لكن ليس المعرفة والحقيقة والأخلاق بحد ذاتها¹، بالنسبة لنيتشه يبقى النقد الكانطي الذي يدعي الكلية، نقدا جزئيا وشكليا، ولا قيمة له ما لم يهاجم النقد المثال ذاته.

لذلك يمكن القول إن كانط لم يكن مختلفا كثيرا عن أولئك الذين ينتقدون أخلاق شعب معين، حيث يعتقدون أنهم ينتقدون الأخلاق ذاتها، وبالتالي فإن نيتشه لم يكن يفضح فضيلة مزيفة، بل كان ينتقد الفضيلة نفسها، وإذا كنا نكتفي بانتقاد الفضيلة المزيفة، فإننا سنكون نقادا ضعفاء، إذ أن هكذا نقد هو نقد قاضي صلح، حيث نتقد السلطة وندين الاعتداءات على الممتلكات، لكن الممتلكات بحد ذاتها تبدو لنا مقدسة، وهذا ينطبق أيضا على المعرفة².

من هنا يتحول النقد الشامل إلى سياسة تسوية، حيث يتم تقسيم مناطق النفوذ قبل الانخراط في الحرب، يتم التمييز بين ثلاثة مثل عليا رئيسية: ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا علي أن أفعل؟ ماذا يمكنني أن أمل؟، يتم تقليل كل منها وفضح الاستخدامات السيئة والتجاوزات، ولكن الطابع الغير قابل للنقد هو المثال الأعلى ذاته، المعرفة والأخلاق، والدين، لذلك ليس لنقد كانط من موضوع غير التبرير، وهو يبدأ بالإيمان بما ينقده³، لذا يفكر نيتشه في هذا المجال وغيره، أنه اكتشف المبدأ الوحيد الذي يمكن استخدامه لنقد شامل لما يسميه "منظوره"، وهو أنه لا توجد حقيقة أخلاقية، بل تفسير وتأويل أخلاقي للظواهر.

ثانيا: تحويل النقد من الإستمولوجيا إلى الجنيالوجيا

فتح كانط الباب أمام ظهور نيتشه بسبب عدم قدرته على القيام بنقد جذري، حيث يسعى نيتشه للتفكير بشكل مختلف لإعادة النقد بطريقة أكثر عمقا، يريد إعادة النقد على أسس جديدة وباستخدام مفاهيم جديدة، ولذلك يجب عليه إعادة خلق النقد من جديد، فما هو التجديد الذي يقدمه نيتشه في مجال النقد؟

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p102.

² - Ibidem.

³ - Ibidem.

في القرن التاسع عشر اكتسب مصطلح الأصل * The Origin دلالات جديدة بفضل مؤلفات العالم داروين، حيث أثبت في كتابه "أصل الأنواع" أن النظام الطبيعي يشبه شجرة النسب **، ولتوضيح هذه الفكرة يمكننا النظر إلى قضية اللغات، حيث أشار إلى أننا لو تمكنا من وجود شجرة نسب مثالية، فإن ترتيب أنساب سلالات الإنسان سيوفر أفضل تقسيم للغات المختلفة التي يتحدث بها البشر في العالم، بما في ذلك اللغات المنقرضة والتي تتغير ببطء، وبالتالي سيكون هذا الترتيب هو الوحيد الممكن¹.

هذا التصور للأصل له تأثير بارز على الفكر الفلسفي الغربي، حيث اعتبره نيتشه عنوانا لأحد أهم مؤلفاته حول علم أنساب الأخلاق *** The Genealogy of Morals ومنذ ذلك الحين أصبح المصطلح في الخطاب الفلسفي يشير إلى تتبع أصول موضوع معين أو فكرة، وتقديم عرض تاريخي متسلسل لنشأته وتطوره، بهدف تبريره وإضفاء طابع المشروعية والمعقولة عليه، وفي كتابه "الفجر"، يشير نيتشه إلى أن الأشياء التي تستمر لفترة طويلة، يتم تغليفها تدريجيا بالعقل إلى درجة تجعلها تتغلغل فيه بالكامل، حتى تبدو وكأنها منطقية تماما، ويصبح أصلها الذي لا يُعقل شيئا لا يمكن تصوره²، وهذا هو المنظور الذي أصبح يُعتبر كلاسيكيا.

* - ما بينى عليه الشيء أو ما يتوقف عليه، ويُستخدم للإشارة إلى المبدأ في الزمن أو العلة في الوجود. (أنظر: إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، مرجع سابق ص15).

** - تعتبر نظرية التطور أن جميع أنواع الكائنات الحية على كوكب الأرض قد نشأت وتوحدت من سلف مشترك واحد، وذلك من خلال مراحل طويلة من الطفرات الجينية والانتقاء الطبيعي، كما أن الكائنات المنقرضة وتلك التي لا تزال موجودة ترتبط ببعضها البعض من حيث الجوانب الفيزيائية والتاريخية والجينية، لذلك يقول داروين: "هناك عظمة في هذه النظرة للحياة، فبكل قواها المتعددة قد نفخت في أنواع قليلة أو نوع واحد". (أنظر: داروين تشارلز، أصل الأنواع: نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي، مرجع سابق، ص490).

¹ - أنظر: لويجي لوكا كافاللي-سفورزا، الجينات والشعوب واللغات، ترجمة: أحمد مستجير، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2000، ص 178-179.

*** - يبدو أن استكشاف الأصول ليس بالأمر السهل، ولهذا يشير نيتشه إلى أن الدافع الرئيسي وراء بحثه في أصل الأخلاق بشكل خاص كان كتاب "أصل المشاعر الأخلاقية".

« Ce qui me poussa d'abord à faire connaître quelques-unes de mes hypothèses sur l'origine de la morale fut la lecture d'un petit livre clair, propre, sagace et même d'une sagacité vieillotte, d'un livre qui me présentait nettement, pour la première fois, un genre d'hypothèses généalogiques à rebours et d'essence perverse, genre vraiment anglais. Ce petit livre m'attira avec cette force attractive que possède tout ce qui nous est opposé, tout ce qui est à nos antipodes. Il s'intitulait De l'Origine des Sentiments moraux, il avait pour auteur le Dr Paul Rée et parut en 1877. » (voir la: Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, avant-propos, §4, p10.)

² - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre premier, Op. cit, §1, p15.

وأما انتقاده وإظهار طبيعته النسبية بمهدف تقليل من القيمة المعطاة له، فهذا هو المنظور الجديد، في السابق كانت فكرة البحث عن الأصل تسود في مجال الاستنساب للعثور على مصدر يعتبر مرجعا للشرف والنقاء والقوة، ومع ذلك فإننا نلاحظ مع داروين في ميدان البيولوجيا، ومع نيتشه في مجال الأخلاق، أن دلالة المصطلح أصبحت تحمل وظيفة النقد، "باتت بالأحرى تذكير الإنسان بحقيقة كونه كائنا متناهيا، وبأن دعائمه الأخلاقية والثقافية لها تاريخ وبالتالي فهي ذات طابع نسبي"¹.

هذا الرجوع إلى الوراء والعودة إلى الجذور، هو ما وصفه نيتشه بمصطلح **الجنياولوجيا** * Genealogy كاستراتيجية نقدية لمسألة واستجواب المفاهيم ** يهدف هذا النهج إلى عرض تاريخي للمفاهيم والوقوف عند الأصل الذي نشأت منه تلك المفاهيم منذ البداية، ومن هنا يسعى لدراسة نشأة الميثافيزيقا، ولذلك يشير في كتابه "أصل نشأة الأخلاق" إلى أهمية التأمل حول أصل أحكامنا الأخلاقية المسبقة².

لكن لها دلالة خاصة بالنسبة له، حيث لا تهدف إلى التمسك بالأصول والمرتكرات الثابتة، بل تسعى إلى تحطيمها وتقويضها ***، فالأصل هنا لا يعني مجرد السؤال، من أين صدرت الأشياء؟ بل يعني كيفية تكونها وتطورها، يسعى إلى فهم الشروط والبيئات والظروف التي أدت إلى نشوء القيم وتشوئها، من خلال رؤية جديدة ومختلفة.

¹- Eric Blondel, "La question de la généalogie", in Encyclopédie philosophique universelle, Tome.1, L'univers philosophique, Presses Universitaires de France, Paris, 1989, p1046.

* - من المؤكد أن مصطلح (Généalogie) ظهر في اللغة الفرنسية خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية (Généalogia) التي كانت شائعة في ذلك الوقت، والتي تعود بدورها إلى الكلمة الإغريقية (Genealogos). في اللغة الإغريقية تعني كلمة (Généa) "الأصل"، بينما تشير كلمة (Logos) إلى "العلم"، أما الفعل (Genealogein) فيعني "ذكر الأصول وتعدادها"، وقد أصبحت الكلمة المركبة (Généalogie) تشير بشكل عام، وفي معظم اللغات الأوروبية، إلى سلسلة من الأسلاف المرتبطين بقرابة نسبية يُفترض أنها تنحدر من أصل مشترك، وتشكل هذه السلسلة شجرة النسب لعائلة أو فرد معين، كما تشير أيضا إلى العلم المتخصص في دراسة أصول ونسب العائلات. (أنظر: مصطفى حسينية، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص157).

** - عندما كان نيتشه يتناول مفهوما معينا، كان يعود به إلى جذوره، في هذا السياق يمكن اعتبار الجنياولوجيا مرادفة إلى حد ما للإيتيمولوجيا Etymology، أي البحث في أصول المفهوم، لكن الجنياولوجيا تتجاوز هذا المعنى، فهي ليست مجرد استعادة للمفاهيم إلى أصولها، بل هي عودة من أجل القلب، فالأفكار والأوهام والأيديولوجيات والطوباويات المتعاقبة تمحو المعالم الأصلية للمفهوم، وتمنحه دلالات جديدة ومعان لم تكن موجودة فيه سابقا.

²- Nietzsche Frédéric, La Généalogie de la morale, Op. cit, avant-propos, §2, p7.

*** - لقد أدرك نيتشه هذه القضية بذكاء، مما جعل فلسفته تتخذ طابعا جنياولوجيا يكشف عن السطحية التي تحيط بمعطيات الواقع، تعيدنا فلسفته إلى جذور تشكل المفاهيم وتبلورها، بمهدف قلبها وعكسها وإزالة أشكال الميثافيزيقا منها، لنتمكن من رؤيتها بشكل مختلف عما هو متعارف عليه، وبالتالي فإن النقد الجنياولوجي يمثل نقدا تفكيكيا وسيميولوجيا في آن واحد.

إذن تبحث عن النشأة والأصل وميلاد القيم، وأيضاً عن الاختلاف والمسافة داخل الأصل، أصل القيم وقيمة الأصل في الوقت نفسه¹، أي في العنصر التفاضلي للقيم من حيث الرفعة والسمو والتدني والانحطاط في الأصل، هذا ما يجعلها تقف منذ البداية في مقابل الميتافيزيقا، ليصبح تاريخها هو التاريخ المضاد للتاريخ الميتافيزيقي.

كما تحذر الإشارة إلى أنها تستعين بأداتين أساسيتين وهما: الفيلولوجيا* *Philology* والتاريخ، لذلك يُشير نيتشه إلى أن التربية التاريخية والفيلولوجية، إذا ما أضيف إليها حس فطري ذواق في القضايا النفسية بشكل عام، تحولت بسرعة مشكلته إلى تساؤلات: ما هي الظروف التي دفعت الإنسان إلى وضع أحكام حول قيم الخير والشر؟ وما هي القيمة الذاتية لهذه الأحكام؟ هل كانت عائقاً أمام تطور الإنسان حتى الآن، أم أنها ساعدته في مسيرته؟ هل تعكس حالة من الفقر والانحطاط في الحياة، أم أنها تعبّر عن الازدهار والقوة وإرادة الحياة، بما تحمله من شجاعة وتفاؤل ورؤية للمستقبل؟²

بهذه الطريقة أكد نيتشه على أهمية دراسة فقه اللغة والتاريخ، واللذان يشكلان أساس الجنيالوجيا التي ساعدته في فهم طبيعة القيم، وبالتالي فإن هذه القيم ليست ثابتة في ذاتها أو بالنسبة للجميع، بل هي مجرد أحكام تتعلق بفئة من الناس دون أخرى.

ولكن كيف تطرح الجنيالوجيا مشكلاتها؟ يشير جيل دولوز في كتابه "نيتشه والفلسفة" إلى وجود حركتين في النقد الجنيالوجي، فهي تؤوّل من جهة وتقوّم من جهة أخرى، وليس التأويل والتقويم سوى وجهين للنقد، وبالتالي يجب تحويل السؤال من ما هي الحقيقة؟ إلى من ينتج الحقيقة؟ ويجب على الفيلسوف أن يتجنب أن يكون قاضياً في المحكمة ليصبح "عالم نسابة"³.

¹ - Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p3.

* - يُترجم مصطلح الفيلولوجيا إلى "علم دراسة النصوص القديمة"، وهو يتكون من كلمتين يونانيتين: الأولى "philos" التي تعني الحب، والثانية "logos" التي تعني الكلام أو الدراسة، تُعنى الفيلولوجيا بدراسة الآثار الفكرية والروحية من خلال النصوص وتحقيق الوثائق، حيث تركز على التراث الفكري المكتوب للأمة كونه يعكس تطور العقل الإنساني ومحاولات الروح البشرية للكشف عن الحقيقة، كما تسعى إلى إبراز رؤية الأمة للوجود وفلسفتها التي تشكل أساس حياتها وتوجهاتها. (أنظر: عبد المنعم الحنفي، *المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة*، الطبعة الثالثة، القاهرة: مكتبة مدبولي، 2000، ص632).

² - نيتشه فريديريك، *في جنيالوجيا الأخلاق*، ترجمة: فتحي المسكيني، المقالة الأولى، الطبعة الأولى، منشورات دار سيناترا، تونس، 2010، تصدير، فقرة 3، ص34.

³ - Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p2.

ولعل إنجاز نيتشه في مجال النقد الفلسفي، والذي يتمثل في إدخال مفهومي "المعنى والقيمة"¹ إلى الفلسفة، هو ما يشكل إضافة مهمة مقارنة بفلسفة كانط، فهذا الأخير غير قادر على طرح مشكلته بتعابير القيم، بينما قام نيتشه بتأسيس نقده على أرضية القيم، من ثم يُجَدَّر هذا النقد، مما يجعله يمثل إضافة جديدة في مجال النقد الفلسفي.

01- النقد باعتباره تأويل

تهدف الجنيالوجيا كمبدأ تأويل إلى الإجابة عن سؤال: "من؟" وفقا لفلسفة نيتشه يعني ذلك أنه عندما ننظر إلى شيء ما، يجب علينا التساؤل عن القوى التي تسيطر عليه؟ والإرادة التي تتجسد فيه؟ وبحسب نيتشه لا يمكننا فهم جوهر الشيء إلا من خلال السؤال عن من يتحكم فيه، لأن الجوهر هو ببساطة معنى وقيمة الشيء.

وقد أظهر دولوز بعمق كبير خصوصية السؤال النقدي النيتشوي، وكيف يتميز عن السؤال الفلسفي التقليدي، ففي الميتافيزيقا يتم صياغة سؤال الجوهر بشكل مختلف، حيث يتم السؤال عن "ما هو؟"²، ما هو العادل، ما هو الجميل، وما هي الحقيقة؟ ويرجع هذا إلى الفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة سقراط وأفلاطون، لذلك يعتقد نيتشه بثقة أن السؤال "من؟" هو الأكثر أهمية لأنه يمكنه تحديد الجوهر.

عندما نطرح السؤال ما هو؟ عن مفهوم الحقيقة مثلا، فإننا لا نقع فقط في نقاش فلسفي معقد، بل نقوم بطرح معنى مرئي من وجهة نظر مختلفة³، لكن في رأي نيتشه فإننا نسأل من أي زاوية نظر يمكن أن تظهر الأشياء حقيقية، وما لا يظهر لنا حقيقيا من أي وجهة نظر أخرى قد يصبح الشيء فيها حقيقيا؟

فالتأويل لا يركز على المعنى المخفي في المدلول، بل يركز على الشخص الذي يقوم بالتأويل والسيطرة على المعنى، إذن ليس المهم فقط معنى القيم ودلالة المفهوم، بل من يقوم بالتأويل والسيطرة على المعنى.

لذلك يجب أن يكون فن التأويل فن اختراق الأقنعة واكتشاف من يتقنع ولماذا، وما هي الأهداف التي يسعى لتحقيقها من خلال المحافظة على القناع، وهذا يعني أن الأصل قد لا يظهر في البداية، مما يثير مخاوف من الوقوع في تأويلات معكوسة عند البحث عن هوية والد الطفل منذ ولادته.

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p1.

² - Ibid, p86.

³ - Ibid, p87.

1-1 إرادة القوة أداة منهجية للتأويل

سبق أن أكدنا على أهمية معرفة القوى التي تسيطر على شيء ما، حيث يتغير معنى الظاهرة حسب القوة التي تسيطر عليه، لذلك يجب علينا أن ندرك أن التفسيرات للأحداث تختلف وتعدد وفق القوى التي تؤثر عليها، وبالتالي يجب أن نأخذ في الاعتبار أن المعنى الذي جرى فيه التأويل معقد، وأن هناك دائما تعددية فيه، ويمكن أن يكون كل تأويل جديد يعكس سيطرة جديدة.

حتى الآن قدمنا الأمور كما لو كانت القوى المختلفة تتصارع وتتنافس فيما يتعلق بشيء صلب، ولكن الواقع هو أن الشيء نفسه هو قوة بحد ذاته، فكل قوة مهيمنة ترتبط بشكل أساسي بقوة أخرى تجري السيطرة عليها، وبهذا المعنى يُطلق على القوة مصطلح "إرادة"، أي إرادة القوة، لذلك يشير دولوز بأن المشكلة الأساسية تكمن في العلاقة بين إرادة تأمر بأخرى تطيع¹.

إنه نصح يهدف إلى استكشاف جذور الأشياء والعقل ومفاهيمه، ويتساءل عن القوى التي تتحكم في العقل والإدراك، وعن الإرادة التي توجه الأفكار والعبارات، لذلك إذا أراد الإنسان أن يكشف عن حل لجميع أسرار العلم وألغازه، فلا بد له من النظر إلى إرادة القوة ولا شيء سواها، وبالتالي يمتلك نيتشه هنا مبدأ أصليا تكوينيا داخليا، يعتمد على منطق تعاقبي ونسائي، مما يمكنه من تحقيق النقد الداخلي.

1-2 ميزات القوة وخصائص الإرادة

من ناحية أخرى أوضح نيتشه أن للقوة والإرادة صفات وخصائص مميزة، بالنسبة للقوة هناك صفتان مميزتان هما **الفاعلة والارتكاسية**، فما معنى هاتين الصفتين؟ القوى العليا والمهيمنة هي القوى الفاعلة، التي تستمد طاقتها من داخلها، بينما القوى السفلى والخاضعة هي القوى الارتكاسية، التي تعارض نمو القوى الفاعلة، إذن الفاعل والارتكاسي هما السمتان الأساسيتان للقوة، وتعتبر هذه القوى كمنظورات نتعرف من خلالها على العالم.

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p45.

أما خصائص الإرادة تتمثل في **النفي والإثبات**، الإرادة المثبتة تقول "نعم" لكل ما يأتي من خارجها، وتحدد الحياة حتى في جوانبها الصعبة، مثل الصيرورة والألم والحرب، أما الإرادة النافية فتعبر عن إرادة العدم، وموقف عدائي تجاه الحياة ورفض التسليم لشروطها الأساسية¹، إذن الإثبات والنفي هما خاصيتا الإرادة، كما أن الفعل والارتكاس هما خاصيتا القوة.

إذن يمكن القول بأن إرادة القوة هي العنصر النسائي، سواء كانت نشطة أو سلبية، وهي التي تخلق المعنى والقيمة، سواء كانت لتأكيد الحياة أو نفيها، لذا لا يوجد سؤال حول من يريد؟ من يؤول؟ من يقوم؟، لأن إرادة القوة تسيطر على كل شيء في هذا العالم، قيمنا إذن ليست سوى تأويلات أقحمناها في الأشياء، هل يمكن أن يكون للحياة معنى في حد ذاتها؟ أليس كل معنى هو مرتبط بوجهة نظر نسبية؟ كل معنى هو إذن إرادة قوة².

02- النقد باعتباره تقويم

الجنولوجيا في أساسها بحث في الأصل، أي تأويل، تكتفي بالكشف عن القيم والمعتقدات من خلال معرفة أصولها، ولكنها لا تمسها في ذاتها، ومن أجل أن يكون النقد فعالاً، يجب أن يتجه نحو القيمة بدلا من الأصل فقط³، وهذا ما أكدته نيتشه في جنولوجيا الأخلاق، حين أشار إلى أهمية طرح قيمة القيم الأخلاقية على أرضية البحث قبل كل شيء، وعليه فإذا كان سؤال الأصل هو من؟ فإن سؤال القيمة هو لماذا؟

إذا كان نيتشه يحول سؤال الوجود "ما هو؟" إلى سؤال الإرادة (الأصل) "من؟"، فإنه يحول أيضا سؤال الإرادة إلى سؤال القيمة "ماذا يريد؟" تعني ماذا يساوي؟ وما نعينه هو أن ما يقدره نيتشه أو لا يقدره في فعل معين هو الإرادة التي يجدها فيه، ويقوم هذا المسعى في المرحلة الأولى، على رؤية كل شيء كمجموعة من القوى لتحقيق عمل ما، وفي المرحلة الثانية، على ملاحظة إلى أين تتجه هذه القوى، ماذا تريد هذه القدرة؟ وبالتالي يقوم بتحليل الاعتقادات أو السلوك عندما ينظر إليها في البداية كقدرات ونشاطات فعالة، ومن ثم يسأل عن مصدر هذه القدرات ومن أي نية تنبثق وإلى أين تتجه، وما الذي يريده الشخص الذي يعتقد هذا ويتصرف هكذا.

¹ - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, troisième dissertation, §28, p216.

² - عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1991، ص25.

³ - Chassard Pierre, **Nietzsche, Finalisme et Histoire**, Première édition, Copernic, L'or du Rhin, Paris, 1977, p59.

1-2 التراتبية هي السبب وراء تباين القيم

يحتل الترتاب مكانة بارزة في مجال الجنيالوجي، حيث يُعتبر مصدرا للقيم ومصدرا للاختلافات بينها، ذلك أن معنى الشيء هو علاقة الشيء بالقوة التي تملكه، وقيمته تعبر عن تراتب القوى التي تظهر من خلاله¹، وعندما يشير نيتشه في مقدمة كتابه "إنسان مفرط في إنسانيته" Human, All Too Human إلى أن الترتاب هو قضيتنا الرئيسية²، فإنه لم يكن يقصد شيئا آخر سوى أن يظهر أن تحديد كيفية نشوء القيم يعتمد على هذا العنصر التراتبي الذي يقسم العالم بمواضيعه إلى تعارضات مختلفة، مثل الأدنى والأعلى، السطح والعمق، الشرير والطيب.

لذلك يتم إنتاج المعنى والقيمة من قبل الحياة بما هي إرادة قوة، فالحياة هي التي تدفعنا لوضع القيم وتقويمها بشكل مستمر، هذا ما يوجهنا نحو الأصل، لأن الأصل في حقيقة الأمر هو الاختلاف في الأصل، وهذا الاختلاف في الأصل هو الترتاب، أي العلاقة بين القوى المهيمنة والمهيمن عليها، بين الإرادة المطاعة والإرادة المطيعة.

إذن مبدأ الترتاب هو مبدأ شامل ينطبق على تاريخ الفكر الإنساني بأسره، فالتباين في الأصل يؤدي حتما إلى تفاوت في القيمة، وفقا لنيتشه لا يمكن تصور العلاقة الجوهرية بين قوتين مختلفتين كعنصر سلمي للجوهر، فالعلاقة بين القوة التي تفرض هيمنتها والقوة الأخرى لا تلغي الأخيرة، بل تؤكد على اختلافها الفريد وتستمتع بهذا التباين³.

2-2 مقاربات الجنيالوجيا كمبدأ تقويم القيم

يعتمد نيتشه على مجموعة من المقاربات لتقويم إرادة القوة، ومن أبرزها المقاربة السوسيو تاريخية، في هذا السياق يستعين بمجاز السيد والعبد، تتميز صفات السيد بالرغبة في التميز، وعدم الاكتراث بآراء الآخرين، والصلابة، والكرامة، والحرية، بالإضافة إلى احترام الأفراد الذين يشبهونه، في المقابل يشعر بالاحتقار تجاه الضعف والمداهنة والانحطاط.

¹ - Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p9.

² - نيتشه فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته: كتاب العقول الحرة، ترجمة: محمد الناجي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، مقدمة، فقرة 7، ص14.

³ - Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p9.

نظرا لأن هذه الفئة تمثل دائما الأقلية، فإنها تبذل جهودا كبيرة للحفاظ على خصائصها والبقاء نقية، دون أن تتأثر بالتدهور الذي قد ينجم عن التواصل مع الطبقات الأدنى، ولهذا فإنها تعطي أهمية كبيرة للتربية لضمان استمرارية سيادتها وتميزها، في المقابل يشير مجاز العبد إلى سمات مثل محاولة التكيف مع الآخرين، وعدم السعي نحو التميز، بالإضافة إلى الكذب والشفقة والميول الغيرية.

تعتمد المقاربة الثانية على النظرية **السيكولوجية**، مستندة إلى أفكار نيتشه حول البعد النفسي للقيم، تشير هذه المقاربة إلى أن القيم قد تعكس استقلالية الإرادة، حيث لا تحتاج إلى إثبات وجودها من خلال نفي القيم الأخرى، بل تستمد قيمتها من شعورها بالتميز، ومن ناحية أخرى يمكن أن تكون القيم قائمة على الحقد والضعينة فما دلالة الحقد عند نيتشه؟

يشير لفظ الحقد عن رغبة في الانتقام والتمرد ضد الحياة والعالم بأسره، حيث تسلك القوى الارتكاسية مسارات الانتقام للحط من قيمة كل ما حرمت منه، ويعكس هذا النموذج تفوق القوى الارتكاسية على القوى الفاعلة¹، أي عن نموذج يسود فيه الضعيف على القوي.

المقاربة الثالثة هي **الفيزيولوجية**، التي يعتبرها نيتشه ذات أهمية كبيرة، حيث يسعى إلى الغوص في أعماق الجسم أكثر لفهم مظاهر الوهن والمرض التي تنبعث من القوى التي تسكنه، وهذا ما أكد عليه عندما أشار إلى أنه يجب توضيح وتفسير جميع القيم التي تناولها التاريخ والدراسات الأنثولوجية من منظور فيزيولوجي أولا، قبل محاولة تفسيرها بواسطة علم النفس²، لذلك يجب أن يكون هذا الأمر أولوية في أي تحليل أو دراسة.

إذن تتجلى العلاقة بين السيد والعبد داخل الجسم بدلا من خارجه، حيث تهدف الفيزيولوجيا في هذا السياق إلى تحديد طبيعة القوى التي تحمل القيم وتسقطها على الأشياء والأفعال، فإذا كانت تلك القوى فاعلة، فإن ذلك يعكس صحة الجسم، وإذا كانت تلك القوى ارتكاسية، فإن ذلك يعكس مرض الجسم، وهذا ما تكشف عنه "فيزيولوجيا إرادة القوة"³.

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p127.

² - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, première dissertation, §17, p61.

³ - Wolfgang Müller-Lauter, **Nietzsche: Physiologie de la volonté de puissance**, sans édition, Editions Allia, Paris, 1998, p150.

يمكن أن نستنتج أن الجنيالوجيا هي محاولة فهم طبيعة الإرادة والقوى التي تنتج المعنى والقيمة، ومن ثمة يُصبح مفهوم إرادة القوة يندرج في حركة النقد كقاعدة أساسية وأداة منهجية للتأويل¹، تُمكن هذه الأداة من الإجابة عن أسئلة حول طبيعة القوى التي تكمن وراء المعنى والقيمة، سواء كانت قوى فاعلة أم ارتكاسية، كما تُمكنه أيضا من تقويم القيم، سواء كانت مؤسسة على إثبات الحياة أم على نفيها، وبناء على ذلك يكون النقد في الحالة الأولى تأويلا، وفي الثانية يغدو تقويما.

إذن كان هدفنا هو محاولة إثبات أن نيتشه في علاقته مع كانط يحدث تحولا في دلالة النقد، هذا التحول يتمثل في انتقال من الإستمولوجيا إلى الجنيالوجيا، ومن التشريع إلى التقويم.

من ناحية التحول الأول، يرى كانط أن النقد في مجال المعرفة لا يمكن أن ينفصل عن السؤال حول كيفية تكوين الأحكام التأليفية قبليا، وهذا السؤال يعتبر أساسا سؤالا إستمولوجيا، بينما يقترح نيتشه استبدال هذا السؤال الكانطي بسؤال آخر، وهو لماذا يكون الإيمان بمثل هذه الأحكام ضروريا؟

هنا يجب نيتشه عن هذا السؤال الجنيالوجي، معتبرا أن هذه الأحكام قد تكون غير صحيحة، ولكن الإيمان بحقيقتها ضروري، لأنه ينتمي إلى الزاوية المنظرية للحياة²، لذلك فالأصل الذي تدركه الجنيالوجيا مرتبط بمنظورات إرادة القوة، وهذه الأخيرة هي التي تنتج المعنى أي تؤول العالم، وبالتالي كل حديث عن ملكة صانعة للأحكام التأليفية القبلي لا يكون إلا من باب الخداع.

هذا المعنى الأول لحركة تحويل النقد، ولكن يدرك نيتشه أن السؤال عن سبب ضرورة الأحكام التأليفية القبلي ليس كافيا، لذا يجب علينا أن نتساءل، لماذا تكون هذه الحقائق التأليفية القبلي ضرورية بما هي مناقضة لحقائق أخرى³، وبالتالي تُصبح مسألة الضرورة مسألة قيمية، حيث أن جوهر الميتافيزيقا هو الاعتقاد بوجود قيم متناقضة ومتراتبة يتم قياس بعضها ببعض، لذا ينبغي أن يكون النقد سؤالا عن قيمة القيم ذاتها: لماذا هذه القيم بدلا من غيرها؟ ولماذا هذا الشكل من الحياة بدلا من شكل آخر؟

¹ - Krell David Farrell, **Infectious Nietzsche**, First Edition, Indiana University Press, Bloomington & Indianapolis, 1996, p34.

² - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. cit, Prejudices of Philosophers, §11, P18.

³ - نورالدين الشابي، نقد نيتشه للحدائث، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الجامعية 2000-2001، ص96.

إنها محاولة جديدة في مجال الفلسفة لتجنب السطحية والاستسهال، والسعي لاستكشاف معانٍ عميقة للأحداث الإنسانية، فخلف سلوك ما يُعلمنا نيتشه بفعل إرادة قوة، هناك نية تسعى لتحقيق شيء ما، وقدرة تسعى إلى تحقيق هدف معين، يمكن لعالم النسابة المتمرس تحديد هوية هذه النية، وبالتالي لن تعود الفلسفة بشكل عام والأخلاق بشكل خاص إلى التحليل الذاتي للوعي المسؤول كما كانتا في عصور ديكرت وكانط، بل ستصبحان كشفا للنوايا ووصفا وتشخيصا.

المبحث الثاني: تصحيح مسار القراءة والكتابة

أدرك نيتشه أنه عند التعامل مع أنماط الثقافة الإنسانية مثل اللاهوت والأخلاق والفلسفة، فإنه يتعامل مع لغة لا تعكس الفكر الإنساني بدقة، هذه اللغة لا تعبر عن الحقيقة بشكل صحيح، والمعاني التي تنبثق منها غالبا ما تكون سطحية أو ضعيفة، تخفي وراءها معاني أعمق، وبالتالي تولّد اللغة انطبعا بأنها تتجاوز مجرد التعبير اللفظي، حيث توجد أشياء تعبر عن نفسها دون الحاجة إلى لغة، مثل "غريزة السيطرة"¹ والهيمنة التي تتوارى خلف الكلمات.

لذا عندما تعبر الحقيقة عن نفسها، فإنها تتجلى في شكل استعارات، والاستعارة تخفي المعنى الحقيقي بداخلها، مما يجعل التأويل ضروريا لتجنب الاعتماد على المعاني السطحية للأسماء، فجميع الظواهر هي تأويلات، ولا توجد ظاهرة قائمة بذاتها، وبالتالي يمكن اعتبار الفلسفة بشكل عام دراسة للسيمولوجيا* Semiology حيث يتم تفسير معنى العلامة بواسطة القوة الحالية التي تؤثر في تأويلها، وهذا يؤدي إلى تغيير مستمر في معنى الظاهرة وفقا للقوة المسيطرة عليها، مما يستدعي ضرورة القراءة بطريقة خاصة.

¹ - وفاء درسوني، مفهوم التأويل في فلسفة نيتشه، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الجامعية 2005-2006، ص16.

* - تعود كلمة "سيمولوجيا" إلى أصل يوناني، حيث تنحدر من كلمة "Sémaino" التي تتولد من "Séma" وتعني "العلامة" أو "الدليل" (Signe) في جوهرها، تشير هذه الكلمة إلى الصفة المرتبطة بالكلمة الأصلية "Sens" التي تعني "المعنى"، أما بالنسبة لكلمة "لوجيا" (Logie)، فهي تعني "العلم"، وبالتالي فإن مصطلح "السيمولوجيا" أو "السيموطيقا" يشير من الناحية اللغوية إلى علم العلامات. (أنظر: عبيدة صبطي ونجيب بخوش، مدخل إلى السيمولوجيا، الطبعة الأولى، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص14).

ورد في معجم لسان العرب أن مادة (س و م) تعني "العلامة" التي تُستخدم للدلالة على شيء معين، مثل الثوب، أو إنسان، كما في حالة الوشم، أو حيوان، كما كانت تفعل القبائل العربية عندما تُسمّى إبلها، ومن هذه المادة اشتقت الألفاظ السيماء والسيمياء. (أنظر: ابن منظور، لسان العرب، المجلد12، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1990، ص312).

أولاً: الفيلولوجيا فن دقيق للقراءة الجيدة

كان حلم نيتشه يتمثل في تطوير فيلولوجيا أو فقه لغة جديد*، يُعتبر نهجاً ريبياً في التأويل، يتيح القدرة على اختراق الأقنعة والتعمق في النصوص، يتطلب هذا النوع من القراءة حذراً بالغاً عند التعامل مع النصوص، خصوصاً إذا كانت من تأليف مفكر بارع يتمتع ببلاغة فذة، ويعرف من خلال تجربته جميع أساليب التفسير، لذا يجب على القارئ أن يكون يقظاً ليتمكن من إحباط الحيل الساحرة والمتقنة التي قد تُستخدم¹.

لذلك يجب على المرء أن يكون قادراً على قراءة الأشياء بدقة وصدق، ودون أن يندفع برغبته في الفهم إلى التسرع، يجب أن يسعى إلى اكتشاف القوى الفاعلة بحذر وصبر ودقة، وأن يكون مهتماً بمن يمتلك سلطة الكلام والقوى التي تتصارع في اللغة، فالأهم ليس ما تقوله الكلمات، بل من يمتلك السلطة في التأويل ومنح الأشياء معانيها، وبالتالي لا يوجد موضوع حيادي بحد ذاته، بل هو دائماً في تصارع وتجادب مع القوى الحالية المستولية عليه، وهذا ما أشار إليه نيتشه، حيث اعتبر أن ذلك يمثل متعة لمن يمتلك آذاناً أخرى بجانب أذنيه².

هكذا يُعرض فقه اللغة كعلم فاعل³، حيث يُفسر الظواهر كأعراض، ويجب البحث عن معناها في القوى التي تتولى مهمة إنتاجها، بالإضافة إلى تفسير القوى ذاتها من حيث نوعيتها الفاعلة أو الارتكاسية، وبالتالي فإن العلاقة التي تقوم في عملية التأويل هي علاقة عنف لا علاقة توضيح وكشف، فكل تأويل لا يسبر باطن التأويل الذي يعرض نفسه، وإنما يستولي كل تأويل ويستحوذ على تأويل آخر سبقه.

لذلك ندرك أن اعتماد نيتشه على هذا الفن يرجع إلى غموض طبيعة النص وتعقيده، مما يجعله يحمل عمقا يستدعي التأمل والتفكير، وبالتالي يصبح التأويل مساءلة النص وكشفاً للرموز وإزالة الأقنعة ونزولاً إلى الأعماق.

* - يشير نيتشه إلى ظهور نوع جديد من الفن في اللغة، وهو فن القراءة البطيئة والمتأنية، يُعتبر هذا الفن ذا قيمة عالية، ويتطلب من محبيه التروي وعدم التسرع، بالإضافة إلى الصمت والتأني، إنه فن يحتاج إلى مهارة وذكاء ودقة، لكنه لن يحقق النتائج المرجوة إلا إذا ارتبط بالتأني.

¹ - Richard Roos, "Règles pour une lecture philologique de Nietzsche", in Nietzsche aujourd'hui, Union générale d'édition 10/18, 1973, p296.

² - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, Avant-propos, p4.

³ - بدر بقارة، أهمية الفيلولوجيا في قراءة النص الديني عند نيتشه، مجلة RI- Revue Interdisciplinaire، المجلد 3، العدد 2، المدرسة العليا للتكنولوجيا بجامعة مولاي إسماعيل، المغرب، 2018، ص 6.

فيما يتعلق بمساءلة النص، ينبغي أن نفهم أن القراءة النيتشوية ليست مجرد تأمل سطحي يهدف إلى ترديد الشعارات، بل هي قراءة تسعى إلى فهم النص والتفاعل معه بروح من التساؤل والشك، وإصرار وعمق حول كل ما يُعتبر عظيماً، ولذلك يشير نيتشه إلى أنه حتى اليوم، لا شيء مما يلون الوجود والحياة قد تم تأليف تاريخه¹.

إذن مشكلات نيتشه الأساسية التي تتعلق بمساءلة النص، تتمثل في التساؤلات الجنيالوجية، حول هوية الأشخاص الذين يقفون وراء المفاهيم ومعانيها المعتادة، وطبيعة القوى التي تقف خلفها، وبالتالي تعتبر هذه الأسئلة الأكثر أهمية، لأنها تساعد في تحديد الجوهر والطبيعة الحقيقية لكل شيء يتعلق بالقوة والإرادة.

تتطلب هذه الأسئلة بالضرورة الغوص في الأعماق، ويجب على الشخص أن يكون منقبا جيدا في الداخل، مستعدا لاستكشاف الأعماق وإلقاء الضوء عليها، لذا يشير نيتشه إلى أنه ينبغي عليك الحفر بعمق حيثما كنت، فهناك يكمن المصدر²، ومع ذلك فإن النزول إلى العمق لا يهدف فقط إلى توضيح النص، بقدر ما يهدف إلى فضحه واكتشاف حقيقة الإرادة وإظهار طبيعة القوى المسيطرة، وبالتالي تصبح القراءة عملية لكشف ما لا يرغب النص في الإفصاح عنه.

تحدث فوكو في "جنيالوجيا المعرفة" The Genealogy of Knowledge عن التأويل لدى أقطاب الظنّة*، مشيراً إلى أنهم لم يضيفوا معاني جديدة لأشياء كانت بلا معنى، بل قاموا بتغيير طبيعة الأدلة وطرق التأويل³، كما قدموا إمكانيات جديدة للتأويل وأحدثوا تغييرات في مواضع العلامات والدلالات، مما جعلها تظهر بشكل متنوع ومتغير في السياقات المختلفة، وبالتالي كان يتعين على المؤول النزول إلى الأسفل ليكشف عن هذا العمق الذي لا يعني ما يدعيه.

عبر نيتشه عن رغبته في تحمل مهمة فريدة من نوعها، حين قرر النزول إلى الأعماق واختراقها، كان يريد فحص وتدمير الثقة الراسخة والإيمان القديم الذي اعتاد عليه الفلاسفة على مر العصور، لقد بنى هؤلاء أفكارهم وأعادوا تشكيلها على أرض اعتقدوا أنها صلبة، لكن نيتشه أراد تحطيم هذه الثقة واستكشاف أعماق اللاوعي وما لا يمكن التعبير عنه.

¹ - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre premier, Op. cit, §7, p46.

² - Ibid, Plaisanterie, ruse et vengeance, §3, p17.

* - أمثال: نيتشه، فرويد، ماركس.

³ - فوكو ميشيل، *جنيالوجيا المعرفة*، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، الطبعة الأولى، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988، ص47.

يصبح تفكيك الرموز أمراً ضرورياً، حيث يتضمن مجموعة من العلامات والأعراض والاستعارات، يتبعه بعد ذلك إزالة الأفعنة، وقد أشار نيتشه إلى أن كل روح عميقة تحتاج إلى قناع*، وهو قناع يخفي العمق والحقيقة، بل أكثر من ذلك، حول كل روح عميقة هناك قناع ينمو ويتطور باستمرار¹.

لا يُخفي نيتشه دهشته من كشف الأفعنة، حيث يرى أن ما كان يُعتبر حقيقة ليس سوى انعكاس للأفعنة التي تخفي الواقع، وقد وصف الحالة التي وصلت إليها أوروبا، مشيراً إلى شعوره بأن قلبه مكسور، ولم يرى من قبل مثل هذه الألوان والخطوط، هذه الأفعنة يُعبّر عنها بمجاز الألوان، وأحياناً بمجاز الثوب، حيث يعتبر الثوب رمزاً للقناع الذي يخفي الحقيقة، ولذلك يشير نيتشه إلى أننا كأوروبيين لن نتمكن أبداً من الاستغناء عن الأفعنة التي تُعرف بالثياب².

إذن تسعى هذه القراءة الجديدة إلى إزالة الأفعنة وكشف لعبة صراع الإرادات، في هذا السياق يبحث القارئ عن مظاهر الاستيلاء والهيمنة والصراع في الكلمات والأفعال، وعندما يتحدث النص عن المعاني والقيم والفضائل، يجب على القارئ أن يكشف عن أساليب السلطة والهيمنة، وأن يكتشف من يقف وراء القناع ولماذا، وما الهدف من الحفاظ على هذا القناع.

استناداً إلى ما تم ذكره، يمكن القول إن فقه اللغة الدقيق لا يسعى إلى إعادة تشكيل المعنى الحقيقي للنص أو للطبيعة، إذ إن ذلك لا يعدو كونه تأويلات لبعض الإرادات فقط، فمعنى الشيء هو مجرد وجهة نظر تجاهه، بينما حقيقة المعنى والوجود هي حقيقة منظورية تظهر دائماً من خلال السؤال: ماذا يعني لي هذا الشيء؟³

توجه الحقيقة المنظورية في القراءة الفيلولوجية نحو اعتبار جميع المنظورات نصوصاً، بهدف الكشف عن المعنى واتجاهه سواء كان إثباتاً أو نفياً، وهذا يتعارض مع فكرة الوصول إلى تأويل نهائي أو مطلق يستنفد غنى الواقع، فلا

* - كلمة "قناع" في اللغة العربية مشتقة من الفعل "قَتَعَ" الذي يعني غطى أو ستر، أي أنه يرتبط بفعل اللبس، للقناع وظيفتان رئيسيتان: الأولى هي التخفي والتمويه، والثانية هي التجلي والإشهار. (أنظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص300).

¹ - Nietzsche Frédéric, *Par-delà le bien et le mal: prélude d'une philosophie de l'avenir*, Trad: Henri Albert, sixième édition, Société du Mercure de France, Paris, 1907, L'esprit libre, §40, p76.

² - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Cinquième, Op. cit, §352, p319.

³ - Sarah Kofman, *Nietzsche et la métaphore*, Deuxième édition, Éditions Galilée, Paris, 1983, p124.

توجد حقيقة مطلقة يمكن أن يمتلكها الإنسان كمكسب جيد، والفيلولوجي المتمرس هو من ينفي وجود تأويل واحد دقيق وكاف¹.

يُظهر المشروع الفيلولوجي بوضوح كيفية انتقال الخطاب الإنساني من حالة إلى أخرى، وكيف تتصارع الإرادات وتتداخل لتجعل الكلمات تتخلى عن معانيها القديمة وتكتسب معاني جديدة تحل محلها، وهذا ما يشير إليه نيتشه عندما يقول إنه لا يرى شيئاً بل يسمع همسات، وكأن هناك رقة معسولة تنعكس على كل حدث، من شأنها أن تحول الضعف إلى قوة وجدارة².

وفي إبداع المقولات من نوع العقل الخالص والروح المطلقة والمعرفة بذاتها، نجد دعوة للتفكير في اتجاه واحد ورؤية أحادية لا تحمل أي توجه، في هذه الحالة تختفي جميع الوظائف التفسيرية، مما يجعل العين ترى فقط الجوانب السطحية والبسيطة، وتقتصر رؤيتها على زاوية محددة ومنظور معين، وقد أشارت "سارة كوفمان" إلى أن هيمنة منظور واحد تعكس فقراً في الحياة وتقييداً للفهم، بينما يعكس تنوع المنظورات غنى وازدهاراً في المعاني³.

تتمثل مشكلة الميتافيزيقا في أنها افترضت وجود تأويل واحد فقط، واعتبرته التأويل الحقيقي، بينما التأويل ليس مجرد بحث عن معنى أول، بل هو تفضيل وإعطاء أولوية لمعنى على آخر، وعندما يطرح نيتشه السؤال حول أصل المقولات الميتافيزيقية، فإنه لا يسعى للعثور على مصدر أول، بل يبحث عن الأصل التكويني الذي تشكلت من خلاله هذه المقولات، باعتبارها علامة تعبر عن إرادة القوة.

يبدو أن نيتشه ينفي الموضوعية ويعمم الذاتية، ولكنه يرفع ميزة التعارض ويعيد تشكيلهما، فالموضوعية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الذاتية، حيث يسهم تغيير المنظور في تعزيز الموضوعية على الإقصاء وينقل الذات إلى زوايا مختلفة، بمعنى آخر تتطلب الموضوعية تعددية المعاني وترفض القطعية، لذلك يعتبر نيتشه أن كلما كانت حول الشيء عينان متميزتان، كلما أصبح مفهومنا عن هذا الشيء أكثر اكتمالاً⁴، مما يعزز موضوعيتنا، وبالتالي فإن إلغاء هذه الإرادة يُعتبر بمثابة نفي للذكاء والفطنة.

¹ - Granier Jean, **Le problème de la vérité dans la philosophie de Nietzsche**, Deuxième édition, Éditions du Seuil, paris, 1966, p324.

² - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, première dissertation, §14, p51.

³ - Sarah Kofman, **Nietzsche et la métaphore**, Op. cit, p130.

⁴ - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, troisième dissertation, §12, p156.

لذلك نخبرنا أن العالم مليء بالأصنام أكثر من الحقائق، وعلى القارئ أن يصغي بشك لكل نص مقدس، والنظر بريية لكل القيم يعكس القراءة المتميزة، هذه هي العين والأذن التي ينظر ويصغي بهما نيتشه إلى هذا العالم، إنه يطرح أسئلة قرعا بالمطرقة¹، حيث يرمز الصنم لكل فكرة أو قيمة أو ظاهرة تم تبجيلها وتمجيدها واعتبارها مؤسسة ثابتة من قبل الجميع.

ما يسعى إليه نيتشه هو تحقيق توازن بين الوعي واللاوعي، أو بشكل آخر بين القراءة الواعية والتقييمات اللاواعية التي تنبع من إرادة القوة، هذا ما يجعل من التأويل النظرية المتعلقة حول تطور الوعي الخادع، وبالمقابل طريقته المميزة في القراءة، لأن رجل الشك أي المؤول يؤسس وبمعنى معكوس نشاط التزوير².

ولما كان التأويل يهزأ بما يؤدّ النص قوله ويشكك فيه، فإنه يتحول إلى نقد، والنقد بدوره يصبح تأويل، لكن هدف هذا التأويل ليس مجرد فهم الحقيقة التي يحملها النص ويريد التعبير عنها، بمعنى يصبح الفهم بالمعنى الكلاسيكي، أي الفهم ما يريد النص قوله فهذا مجرد وهم³، لأن مثل هذا الفهم ينخرط في لعبة النص، بل يجب البحث عن تلك الحقيقة التي يخفيها.

وهذا ما يجعل النقد يدخل في علاقة عنيفة مع النص، حيث يسعى إلى معرفة ما يعنيه النص وما الذي يتم إخفاؤه، وبالتالي يتحول تحليله إلى شكل من التحقيق، وينحو حوار مع الماضي والحاضر منحي استنطاق جميع المصادر المقبولة المتعلقة بالفكر والممارسة⁴، لذلك يشير نيتشه إلى أن قيمنا هي تأويلات أسقطناها على الأشياء، فهل هناك معنى حقيقي للأشياء بحد ذاتها؟ أليس المعنى دائما مرتبطا بوجهة نظر معينة؟ كل معنى هو إرادة قوة⁵.

¹ - نيتشه فريديريك، غسق الأوثان: أو كيف نتعاطى الفلسفة قرعا بالمطرقة، ترجمة: علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت، 2010، مقدمة، ص8.

² - Ricoeur Paul, **De l'interprétation: Essai sur Freud**, sans édition, Éditions du Seuil, paris, 1965, p40.

³ - Geneviève Hébert: "**Nietzsche, malin génie de l'herméneutique?**", sans édition, Éditions Beauchesne, Paris, 1993, p318.

⁴ - Clément Alain, "**Nietzsche et son ombre**", in Critique, no138, novembre, 1958, p18.

⁵ - نقلا عن: فوزية ضيف الله، تأويلية إرادة الاقتدار عند نيتشه، مجلة مقاربات فلسفية، المجلد1، العدد2، جامعة مستغانم، الجزائر، جوان 2014، ص184.

ثانيا: مسار جديد للكتابة الجيدة

ذكر نيتشه في رسالة إلى ناشره* سبب اهتمامه بالأسلوب، حيث أشار إلى أن تصحيح الأسلوب يعني تصحيح الفكر، وأوضح أن الأسلوب لا يقتصر على اختيار الكلمات فقط، بل يتعلق أيضا بالأفكار، في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، ذكر نيتشه تحت فقرة القراءة والكتابة، أن النفس لا تميل إلا إلى ما كتبه الإنسان بقطرات دمه¹، مشددا على أهمية الكتابة بصدق وإخلاص، كما أعرب عن اشمئزازه من القراء الكسالى الذين لا يخدمون القراءة بأي شكل من الأشكال، وحذر من أنه إذا أُعطى لكل إنسان الحق في أن يتعلم القراءة، فلن تفسد الكتابة مع مرور الزمان فحسب، بل الفكر نفسه سيتدهور مع مرور الزمن.

إنها استراتيجية جديدة في الفلسفة، حيث تُعتبر الكتابة والتفكير سلاحا موجهها ضد الأسلوب التقليدي في الكتابة والتفسير، يبدو أن الأسلوب الذي يتبناه نيتشه يهدف إلى إقامة علاقة مثيرة للجدل مع الفلسفة، علاقة لا تنضبط بالقوانين أو العقود أو المؤسسات، وهذا ما يجعل الفلسفة مع نيتشه تشعر بأنها ليست في مكانها المعتاد، بل تجد نفسها في رحلة دائمة.

حتى نيتشه يشير إلى الاختلاف بين كتابته الأولى والأخيرة في مسألة الأسلوب، حيث يعتبر أنه لم يعد يستخدم الكلمات بل صواعق، كما يرى أن امتلاك الأسلوب يعني امتلاك للذات، وأن كتابته تعتبر رحلة نحو تحقيق الذات، والقدرة على الانتقال بين الزمان والمكان، وهي تشبه الديناميت في قوتها وتأثيرها².

لهذا نجد نيتشه يتقلب بين الأساليب المختلفة، مثل الشذرة، القصيدة، السيرة الذاتية، والقصة، بهدف زعزعة نظام الكتابة بشكل عام، إن لكل كتاب من كتبه مناخه الخاص، حيث يمكننا أن نشعر بوجوده الخفي في كل كلمة يكتبها، وله إيقاعه ولهجته الخاصة التي تميزه عن غيره، لذلك نبحرنا أن لديه أساليب عديدة، وأنه يتقن فن

* - "باعتباري أكثر المفكرين لهذه الفترة استقلالا وأفكر بالأسلوب أكثر من أي شخص آخر". (أنظر: كوفمان والتر، نيتشه أربع رسائل، ترجمة: صادق خان، الطبعة الأولى، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1974، ص 60).

¹ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Première partie, lire et écrire, p53.

² - Blondel Éric, *Nietzsche, le corps et la culture*, Philosophie d'aujourd'hui, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1986, p 45.

الأسلوب الأكثر تقلباً¹، وأن اختياره لهذه الأساليب يعكس تصويره الواضح لهويتها وطريقة وعيها بالعالم، فكل كتاب يعكس حالة وعي معينة، وهي من أصدق من يعبر عن التفكير النيتشوي.

وبالتالي سيكون أسلوب الكتابة لديه علامة فارقة لفلسفة متميزة، حيث يؤسس اللغة خاصة وسياق خاص يحتاجان إلى قراءة ومعجم خاصين، وهذا يعني أن دلالة الفلسفة قد تغيرت مع نيتشه، ونجد أنفسنا أمام صورة جديدة للفكر، فما هي السمات التي تنفرد بها الكتابة النيتشوية؟

01- معارضته للنسقية

تجاوز نيتشه التوافق السائد في الفلسفة التقليدية، عندما أعلن عدم ثقته في أصحاب الأنساق، وذلك بسبب نقصهم في الأمانة، حيث يحتاط من جميع صناعات الأنظمة ويتجنب التعامل معهم، لأنه يعتبر أن "إرادة النسق احتقاراً للأمانة"²، هذا القول يثير لدينا تساؤل حول سبب غياب الأمانة لدى أصحاب الأنظمة؟

الكتابة النيتشوية تتميز بعدم التنميق والتنسيق المسبق للأفكار قبل تدوينها، بينما يسعى أصحاب المذاهب الأخرى إلى تنظيمها ووضعها في قالب منطقي، وهذا ما يدعوه نيتشه بافتقار الأمانة، فهو بخلاف ذلك يترك الفكر ينبعث بشكل طبيعي وتلقائي ويُدوّن كما هو، معتبراً أن الأفكار التي تأتينا ونحن نسير هي التي تحمل القيمة الحقيقية، يبدو وكأن الترحال المستمر هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة في الفلسفة.

يمكن أن يؤدي اعتراض نيتشه على الفلسفات التقليدية إلى ضرورة التخلي عن الأسلوب الكتابي التقليدي الذي يعتمد على البرهان المستمر، بدلاً من ذلك يجب اعتماد أسلوب* يعكس تشتت العالم وتنوع تأويلاته، حيث إن الواقع متقلب وفوضوي إلى حد يجعل من المستحيل أن يتناسب مع أي نظام محدد، فالأنظمة تمثل بناء يطمس تفتت العالم، لذا ينبغي أن يكون الأسلوب خالياً من خصائص المؤلفات التي ترتبط فيها الأفكار لتشكيل وحدة

¹ - نورالدين الشابي، دولوز قارئاً نيتشه، مجلة الحوار الثقافي، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، الجزائر، عدد ربيع وصيف 2014، ص2.

² - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, Maximes et pointes, §26, p10.

* - أسلوب الشذرة أو المقطع، أسلوب تعبير شاعري عميق يعبر عن تجارب ذاتية وموضوعية وفنية، عبارة عن جمل مقطعية منفصلة عن بعضها البعض، تكون من الناحية الشكلية مقاطع قصيرة أو طويلة في شكل حكم وخلاصات عامة، قوية جذابة تحمل صور دلالية عميقة قائمة على الانزياح، والمفارقة، والسخرية، والإيجاز، والترميز، والإرباك، والإدهاش، والعصف الذهني. (أنظر: جميل حدادوي، المقاربة الشذرية بين النظرية والتطبيق، الطبعة الثالثة، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، تطوان، 2020، ص12).

متكاملة وتعرض تفكيراً يتطور تدريجياً، بل يجب أن يتكون من مجموعة من الأفكار المستقلة، تتماشى مع التحولات الفكرية التي يحدثها نيتشه.

هذا ويعتقد نموذج الاستدلال الصوري في الكتابة أن هناك توافق بين التفكير والتعبير عنه، وأن كل شيء يمكن توضيحه وتمييزه وإظهاره بوضوح بواسطة الحجة والبرهان، بالمقابل تعبّر الكتابة المقطعية التي تستخدم في كتب نيتشه عن الشك في إمكانية وجود هذا التوافق بين المقاطع المنفصلة، وتظهر بشكل أصيل الفجوة الجذرية بين الفكر وعباراته.

بالإضافة إلى أن هذه الكتابة تمثل تحدياً للنسقية والنظام والانسجام المنطقي وسيطرة اللوغوس، وبهذا يُعتبر نيتشه الفيلسوف الوحيد الذي حرّر الكتابة من هذه الهيمنة، وفي هذا السياق أشار جاك دريدا Jacques Derrida إلى أن كتابات نيتشه لا تخضع للوغوس، والحقيقة هي أن هذا الإخضاع تم في مرحلة معينة¹.

إذن يمكن اعتبار الكتابة الشذرية هي رد فعل على سيطرة المشروع المعماري للخطاب الفلسفي الكلاسيكي² الذي اعتمده فلاسفة الأنساق، الذين كانوا يسعون إلى الحصول على معرفة شاملة، وتأسيس الخطاب الفلسفي على أسس منطقية، يبدو أن رفض نيتشه لنظام الأدلة واعتماده على وسائل التعبير التي تجمع بين الشذرات والقصائد، يعكس وعيه بمشكلة أساسية وهي مشكلة اللغة، حيث أنها غير قادرة على التعبير بدقة وبدون تشويه عن فكرة معينة.

لذلك لا يمكن للإنسان التعبير عن أفكاره بالكلمات³، فالعبارة تفتقر لما هو متعدد، وتثبت ما هو متحرك، وتخلط بين الجديد والمألوف، هذه حالات وتجارب معيشية لا يمكن ترجمتها إلى مفاهيم، وبالتالي غير قابلة أن تتحول إلى قيمة تبادلية أو عملة نقدية، يجب التعامل معها كتدفقات، ولذلك نواجه معضلة: إما الصمت أو البحث عن طرق جديدة للتعبير، يبدو أن نيتشه على الرغم من إشارات بالـصمت، حاول استخدام أسلوب شذري للتعبير عن التنوع والاختلاف في الحياة.

¹ - Derrida Jacques, **De la grammatologie**, Première édition, Les Editions de Minuit, Paris, 1967, p23.

² - Blondel Éric, Nietzsche, **le corps et la culture**, Op. cit, p22.

³ - Wotling Patrick, **Nietzsche et le problème de la civilisation**, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1995, p19.

إنه أسلوب خالٍ من كل ضرائب الطبخ والتحليل، ولا يلزم أحد بهزاته ونتائجه، يهدف إلى تسهيل تحقيق التوازن بين العواطف والإرادة الشخصية، عند تحقيق ذلك نكون قد دخلنا عالماً فكرياً لا أثر فيه لثقالة المعجم الفلسفي، حيث تكون النصوص مجرد تدفقات متفرقة من الأفكار والمشاعر متفسخة ذهنياً ووجدانياً، تسعى فقط إلى الوصول إلى الكلمة المناسبة والبلاغة الفعالة والموجزة.

02- إقحام الزمن داخل النص ذاته

تنظر الميتافيزيقا إلى الكتابة كوسيلة لنقل المعنى الثابت، حيث تشير إلى حقائق تتعلق بالأشياء، وتختزلها في نسق الكلمات لحفظ المعاني من تأثير الزمن والنسيان، وبالتالي تمنح الكتابة لمعانيها طابع الخلود وتجعلها تعيش في الحاضر دائماً، مما يجعلها مناسبة لحضور المعنى ومثوله، وبهذا تعطي الأسبقية الزمانية والمنطقية، بل وحتى القيمة الشرفية للمدلول على الدال، ولفكر على المادة، والنفس على الجسد، وهذا هو تصور الميتافيزيقا للكتابة التي تقوم على هيمنة العقل.

وطالما أن الكتابة ليست مجالاً لإنتاج المعاني، فإن الدليل يصبح مناسبة لاستحضار المعنى الأصلي المستقل عن عملية الإنتاج، سواء كان هذا المعنى موجوداً في عالم مفارق، أو كان مجرد محتوى ذهني، لذلك يشير نيتشه إلى أن الفلاسفة الميتافيزيقيين ساهموا في تعزيز هذا الغموض، عندما اعتبروا أن الدلائل والمعاني هي الحقائق الثابتة التي لا تتغير، والتي يمكن قبولها بواسطة الجميع، عندما يدرك الإنسان شيئاً ما، يستعرض سلسلة من العلامات والدلائل التي تقدمها الذاكرة له، ويبحث عن التجانس والتماثل فيها، وعندما يطلق الإنسان دليلاً ماثلاً على شيء ما، يعتقد أنه تملك ذلك الشيء وأخضعه وأنه تمكن من معناه، وبالتالي تظهر الكلمات التي يستخدمها الإنسان دائماً كحقائق تتعلق بالأشياء التي تشير إليها، وليست مجرد علامات ودلائل¹.

مع ظهور نيتشه وثورته على أسلوب الكتابة، تحررت اللغة من قيود الكتابة العقلانية وعادت إلى صلتها الأصلية بالحياة، حيث قام بتحرير الدال من تبعيته بالمدلول، مؤكداً أن اللغة لم تعد مجرد وسيلة لنقل المعرفة بل أصبحت أداة للتفكير وإنتاج المعنى، وبذلك فإن اللغة المهمة تنتج أفكاراً ومعاني غير واضحة.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La volonté de puissance*, Op. cit, p112.

فالكثافة الشذرية تدمج الزمن داخل النص نفسه، حيث ينخر الزمن الحاضر، ويجعل الهوية متأثرة بالتنوع، والوحدة نتيجة للتعدد، إنها كتابة تعارض الوهم الأفلاطوني للمعرفة التراكمية (المعرفة-الذاكرة)، حيث تسلط الضوء على النسيان كقوة فعالة¹، إنها كتابة تجعل عملية القراءة والتأويل مؤجلة باستمرار، وتظهر كشكل منفجر ومتوتر ومتصدع، وهذا الشكل الشذري المفكك المميز للكتابة النيتشوية، هو آلية تحصين وحماية النص الفلسفي من التعميم والكلية والنسقية والانغلاق.

03- الاعتماد على الرمزية

يقدم النص الجنيالوجي نفسه للقراءة كتتابع للصور والاستعارات والكنائيات، ويستخدم الاستعارة بشكل مكثف مما يجعله يقاوم أي محاولة لإقامة خطاب عقلائي نسقي، وما ذلك إلا لكون بنية النص النيتشوي مطاطية تقوم على الانزياح والاستبدال، وتجعل من العقل والرغبة والمتعة مفاهيم لا يقصي بعضها البعض، يمزج النص بين الفلسفة والشعر، وبين المفهوم والاستعارة، وبين الجد والهزل، وبين الواقع والوهم.

ويكفي بنا أن نستعرض استعارتي المطرقة والجنيالوجيا كأمثلة على ذلك، فالمطرقة تُستخدم للهدم ولكن أيضا للنقش والنحت والتشكيل، وفيما يتعلق بمفهوم الجنيالوجيا الذي يُعتبر مفهوما استشكاليا، يثير تساؤلات حول الأصل النفسي والفيزيولوجي لمفاهيم الثقافة والمعرفة، وتتميز هذه الاستعارة بأنها مقنّعة ومحتجبة، ولا يمكن كشف الحقيقة إلا من خلال تحليل اللغة، وهذا ما يبرر العلاقة التي يربطها النص النيتشوي بين الجنيالوجيا والفيلولوجيا.

فأن تكون مريضا ليس فقط أن تعاني من سوء الهضم (كناية عن العجز) فحسب، بل أيضا أن تتناول كل شيء دفعة واحدة دون تمييز، الثقافة المنحطة التي تعاني من سوء الهضم ليست فقط تلك التي تعاني من هذه المشكلة، بل هي أيضا تلك التي لا تفهم الواقع بشكل صحيح، لذلك أشار نيتشه إلى أنه لا يحب الأشخاص الذين يؤمنون بأن كل شيء جميل وأن هذا العالم هو الأفضل، بل يحب الأشخاص الذين لديهم جهاز هضمي يمكنه أن يقول "نعم" و "لا"².

¹ - عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص140.

² - Blondel Éric, Nietzsche, le corps et la culture, Op. cit, p303.

وهكذا فاللغة حين تسمي الأشياء فإنها لا تحل فيها، بل تستخدم الأسماء كرموز واستعارات، فعندما نتحدث اللغة عن الأشياء، فإنها نتحدث عن صور وإحساسات وتدفقات، وليس عن كياناتها الحقيقية، إنها نتحدث بالمجاز وليس بالحقيقة، وبالتالي عندما نتحدث عن شيء ما، فإننا نستدعي صورته بالرمز، وليس الشيء بحد ذاته.

وهذا يعني أن النص الجنياولوجي يعتمد على استراتيجيات اللغة ونظمها الاستعارية في تحويل الكائنات الكلامية، فالشمس والقمر والكواكب والنجوم ليست مجرد أشياء فلكية في السماء، بل هي الدفء والأنس، إنها مجموعة من الأحاسيس والمشاعر¹، يعني ذلك أن كتابات نيتشه تعمل على تحرير النص من أي سلطة خارجية تريد فرض سيطرتها عليه، سواء كانت سلطة الكاتب نفسه، أو سلطة الإيديولوجيا، أو حتى سلطة العلم².

يترتب عن هذا المفهوم للكتابة دلالة في غاية الأهمية والخطورة، يجعل الغياب في اللغة هو الأصل وليس الحضور، فنحن عندما نتحدث، نتحدث عن شيء غائب دائما، حتى لو كان ماثلا أمامنا، وبالتالي تعمل اللغة على استحضار الغائب في الكلام بدلا من الحاضر، وهذا يعني أنها تتلاعب بالواقع وتخلق صورا وهمية³.

04- قضية الإقناع والاقتناع والحقيقة

إن قيمة الأسلوب في نظر نيتشه تكمن في قوته وجماله بدلا من حقيقته، فهو لا يسعى إلى الإقناع ولا إلى أن يكون على حق، لأن يعتبر أن كل وضوح مخادع، لذلك يقوم الأسلوب على نزع الأقنعة والتعرية إلى ما لا نهاية دون الادعاء بأنه كشف القناع النهائي، إذ هو الفعل الذي يتسنى من خلاله معرفة ما إذا وجد عن فيض أم أن حاجة حيوية جعلته ممكنا، كما يمكن معرفة ما إذا كان الفيلسوف من خلاله مثبتا أو نافيا للحياة.

¹ - مندر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998، ص16.

² - Baroni Christophe, **Ce que Nietzsche a vraiment dit**, sans édition, Collection Marabout université, Verviers en Belgique, 1975, p102.

³ - محمد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006، ص180.

بمعنى أن الأسلوب المبرهن يعكس فقر الحياة، بينما الأسلوب الاستعاري يعكس حياة غنية ومليئة، واستخدام الاستعارة بشكل حر يعبر عن الحياة بكل تنوعها وثرأها، وبالمقابل يعتبر تفضيل المفاهيم هو تعبير عن الرغبة في العدم¹، ومن وجهة نظر نيتشه تملك الفلسفة الغير المبرهن عليها لهيراقليطس* Heraclitus قيمة فنية أكبر من أي قضية تناو لها أرسطو.

إذن نيتشه تخطى حاجز المذهبية الفلسفية واختار أسلوب الفكر الوصفي بدلا من البرهنة المنطقية، وتحرر من القيود المذهبية وحصل على حرية اختيار الأساليب المناسبة لمعالجة مواضيعه، من مستوى الكتابة شبه الأسطورية إلى أسلوب التحرير الشعري والبلاغي، مما جعله يدخل الفن إلى التعبير الفلسفي ويحرره من القيود التقليدية والقوالب المنطقية.

المبحث الثالث: إدخال الزمن في عملية التفكير النقدي

إن الدافع الذي يجعل نيتشه يبحث على أهمية الدراسات التاريخية أو عدمها، وكذلك الاهتمام المتزايد بالتاريخ بشكل عام، يستدعي منا الحديث عن مدى حاجة الإنسان إلى هذا التاريخ من عدمها، فقد ركز اهتمامه في الاعتبار الثاني من كتابه "اعتبارات في غير أوانها"^{**} بالتاريخ وعلاقته بالزمن، وإلى أي مدى نحن نحتاج إلى المعرفة التاريخية في إطار صلاحيتها وحاجة الحياة إليها²، وتعبير آخر بالمكانة التي يتوجب أن يتخذها الماضي تجاه الحاضر، هذا الحاضر الذي يفهمه نيتشه كمبادرة للانفتاح على المستقبل، دون أن يكون عبئا ثقيلا علينا.

¹ - Sarah Kofman, *Nietzsche et la métaphore*, Op. cit, p32.

* - فيلسوف يوناني عاش في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، ويُعتبر سابقا لسقراط، حيث كان يؤمن بفكرة التغير الدائم، عُرف بأسلوبه الشعري الغامض، مما أكسبه لقب "الغامض"، لم يصلنا من أعماله سوى شذرات من كتابه "الطبيعة"، الذي كُتب بأسلوب نثري أيوني، يتكون هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء متميزة وواضحة، وهي الطبيعيات، الإلهيات، والسياسة والكوسمولوجيا، ومن بين أقواله الشهيرة: "كل شيء في حركة مستمرة وتغير". (أنظر: رحيب أبو رغيغ الموسوي، الدليل الفلسفي الشامل، الجزء الثالث، ص 606).

** - يمثل كتاب "حول منافع ومضار التاريخ على الحياة" والذي صدر عام 1874، وهو من أبرز كتب مرحلة الشباب، الاعتبارات الثلاثة الأخرى تتعلق بشخصيات ثقافية معروفة (دافيد شتراوس David Strauss وأرتور شوبنهاور Arthur Schopenhauer وريشارد فاغنر Richard Wagner).

² - Nietzsche Friedrich, *Untimely meditations*, Trans: by R.J. Hollingdale, With an Introduction by J.P. Stern, without edition, Cambridge University Press, London, 1983, p 59.

أولاً: قيمة التاريخ بالنسبة للحياة

التاريخ بحسب نيتشه لا يمكنه أن يخدم الحياة إذا كان علماً خالصاً، لأن ذلك يعني المبالغة في المعرفة، تضخيم غرائز المعرفة يعني تراجع وتدهور غرائز الحياة، فهو ضروري للحياة متى كانت المعرفة البسيطة بأحداثه، وإذا لم يغالي الإنسان في نزعتة التاريخية، فإنه سيحافظ على هذا الرابط المتين بين التاريخ والحياة، ولذلك نجد عبارة ليوهان غوته* (1832-1749) Johann Goethe يذكرها نيتشه، والتي تعبّر عن كرهه لكل ما لا يضيف قيمة حقيقية لحياته ونشاطه، "أكره كل ما لا يفعل غير حشوي بالمعلومات، دون أن يرفع من نشاطي أو يحيني بشكل مباشر"¹.

يتأسس موقف نيتشه من التاريخ على رفضه للطريقة التقليدية التي يتعامل بها المؤرخون مع حوادث الماضي وعلاقتها بالحاضر، حيث ينتقد أنماط استخدام التاريخ الثلاثة المعتادة، وهي التاريخ التذكاري، والتاريخ العتيق، والتاريخ النقدي، وتتعلق هذه الأشكال الثلاثة بحياة الكائن البشري، حيث يرى التذكاري الإنسان ككائن فاعل ومناضل، والعتيق يصوره ككائن محافظ ومُنطوٍ، بينما يصف النقدي الإنسان ككائن يعاني ويسعى إلى التحرر².

بالنسبة للاستخدام الأول، يتولى التاريخ التقليدي مهمة استعادة الشخصيات العظيمة والحفاظ عليها في الحاضر الأبدي في الذاكرة الجماعية، وتقديمها كهويات بديلة، ومن هنا ينتقد نيتشه هذا الاستخدام لأنه يعتبره محاكاة ساخرة وعائفاً أمام تدفق الحياة الحالية وإبداعاتها³.

* - يُعتبر غوته واحداً من أبرز الأدباء في ألمانيا، حيث ترك إرثاً أدبياً وثقافياً هائلاً للمكتبة الألمانية والعالمية، كان له تأثير عميق على الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، ولا يزال التاريخ الأدبي يذكره بأعماله الخالدة التي تزين رفوف المكتبات حول العالم كجزء من ثرواتها، تنوع أدب غوته بين الرواية والمسرح والشعر، حيث أبدع في كل منها، كما اهتم بالثقافة والأدب الشرقي، واطلع على العديد من الكتب، مما جعله واسع الأفق ومقبلاً على العلم، متعمقاً في دراساته.

¹ - نيتشه فريدريك، محاسن التاريخ ومساوئه، ترجمة: رشيد بوطيب، الطبعة الأولى، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، 2019، مقدمة، ص11.

² - Mahon Michael, **Foucault's Nietzschean Genealogy: Truth, Power, and the Subject**, First Edition, State University of New York Press, Boston University, 1992, p 97.

³ - Nietzsche Friedrich, **Seconde considération intempestive: De l'utilité et de l'inconvénient des études historiques pour la vie**, Trad: Henri Albert, sans édition, GF Flammarion, Paris, 1988, §2.

فالتاريخ التذكاري لا يحتفظ بكل تفاصيل الماضي، بل يميز داخله بين الأفعال التي تبرز وردود الأفعال السلبية، بين الأفعال البطولية وردود فعل القطيع، يُظهر في عمق الماضي شخصيات بطولية تُلهم الحياة الحالية، أبطال يمكن للإنسان المعاصر أن يستفيد منهم ويتبع أثرهم نحو تحقيق أهدافه.

لكن لماذا نحن نولي اهتماما بالأعمال الكلاسيكية والنادرة من العصور السالفة؟ يشير نيتشه إلى أن اهتمامنا بهذه الأعمال يعود إلى إيماننا بأن العظمة* التي تحققت في الماضي كانت ممكنة في ذلك الوقت، وأنها قد تكون ممكنة مرة أخرى في المستقبل، هذا الاعتقاد يلهمنا لتقدم بشجاعة في حياتنا، حيث نتغلب على المخاوف التي تعترض طريقنا ونتساءل إذا كان بالإمكان تحقيق المستحيل¹.

ما أثار إعجاب نيتشه هم الإغريق، حيث يشير في جل مؤلفاته إلى ما يشده إليهم، وهو إثبات الحياة حتى في بعدها المأساوي، وينطبق ذلك على الفلاسفة الأوائل في اليونان، حيث كانت حكمتهم عن الحياة والوجود غنية بالمعاني بالمقارنة مع الحكم الحالي²، نظرا لأن حياتهم التي شهدوها كانت مليئة بالازدهار، ووحدهم لم يكن مضللا كما هو الحال في الوقت الحالي، ولذلك منح الإغريق الفلسفة شرعيتها.

لكن يجب علينا أن ندرك أن إعجاب نيتشه بالإغريق، لا يعني نقل وإسقاط هذا النموذج على الحاضر، بل يجب علينا الاستفادة منه دون إهمال الحاضر، ثم استخلاص الدروس التي تساعدنا على خلق المستقبل، ولذلك يشير نيتشه إلى أننا لا يمكننا العودة إلى الماضي، لأننا قد أحرقنا السفن³ ولم يبق لنا سوى أن نكون شجعانا لنمضي قدما، فقد تكون خطواتنا هي التي ستحدد مدى تقدمنا في المستقبل.

* - في هذا السياق يستشهد نيتشه بغوته الذي يرى أن عصره هو عصر البؤس، حيث تفتقر النماذج البشرية التي يمكن الاستفادة منها في الإبداع، يقول غوته: "إن عصرنا مليء بالبؤس، لدرجة أن الشاعر لم يعد قادرا على العثور في محيطه على الصفات الإنسانية التي يحتاجها في عمله". (أنظر: نيتشه فريديك، محاسن التاريخ ومساوئه، مصدر سابق، فقرة 2، ص 25).

¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

² - نيتشه فريديك، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم: ميشال فوكو، تعريب: سهيل القش، الطبعة الثانية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص 42.

³ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Trad: Alexandre-Marie Desrousseaux, vol.1, septième édition, Société du Mercure de France, Paris, 1906, §248, p234.

كل ما يوفره لنا الماضي من تجارب بعض الأبطال المتفوقين، يمكن أن نستفيد منهم لخلق مستقبل أفضل، ولكن يجب علينا أن نتعلم منهم دون أن ننسى حاضرننا، بحيث لا نسيء تقدير قيمة هؤلاء، ولا نكون أيضا عبيدا لهم، ولهذا يذكر نيتشه أنه من يتخلى عن التقاليد يكون ضحية للمفاجآت غير متوقعة، ومن يظل وفيا للتقاليد يصبح عبدا لها، وفي كلتا الحالتين يمضي المرء إلى حتفه¹.

الاستخدام الثاني للتاريخ يتمثل في الاهتمام بالحفاظ على ذاكرة السابقين والاشتياق للوطن والهوية، يعني ذلك أن التاريخ ينتمي إلى أولئك الذين يحتفظون بالتراث ويحترمونه، إنه بمثابة الامتنان والعرفان بالجميل، انتقد نيتشه هذا النوع من التاريخ لأنه يعيق الإبداع بسبب التمسك بالوفاء والإخلاص.

ولذلك يرى نيتشه أن الانغلاق في الماضي وتجاهل الحاضر قد يؤدي إلى تدمير الحياة، ويصف هذا الحال بمرض التاريخ²، حيث يقتل الإبداع والتجديد، فالتاريخ التقليدي يعرف كيف يحافظ على الحياة، أي يقوم بتحنيطها، ولكنه لا يعرف كيف يخلقها، إنه يحطّ دائما من قيمة ما هو في طور النشوء.

هذا ويعتبر نيتشه أن النسيان ضروري للإنسان، حيث يساعده على الاحتفاظ بالحاضر دون أن يكون مكبلا بأثقال الماضي، فالنسيان دائما مرتبط بالصحة، ويعتبر علاجا يساعد على تحسين صحة الشعوب من أمراض التاريخ المزمنة، لذلك ينبغي أن يكون هناك حد معين يجب من خلاله نسيان الماضي، أشار نيتشه إلى أنه من الممكن أن نعيش بدون ذكرى تقريبا، ولكن من المستحيل أن نستمر في الحياة دون نسيان³.

على الرغم أن النسيان ضروري في بعض الأحيان، إلا أنه يمكننا الاستفادة من الماضي إذا تعاملنا معه بشكل صحيح، فلا يكون مجرد موضوع للمعرفة، ولا يكون عائقا أمام الحياة، فالسعادة تتطلب القدرة على النسيان، ولكن يمكننا استخدام ذكرياتنا بطريقة تفيد الحياة الإنسانية⁴، يمكن اعتبار تأملاتنا في التاريخ دعوة لاكتشاف أهمية النسيان للفرد والمجتمع والثقافة، حيث تساعدنا على تحرير الحاضر من وطأة الماضي والحياة من سيطرة الذاكرة.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, §552, p380.

² - Ricœur Paul, **La Mémoire, L'histoire, L'oubli**, sans édition, Éditions du Seuil, Paris, 2000, p384.

³ - نيتشه فريدريك، محاسن التاريخ ومساوئه، مصدر سابق، فقرة 3، ص 32.

⁴ - Smith, Gregory Bruce, **Nietzsche, Heidegger, and the transition to postmodernity**, Op. cit, p84.

أما الاستخدام الثالث للتاريخ يدّعي أنه الحقيقة الموضوعية، ويحاول أن يكون محايدا ويحذف الذات العارفة، ويضحى بها من أجل الاهتمام بالحقيقة، ينتقد نيتشه هذا الاستعمال لأنه يجمع ميول الذات العارفة باسم الموضوعية، هذا الاستخدام للعلم التاريخي وقع ضحية الميتافيزيقا.

وإذا ما نظرنا نقديا إلى ماضي هذا الشيء، سنجد أنه يجب قطعه من جذوره بالسكين والتخلص من كل أشكال التقديس، لكن في حقيقة الأمر هو خطر يحرق بالحياة نفسها، حيث يجعل البشر والحب التي خدمت الحياة عرضة للخطر من خلال محاربتها وتدميرها في الماضي، ذلك أنه في الوقت الذي تمثل فيه حصيلة للأجيال السابقة، فإن ذلك يعني أننا في الآن نفسه نتيجة لانحرافات هذه الأجيال ورغباتها وأخطائها، وربما جرائمها¹، يصعب علينا التحرر تماما من هذا الإرث، ونجد أنفسنا في صراع بين طبيعتنا المتوارثة ومعرفتنا.

يبدو أن حالة الانحطاط والمعاناة التي وصل إليها الإنسان الأوروبي، ناتجة عن أن الحداثة التي تدّعي انفصالها عن الماضي، ليست سوى امتدادا لها، فالقيم التي تبنتها الحداثة هي قيم الارتكاس، تلك التي قادت العبيد في الماضي وتقودهم اليوم، ولم تفعل الآلهة القديمة سوى أن غيرت هيئاتها وألقت بظلالها على الإنسانية الحديثة، لذلك فالمعرفة بالتاريخ ضرورية لفهم الحاضر ذاته، حيث لا تكفي الملاحظة المباشرة للذات كي يفهم المرء نفسه، إننا بحاجة إلى التاريخ لأن تيار الماضي يشقنا ويسكننا، ولذا يذكر نيتشه خطابه بقوله: "لقد حفر الماضي في وجوهكم آثاره، فألقيم فوقها آثارا جديدة"².

ثانيا: الحس التاريخي هو الأداة المفضلة للجنيالوجيا

ما هي العلاقة التي تربط الجنيالوجيا من حيث هي بحث عن الأصل بما نطلق عليه عادة التاريخ؟ نيتشه يطلق على الجنيالوجيا الحس التاريخي، وهي الأداة التي لا تفسح المجال لأي وجهة نظر تتجاوز التاريخ، كما لا تستند إلى أي مطلق فتفرض عليها رؤيتها الخالدة، بل تنظر إلى التاريخ الفعلي، أي علاقات القوى وصراع السلطات ولغات الهيمنة والخضوع.

¹ - نيتشه فريديريك، محاسن التاريخ ومساوئه، مصدر سابق، فقرة 3، 34.

² - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Deuxième partie, du pays de la civilisation, p170.

فغيب كل الفلاسفة المشترك هو كونهم ينطلقون من الإنسان الحالي ويتصورونه دون قصد وكأنه حقيقة خالدة، يتخيلونه واقعا ثابتا وسط دوامة الكل ومقياسا ثابتا للأشياء، ولكن كل ما يذكره الفيلسوف عن الإنسان ليس في الحقيقة سوى شهادة حول إنسان فترة زمنية جد محدودة¹.

ولم يقصد نيتشه افتقار الفلاسفة للحس التاريخي نكرانهم للتاريخ وجهلهم بالأحداث وتخوم الماضي، بل ما يعنيه بذلك إنما عودتهم الغير البريئة إلى التاريخ، ولذلك يشير إلى أن ما تداوله الفلاسفة على مر السنين، كانت مجرد أفكار مأخوذة من حقدهم على الصيرورة، ولا شيء خرج حيا من بين أيديهم²، ولذلك يتميز التاريخ الفعلي عن تاريخ المؤرخين في كونه:

01- لا يستند إلى أي ثابت من الثوابت

يرفض جميع المحاولات التي تسعى لتشميل التاريخ، أي جعل التاريخ خاضعا لنظرية ثابتة أو مفهوم كلي أو أيديولوجيا عقائدية أو فلسفية محددة، إنه يلقي في الصيرورة بكل ما أعتقد لدى الإنسان أنه خالد لا يفنى، فيدع الفوارق والهوامش تعمل، حتى العواطف مثل الشفقة والرحمة والتواضع، فنحن نعتقد أنها خالدة إلا أن لها تاريخا، وخصوصا تلك التي تبدو لنا أكثر نبلا وبعدا عن المصلحة والمنفعة³.

فالحس التاريخي لا يعتمد على ثوابت، بل يشكل نظرة متغيرة وقادرة على تغيير ذاتها، ويمحو وحدة الإنسان الذي يزعم أنه بإمكانه أن يحصل نظرة موضوعية بماضيه، ذلك أن كثيرين منهم ودون أن ينتبهوا لذلك، يعتبرون صورة الإنسان الأخيرة مثلما شكلتها تأثيرات بعض الديانات أو الأحداث السياسية، هي الشكل الثابت الذي منه ينبغي أن يكون المنطلق، دون أن يدركوا أن الإنسان هو نتيجة صيرورة تاريخية، وأن ملكة المعرفة هي كذلك نتيجة صيرورة، بل إن البعض منهم مجرد الناس كلهم من هذه الملكة⁴.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre premier, §2, p16.

² - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, La raison dans la philosophie, §1, p24.

³ - فوكو ميشيل، **جنيلولوجيا المعرفة**، مرجع سابق، ص 76.

⁴ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre premier, §2, p16.

02- لا يهدف نحو غاية

لا يؤمن الجنيالوجي لا بالماهيات الثابتة ولا بالغايات المفارقة، ولا يسعى نحو أهداف محددة، إنها ليست شجرة أنساب متجذرة في أصل، متواصلة الأغصان تنمو نحو السماء، ذلك أنه عندما يقضي على مفهوم المصدر الأصلي، يلغي في الوقت ذاته فكرة الغاية والنهاية.

ما يتواجد وما يتم تشكيله بكيفية أو بأخرى تتسلط عليه دوما قوة أعظم منه، حيث يُستخدم لأغراض جديدة ويُعاد تشكيله ويُستخدم بطريقة مختلفة، فكل حدث يحدث في العالم العضوي هو نتيجة للقهر والسيطرة والهيمنة، وكل هيمنة تمثل تأويلا جديدا، وتكييفا يؤدي إلى تغيير المعاني والأهداف التي كانت مقبولة حتى ذلك الحين¹.

يُظهر التاريخ الفعلي الحدث في تفرد و تميزه، ولا يعني الحدث هنا اتخاذ قرار أو توقيع معاهدة، بل يعني تغيير في القوى أو انتزاع للسلطة أو ضعف في الهيمنة لتفسح المجال لهيمنة أخرى تظهر بشكل مقنع، ولذلك فإن القوى المتحكمة في التاريخ لا تسعى نحو هدف محدد، ولا تخضع لعلاقات آلية ميكانيكية، وإنما تتأثر بصدف الصراع².

بخلاف التاريخ الميتافيزيقي الذي يقف عند حالة معينة، ويعطيها تأويل معين ليضيف عليه معنى وهدفا محددًا، يصبح التاريخ في هذا السياق تعبيرا عن الهدف والاتجاه وحتى عن علة حركته، وبموجب هذا النهج يصبح التاريخ مجرد انتشار لذلك الأصل وهذه الغاية، ولذلك يشير ميشال فوكو إلى أنه عندما تضع الميتافيزيقا الحاضر كنقطة انطلاق، توهمنا بوجود قوى غامضة تسعى للظهور، أما الجنيالوجيا فهي تعيد بناء مختلف المنظومات الفاعلة، ليس القوة المهيمنة على معنى ما، بل التفاعل الناتج عن صدفة بين عدة قوى³.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, deuxième dissertation, §12, p.92

² - فوكو ميشال، *جنيالوجيا المعرفة*، مرجع سابق، ص77.

³ - Foucault Michel, "*Nietzsche, la généalogie, l'histoire*", in *Hommage à Jean Hyppolite*, Première édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1971, p155.

03- الحس التاريخي لا يخشى أن يكون معرفة منظورية

في الواقع ينتقد نيتشه ذلك الشكل من التاريخ الذي يحاول دائما فرض وجهة النظر التي تتجاوز التاريخ، يقصد التاريخ الذي يحاول تقديم تصوير مبسط للتنوع الزمني ويعود به إلى وحدة مغلقة على ذاتها، هذا التاريخ الذي يمكن أن يجعلنا نعرف على أنفسنا في كل العصور ويصالح بين التحركات الماضية ويجمع بينها.

يحاول المؤرخون بجدية إلغاء أي تأثير يمكن أن يُسبب معرفتهم، المكان والموقع الذي ينظرون منه، والزمان واللحظة التي يعيشون فيها، وكذلك المواقف التي يتخذونها، وما قد يتأثر بأرائهم من معلومات، أما الحس التاريخي بما أنه يعترف أنه منظوري، فلا يتجاهل الأخطاء التي يمكن أن تحدث بسببه، إنه ينظر إلى الأمور من وجهة نظر معينة بهدف التقويم، ويسعى لتتبع الأحداث والتأثيرات السلبية والبحث عن الحلول المناسبة لها.

04- العلاقة بين القريب والبعيد

التاريخ التقليدي يمتلك القدرة على تغيير العلاقة بين القريبين والبعيد، حيث يرغب نقل رؤيته نحو العصور البعيدة، الأكثر نبلا ورقيا وطهارة، وأكثر الأفكار تجريدا، ولذلك يبذل جهودا كبيرة للوصول إليها، ويحاول الاقتراب منها أشد ما يمكن، والارتقاء إلى تلك القمم حتى وإن اقتضى الأمر رؤيتها من خلال منظور بسيط¹.

وفي مقابل ذلك يلقي التاريخ الفعلي نظرتة على ما هو شديد القرب منه، على الجسم والجهاز الهضمي والعصبي، إنه يتقصى عصور الانحطاط، وعند مواجهة العصور السابقة يشعر بالفرح ولا يغذيه الحقد، لا يخاف من النظر إلى الأسفل، بل ينظر من أعلى ويسعى لفهم النقاط البعيدة والاختلافات، تاركا لكل شيء قوته وشدته.

05- الحس التاريخي أقرب إلى التشخيص منه إلى التأمل

غالبا ما يقترن نيتشه مصطلح التاريخ بلفظة فيزيولوجيا، وهذا ليس بالأمر الغريب، لأننا نجد في مزاج الفيلسوف إنكارا دائما للجسد وغياب للحس التاريخي، وحقد على فكرة الصيرورة وتعلقا بالثبات والخلود، وتمسكا بقلب الأمور وإعطاء الأولوية للمتأخر وجعل نهايات الأمور بداياتها.

¹ - فوكو ميشيل، جنيلوجيا المعرفة، مرجع سابق، ص78.

إن للتاريخ مهمة أخرى بدل أن يحكي الميلاد الضروري للحقيقة والقيمة، يجب عليه أن يكون معرفة تفاضلية للقوة والضعف، للارتقاء والانهيار، يجب أن يكون علم الأدوية والعلاجات، حيث يعتبر الفيلسوف طبيبا للحضارة، ولذلك يشير نيتشه إلى أنه ما زلنا نحتاج إلى فيلسوف طبيب بالمعنى الاستثنائي، الذي يدرس مشكلة صحة الشعوب والمجتمعات الإنسانية بجرأة، ويطرح الفرضيات بشجاعة في كل نشاط فلسفي حتى الآن، لم يكن الهدف إيجاد الحقيقة بل كان يتعلق بالصحة، والمستقبل، والنمو، والقدرة، والحياة¹.

إن احتياج الجنيالوجي للتاريخ من أجل تجنب أوهام الأصل كاحتياج الفيلسوف إلى الطبيب من أجل تجنب ظلال الروح²، ينبغي علينا أن نتعلم كيف ندرك الأحداث التاريخية، والصدمات التي تصيبنا، والانتصارات الضعيفة، والهزائم الصعبة، والتركيز على الاهتمام بالأصل والتاريخ والتراث الموروث، تماما كما نقوم بتشخيص أمراض الجسم.

إذن يتمحور موضوع الحس التاريخي حول التاريخ الفعلي، أي تاريخ القوى في صراعاتها وألعابها وتبادل مواقعها وترتيبها، لا توجد حقيقة أو قيمة مطلقة، بل كل حقيقة وكل قيمة تنشأ نتيجة تفاضل بين القوى، وهي وليدة ذلك التفاضل، لذلك لعبة التاريخ الكبرى تتمثل في من يفوز بالقيم ويستولي عليها ويستخدمها بشكل مغاير ويجرفها ويعكسها، ويُسيطر على جهاز المفاهيم ليستخدمه بطريقة تقيد به القواعد والقيم التي تشارك في لعبة الصراع.

ولكن ما الفائدة التي يمكن أن يقدمها لنا الحس التاريخي أو التاريخ الجنيالوجي؟ فهو يعلمنا التقليل والاستخفاف بالحفاوة التي يحظى بها الأصل، وبالتالي فإن هدفها ليس استعادة جذور الهوية، بل القضاء عليها، ولذلك يذكر نيتشه في أحد شذراته قوله بمعرفة الأصل تزداد تفاهته³.

¹ - نيتشه فريدريك، العلم المجدل، ترجمة: سعاد حرب، كتاب أول، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2001، تقديم، فقرة 2، ص 9.

² - فوكو ميشيل، جنيالوجيا المعرفة، مرجع سابق، ص 68.

³ - Nietzsche Frédéric, *Aurore*, Livre premier, Op. cit, §44, p58.

ذلك أن الميتافيزيقا كانت تعتبر الأصل موطن الأشياء، حيث أننا نميل إلى الاعتقاد بأن الأشياء كانت في بدايتها تتمتع بدرجة من الكمال وخرجت من يد خالقها متوهجة، وكان يُفترض في الأصل وجود فائض في النمو، إنه موجود دائما قبل السقوط والتدهور، قبل الجسد والعالم والزمن، وكان يُعتبر أنه موجود دائما بجوار الآلهة وبصحبتها¹، وكان كل حديث عنه هو تغن بمحتده الإلهي.

إن الجنيالوجيا تعني العودة إلى الوراء لاستعراض الأصل، وهذه العملية لا تعتمد على التصديق بالميتافيزيقا بل هي تصغي للتاريخ، فهي لا تقتصر بالبحث في الأصل فقط، بل تهتم بجميع تفاصيل الظاهرة أو الحوادث التي تحدث، على نحو ما يحصل لدى التشخيص الطبي في فهم حالة الجسم، فكلما فهمنا وتعرفنا إلى حالات ضعفه وقواه وتصدعه، جئنا ذلك أخطاء في تشخيصه، وبذلك فقط نقف على صدق الخطاب ويمكن الحكم له أو عليه².

فالتاريخ الجنيالوجي يكشف لنا عن جميع التحولات التي تطرأ على ماهية أو ظاهرة معينة، كما يسلط الضوء على الحيل والأساليب التي أدت إلى تشويه تلك الماهية الأصلية، لذا يعتبر نيتشه أن الأهم هو فهم كيفية تسمية الأشياء بدلا من معرفة ماهياتها، فكل ما يرتبط بشيء ما، مثل اسمه ومظهره وقيمه ووزنه، يُضاف بشكل عشوائي وغير دقيق، ومع مرور الوقت، وبسبب إيماننا العميق بهذه الأمور، نقوم بنقلها من جيل إلى آخر، مما يؤدي إلى تحولها تدريجيا إلى جوهر الشيء، وبالتالي تحجب الماهية الأصلية، وبهذه الطريقة يتحول ما كان مجرد مظهر في البداية إلى جوهر، ثم يبدأ في العمل كماهية.

من هنا تظهر تعددية الأصل وتنوعه، حيث لا يكون الأصل موحدا أو متناغما، بل متعددا ومختلفا، والبحث عن المصدر لا يؤسس، إنه يربك ما نظنه ثابتا ويجزئ ما نراه متجانسا، هذا البحث يجعلنا ندرك أن المطابق لذاته غير متجانس، فبينما يحاول البعض إثبات الوحدة وإقامة الهوية، يسعى الآخرون لهدم الموحّد وتقويض الهوية، فهي لا تؤسس بل تقلق ما تعتقده الميتافيزيقا ساكنا، وتفتت ما نظنه موحدا، وتظهر التنوع في ما يبدو منسجما³.

¹ - فوكو ميشيل، جنيالوجيا المعرفة، مرجع سابق، ص 51.

² - المرجع نفسه، ص 52.

³ - عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 27.

ولذلك يشير ميشال فوكو إلى أهمية الإصغاء إلى التاريخ* بدلا من الاعتماد على الميتافيزيقا، فماذا نتعلم؟ سندرك أن وراء الظواهر والأشياء والخطابات والقيم يكمن شيء آخر، لكنه ليس السر الجوهرى الخالد للأشياء، بل سر كونها بدون سر جوهرى وكونها بدون ماهية، أو أن ماهيتها قد تم إنشاؤها تدريجيا من خلال أشكال غير مألوفة، لذا ما نجده في البداية التاريخية للأشياء ليس هوية أصلها المحفوظة، بل تشتت وتفرق أشياء أخرى، ونجد التعدد والتشتت¹.

يظهر ذلك بشكل خاص في دراسة كتابه "أصل الأخلاق"، حيث يسعى نيتشه إلى تحليل العواطف الأخلاقية، مبينا ما تخفيه في حقيقتها، كما يتضح ذلك في كتابه "ما وراء الخير والشر"، حيث ينتهي إلى أن التقويمات والقيم الشائعة التي باركها الأخلاقيون والميتافيزيقيون، ليست إلا تقديرات سطحية ومنظورات محدودة²، ويظهر هذا الرأي أيضا في أعماله الأخيرة، حيث يشير إلى أن دوافعنا الواعية هي مجرد مظاهر سطحية، وراءها يكمن صراع غرائزنا من أجل السلطة³.

إذن لا يقتصر التاريخ الجنيالوجي على كشف القوى التي تقف وراء الظواهر، بل يخطو خطوة أخرى إلى الأمام، فيقوم أصل تلك القوى من حيث نبلها أو انحطاطها، وبالتالي فهو ليس مجرد بحث عن أصل الظواهر، بل هو أيضا تقدير لقيمة تلك الأصول، لأن دوره نقدي في تحليل الأحداث التاريخية.

إذن لما كانت الجنيالوجيا بحثا في تعاقب القوى في السيطرة على شيء من الأشياء، تعاقب ظاهرات إخضاع عنيفة ومستقلة بعضها عن بعض إلى هذا الحد أو ذاك، هذا التتابع والتعاقب بين القوى المتنوعة يمثل الزمان نفسه، "وجهان لعملة واحدة"⁴، لذلك هو صيرورة القوى في عفوية لعبها وتشكيلاتها المختلفة.

* - أدى ذلك إلى استكشاف مجالات مهمة ومسكوت عنها، مثل تاريخ الجنون وتاريخ السجون وتاريخ الجنسانية، حيث تُعتبر هذه المواضيع معرفية وتاريخية نادرة التداول والاهتمام، ويشير فوكو إلى أن "حقيقة الأشياء هي التي تمنح حقيقة الخطاب"، مما يعني أن الغوص في مصداقية الأحداث التاريخية هو ما يضيف قيمة على السرد والحكاية التاريخية. (Voir la: Foucault Michel, **Les mots et les choses, Une archéologie des sciences humaines**, sans édition, Collection Bibliothèque des Sciences humaines, Gallimard, Paris, 1990 , p331.)

¹ - Foucault Michel, "Nietzsche, la généalogie, l'histoire", Op. cit, p184.

² - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. cit, Prejudices of Philosophers, §2, P7.

³ - Nietzsche Friedrich, **Fragments posthumes XII**, Op. cit, p25.

⁴ - Chassard Pierre, **Nietzsche, Finalisme et Histoire**, Op. cit, p111.

لكن الوعي به لا يكون إلا من خلال الجنيولوجيا، فبواسطتها يصبح الزمان موضوع إدراك¹، حيث يمكننا تحديد دلالات أبعاد الماضي، يجب علينا أن نكون متواضعين تجاه الثقافات التي كانت تعبر عن قوى فاعلة وإرادة مثبتة للحياة، من خلال تطهير أنفسنا من تقديس الماضي أو احتقاره، كما يمكننا فهم قيمة ما نمتلكه في الحاضر، هل تستولي عليها قوى فاعلة وإرادة إثباتية، أم قوى ارتكاسيه وإرادة نافية، وهذا الفهم للحاضر يمكن أن يفتح آفاقا للمستقبل.

ولكن هل يعني ذلك أن للتاريخ هدفا يتحقق في المستقبل؟ يشير نيتشه باستمرار إلى أنه لا يوجد هدف نهائي* داخل التعدد المتناقض للصيرورة، بل هناك أهداف جزئية تنشأ من صراع القوى، في الوقت الذي يسيطر فيه الفعل، يكون الارتكاس حاضرا والعكس صحيح، ومع ذلك يمكن تحديد هدف للصيرورة إذا تمكنت الإرادة من تجاوز الذات، وتحفيز القوى الفاعلة لاستغلال الأشياء لإنشاء معنى وقيمة تثبت الحياة.

نتائج الفصل:

يعتقد نيتشه أن كانط لم يتمكن من تحقيق النقد الحقيقي، إذ اعتمد في نقده على أسس أخلاقية ولاهوتية أثرت بشكل كبير على تفكيره، وبالتالي لم تكن فلسفته النقدية تهدف إلى تغيير الميتافيزيقا التقليدية، لأنها لم تتجاوز فكر الثنائيات، بل كانت مجرد صدى وامتداد لها، وبناء على ذلك يرى نيتشه أن فلسفة كانط ميتافيزيقية في عمقها، حيث تفترض تقسيم الواقع إلى عالمين مختلفين ومتفاوتين في طبيعتهم.

بعد إخفاق كانط في تقديم نقد شامل، أُتيحت الفرصة لظهور نيتشه الذي أعاد صياغة النقد بأسس ومفاهيم جديدة، وقد أدى ذلك إلى تحول دلالة النقد من الإبستمولوجيا إلى الجنيولوجيا، ومن التشريع إلى التقويم.

يستخدم نيتشه استراتيجية نقدية مبتكرة في مساءلة المفاهيم، تُعرف بالجنيولوجيا، لكن هذه الاستراتيجية تحمل دلالة خاصة لديه، إذ لا تقتصر على البحث في الأصول ومرتكزات النشأة، بل تتجاوز ذلك لتفكيك هذه الأصول والمركزات، ومن ثم فإن هذه الاستراتيجية تتصدى منذ البداية للميتافيزيقا، حيث يصبح تاريخها بمثابة التاريخ المعاكس للتاريخ الميتافيزيقي.

¹ - نورالدين الشابي، نقد نيتشه للحدائث، مرجع سابق، ص 377.

* - المقصود هنا هو الإشارة إلى انتقاد نيتشه لفلسفة التاريخ الهيكلية، التي تعتبر التاريخ كمسار نحو غاية معينة تمثل نقطة الاكتمال.

هناك حركتان في النقد الجنيالوجي، فهي تؤوّل من جهة وتقوّم من جهة أخرى، ولا يمكن النظر إلى التأويل والتقوّم إلا كوجهين للنقد، بمعنى آخر يتم تحويل السؤال من "ما هي الحقيقة؟" إلى "من ينتج الحقيقة؟" وبذلك يتوقف الفيلسوف عن أن يكون قاضيا في محكمة، ليصبح بدلا من ذلك عالما في علم النسابة.

تُعتبر إرادة القوة الأداة المنهجية للتأويل، التي تتيح لنيّشه الإجابة عن سؤال "من؟" من جهة، وذلك من خلال فهم طبيعة القوى التي تكمن وراء المعنى والقيمة، وفيما يتعلق بالقوة، تتميز بصفتي الفاعلية والارتكاسية، بينما تُبرز الإرادة قدرتها على الإثبات والنفي.

إذا كان نيّشه يغير سؤال الوجود "ما هو؟" إلى سؤال الإرادة "من؟"، فإنه كذلك يحوّل مسألة الإرادة إلى مسألة القيمة "ماذا يريد؟"، وبالتالي ما يثمنه أو لا يثمنه في سلوك معين، إنما الإرادة التي يكتشفها فيه، لنقل إذن إرادة القوة هي العنصر النسائي، سواء كانت فاعلة أم ارتكاسية، وهي التي تنتج المعنى والقيمة، سواء بإثباتها أو نفيها للحياة.

التراتب يحتل مكانة هامة ضمن الحقل الجنيالوجي، حيث يُعتبر مصدر القيم ومصدر اختلافها، ذلك أن المعنى الحقيقي للشيء يكمن في علاقة الشيء بالقوة التي تملكه، كما أن القيمة الحقيقية للشيء تكمن في تراتب القوى التي تُعبّر عن نفسها فيه.

تستند الجنيالوجيا إلى أداتين أساسيتين: الفيلولوجيا والحس التاريخي، من ناحية الفيلولوجيا، لا تهتم بما تقوله الكلمات، بل تهتم بمن يمتلك سلطة الكلام، وبالقوى التي تتصارع في اللغة من خلالها، أما من ناحية الحس التاريخي، فهي الأداة التي لا تفسح المجال لأي وجهة نظر تتجاوز التاريخ، لكي لا تجعل منه نوعا من العلوم الموضوعية، فتفرض عليها رؤيتها الخالدة فتقع ضحية الميتافيزيقا.

الفصل الثالث:

الغريزة اللاهوتية سوء فهم للظواهر

المبحث الأول: طبع الصور الإنسانية على العالم الخارجي

أولاً: التفكير البدائي

ثانياً: الروح الدينية امتداد للعقلية البدائية

المبحث الثاني: نقد المسيحية (من خلال القيم التي تطرحها)

أولاً: المسيحية جريمة ضد الإنسانية

ثانياً: المسيحية جريمة ضد الحياة

المبحث الثالث: الأرضية التي نشأت فيها المسيحية

أولاً: المسيحية نشأت كحركة من اليهودية

ثانياً: دور الكهنة في عملية التأويل

نتائج الفصل.

كان اللاهوت من أبرز الظواهر الإنسانية التي أثارت اهتمام نيتشه بشكل كبير، ومن هنا سعى في دراسته التأويلية إلى استكشاف عمق هذه الظاهرة، كاشفاً عن جذورها ومحددات مدى قوتها أو ضعفها، ونظراً لطبيعة الانخراط التي تميز اللاهوت، حاول نيتشه فهم أعماقه وكشف نقاط ضعفه وانحلاله، وقد بذل جهداً كبيراً في هذا السياق، معتمداً بشكل أساسي على المنهج الجنيالوجي.

المبحث الأول: طبع الصور الإنسانية على العالم الخارجي

منذ العصور القديمة عاش الإنسان محاطاً بظواهر طبيعية كانت غريبة عنه، وكان يسعى جاهداً لفهم أسباب حدوثها، ونظراً لعجزه عن مواجهتها، لجأ إلى الخيال كوسيلة لحماية نفسه من مخاطرها، لذا كان يقوم بتأويل تلك الظواهر في محاولة لترويضها لصالحه، قصد الرغبة في الشعور بالألفة، وهكذا بدا أن الظواهر الطبيعية تحمل معاني إنسانية أو تسعى لتحقيق أهداف بشرية معينة، واستمر هذا التشبيه بين الطبيعة والإنسان في التوسع تدريجياً ليشمل جميع الظواهر، حتى أصبح الكون بأسره ساحة لتحقيق آمال الإنسان وطموحاته.

أولاً: التفكير البدائي

إن عدم قدرة الإنسان القديم على فهم التغيرات والتحولات في الظواهر الطبيعية، والتي كانت غريبة عن حياته ووجوده وغامضة عن تصوره، بما أنها كانت تسبب له الكثير من الخسائر، جعلها مصدراً للخوف والقلق، ولتجنب الأذى الذي قد تسببه هذه الظواهر مرة أخرى، قام بتقديسها وتبجيلها كوسيلة لحماية نفسه من عواقبها السلبية.

وصل الأمر إلى حد عبادتها وبناء التماثيل والمعابد تكريماً لها، حيث كان يعتقد أنها تحمل أسراراً غامضة لا يمكن إدراكها، وقوى خفية لا يمكن التغلب عليها، ولم يكن أمامه سوى الاستسلام والانكسار أمامها، متجسداً في صورة كائن متعبد وخاضع ومتوسل، يأمل أن تخفف من نشاطها الطبيعي لتخفف عنه الظلم وتقلل من عقوبته.

كان الإنسان القديم يرى الطبيعة كأنها مجموعة من الكائنات التي تتحرك بوعي وإرادة، فيما يتعلق بكل ما هو خارج عن نطاقه، لم يكن لديه استنتاج واضح حول ما قد يحدث أو ما ينبغي أن يحدث، كانت رؤيته للطبيعة شبه ثابتة وسهلة التفسير إلى حد ما، كان يعتبر نفسه القاعدة بينما كانت الطبيعة تمثل غياب هذه القاعدة¹، تعكس هذه الفكرة القناعة السائدة في الثقافات والأديان القديمة.

هكذا كانت ردة فعل الإنسان البدائي، الذي كان يسيطر عليه الخوف، حيث لم يكن هناك معرفة بقوانين الطبيعة، ولم تكن هناك قواعد ثابتة للأرض والسماء، كان هناك غياب تام لقانون السببية الطبيعية في الأذهان، لذلك يشير نيتشه إلى أنه عندما كان الشخص يستخدم المجدف، لم يكن يعتبر أن ضربة المجدف هي التي تحرك السفينة، بل كان يُنظر إليها كطقس يهدف إلى إخضاع جني وإجباره على دفع السفينة²، كما كان يُعتقد أن جميع الأمراض والموت ناتجة عن أفعال سحرية، وليس عن أسباب طبيعية.

قد يعتقد البعض أن هذه الرؤية التشبيهية للإنسان قد تلاشت مع انتهاء عصر الخرافات القديمة وظهور التفكير العقلاني المنظم في الفلسفة اليونانية، ولكن الحقيقة تكمن في أن هذه النظرة لم تختفي تماما، فعلى الرغم من زوال أسلوب التفكير البدائي الذي كان يملأ الكون بقوى غير مرئية، إلا أن الاعتقاد بالقيم الموضوعية المطلقة لا يزال موجودا، وإن كان بشكل خفي وصعب الفهم.

عند استعراض طريقة تفكير أفلاطون، نلاحظ أنه يضع مفهوم الخير في قمة المثل، ويصفه بأنه ليس فقط أعلى القيم، بل أيضا خالق الكون، بالتالي يمنح أفلاطون الخير دلالة أنطولوجية³، مما يجعله أساسا كونيا وليس مجرد مفهوم معنوي، في هذا السياق تتكرر الصورة التقليدية التي تشبه الإنسان، ولكنها تأتي مغطاة بإطار من الجدل المنظم ومصوغة في قالب منطقي دقيق.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre troisième, §111, p122.

² - Ibid, p121.

³ - فؤاد زكريا، نيتشه، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص ص53-54.

ذلك لأنه لم ينظر إلى الخير كمجرد معنى إنساني، بل كقوة توجه الكون بأسره، ونتيجة لذلك فقد اكتسب الكون طابعا إنسانيا، حيث تم خلقه من منظور الخير، بما يتناسب مع رؤية الإنسان، ويمكن للإنسان أن يستشعر هذا المعنى إذا تأمل فيه بعمق.

وهكذا يظهر لنا أن تأثيرات الفكر القديم لا تزال موجودة في عقول البشر على مر العصور، وقد اتخذت صورا مذهلة تُظهر الكون كقوة خالقة وخيرة في الوقت نفسه، هذه الصورة لم تكن مقتصرة على أفلاطون فقط، بل استمرت لفترة طويلة في مختلف أشكالها، ولا يمكننا القول بأن البشرية تخلصت منها حتى اليوم.

ثانيا: الروح الدينية امتداد للعقلية البدائية

يعتقد نيتشه أن الروح الدينية ليست سوى تجسيد للتفسيرات البدائية، وهي مرتبطة بحضارات وعقول تفتقر إلى الفهم العلمي للظواهر، ولم يتم إطلاقها إلا لدى الإغريق القدماء، في إطار هذه الروح لا يحدث أي شيء بشكل طبيعي، بل تتدخل إرادة واعية لتشكيل الأحداث ومنحها طابع الخير والشر، وعندما تواجه هذه الروح صعوبة في فهم ظاهرة معينة، فإنها تعزوها إلى تأثير هذه الإرادة.

وكما كانت العقلية البدائية تعتقد بوجود قوى خفية تؤثر بشكل إرادي على الأحداث في الكون، فإن العقلية الدينية تفسر تلك الأحداث بنفس الأسلوب، سواء كانت تؤمن بتعدد هذه القوى أو بتوحيدها، وعندما تحدث أمور تتعارض مع تصرفات القوى الخيرة التي تدير الكون، تُنسب تلك الأحداث إلى قوى أخرى* مثل الشيطان، مع تجاهل أي تفسير طبيعي لها.

عندما نواجه صعوبات، يكون أمامنا خياران: إما أن نتغلب عليها من خلال إزالة أسبابها، أو أن نغير تأثيرها على مشاعرنا، على سبيل المثال يمكننا تأويل الشر بطريقة تجعلنا نرى فيه الخير، وقد يظهر النفع لاحقا، يعمل اللاهوت على تغيير مشاعرنا وأحاسيسنا، من خلال تغيير حكمنا على الوقائع، مثل تفسير الابتلاءات على أنها دليل على محبة الله لعباده¹.

* - هنا يسرع نيتشه ليؤكد أن "قطرة واحدة من الدم، سواء زادت أو نقصت في المخ، قد تؤدي إلى شقاء وألم في حياتنا يفوق ما عاناه بروميثيوس من عقابه، لكن الأخطر من ذلك هو عدم إدراكنا أن هذه القطرة هي السبب الحقيقي، بل نميل إلى إلقاء اللوم على الشيطان أو الخطيئة".

(Voir la: Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre premier, Op. cit, §83, p93.)

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre troisième, §108, p115.

يدرك نيتشه لدى الرجل المتدين منطقاً سيكولوجياً، حيث تثير الظواهر النفسية الغريبة مثل الراحة والسعادة والخضوع والألم والقلق نوعاً من الشك في قدرته، فهو يجد صعوبة في تصور نفسه كسبب لهذه المشاعر أو الحالات النفسية، مما يجعله يسعى للبحث عن تأويل آخر يتجاوز قدراته، مثل اعتبارها ناتجة عن قوة خارقة أو قدرات تفوق الإنسانية، وهذا يشير إلى أن فكرة الإله تنشأ من حاجة الإنسان لتصور إرادة وقوة تتجاوز وجوده، وتحمل المسؤولية، مما يجعل الألوهية في النهاية تشخيصاً يرتدي صفة العلة¹.

إذن يعتبر نيتشه أن الدين هو نتاج لخطأ في التأويل، وهو نشاط ينبع من إرادة القوة، وهذا يعني أن الدين يتولد من قوى ارتكاسية تضيف معاني غير موجودة في الطبيعة، مع ادعاء وجود تطابق بين هذه المعاني والأحداث الطبيعية، على سبيل المثال يُفسر الدين الظواهر الطبيعية مثل البراكين والزلازل والأعاصير كعلامات تشير إلى وجود إله، حيث تُعتبر هذه الظواهر دليلاً على قوى خارقة، وتُعبّر عن رضا أو غضب الإله.

عند العودة إلى الفقرة مئة وواحد وخمسون من كتاب "العلم المرح"، التي تحمل عنوان "في أصل الأديان"، يوضح نيتشه أن الدعوة إلى قبول حقيقة عالم آخر بشكل مطلق في العصور القديمة لم تكن ناتجة عن رغبة أو حاجة، بل كانت نتيجة سوء فهم لبعض الظواهر الطبيعية، مما يعكس حيرة فكرية².

وفقاً لرؤية نيتشه كان الدين في الحضارات البدائية القديمة ناتجاً عن الخوف والحاجة، دون أن يحمل أي حقيقة، ولكي يتخلص الإنسان من الخوف قام بخلق اعتقادات في قوى خارقة تسيطر على العالم، كما أن حاجة الإنسان إلى تحقيق النفع في حياته دفعته إلى ابتكار الطقوس والشعائر الدينية، حيث يسعى لإرضاء الآلهة لكي تمنحه النعمة والرحمة.

تبعاً لهذا التأويل الديني للحياة يمكن أن تنتج تأثيرات سلبية على البشرية، حيث يشعر الإنسان بالضعف أمام هذه القوة العظيمة، ويقلل من قيمته بالمقارنة مع القوى المسيطرة على الكون، فكل شيء يعتمد على نزوات هذه الطبيعة وإرادتها، بما في ذلك وجود الإنسان وسعادته ونجاحه وفشله وموته.

¹ - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, §87, p132.

² - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §151, p198.

يسعى الإنسان إلى فهم كيف يمكنه التأثير على هذا الكيان الغامض والمخيف، ويتساءل عن السبيل الذي يمكنه اتباعه لترويض هذه القوى الإلهية، يعتمد ذلك على الشعائر والطقوس السحرية التي يستخدمها لإرضاء هذه القوى بشكل إنساني تماما، لذلك يشرح نيتشه هذه الطريقة بالتشبيه بطريقة ترويض الضعيف للقوي، لفرض قوانينه وشروطه عليه.

فإذا كان العرق الأضعف يسعى إلى فرض سيطرته على العرق الأقوى بأساليب التوائية، فإن وسيلته في ذلك تكون من خلال التوسل والصلوات وكل أشكال الخضوع، وبالمثل يتم أيضا ترويض نزوات الطبيعة لصالح الإنسان من خلال الاحتفالات وتقديم القرابين، حتى تصير محايية لهم ومحقة لأغراضهم، وهكذا يكون هدف الشعائر الدينية هو ترويض الطبيعة واستخدامها لصالح الإنسان، بفرض حتمية ليست منها أصلا¹، ومن ناحية أخرى في العصر الحاضر يسعى الناس لفهم الحتمية الطبيعية ليستفيدوا منها.

ولذلك يرى نيتشه أن الحضارات البدائية كانت مرتبطة إلى حد كبير بالعادات والتقاليد، حيث كان الفرد في تلك الحضارات مرتبطا بصورة آلية تقريبا، ويتحرك وفقا لنظام منتظم تقريبا مثل رقص الساعة، كانت الطبيعة تظهر له بشكل غامض ومرعب وصعب الفهم، في مقام يمكن وصفها بمملكة الحرية والإرادة العشوائية والقوة الأعلى، حيث كان كل فرد في تلك الحضارات يشعر أن وجوده وسعادته وسعادة عائلته، ونجاح أعماله كلها مرتبطة بتلك الإرادة العشوائية للطبيعة.

لذلك هناك أمور يجب أن تحدث في الوقت المناسب، وهناك أشياء يجب أن تغيب في وقت بعينه، كيف يمكن للإنسان أن يؤثر على هذا الكيان الغامض؟ وكيف يمكنه أن يحد من حرية هذا الكيان؟ كان يبحث بخوف ويسأل نفسه، هل هناك وسيلة لجعل هذه القوى تعمل بانتظام وفقا للعادات والتقاليد؟ لقد كان التفكير السحري موجها نحو السعي لتحكم الطبيعة وفقا للعادات، وباختصار كانت الشعائر الدينية هي نتيجة هذا التفكير.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre troisième, §111, p123.

لذلك يشير نيتشه إلى أنه يمكن للإنسان في البداية أن يلجأ إلى استخدام نوع من الإكراه اللين، يشبه ذلك الذي يستعمله الشخص عندما يرغب في استمالة شخص ما، عن طريق الاستعطاف والتوسل والخضوع وتقديم الهدايا والندور بانتظام والمدايح المتملقة، يمكن أيضا ممارسة الإكراه على القوى الطبيعية من خلال استمالتها، ولكن الأهم بكثير من هذا هو الإكراه العنيف عن طريق السحر والرقية، فكما يستطيع الإنسان أن يلحق ضررا كبيرا بعدو قوي ويضعه في حالة من الخوف منه عن طريق السحر، يعتقد أنه يمكنه أن يتحكم في الأرواح الجبارة للطبيعة أيضا¹.

من خلال هذه العلاقات السحرية مع الطبيعة، ظهرت العديد من الطقوس الاحتفالية بشكل هائل، ومع تزايد هذا التنوع والتعدد، بدأ الناس في تنظيمها وتنسيقها بشكل يهدف إلى ضمان تدفق سلس للسياق الطبيعي بأكمله، خاصة خلال الدورة السنوية الكبيرة، ويتم ذلك عن طريق تنظيم نظام مناسب للطقوس الاحتفالية، حيث يكون الهدف من وراءها هو السيطرة على الطبيعة وترويضها بما يخدم مصلحة الإنسان، وبالتالي يتم وضع نظام قانوني لهذه العبادات الدينية التي لم تكن موجودة في الأصل.

هكذا يفهم نيتشه الفرق بين العقلية الدينية والعقلية العلمية، حيث تعتمد الأولى على تفسير كل شيء بوجود قوى وإرادات واعية، بينما تعتمد الثانية على تفسير الأمور بشكل طبيعي ومنطقي، من منطق الحوادث ذاتها، دون اللجوء إلى تشبيه الأحداث الطبيعية بالأحداث النفسية.

إلى جانب التفسير الموضوعي لطبيعة العقلية الدينية، يقدم نيتشه تفسيراً نفسياً لها، في كل حالة حيث تسود معتقدات دينية، يكون هناك شخص يؤمن بالوحي، أعني بأن ثمة أفكاراً تهبط إليه من مصدر يعلو عليه، وبالتالي يعتبر عقله مجرد أداة لاستقبال هذه الأفكار، عندما يقوم بوضع نظرية شاملة عن الكون، لا يمكنه تصور أن يكون هذا النظام والجمال من صنع عقله، بل يعزوه إلى قوة خارقة يسميها الوحي، هذا ما دفع نيتشه في كتابه "الفجر" تحت شذرة أصل الأديان إلى التساؤل حول كيفية اعتبار الإنسان آراءه حول الأشياء كوحي، وهذه هي المشكلة الأساسية في تكوين الأديان².

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre troisième, §111, p124.

² - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre premier, Op. cit, §62, p71.

إذا كان الإنسان يعطي صفة القداسة لآرائه وينسبها إلى الألوهية، فإنه يقوم بتقزيم نفسه ويشك في قدرته، ويفهم بشكل خاطئ دوافعه النفسية، هنا يكون لزاما على نيتشه أن يحمل على هذا الشكل من الألوهية، حيث تعتبر الألوهية عقبة تحول دون تأكيد الإنسان لذاته، وطالما يؤمن البشر بوجود آلهة فوقهم، فسوف يكون هذا الإيمان على حساب تقدير البشر لأنفسهم وثقتهم بها¹.

كيف يمكن لشخص ما أن يعتبر رأيه الخاص في الأمور وحيا؟ يشير نيتشه إلى أن الشخص الذي تكون لديه هاته الظاهرة ممكنة يقوم بتأسيس ديانة جديدة، الشرط الأساسي هو أن يكون من الذين يؤمنون بالوحي، وفجأة تتبادر إلى ذهنه فكرة جديدة تتعلق بالوجود والعالم بأسره، حيث لا يستطيع أن يصدق أنه هو من صاغ تلك الغبطة العظيمة، وبالتالي يعزو سببها إلى إلهه، ويعتبرها وحيا من ذلك الإله².

كيف يمكن للإنسان أن يكون مصدرا لتلك السعادة الكبيرة؟ قد يتساءل بعض الناس المتشائمين، هناك مؤثرات أخرى تعمل في الخفاء، لذلك يرى نيتشه أن المرء يحصّن رأيه في نظره حين يعتبره وحيا، إذ مجردها من كل ما هو افتراضي، ويخرجها من نطاق الانتقاد والشك، وبالتالي يجعلها مقدسة، صحيح أن المرء يخطط من قيمته يجعل نفسه مجرد أداة، ولكن فكرته تصبح قوية في النهاية تحت مسمى الفكرة الربانية³، فينتصر معها إحساس الإنسان بأنه سيظل قويا على الإحساس بالذل.

إذن يمكن أن نستنتج من فلسفة نيتشه أن الدين يقلل من قيمة الإنسان بشكل متعمد، لضمان انتصار رأيه، وبالتالي يجعل كل ما هو جيد وعظيم وحقيقي خارج إمكانيات الإنسان، وأن كل ما يحصل عليه هو نعمة وتفضيل من الأعلى.

¹ - عبد الرزاق بلعقروز، نيتشه ومهمة الفلسفة: قلب تراتب القيم والتأويل الجمالي للحياة، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص103.

² - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre premier, Op. cit, §62, pp71-72.

³ - Ibid, p72.

لذلك تكمن الظاهرة النفسية وراء هذا النمط الديني الخاص في "تغير الشخصية"¹، فنفسية رجل الدين من هذا النوع تعود مشاعره الخاصة إلى قوى خارجية، ويرونها غريبة عنهم مثلما يشعر المريض بثقل أحد أطرافه ويعتقد أن شخصا آخر قد ارتكز عليه، وبالتالي في الدين يخاف المرء من ذاته ويهرب منها، ولكنه في الوقت نفسه يشعر بلذة الانتصار حين ينسب أفكاره المفاجئة إلى الألوهية، ويرتفع بها فوق مستوى الشك.

ولهذا السبب يبصر نيتشه في فكرة الدين عائقا يمنع الإنسان من الثقة بنفسه وتأكيد شخصيته، حيث يعزو كل ما يفكر فيه الإنسان إلى كيان أعلى وأرقى من عقله، فالإيمان بآلهة الأديان إذن يتم على حساب تقدير البشر لأنفسهم، مما يجعل الدين في رأي نيتشه ظاهرة منحرفة، وعقبة رئيسية تعيق تحقيق الإنسان لأعلى مستوياته.

ومن الطبيعي أن ينتقد نيتشه الأفكار الدينية الرئيسية بشدة، ما دامت الروح الدينية أصلا ظاهرة منحرفة في رأيه، وما دام يدعو إلى استبدال النظرة الدينية بالنظرة الطبيعية، فإذا كان يعيب على العقيدة أنها تحط من قدر الإنسان، حيث تنسب نتائج العقل البشري إلى مصادر خارجية، فلا شك في أن مهمته هي إعادة الثقة بالإنسان وإعادة حقوقه المسلوبة.

هكذا إذن يرجع نيتشه أصل الدين إلى التأويل الخاطئ للظواهر الطبيعية، التي كانت برأيه تفتقر إلى الفهم الموضوعي العلمي، حيث سادت القوى الخفية والعقلية الإحيائية، التي تعتقد أن وراء كل ظاهرة يقف كائن حي، ليتم تفسيرها على ضوء السحر والخرافة.

إذا كان الفرق الرئيسي بين العقلية الخرافية والعقلية العلمية، هو أن العقلية الأولى تعتقد أن الكون يسير وفقا لرغبات الإنسان، فإن العقلية العلمية ترى أن الروح العلمية نشأت عندما تخلص العقل من هذا الاعتقاد الوهمي، وبدأ يعمل وفقا لشعار جديد: إذا لم يكن العالم يسير وفقا لرغباتي، فسأعمل بجد لجعله يسير وفقا لها، بدلا من الاعتماد على الأساطير والخيال، وهنا نستطيع أن نقول أن العلم الحقيقي بدأ في هذه اللحظة فقط.

¹ - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, §87, p133.

وإذا كان التقدم العلمي الحديث قد عبّر ضمناً عن هذه النظرة الجديدة إلى العالم، فإن الفلسفة قد تأخرت في المجاهرة والتعبير الواعي عنها، فإذا أدركنا مدى خطورة هذه النظرة الجديدة إلى القيم، وكيف أنها تميز العقلية المتحصرة من العقلية البدائية بوجه عام، يصبح واضحاً لنا أن التنبيه إليها يعد انقلاباً حقيقياً في التفكير الإنساني.

المبحث الثاني: نقد المسيحية (من خلال القيم التي تطرحها)

يعتقد نيتشه أن المسيحية تفتقر إلى الحرية والصدق والكرامة، حيث تسيطر عليها غرائز الجبن وخداع النفس، ويرى أن الاقتراب من هذا القدر الكبير من الفساد يضر بالمجتمع الغربي، فالقيم التي تطرحها هي مبنية على أوهام وخيالات، وأن هذه الأخيرة لها جذورها في الكراهية والانتقام من كل ما هو طبيعي وواقعي، لذلك يرى أن هذه الدعوى ستظل تُكتب على كل جدار، مشيراً إلى أنه يمتلك من الكلمات ما يمكن أن يجعل العميان يبصرون، وفي كتابه "المسيح الدجال"، يسخر منها بقوله: "يجب على الإنسان أن يرتدي قفازين عند قراءة العهد الجديد"¹.

أولاً: المسيحية جريمة ضد الإنسانية

يرى نيتشه أن المسيحية خاضت حرباً شرسة ضد الأفراد الاستثنائيين والمتميزين من البشر، حيث قامت برفض جميع الغرائز الأساسية التي تميز هؤلاء الأفراد، لقد ظهر هذا النموذج الاستثنائي في تاريخ البشرية عدة مرات، لكنه كان يثير الخوف والقلق من وجوده، ونتيجة لذلك أصبح النوع المرغوب فيه هو النقيض له، وهو ذلك الذي تم تربيته، أي "الحيوان الداجن، حيوان القطيع"².

استناداً إلى ذلك استخلصت من تلك الغرائز جوهر الشر والشرير، حيث اعتبرت أن الإنسان القوي هو النموذج المرفوض والمثير للاشمئزاز، واعتبرت الاعتراض على الغرائز الكامنة في الحياة القوية مثلاً أعلى لها، هذا التوجه جعلها تنحاز إلى الضعفاء والضعفين والفاشلين، مما أدى إلى إدخال الفساد في العقول، وصوّرت لهم أرقى القيم الإنسانية، مثل العقل والنخوة والشجاعة والحرية والفرح على أنها خطايا وضلالات.

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §46, p71.

² - Ibid, §3, p5.

01- الانحطاط والخضوع

يعتقد نيتشه أن القيم المسيحية تعطي الأولوية لغرائز الخاضعين والمضطهدين، فقد سعت هذه الديانة منذ العصور القديمة إلى احتواء جميع عناصر الانحطاط، بما في ذلك الضعفاء والمرضى والمحرومين والمهمشين الذين لا يتمتعون بالحقوق، إنها بحاجة إلى شعار يعبر عن حقدتها ولعنتها تجاه الأفراد الذين وُلدوا صالحين والمهيمنين، فضلا عن العلماء المستقلين فكريا.

توجهت هذه الفئات* المريضة في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية للانضمام إلى المسيحية، حيث أصبح الغالبية العظمى من الناس أتباعا لها، لذا لم تكن المسيحية مرتبطة بهوية قومية أو عرقية، بل كانت تسعى بدعوتها إلى جميع الفئات المحرومة التي لم تحظ بنصيبها من الحياة، وكان لديها حلفاء في مختلف الأماكن.

إذن هي ديانة عدمية نشأت في وسط شعب متعب ومضطرب عفا عليه الزمن، حيث تصدت وقاومت لكل الاندفاعات العنيفة للشعوب، مما أدى إلى انتقالها تدريجيا إلى أوساط أخرى، حتى وصلت في النهاية إلى شعوب شابة لم تعيش تجاربها بعد، وبهذا تحولت إلى ديانة تتجاوز القومية، لذلك يعتبر نيتشه أنها أخفت خصائص وفضائل العظماء إلى الأبد، وأصبحت تُبشر بها للعالم.

وهذا ما يفسر حياة المسيحيين المليئة بالمعاناة بأنها تعبير عن الخضوع والطاعة، وهم يرونها كمقدسة تخدم دعوتهم، حيث يتحدثون بلسان ربهم ليزينوا بها حياتهم، فهم يؤمنون بأن الله اختار الضعفاء والجهال ليخزي الأقوياء والحكماء¹، هذه العقيدة التي يرونها كشرط وجود وبقاء، إنها في حقيقة الأمر وصفة للتدجين.

02- الاعتقاد على حساب الحقيقة

من أبرز مميزات المسيحية أنها تركز في المقام الأول على أهمية الإيمان، بغض النظر عن كون الأمر حقيقيا أم لا، فالأهم هو الاعتقاد به كحقيقة، فالحقيقة والإيمان يمثلان عالين متناقضين تقريبا، حيث يمكن للإنسان أن

* - يطلق نيتشه على هذا النوع من البشر اسم "الشاندالا" The Chandala ويعني بذلك الإنسان الذي يفتقر إلى العرق، وهو الشخص الضعيف الذي يثير مشاعر الشفقة.

¹ - انظر لرسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح 1: 27 "اخْتَارَ اللَّهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ، وَاخْتَارَ اللَّهُ ضَعْفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْأَقْوِيَاءَ".

يسعى إليهما عبر مسارين مختلفين تماما، وإذا كان الإيمان هو ما يحتاجه الإنسان كضرورة أساسية، فقد يتطلب ذلك تقليص قيمة العقل والمعرفة والبحث، مما يجعل الوصول إلى الحقيقة أمرا صعبا.

لذلك قامت المسيحية بكل ما في وسعها لتحيط نفسها بدائرة مغلقة، حيث اعتبرت أن الشك في حد ذاته يعتبر خطيئة، وأنه يجب علينا أن نلقي بأنفسنا في بحر الإيمان دون مساعدة من العقل، كما اعتبرت أيضا أن كل تفكير في مصدر الإيمان يعتبر شيئا مدانا، وأن المؤمن يجد في عقيدته عموده الفقري، وهو الامتناع عن رؤية الكثير من الأشياء، ولذلك يذكر نيتشه أن رغبة المرء في هذه الحالة ترى الأمور بشكل مختلف¹ باسم الحجة الدامغة، وبالرغم من ذلك فإن هذه السعادة غير مؤكدة ومثبته، بل هي لا تعدوا كونها وعد مرتبط بشرط الإيمان، لا بد أن يكون الإنسان سعيدا لكونه مؤمنا، ولكن لا يوجد دليل على تحقق هذا الوعد الذي يعده القس المؤمنين.

ولهذا تحث المسيحية المؤمنين على أن يكونوا متعصبين تماما، وأن تكون لديهم رؤية صارمة وثابتة فيما يتعلق بجميع القيم، هذا هو الشرط الوحيد الذي يمكن أن يؤدي إلى وجود هذا النوع من الأشخاص، كما تدعوهم أيضا إلى أن يكونوا على نقبض تماما من الإنسان الذي يسعى للحقيقة، والذي يملك القدرة على التفاعل بضمير مرتاح مع مسألة ما، فالنزاهة في هذا الموقف ستعني مباشرة نهايته.

هنا يظهر المؤمن بالضرورة كشخص غير مستقل بذاته، إنسان لا يمكنه بالأساس تحديد هدف حياته لأنه ليس سيذا على نفسه، بل يُعتبر وسيلة يجب استخدامها، ويحتاج دائما إلى شخص آخر يستخدمه، حيث تتسم غريزته بالنكران للذات والاعترا، ولذلك يشير نيتشه إلى أن كل ما فيه يدفعه نحو تلك الأخلاق، سواء كان ذكاؤه أو خبرته أو غروره²، وهذه الأخلاق تمثل الشرط الوحيد الذي يزدهر تحته الإنسان الذي يفتقر إلى إرادة قوية.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §12, p155.

* - اعتبار أن الإيمان يجعلنا سعداء، إذن فهو حقيقي. (Voir la: Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §50, p78.)

² - Ibid, §54, p88.

وهذا ما يفسر نظرة الإنسان بالنسبة للفيلسوف باسكال، الذي كان يعتقد أن الإنسان بمثابة الوحش غير قابل للترويض إلا بواسطة الإيمان المسيحي، حيث يعتبر أن بدونها يصبح الإنسان مسخا وفوضى، مثل الطبيعة والتاريخ¹، ولذلك فإن ثقته في المسيحية لا تهتز، حيث يراها ضرورية لتطهير الذات من الأخطاء، لكن في حقيقة الأمر ما لا يدركه باسكال أنه بإمكان أن تكون هناك أخطاء ضرورية أيضا.

من ناحية أخرى تحت المسيحية المؤمنين على العيش في الأمل*، وهي تعتبره أهم بكثير من أي سعادة شخصية يمكن تحقيقها في الواقع، ولذلك فإنه ينبغي أن يُقدّم للذين يتألمون سندا، من خلال تقديم أمل لا يتعارض مع الواقع، وأمل لا ينتهي بتحقيق أهداف معينة، بل هو أمل يمتد إلى ما هو بعيد، وثقة بأن المستقبل سيكون مشرقا بالتأكيد، ولذلك يحتاج المؤمنون إلى الصبر والثبات والاستمرار في الانتظار، حيث يأتي رجاءهم من الله ليوجههم، وما عليهم سوى العيش في استسلام كلي.

من جهة أخرى تسعى المسيحية إلى جعل العبادة أكثر حماسا وعمقا عاطفيا من خلال التأكيد على فضيلة الحب، فالحب هو الحالة التي يتمكن فيها الإنسان من رؤية الأمور بشكل مختلف تماما عن واقعها، مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى الخداع والقدرة على التجميل والمراوغة، في حالة الحب يتحمل الشخص أكثر مما هو معتاد، ويغفر بسهولة، مما يمنحه القدرة على مواجهة أصعب التحديات في الحياة، وقد أشار القديس بولس إلى ذلك بقوله: "أَمَّا الْآنَ فَيَثْبُتُ: الْإِيمَانُ وَالرَّجَاءُ وَالْمَحَبَّةُ، هَذِهِ الثَّلَاثَةُ وَلَكِنَّ أَكْبَرَ الْمَحَبَّةِ"²، وهذا يعكس الفضائل الثلاث في المسيحية، والتي وصفها نيتشه بأنها الحيل المسيحية الثلاث.

¹ - Nietzsche Friedrich, *Fragments posthumes XIII*, Op. cit, p101.

* - بفضل هذه القدرة تسعى المسيحية إلى إرضاء البائسين من خلال تقديم وعود زائفة، مما يفسر قول بولس: "لأننا بالرَّجَاءِ خَلَصْنَا. وَلَكِنَّ الرَّجَاءَ الْمُنْتَظَرَ لَيْسَ رَجَاءً، لِأَنَّ مَا يَنْظَرُهُ أَحَدٌ كَيْفَ يَرْجُوهُ أَيْضًا؟" (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، الإصحاح 8: 28). ولهذا كان اليونانيون يرون الأمل كأحد أسوأ الشرور، الأكثر مكرًا وخداعًا، حيث يُعتبر الشر ما يتبقى في قاع الجرة. (للاطلاع أكثر يمكن الرجوع إلى صندوق باندورا في الميثولوجيا الإغريقية، الذي يحمل كل شرور البشرية مثل الجشع، والغطرسة، والافتراء، والكذب، والحسد، والضعف، والوقاحة، والرجاء).

² - رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح 13: 13.

03- المرض ونبذ الصحة

يعتقد نيتشه أن المسيحية تحتاج إلى المرض لتحقيق وجودها وسيطرتها، حيث يرى أن الإنسان يصل إلى أعلى مستويات الكمال عندما يكون مريضاً، أكثر من كونه بصحة جيدة، وفي بعض الحالات يجب على الإنسان أن يمرض نفسه بشكل طوعي ليصبح مسيحياً، إذن فإن الإصابة بالمرض تعتبر النية الحقيقية التي تحرك مجمل إجراءات العلاج في الكنيسة، ولذلك نجد نيتشه يصف الكنيسة نفسها بأنها مأوى للمجانين في حياة مثال أعلى¹.

فالتطّفل هو الممارسة العملية الوحيدة للكنيسة، والصليب كأكبر مؤامرة عرفت بها البشرية ضد العافية والجمال وسلامة التكوين والشجاعة والعقل وكرم النفس، لذلك يخبرنا نيتشه إلى أننا لم نفهم بعد الفكرة الفظيعة المستترة وراء هذا الرمز؟ كل ما يتألم وكل ما يعاني ومعلق على الصليب يعتبر مقدساً، وبالتالي نحن جميعاً مقدسون².

لذلك تسعى المسيحية دائماً إلى إذلال الإنسان وتدميره تماماً، ولكن من داخل الإحساس بالحقارة التامة تظهر له فجأة بريق من رحمة إلهية، مما يجعل الإنسان يشعر بالدهشة والذهول، هذا الانفعال المرضي والفساد الذي يتبعه على العقل والقلب هو هدف المسيحية من خلال حيلها وتأثيراتها، لذلك يصفها نيتشه بأنها تريد أن تُفني وتُنهك وتُذهل وتُخدر، والشيء الوحيد الذي لا تريده هو الاعتدال، ولذلك نجد أنها في عمق محاباتها همجية³.

لقد جعلت من ضعينة المرضى وغريزة معاداة المعافين والأصحاء أساساً لها، حيث تعتبر أن كل ما هو سليم التكوين وذو كبرياء ومعتد بنفسه يؤلم عينها وأذنها، فهي تثير الشكوك حول كل ما هو جميل وثير وقوي، وتعارض الوعي بالذات والمعرفة، تغمر كل هذا بالوحل، باختصار تفعل ذلك بالثقافة كلها، فلا غاية لها ولا هدف تسعى من أجل بلوغه، لذلك يرى نيتشه أن همها الوحيد والمقدس هو زرع السم وإثارة الفتنة وتقليل قيمة الإنسان، ألم يذكر بولس سالفاً أن الله اختار ضعفاء العالم وفضّلهم، هذه هي القاعدة التي أدت إلى انتصار الفساد والانحطاط.

¹- Nietzsche Friedrich, **L'Antéchrist**, Op. cit, §51, p80.

²- Ibid, p82.

³- Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre troisième, §114, p129.

إذن فمهمة المسيحية هي تحويل المنهجي لكل ملكات الجسد إلى قيم أخلاقية، وتكييف الأخلاق مع الأمراض، وتصويرها كعقوبة أو ابتلاء، بل كشرط للخلاص، تجعل من معتنقيها مجرد أفراد ضعفاء ومرضى لا يمكنهم تحمل مسؤولياتهم وتسيير أمور حياتهم بأنفسهم، حيث يعتقدون أن كل شيء مرتبط بالقضاء والقدر، وما على الإنسان إلا أن يرضخ للأمر الواقع ولمشيئة الرب¹.

04- إقصاء الجسد

يعتقد نيتشه أن المسيحية تعزز من ثقافة الازدراء وعدم الاكتراث بالصحة الجسدية، حيث تعتبر الحفاظ على الصحة متعة حسية غير مقبولة، لم يكن يُنظر إلى الصحة كأمر مهم، بل كانت تُعتبر كعدو، ومن ثم يرى نيتشه أن هذه الديانة لا تريد التخلص من المعتقدات السخيفة المتعلقة بالروح، التي تجعل من سوء التغذية فضيلة، وتعتبر العافية شيئا يجب محاربته.

لقد أقنعت المسيحية نفسها بأن الإنسان يمكنه أن يحمل روحا كاملة في جسد شبيه بالجثة، ونتيجة لذلك كان عليها أن تبتكر مفهوما جديدا للكمال، كيان شاحب مريض محلق بسخافة في الأوهام، وهذه هي القداسة المزعومة التي ليست سوى حشد أعراض لجسد منهك، وعلى درجة من الفساد تستعصي على العلاج، وهذا ما تشير إليه رسالة القديس بولس: "لَأَنَّا نَحْنُ الْحِثَّانَ، الَّذِينَ نَعْبُدُ اللَّهَ بِالرُّوحِ، وَنَفْتَخِرُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، وَلَا نَتَّكِلُ عَلَى الْجَسَدِ"².

من ناحية أخرى كان عليهم أن يقدموا فكرة الروح الطيبة بشكل مختلف لكي يقنعوا الآخرين بها، وتحويل القيم الطبيعية إلى أن يصبح من الممكن اعتبار الشخص شاحبا ومريضا ومتحمسا إلى حد الجنون كموضوع للكمال، واعتباره مخلوقا ممجدا وإنسانا راقيا، حيث يظهر جليا في الرسالة التي وجهها بولس الرسول إلى أهل غلاطية قائلا: "اسْلُكُوا بِالرُّوحِ فَلَا تُكَمِّلُوا شَهْوَةَ الْجَسَدِ، لِأَنَّ الْجَسَدَ يَشْتَهِي ضِدَّ الرُّوحِ وَالرُّوحَ ضِدَّ الْجَسَدِ، وَهَذَانِ

¹- Georges Goedert, **Nietzsche, critique des valeurs chrétiennes**, Souffrance et compassion, sans édition, Éditions Beauchesne, Paris, 1977, p235.

²- رسالة بولس الرسول إلى أهل فيليبي، الإصحاح 3:3.

يُقَاوِمُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ (..) وَأَعْمَالُ الْجَسَدِ ظَاهِرَةٌ، الَّتِي هِيَ: زِنَى، عَهَارَةٌ، نَجَاسَةٌ، دَعَارَةٌ (..) وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ، فَرَحٌ، سَلَامٌ، طَوْلُ أَنَاةٍ، لُطْفٌ، صِلَاحٌ، إِيْمَانٌ، وَدَاعَةٌ، تَعَقُّفٌ¹.

لذلك يتم تأويل جميع المشاكل والاضطرابات التي يصدرها الجسد إلى ظاهرة أخلاقية ودينية، حيث يتم الاستفسار عما إذا كانت الله هو السبب أم الشيطان، الخير أم الشر، الخلاص أم الهلاك الأبدي، وهذا ما توضحه الآية المذكورة في إنجيل متى الإصحاح الثامن عشر: "وَأِنْ أَعَزَّتْكَ عَيْنُكَ فَأَقْلَعَهَا وَأَلْفَهَا عَنْكَ، خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تُثَلَّقَ فِي جَهَنَّمَ النَّارِ وَلَكَ عَيْنَانِ"².

إذن ما على الإنسان أن يفعله بعد أن وضع جسده في صنف الأشياء المستفزة والمخللة بالحياء، فإنه لا يملك سوى إهانته وتعذيبه وإبعاده والتضحية به، وتسميته بكل ما يعبر عن الإهانة والإبادة، وذلك تحت مسمى الدين المسيحي بهدف تطهيره من الخطيئة والرذيلة، وفي الوقت نفسه يحث القساوسة الناس على الزهد والتنسك ويحاولون بكل جهدهم تذكيرهم بخطيئتهم تجاه أجسادهم، حتى يصل المتعبد إلى درجة النقاء التام ويضمن خلاص روحه.

وهذا ما يفسر رؤية المسيحيين على أن المسيح قد هزم الخطيئة من خلال جسده البشري المصلوب، وأن حالة الصلب لهذا الجسد تعتبر رمزا للانتصار الذي يمكن للمؤمن استعادته لحالته الأصلية كخليقة، فلا يعتمد المؤمن بعد الآن على الجسد في ضعفه، بل يعتمد على القوة التي يجدها في موت وقيامه المسيح، والتي يعتبرها المسيحيون الطريق للخلاص البشري.

ولذلك يرى نيتشه أنه لا يمكن أن نحتدي حيال المسيحية إلا إذا كنا مرضى كي نتقبل ذلك، يجب أن نحتقر هذه الديانة التي أفسدت الجسد، وتقدس كل ما هو حقير ومبتذل، وتبجل الإنسان الهزيل والمريض، وتجعل من الجسد المنهك والمعوز مثالا أعلى لها، لذلك يسميها نيتشه باللعنة الكبرى، والفساد الداخلي الأكبر، ووصمة العار الخالدة على صفحة الإنسانية³.

¹ - رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، الإصحاح 5: 22/19/17.

² - العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح 18: 9.

³ - Nietzsche Friedrich, L'Antéchrist, Op. cit, §62, p108.

ثانيا: المسيحية جريمة ضد الحياة

تتضمن المسيحية في جوهرها هيمنة العنصر النافي والعدمي، حيث تقلل من قيمة الحياة وتبخس قدرها، وتعتبرها موضع اتهام ومعاناة، وترى أن وجود الألم يعكس الظلم والخطايا في الحياة، من هذا المنطلق تسعى المسيحية إلى تبرير الحياة وافتدائها من خلال مبادئ وتعاليم المسيح، التي تعكس انتصار قوى العدم على القوى التي تؤكد الحياة.

01- المسيحية لا تتفاعل مع الواقع

يعتبر نيتشه أن المسيحية ديانة لا تلامس الواقع في أي شيء، حيث يرى فيها حشدا من العلل الوهمية مثل الله والنفس، وحشدا من النتائج الوهمية مثل الخطيئة والخلاص والعقاب، كما تحتوي على علوم طبيعية مضللة مثل المركزية البشرية وغياب مفهوم العلة الطبيعية، وبسيكولوجيا وهمية تتضمن سوء فهم للذات وتأويلات لأحاسيس عامة مريحة أو كريهة، بالإضافة إلى ثيولوجيا وهمية تشمل يوم الحساب والحياة الخالدة¹، وبناء على ذلك يرى أن هذه الأمور لا تعدو أن تكون إلا تأويلات لإنسان مريض وضعيف، يضع نفسه في مكانة دنيا ويخلق إلها متعاليا عليه يُعزي به نفسه.

بعد ابتكار مفهوم الطبيعة كمعارض لفكرة الله، أصبح من الشائع اعتبار كلمة "طبيعي" مرادفا لكلمة "مكروه"، ولهذا يجربنا نيتشه إلى أن هذا العالم الخيالي ينطلق من الكراهية الموجهة نحو كل ما هو طبيعي، إنه يعكس قلقا عميقا تجاه الواقع، ولكن المعاناة من هذا الواقع تعني أن الفرد يعيش في واقع فاشل بحد ذاته، حيث أن غلبة مشاعر البؤس على مشاعر المتعة هي علة هذه المتخيلات الأخلاقية والدينية، وهذا النوع من الهيمنة يزودنا بالمبدأ الذي يقوم عليه الانحطاط.

إذن فقد ساهمت المسيحية في تحويل اهتمام الإنسان بعيدا عن الجوانب المادية، فعندما نغير من مركز ثقل قوة الحياة نحو عالم آخر (العدم)، فإننا في الواقع نجرد الحياة من جوهرها وحيويتها، وعلى ذلك فإن كل كلمة ينطق بها شخص مسيحي تكون كاذبة، وكل سلوك يقوم به يكون معادي للحياة، ولذلك يصف نيتشه ساخرا أنه من

¹ - Nietzsche Friedrich, L'Antéchrist, Op. cit, §15, p19.

حق المعتوهين أن يتوهموا بأنه ينبغي أن تظل قوانين الطبيعة تحرق بصفة دائمة من أجلهم¹، وبالتالي المسيحية تدين بفضلها إلى هذا التعلق البائس بشكل خاص، الذي سمح لها بجذب الضعفاء والفاشلين إليها.

فالمسيحية تعتبر أقوى ظاهرة لتضليل غرائز الإنسان الأوروبي في تاريخ الفكر، يظهر هذا التضليل كابتكار لعالم مثالي وتقليل لقيم العالم الدنيوي، إذن هي حلقة في سلسلة تراتب العدمية، حيث يُصوّر العالم الحسي والجسدي بوجهة نظر الأفكار والعالم الروحي، بمعنى آخر تقوم المسيحية بتقديم نظام تراتب في الوجود، حيث يحتل فيه العالم الدنيوي بآلامه وتجاربه الحياتية مكانة أدنى.

02- عدااء المسيحية للعلم

يعتقد نيتشه أن المسيحية لا يمكن أن تكون سوى عدو رئيسي لحكمة هذا العالم، أي للعلم، فهي ترحب بجميع الوسائل التي بوسعها أن تسمم تربية العقل والاستقامة الصارمة، وبالتالي تعتبر الإيمان شيئا ملزما يرفع ضد العلم، وفي مجال الممارسة يعتبر الكذب شيئا لا بد منه بأي ثمن، لذلك يخرنا نيتشه أن القديس بولس قد أدرك أن الكذب (الإيمان) كان شيئا ضروريا، لكي يبطل ويخزي حكمة هذا العالم، وبعدها فهمت الكنيسة بدورها بولس².

ما يثير دهشتنا في العلم يختلف عما تثيره الديانة المسيحية، فبينما تسعى المسيحية لإقناعنا بوجود سببية واضحة وبسيطة، يكشف الواقع عن تعقيد هذه السببية، من ناحية أخرى يدفعنا العلم إلى التخلي عن فكرة السببية البسيطة، خاصة في الحالات التي تبدو فيها الأمور بسيطة للغاية، مما يجعلنا نكون ضحايا للظاهر، لذا نجد أن ما يبدو بسيطا في الحقيقة يحمل تعقيدات مذهلة³.

ولذلك إذا كان هناك خطر وتهديد رئيسي يواجه القس، فهو يتعلق بالعلم والفهم الصحيح للسبب والنتيجة، من الواضح أن العلم لا يمكن أن يتطور أو يزدهر إلا في ظروف ملائمة ومناسبة، حيث يحتاج الإنسان إلى الوقت والتفكير العميق لاكتساب المعرفة، لذلك كان منطق القس عبر العصور هو إبقاء الإنسان في حالة من الفقر والبؤس.

¹ - Nietzsche Friedrich, **L'Antéchrist**, Op. cit, §43, p64.

² - Ibid, §47, p74.

³ - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre premier, Op. cit, §6, pp16-17.

لقد ابتكرت المسيحية مفهوم الرب المفارق للوجود، إله صوّته على شكل مراقب ومعاقب وغفور في آن واحد¹، يراقب أعمال البشر ويكشف عن نواياهم، ويعاقب من يخالف شريعته، ويغفر لمن يعترف بخطئه، لذلك كان الإله عندهم أداة يستخدمونها لتقويم أفعال البشر، حيث ينسبون الخيرة إليه كدليل على الطاعة ويستحق فاعلها الثواب والمكافأة، أما الشريرة التي ترمز إلى العصيان، فينسبونها إلى قوى شيطانية ويجب معاقبة فاعلها.

كما ابتدعت تعاليم الرحمة والخلاص والغفران، بهدف تدمير الحس السبي لدى الإنسان، وذلك من خلال الغرائز الأكثر دناءة وجبنا ومكرا، تهدف هذه التعاليم إلى عدم إتاحة الفرصة للإنسان لرؤية ما هو خارج نفسه، بل تجبره على النظر داخل نفسه، كما لا ينبغي له أن ينظر إلى الأشياء كطالب معرفة بذكاء وفطنة وحذر، بل لا ينبغي له أن يرى أصلا، عليه أن يعيش في حالة من الألم المستمر يجعله بحاجة دائمة إلى القس، تحت شعار "ليذهب الأطباء إلى الجحيم! إنما المرء بحاجة إلى مخلص"²، وبالتالي يسعى القس إلى بسط سلطانه وسيادته عن طريق هذا النظام الأخلاقي، لجعل العلم والثقافة وكل ما هو نبيل في الإنسان أمرا مستحيلا.

إذن ما يعتبره نيتشه أن العدوان لكل إيمان خرافي هما الفيلولوجيا والطب³، وبالفعل فإنه لا يمكن لشخص أن يكون فيلولوجيا أو طبيا دون أن يكون معاديا للمسيح، الفيلولوجي يبحث في ما وراء الكتب المقدسة، ويكتشف أنها كذبة وشعوذة خداعة، بينما الطبيب ينظر في ما وراء الانحلال الفزيولوجي للمسيحي النموذجي، ويرى أنه لا أمل في شفائه.

المبحث الثالث: الأرضية التي نشأت فيها المسيحية

عندما نسمع الأجراس العتيقة تفرع صباح يوم أحد، نجد أنفسنا نتساءل: هل من المعقول أن يكون كل هذا بسبب يهودي صلب قبل ألفي سنة، والذي كان يدعي أنه ابن الله!⁴، وهو ادعاء يفتقر إلى البرهان، هكذا تسأل نيتشه متعجبا، فالمسيحية في عصرنا الحاضر تبدو كشيء عتيق قادم من الأزمان البعيدة، وربما يكون الاعتقاد في هذا الزعم هو أقدم جزء من هذا التراث.

¹ - فوضيل إيدير، موت الإله عند فريدريك نيتشه، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد/العدد 18، جامعة الجزائر 2، الجزائر، ديسمبر 2011، ص 60.

² - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §49, p77.

³ - Ibid, §47, p74.

⁴ - Nietzsche Frédéric, *Humain, trop humain*, Op. cit, Chapitre troisième, §113, p127.

ولذلك لفهم السياق الذي نشأت فيه المسيحية، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار إلى عاملين: الأول، أنها ليست حركة مضادة للغريزة اليهودية، بل هي نتيجة وخلاصة إضافية لمنطقها الشنيع ومبدأها القائل "الخلاص يأتي من اليهود"¹، وثانياً، يجب أن نأخذ في الاعتبار دور الكهنة في عملية التأويل.

أولاً: المسيحية نشأت كحركة من اليهودية

يعتبر نيتشه أن اليهود هم أغرب شعب عرفه التاريخ، لأنهم عندما وجدوا أنفسهم مجبرين على العيش في ظروف مستحيلة، فضلوا أن ينحازوا من منطلق الذكاء العميق لغريزة البقاء إلى كل ما يمثل انحطاط الغرائز، لم يكونوا خاضعين لتلك الغرائز، بل توسموا فيها قوة تعينهم على فرض وجودهم تجاه العالم، وكان ثمن ذلك تزوير جذري لواقعية العالم الداخلي والخارجي على حد سواء.

رسموا حدوداً ضد كل الظروف التي يمكن للشعوب أن تعيش وتبقى فيها، وابتكروا مفهوماً متناقضاً للظروف الطبيعية، وقبلوا تدريجياً الدين والعبادة والأخلاق، وشوهوا التاريخ بطريقة لا يمكن إصلاحه، يشير نيتشه هنا إلى خمس وقائع تاريخية تُشوه القيم الطبيعية:

في العصور القديمة كانت لإسرائيل علاقة وثيقة بجميع الأشياء، حيث كان يُعبد إله إسرائيل كرمز للقوة والأمل والفرح، كان الناس يعتمدون عليه لنيل النصر والخلاص، وكانوا يثقون في الطبيعة لتوفير احتياجاتهم²، كانت هذه العلاقة تعكس وعي الشعب بالقوة التي يمتلكونها، وكانوا يعزّون عن امتنانهم وسعادتهم من خلال الطقوس والاحتفالات الدينية، معترفين بالنعم العظيمة التي وهبتهم هذه المكانة السامية.

ظل هذا الوضع قائماً كنموذج لفترة طويلة، حتى بعد أن صدر حكم باندثاره*، إذ لم يعد الإله القديم قادراً على أداء ما كان يقوم به في الماضي، كان من الأفضل لو تم التخلي عنه، لكن ماذا حدث بالضبط؟

في المرحلة الثانية، غيّر الناس مفهومهم للرب، حيث لم يعد يمثل تعبيراً عن اعتداد شعب بذاته، بل أصبح ربا يتم تأويله تحت شروط محددة، بدأت فكرة الإله تُستخدم كأداة بيد محرضين قساوسة، الذين يفسرون كل حدث

¹ - العهد الجديد، إنجيل يوحنا، الإصحاح 4: 22.

² - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §25, p34.

* - بأسلوب مؤسف، الفوضى تسود في الداخل، بينما يواجه الأشوريون التحديات من الخارج.

سعيد على أنه ثواب، وكل حدث مشؤوم على أنه عقاب على خطايا وعدم طاعة الرب¹، تم استخدام طرق تأويل كاذبة لنظام أخلاقي مزعوم، مما أدى إلى قلب العلاقة الطبيعية بين مفهومي السبب والنتيجة رأساً على عقب.

في المرحلة الثالثة، بعد أن تم إلغاء العلاقة السببية الطبيعية بواسطة الثواب والعقاب، ظهرت حاجة إلى سببية منافية للطبيعة²، ومنذ ذلك الحين بدأت كل الأمور المنافية للطبيعة والحياة تتبع هذا المسار، الشؤم انتشر مع فكرة الخطيئة التي زوّرت فكرة الله والأخلاق، إنها حيل إنكار كل الدوافع الطبيعية والإلقاء بها في العالم الروحي الماورائي.

لكن في الواقعة الرابعة، لم تكتفي الكنيسة اليهودية بهذا الحد، بل شعروا بأنه بإمكانهم التخلي عن تاريخ إسرائيل بالكامل³، لقد قام هؤلاء القساوسة بعمل تزويري، بحيث جعلوا جزءاً كبيراً من الإنجيل يصبح وثيقة تاريخية عنهم، بحقد لا مثيل له تجاه التقاليد والوقائع التاريخية، قاموا بتفسير ماضي شعبهم بشكل ديني، حيث جعلوا منه وسيلة خلاص سخيفة، تتمثل في الخطيئة ضد الرب والعقوبة التي تتبعها، والتقوى تجاه الرب والثواب الذي يأتي معه.

هذا التأويل هو استراتيجية رجل الدين لتغيير المفاهيم الإلهية وتزوير تاريخ الشعب اليهودي، من خلال قلب تراتب القيم وتنظيم التقويمات لصالح الضعفاء ومنحهم سلطة إلهية، بهدف تقوية الضعفاء وتحويل قوة الأرستقراطيين إلى ضعف، وفي الوقت نفسه الحفاظ على تفوق الطبقة الكهنوتية.

في المرحلة الخامسة، جاء الفلاسفة ليجعلوا من أنفسهم دعامة للكنيسة، حيث ابتكروا فكرة النظام الأخلاقي للحياة، يمثل هذا المفهوم مجمل تاريخ الفلسفة من اليونانية وصولاً إلى الفلسفة الحديثة، ماذا يعني النظام الأخلاقي للحياة؟ يعني أن هناك إرادة إلهية ثابتة إلى الأبد تحدد ما يجب على الإنسان فعله وتركه، وأن قيمة شعب أو فرد تُقاس بمدى طاعتهم لمشئته الله⁴.

نشأت المسيحية على هذه الأرضية المزيفة كشكل لمعاداة قاتلة للواقع، ولم يسبق لها من مثيل إلى حد ذلك الزمن، لم يعد يملك ذلك الشعب المقدس تجاه الأشياء سوى قيم وعبارات كهنوت، مثل "مدنس" و"دنيوي" و"خطيئة"، وقد صاغ هذا الشعب لغريزته شكلاً نهائياً متناسقاً في منطقته حد نفى الذات.

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §25, p35.

² - Ibidem.

³ - Ibid, §26, p36.

⁴ - Ibidem.

إذن ما ورثته المسيحية من مفاهيم لم يكن إلا سوء فهم أكثر فأكثر، فمفاهيم مثل الخلود الشخصي، والعالم الآخر، وعقاب الله الذي يبدو بلا هدف، والهيكل الديني مع الكهنوت واللاهوت والعبادات والتضحيات المقدسة، باختصار المعجزات في كل مكان وفي كل شيء.

ما تقوم به المسيحية اليوم هو إعادة إشعال الصراع الذي كان موجودا سابقا ضد المثل الأعلى الكلاسيكي، والواقع أن هذا التغيير ليس إلا تكيفا مع احتياجات ومستوى ذكاء الطبقة المتدينة في ذلك الوقت، تلك الطبقة التي تتطلب من الدين أن يكون أصل العالم الماورائي، والزهد والإنكار للعالم، والتراتبية كشكل من أشكال الجماعة.

لذلك يشير نيتشه إلى أن هذا الصراع يتطور عبر عدة مراحل: في البداية يبدوون بتحرير أنفسهم في عالم الخيال، ثم يتعرفون على بعضهم البعض، بعد ذلك ينتقلون إلى مرحلة فرض أنفسهم، في المرحلة الثانية يدخلون في صراع من أجل الاعتراف بهم، مطالبين بالمساواة في الحقوق والعدالة، أما في المرحلة الثالثة فإنهم يسعون للحصول على الامتيازات وجذب ممثلي القوة إلى صفهم، وفي المرحلة الرابعة يسعون للحصول على السلطة لأنفسهم فقط¹.

من ناحية أخرى في المسيحية يمكن التمييز بين ثلاث فئات: المضطهدون من جميع الطبقات الاجتماعية، والأغبياء من كل فئة، والمتشائمون والمرضى من مختلف الطبقات، من خلال الفئة الأولى تتصدى المسيحية للطبقة الحاكمة والنبلاء، بينما الفئة الثانية تحارب أولئك الذين يمثلون الاستثناء وأصحاب الامتياز من جميع الأنواع، سواء من الناحية الأخلاقية أو الجسدية، أما الفئة الثالثة فتقاوم الغرائز الطبيعية للأشخاص الأصحاء والسعداء².

إذن ما الذي يمكن أن نستنتجه من كل هذا؟ إن نقد المفهوم المسيحي للإله يؤدي بالضرورة إلى استنتاج معين، وهو أن كل شعب يؤمن بنفسه لديه إلهه الخاص، من خلاله يعبر عن تبجيله للصفات التي تجعله يحتل مكانة مرموقة، وعن احترامه لفضائله، ويعكس المتعة التي يجدها في ذاته وقوته، ويمكن للإنسان أن يعبر عن شكره لهذا الإله من خلال الدين، الذي يكون شكلا للاعتراف بالجميل تحت هذه الظروف.

¹ - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, §153, p202.

² - Ibidem.

فعلى سبيل المثال، لم يكن الإغريق يرون في الآلهة الهوميرية أسيادا عليهم، ولم يروا أنفسهم عبيدا تحت سلطتهم كما يفعل اليهود، بل كانوا ينظرون إليهم كانعكاس للنماذج الأكثر نجاحا في طائفتهم، كمثال يعكس كيائهم الخاص وليس نقيضا له¹.

أما عندما يكون شعب ما على طريق الهلاك، ويشعر بفقدان الثقة في المستقبل والأمل في الحرية يتلاشى، وعندما يدرك الشعب أن الخضوع ضرورة أولى، وفضائلها كشروط للبقاء، عندها يكون على إلهه أيضا أن يتغير، وسيصبح عندها جباناً ومتواضعا، يوصي بسلام الروح والامتناع عن الكراهية، وبالرحمة والمحبة تجاه الأصدقاء وحتى الأعداء.

إذن فليس هناك من خيار آخر أمام الشعوب، إما أن تكون قوية وتمثل إرادتها، وعندها ستظل آلهة لشعوب بعينها، أو أن تظهر كضعيفة وعاجزة، وبالتالي ستضطر إلى أن تصبح حتما خيرة.

حيثما يحدث تراجع ما في إرادة القوة، يكون هناك دوما تراجع فيزيولوجي، ويكون هناك انخراط، تصبح الآلهة في هذه الحالة حتما آلهة للضعفاء والمتقهقرين في الجسم، لكنهم لا يطلقون على أنفسهم لقب الضعفاء، بل يفضلون أن يُعرفوا بالخيرين، ستصبح الثنائية المتخيلة بين الإله الخير والإله الشرير ممكنة، وفقا للغرائز نفسها التي تجعل الخاضعين يحطون من إلههم إلى منزلة الخير في ذاته.

إن المفهوم المسيحي لله كإله للمرضى، هو واحد من أكثر المفاهيم الفاسدة التي تم تصويرها على وجه الأرض، يمكن أن يمثل هذا المفهوم الدرجة الأدنى في تراتب التطور الانحداري للنموذج الإلهي، حيث يُصور الله ككيان يعارض الحياة بدلا من تمجيدها وتقديرها، كما يُستخدم لتمجيد العدم، وتُحاط إرادة العدم فيه بالقداسة!² وبالمناسبة لو أن شعوب الدنيا اتفقت جميعها على مسائل دينية معينة، فإن ذلك لن يكون إلا دليلا على عدم صحة تلك المسائل، فالإجماع العام للبشرية بشكل عام لا يمكن أن يكون دليلا قاطعا، بل يعتبر بحسب نيتشه حمقا³، على الجانب الآخر لا يوجد إجماع بين العلماء على الإطلاق.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre troisième, §114, p128.

² - Nietzsche Friedrich, **L'Antéchrist**, Op. cit, §18, p24.

³ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre troisième, §110, p120.

لذلك يتخذ نيتشه نقده لفكرة الألوهية في كثير من الأحيان طابع السخرية، حيث يشير إلى أن وجود الله بحد ذاته يبدو مستحيلا لولا وجود أشخاص حكماء كما ذكره لوثر، ورغم أنه له الحق في رأيه، إلا أن وجود الله يصبح أكثر استحالة لولا وجود أناس حمقى، وهذا ما لم يقله لوثر!¹

وفي أحيان أخرى يتخذ هذا النقد طابع الثورة الساخطة، حيث يتساءل: أيكون إلها خيرا ذلك الذي يعلم ويقدر على كل شيء، ولا يهتم بأن تكون مقاصده مفهومة للبشر؟ ألا يكون إلها شريرا ذلك الذي يملك الحقيقة، ويشاهد العذاب الذي يعانيه البشر من أجل الوصول إليها؟²

بعد ذلك أكد أن كل أنواع النقد هذه لم تعد تثير اهتمامه، حيث تخلص تماما من هذه الفكرة ولم يعد يلقي لها أي اهتمام، حيث يشير إلى أنه من قبل كان المرء يسعى إلى أن يبرهن على أنه ليس ثمت إله، لكن اليوم يبين كيف يمكن أن ينشأ هذا الاعتقاد، وإلى أي شيء ترتد أهميته وتأثيره، في هذه الحالة يكون البرهان على عدم وجود إله سطحيا، لأنه عندما كان الناس ينفون البراهين القديمة، كان هناك شك دائم في إمكانية كشف براهين أفضل من تلك التي تم نفيها.

إذن كان التفنيد التاريخي هو التفنيد الحاسم، فإذا استطاع الفيلسوف أن يثبت أن هذه الفكرة قد نشأت، أعني أن لها أصلا تاريخيا أو نفسيا معينا، وأنها قد ظهرت لتلبي احتياجات إنسانية خاصة في ظروف معينة، فإنه في الوقت نفسه يقضي على ثباتها وأزليتها، وبذلك يكون قد قضى على الفكرة نفسها.

ثانيا: دور الكهنة في عملية التأويل

عندما نعود إلى وراء ونستعرض القصة الأصلية لظهور المسيحية، يشير نيتشه إلى أن مفهوم المسيحية كان في البداية تعبيرا عن سوء فهم نفسي متزايد للذات، بالإضافة إلى تجاهل كامل وعدم اعتراف باليهودية، ولكن يبقى السؤال: من هم الأفراد الذين يقفون وراء هذه التحولات والتغيرات؟

هنا نخبرنا نيتشه إلى وجود نوع من الطفيليين الذين لا يمكن لهم الانتعاش إلا من خلال جعل البشرية مريضة، ويشير إلى القساوسة الذين يحددون قيمة الأشياء باسم ملكوت الله، ويؤرجون للوسائل التي تحقق هذا

¹ -Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §129, p185.

² - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre premier, Op. cit, §91, p100.

الهدف وتحافظ عليه بمشيئة الله، يُقيّمون الأفراد والشعوب والعصور وفقا لطاعتهم أو عصيانهم تجاه سلطة القساوسة.

بدأت هذه الجماعة الصغيرة الخبيثة في الاستيلاء على مفاهيم الدين والإيمان، مثل الرب وروح القدس ويوم الحساب، واستخدامها كدرع لحماية أنفسهم من العالم الخارجي، وبدأ هؤلاء الرجال في تحريف القيم ووضع أنفسهم كمعيار للقيم والأخلاق، مطالبين بأن يكونوا هم الحكام والقادة الوحيدين، وأن يتم بناء قلاع لحمايتهم وحدهم.

تحوّل العصر الذهبي لإسرائيل على أيدي القساوسة إلى عصر تفكك وانحلال، حيث أصبح المنفى والمحنة الطويلة عقاباً أبدياً على خطيئة العصر الذهبي، حقبة لم يكن فيه للقس من وجود بعد، جعلوا من الشخصيات القوية والحرّة في تاريخ إسرائيل إلى منافقين بائسين أو كفرة، وذلك بحسب ما تستدعيه الحاجة عند كل حالة، كما اختزلوا سيكولوجية كل حدث عظيم في المعادلة السخيفة، طاعة أو عصيان الله، مما يعني أنه يجب معرفة الشروط التي تضمن بقاء سلطة القساوسة.

هذا النوع من الأشخاص لديهم مصلحة وجودية في قلب مفاهيم الخير والشر والحق والخطأ، وقد جعلوا هذه المفاهيم تلعب دوراً هاماً في حياتهم وتأثيرهم على العالم بشكل كبير، عرفوا بفطنتهم كيف يقفون على رأس كل حركات الانحطاط، كي يصنعون منها شيئاً يكون أقوى من أي موقف إثباتي للحياة، فالانحطاط ليس سوى وسيلة للنوع البشري الذي يسعى إلى تحقيق القوة داخل إطار المسيحية واليهودية.

بسبب ضعف الكاهن ينشأ لديه حقد وانتقام روحي في جوهره، يظهر هذا بوضوح من خلال تغييره الجذري للقيم، حيث يصبح العجزة والمرضى وحدهم الطيبون والمباركين من الإله، والغبطة والسعادة وقف عليهم، بينما يصبح الأقوياء والنبلاء معشر الطغاة والجشعين، وسيظلون ملعونين ومنبوذين وهالكين إلى الأبد.

لكن مكر الكاهن يظهر بوضوح في كراهيته وحقد الذي ينبع من داخله نحو الحياة، كما تظهر قسوته تجاه الذات، ورغبته الشديدة في إذلال الجسد واستئصال شهواته من جذورها، وفي سعيه المتواصل لربط حياته بتلك الجماعة من الضالين والمنبوذين والمعذبين والمرضى من كل الأنواع، وهذه الجماعة التي يعتبر الكاهن نفسه راعياً لها بشكل غريزي.

إذن لقد قرر القس بصرامة وحزم أن يحدّد كل الأمور نهائيا وإلى الأبد، ستكون جميع مسائل الحياة مضبوطة بشكل صارم ابتداء من الآن، سيكون حضور القس ضروريا في جميع الأماكن، وسيشارك في جميع الأحداث الحياتية مثل الولادة، وعقد القران، والمرض، والوفاة، وطقوس الأضاحي، حيث يظهر الطفيلي المقدس بهدف تطهيرها كما يدعي.

يُفقد القس الطبيعة قيمتها ويُزيل عنها قداستها، وبهذا الثمن فقط يمكن له أن يبقى موجودا، سيعتبر عدم الامتثال للقس خطيئة، وسبل التصالح مع الله تكون وسائل لتحقيق خضوع أعمق للقس، حيث يُعتبر هو الوحيد الذي يمكنه الخلاص، ولذلك يشير نيتشه من وجهة نظر بسلوكولوجية، إلى أن الخطايا ضرورية داخل المجتمعات ذات التنظيم الكنسي كأدوات للسلطة، حيث يعيش القس من خلالها، وهو بحاجة إلى أن تقترب خطايا امتثالا للقانون الأعلى، فالإله يغفر لمن تاب¹، مما يعني أن من يخضع ويدل نفسه أمام القس.

إذن ما يريده القس هو أن يكون قدوة للإنسانية، ويرغب في تحقيق السيطرة على الأقوياء، وأن يكون هو القوة الرئيسية داخل المجتمع، ويحاول أن يكون الوسيلة الوحيدة للعلم والفضيلة، وأن يكون الوسيط بين الله والناس، وأن الله يعاقب كل من يعارض ويؤذي الكهنة، فالحقيقة موجودة ولا يمكن الوصول إليها، إلا من خلال كونك أن تُصبح كاهنا.

ولذلك إذا كان الكاهن يرغب في أن يكون قدوة رفيعة للإنسانية، فيجب عليه أن يفرض تدرج الفضائل على تدرج القيم الإنسانية، مثل التأمل، التجريد من المادية، التحكم في الانفعالات، غياب العاطفة، التملق، هذا هو الطريق، وإذا نجح في ذلك سيكون قد أصبح مثالا يحتذى به، بينما الأشخاص الأقل قيمة يتمثلون في العكس تماما².

فما هو ثمن الإصلاح الأخلاقي؟ إنه يتضمن تعطيل العقل وجعل كل الدوافع تنبع من الخوف والأمل، والتبعية لوصاية كهنوتية تدعي أنها تعبير عن إرادة ربانية، وينتج عن ذلك بث ضمير يضع علما مزيفا محل البحث والمحاولة، وكأن ما يجب علينا فعله أو عدم فعله قد تم تحديده مسبقا، إنها عملية برمجة وتدجين للعقل.

¹- Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §26, p39.

²- Nietzsche Frédéric, *La volonté de puissance*, Op. cit, §97, p147.

لقد تم بشكل تعسفي تحويل العقل إلى مجرد عمل آلي، حيث أصبح الامتثال للقوانين المهدف الأسمى، لم تعد الحياة تعرف مشاكل، فقد تم تغيير فكرة الحياة نفسها، مما أدى إلى تشويهها وتحقيرها لإظهارها بمظهر النقيض المتطرف للكمال¹، لذلك يمثل مفهوم الرب البغض الشديد للحياة، حتى أصبحت الحقيقة في الأذهان كذبة كهنوتية، والطموح إلى الحقيقة يتمثل في دراسة الكتاب المقدس، وسيلة ليصبح المرء عالماً باللاهوت.

فعلى سبيل المثال جعلت المسيحية من الرغبة الكبيرة في الانتحار التي كانت سائدة وقت ظهورها عماد قوتها، فبينما كانت تحرّم بشكل صارم كل أشكال الانتحار الأخرى، إلا أنها سمحت بشكلين فقط وأعطتهما أهمية كبيرة وألبستهما بأسمى القيم: الاستشهاد وقتل الزاهد بنفسه ببطء².

لذلك هاجم نيتشه اللاهوتيين بسبب اعتقادهم بأنهم يلعبون دور الشهداء من أجل أكاذيبهم، فالغناء التاريخي للمضطهدين يكمن في منحهم القضايا المناهضة فرصة للظهور بمظهر القضايا المجيدة، من خلال منحها هدية سحر الشهادة، وها هي النساء حسب نيتشه ما زلن يركعن على ركبتيهن أمام خطأ قيل لهن بأن شخصا قتل على الصليب من أجلهن، فهل الصليب إذن حجة؟³

من بين الشخصيات التي ساهمت في هذه التحولات والتغيرات القديس بولس * Saint Paul الذي حوّل مركز ثقل الوجود إلى ما وراء الوجود (العدم)⁴، عندما وجد نفسه في ظروف صعبة في الإمبراطورية الرومانية، حيث عاش حياة بسيطة ومتواضعة تحت ضغط الهموم اليومية، قام بإعطاء هذه الحياة معنى أعمق وقيمة أعلى، تبدو هذه الحياة المتواضعة والظاهرة انصباعاً لمشئمة الإله وتضحية من أجل متع أخروية.

وهذا ما أشار إليه نيتشه، عندما اعتبر أن منشأ الدين هو خطأ في نط معين من الحياة، يكمن أولاً في وضع طريقة معينة للعيش، وضع ممارسة أخلاقية يومية محددة تفعل فعلها وتذهب الغم في نفس الوقت، وبعد ذلك

¹ - Nietzsche Frédéric, *La volonté de puissance*, Op. cit, §98, p151.

² - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Troisième, Op. cit, §131, p185.

³ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §53, p86.

* - عرف بولس بلقب القديس أو رسول الأمم، ويُعتبر أحد أبرز أعمدة الرسل في الكنيسة المسيحية الأولى، يمكن اعتباره الشخصية الأكثر أهمية في التاريخ المسيحي بعد يسوع الناصري، وُلد باسم شاول الطرسوسي قبل أن يُعرف باسم بولس، الذي يعني "الصغير"، تعود أصوله إلى عائلة يهودية تتمتع بصفة المواطنة الرومانية، جاء في سفر أعمال الرسل، الإصحاح 13: 9 "وَأَمَّا شَاوُلُ، الَّذِي هُوَ يُوْلُسُ أَيْضًا، فَانْتَلَأَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدْسِ وَشَخَّصَ إِلَيْهِ". (أنظر: يوحنا ذهبي الفم، دعوة بولس، ترجمة: سعيد حكيم، الطبعة الأولى، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة، د.ت، ص ص22-23).

⁴ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §42, p62.

يمنح تأويلا لهذه الحياة، حيث تبدو مشرقة بفضل القيم العظيمة، مما يجعلها تصبح خيرا يصارع ويضحي المرء بحياته من أجلها، وقد أكد نيتشه أن الابتكار الثاني هو الأكثر أهمية¹، حيث كانت طريقة العيش موجودة بشكل عام من قبل، ولكن ضمن سياقات أخرى وبدون إدراك لقيمتها الحقيقية.

كما أن بولس قد وضع فكرة المسيح المخلص المنقذ، حيث يعود في آخر الزمان لإنقاذ المسيحيين بعدما ضحى بنفسه تكفيرا عن خطايا البشر، سيتم إدماج تعاليم الموت كتضحية، وتعاليم العودة والمقاواة، وتعاليم البعث داخل نموذج المخلص²، وقد صاغ بولس هذا المفهوم بشكل منطقي عندما قال: "إن لم يبعث المسيح فسيكون إيماننا باطلا"³، وبهذا يصبح الإنجيل وعدا حقيرا ومذهبا يؤمن بالخلود الشخصي.

كانت لدى بولس غريزة قوية جعلته يثق تماما بأنه يمكنه نقل كلمة المنقذ بشكل يكون مغايرا للحقيقة، كانت جميع الأفكار التي كانت ديانات الشاندالا تستمد منها جاذبيتها الساحرة، كان يحاول تبسيطها ليفهمها أي راهب، وكان يدرك أنه يجب أن يؤمن بالخلود ليقبل من قيمة الدنيا، وأن فكرة الجحيم ستكون مهيمنة على روما، وأن الحياة الآخرة تمكّن من إقصاء الحياة، ولذلك يشير نيتشه بسخرية إلى أنه على الرغم من الاختلاف بين العدمية والمسيحية، إلا أن هناك تناغما عميقا بينهما لا يقتصر فقط على القافية⁴.

لكن على الرغم من قوة وعنق النقد الذي وجهه نيتشه إلى المسيحية، إلا أنه يميز بين مسيحية أولى تتمثل في المسيح الناصري وبين المسيحية التي جاء بها بولس، فالمسيحية التي عاشها المسيح تعتبر طريقة جديدة في الوجود، حيث تمثل نفيا لجميع المراتب في اليهودية ونفيا لكل تثبيت للحياة وتنظيم لها، وهنا لا حاجة للمؤسسة لأن الملكوت الإلهي يكمن داخله.

لا نريد أن نطيل الحديث في علاقته الخاصة بشخصية المسيح، فقد كان يحمل عليه جملة من الانتقادات الشديدة، ينتهي فيه إلى أن المسيح لم يسير في الطريق الذي اختاره لنفسه بسبب فهم خاطئ لدوافعه النفسية، هذا الفهم الخاطئ هو ما جعله يشعر بالحاجة إلى الخلاص، لو كان يدرك تلك الدوافع بشكل أفضل وتخلص من أخطائه النفسية، لما كان المسيح كما نعرفه اليوم.

¹ - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Cinquième, Op. cit, §353, p321.

² - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §41, p61.

³ - رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح 14:15 "وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا وباطل أيضا إيمانكم".

⁴ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §58, p101.

من ناحية أخرى يُلطف نيتشه في بعض الأحيان من حدة لهجته، مشيراً إلى أن النظام الذي تبنته الكنيسة لاحقاً، بما في ذلك القساوسة واللاهوت والطقوس، هو ما كان يحاربه يسوع بشكل خاص¹، وقد صبغت المسيحية بالطبعة الحالية التي كانت هدفاً لحملاته، ويعزو كل هذه التغييرات إلى تأثيرات أخرى تعود إلى بولس.

لذلك يقوم بولس بتحويل ممارسة الحياة الروحية إلى نظام ديني مع كنائس وكهنة ونظام مثوبات وعقوبات، ويجعل من يسوع ابن الله الذي يضحي بنفسه من أجل غفران خطايا العالم، ويتدع العالم الآخر وجميع الأمور الروحية الأخرى، إذ وهب الله ابنه كضحية لغفران الخطايا، ويصوّر التضحية بالبريء من أجل غفران خطايا المذنبين، "يا لها من وثنية رهيبة!"²

إذن ما لا يحبه نيتشه في يسوع وبولس، هو كونهما حشوا رؤوس الناس بأفكار كثيرة، مما يجعل الناس يعتقدون أن الفضائل المتواضعة لهؤلاء الناس لها أهمية، حيث دفع الغرب ثمن ذلك غالباً، لقد تسببوا في هبوط المزاي الثمينة للفضيلة والإنسان، كما حرّضوا الإنسان على الشعور بالذنب والكرامة ضد بعضهما³، وحولوا الميول المفرطة للأقوياء من الشجاعة والسخاء والإقدام إلى تدمير الإنسان لنفسه.

مع بولس عاد القس إلى رغبته في السيطرة والقوة*، لم يكن بحاجة إلى شيء سوى الأفكار والتعاليم والرموز التي تثير الخوف في نفوس الناس وتجمعهم حوله، وبهذه الطريقة يمكنه الحفاظ على السلطة، هذه المفاهيم تشكل الأساس لجميع أنظمة السلطة الفلسفية والكهنوتية.

كما يشير نيتشه أيضاً إلى أن بولس حرّمنّا من ثمار الحضارات القديمة، حيث اختفت جميع الإنجازات التي قامت بها، لقد ذهبت جميع الشروط اللازمة لثقافة متقدمة، مثل رفعة الغرائز وإرادة بناء مستقبل إنساني والاستجابة الإثباتية العظيمة لكل الأشياء بواسطة الحواس، ولم يحدث هذا الدمار فجأة عن طريق كارثة طبيعية، بل بسبب مصاصي الدماء الخفية والمآكرة⁴، وبين لحظة وأخرى لم يبق سوى ذكرى للحضارات اليونانية والرومانية.

¹ - فؤاد زكريا، نيتشه، مرجع سابق، ص 137.

² - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §41, p61.

³ - Nietzsche Frédéric, *La volonté de puissance*, Op. cit, §116, pp167-168.

* - هنا يقر نيتشه بقدرات الزعماء الأوائل للحركة المسيحية العقلية، حيث يعتبرهم أشخاصاً ذوي فطنة، ومع ذلك يرى أنهم يفتقرون إلى رصيد من الغرائز النقية والمحترمة التي لم تمنحهم إياها الطبيعة.

⁴ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §59, p103.

لقد كانت المسيحية مصدرا للتوتر ابتليت بها الإمبراطورية الرومانية، حيث محت بين عشية وضحاها العمل الهائل الذي أنجزه الرومان، من تهيئة أرضية لحضارة عظيمة تمتلك الكثير من الوقت لتحقيق إنجازاتها، والتي ما زال تاريخ مقاطعاتها يظهر لنا كل يوم بشكل أوضح أن العمل الفني الرائع كان مجرد بداية.

هنا يجد نيتشه نفسه يتساءل دائما عن حالة الحقد التي وصل إليها الرعاع على روما وعلى العالم، كيف يمكن لشخص أن يستخدم حركة طائفية صغيرة منشقة عن اليهودية لإشعال حريقا كونيا؟ وكيف يمكن لشخص أن يستخدم رمز الرب على الصليب لجمع كل ما هو وضع، وخلق قوة هائلة تحقق الخلاص بأيدي اليهود؟¹

من جهة أخرى يشير نيتشه إلى أن المسيحية حرمتنا من فرصة الاستمتاع بجني ثمار الحضارة الإسلامية في إسبانيا، حيث يُذكرنا بزمان ازدهار العالم الثقافي الموريسكي* الرائع، والذي يعتبر أقرب لثقافة الغرب الأصيلة، وذلك لأنها تنبع من منبع نبيل ومشروطة بغرائز فحولية، وتقول نعم للحياة، وتتميز بالرهافة النادرة لبدائع الحياة الموريسكية².

هذا ويذكر نيتشه أن الكنيسة استخدمت شجاعة الألمان في خوض حرب عدوانية ضد أرقى وأنبل حضارة على وجه الأرض، حيث حرم الألمان أوروبا من آخر حصيلة حضارية عظيمة كان بإمكانها أن تحققها، حرموها من ثقافة النهضة³ التي كانت تعني قلب القيم المسيحية، والسعي بكل عبقرية العصر لجعل القيم النبيلة تحقق انتصارها، لم يكن هناك سوى تلك الحرب الكبرى، هجوم على الموقع الحساس ومركز سلطة المسيحية، لجعل القيم النبيلة تسود هناك بالذات.

¹ - نيتشه فريدريك، نقيض المسيح، ترجمة: علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت، 2011، فقرة 58، ص 137.

* - اسم يطلق في إسبانيا على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى الملك الكاثوليكيان فرديناند وإيزابيلا على غرناطة يوم 2 كانون الثاني عام 1492، وبعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر. (نقلا عن: ليفي بروفينسال، من موسوعة الإسلام الموريسكي، الموسوعة الرقمية العربية (تاجيبديا)

(Digital Arabic Encyclopedia (TAGEPEDIA) (https://www.tagepedia.org/Entry.aspx?id=165401&title)

² - نيتشه فريدريك، نقيض المسيح، مصدر سابق، فقرة 60، ص 142.

³ - Nietzsche Friedrich, L'Antéchrist, Op. cit, §61, p105.

عندما وصل الراهب الألماني مارتن لوثر * (1546-1483) Martin Luther إلى روما، كان يحمل داخله غرائز الانتقام النابعة من كونه كاهنا فاشلا، اندلعت ثورته ضد النهضة في روما، ولكن ما الذي حدث بالضبط؟ يجبرنا نيتشه أنه بدلا من أن يدرك لوثر بعمق أهمية الحدث الكبير الذي حدث في روما في ذلك الوقت، وهو الانتصار على المسيحية في مركز سلطتها، رأى فقط ما يمكن أن يستمد منها من غذاء لحفده، رأى لوثر في ذلك فساد المؤسسة البابوية.

إذن لقد أعاد لوثر إحياء الكنيسة من جديد، وأصبحت النهضة معه حدث غير ذي أهمية، وبناء على ذلك يجبرنا نيتشه على أن هؤلاء الألمان سببوا خسائر كبيرة للثقافة الغربية بأعمالهم غير المجدية، هكذا كان عمل الألمان دوما الإصلاح، مثل لينتزر وكانط والفلسفة الألمانية بشكل عام، حيث كانوا يعملون في كل مرة من أجل شيء موجود سلفا، من أجل شيء تلف وليس له من معوض¹، ولهذا فالبروتستانتية في نظر نيتشه هي شكل من أشكال الانحطاط، حيث نجحت المسيحية في الحفاظ على ذاتها حتى الآن في أوروبا الشمالية.

كما يعتقد أن هناك تشابها بين شخصية لوثر وشخصية بولس، الذي يُعتبر مؤسس المسيحية، فقد كان لدى كلاهما رغبة قوية في السيطرة، مما يعكس نزعة عدوانية وإرادة انتقام وحقد شديد، ويشير نيتشه إلى أن هذه الرغبة تكون موجودة فقط لدى الأشخاص المنحطين، مثل اليهود.

أما الشخصية الثالثة التي أثرت في المسيحية هي شخصية إرنست رينان (1892-1823) Ernest Renan من خلال إدراجه لمفاهيم نفسية في تأويله لحياة يسوع، والتي كانت بعيدة عن الواقع، ومن بين هذه المفاهيم كان مفهوم البطل والعبقري، فقد أشار نيتشه إلى أنه يكمن سوء الفهم فيهما، أن مفهوم "البطل" كان يتنافى مع فكر الصراع والوجود، وأنه تحول في الأناجيل إلى غريزة لا تقاوم، حيث يُظهر عدم القدرة على المقاومة

* - راهب ألماني، وقس، وأستاذ لاهوت، يُعتبر أحد رواد عصر الإصلاح في أوروبا، حيث اعترض على صكوك الغفران التي كانت تصدرها الكنيسة الكاثوليكية، في عام 1517، نشر رسالته الشهيرة التي تتكون من خمس وتسعين قضية، تتعلق معظمها بلاهوت التحرير وسلطة البابا في منح العفو عن "العقاب الزمني للخطيئة". (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص 587).

¹ - Nietzsche Friedrich, L'Antéchrist, Op. cit, §61, p106.

كأمر أخلاقي¹، وهذا ما يتضح من خلال عبارة: لا تقاوم الشر*، وهي المقولة الأكثر رسوخاً في الأناجيل. أما فيما يتعلق بفهم مصطلح "عبقري"، يرى نيتشه أن هذا المفهوم لم يكن موجوداً في الثقافة التي عاش فيها المسيح، لكن كانت تلك العبارة تشير إلى مجموعة من الصفات التي يتمتع بها الإنسان، مثل الكراهية الغريزية للحياة، والاستقرار في عالم لا يتلاقى مع الواقع، يُسمى بعالم الحقيقة أو السرمدية.

إذن فقد قام رينان بتجريد مفهوم الإله من شروط الحياة المتنامية، ومن كل ما هو قوة وشجاعة وسيادة ونخوة، وحوّله إلى عكاز للمتعبين وقارب نجاة للغرقى، وجعله إلهاً للضعفاء والخاطئين والمرضى، وفقد صفاته الإلهية باستثناء اسم المنقذ والمخلص، فما هي النتيجة من هذا التحول؟ وما هي العواقب من هذا التقليل للألوهية؟

وهكذا كانت جهود المسيحية واليهودية تركزت في نظر نيتشه على نشر قيم الانحطاط وترسيخ فكرة العالم الآخر، وهذه الفكرة لم تكن بالأصل ضرورة يجب على الإنسان أن يتبناها، بل كانت نتيجة لخطأ في التفسير وسوء فهم للظواهر الطبيعية والإنسانية.

إذن بالنسبة لنيتشه المسيحية هي أسوأ تهمة على الإطلاق، إنها تمثل أقصى درجات الفساد، حيث قلبت كل قيمة إلى عدم قيمة، وكل نزاهة إلى كذب، فهي تعيش من خلال حالات البؤس لضمان بقائها، وسواء كان الأمر متعلقاً بطبيعة المسيحية الأولى أم التالية، فإن عقل الإنسان الحديث، لم يعد يقبل مثل هذه التعاليم، لذلك يشير نيتشه إلى أنه من الآن فصاعداً، لن تكون الحجج هي التي تقرر ضد المسيحية، بل سيكون ذوقنا!²

لذلك نجد نيتشه يشعر بالاستياء عندما يفكر في أن الناس يقيسون الزمن ويؤرخون منذ لحظة الشؤم التي بدأت معها الكارثة، منذ اليوم الأول لتاريخ المسيحية! ويتساءل لماذا لا نؤرخ بدلاً من ذلك من يومها الأخير؟ انطلاقاً من اليوم؟ قلب كل القيم!³

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §29, p42.

* - العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح 5: 39/38. "سمعت أنه قيل: عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً".

² - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Troisième, Op. cit, §132, p186.

³ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §62, p108.

نتائج الفصل:

اللاهوت هو نتاج خطأ وسوء فهم للظواهر الطبيعية، ويعتبر هذا التفسير نشاطا لإرادة القوة، يعني ذلك أن يكون نتاج قوى ارتكاسية تضفي معنى غير موجود في نص الطبيعة، مع ادعاء التطابق بين المعنى والنص، وبهذا الشكل يفسر اللاهوت الظواهر الطبيعية كعلامات دالة على الوجود الإلهي.

عندما يكون شعب ما على شفير الهلاك، ويشعر بفقدان الثقة في المستقبل والأمل في الحرية يتلاشى، وعندما يدرك أن الخضوع ضرورة للبقاء، وأن فضائل الخضوع هي شروط أساسية، عندها يكون على إلهه أيضا أن يتغير، وسيصبح عندها جباناً وشفوقاً ومتواضعاً، يوصي بسلام الروح والابتعاد عن الكراهية وبالرحمة والمحبة تجاه الصديق وحتى العدو.

الشعب اليهودي هو أحد أغرب الشعوب التي عرفها التاريخ، لأنهم عندما وجدوا أنفسهم مجبرين على العيش ضمن شروط مستحيلة، فضّلوا أن ينحازوا من منطلق الذكاء العميق لغريزة البقاء إلى كل ما يمثل الخطأ والغرائز، حيث توسّموا فيها قوة تعينهم كي يفرضوا وجودهم تجاه العالم، وكان ثمن ذلك هو تزوير جذري لكل طبيعي. المسيحية ليست سوى شيء عتيق يأتي من الأغوار البعيدة للزمن، وهي في حقيقتها تأويل نفسي خاطئ للذات يتزايد مع الوقت، ولفهم جذورها يجب أن نأخذ في الاعتبار عاملين: الأول، أنها ليست حركة مضادة لليهودية بل نتيجة لها، وتمثل إضافة إلى منطقها الشنيع ومبدأها القائل: "الخلاص يأتي من اليهود"، وثانياً: النموذج النفسي للكهنة الذي يقف وراء هذه التحولات والتغيرات.

القساوسة هم نوع من الطفيليات الذين يسعون لإصابة البشرية بالمرض، حيث يحاولون تحديد قيمة الأشياء باسم ملكوت الله، هؤلاء الأفراد لديهم مصلحة شخصية في تشويه مفاهيم الخير والشر والحق والباطل، مما يؤدي إلى تأثيرات خطيرة على الحياة والعالم، لقد أظهروا براعة في الوقوف على رأس جميع حركات الانحطاط، كي يصنعوا منها شيئاً يكون أقوى من كل موقف إثباتي للحياة، ويستخدمون الانحطاط كوسيلة لتحقيق القوة داخل المسيحية واليهودية.

الفصل الرابع:

حضور غريزة اللاهوت في الفلسفة

المبحث الأول: النموذج الكهنوتي للفيلسوف

أولاً: الفلسفة تتنكر في ثوب الزهد

ثانياً: استمرار وجود فكر الشائيات

المبحث الثاني: قيمة العقل في الفلسفة

أولاً: قيمة المنطق

ثانياً: إعادة صياغة العقل

المبحث الثالث: قيمة الحقيقة في الفلسفة

أولاً: من الحقيقة إلى إرادة الحقيقة

ثانياً: الثقة في اللغة

نتائج الفصل.

يعتقد نيتشه أنه من الضروري تحديد نوع الفكر الذي يجب علينا محاربته، وهو الفكر اللاهوتي وكل من يحمل دما لاهوتيا في شرايينه، هذا هو موقفه الفلسفي بشكل عام، حيث حفر ونقّب في كل مكان عن هذه الغريزة، وجدها الشكل الأكثر تسترا وانتشارا بين كل أشكال الزيف على وجه الأرض، إنها غريزة البقاء الأعمق، حيث شهد الكارثة عن كثب وعاشها عن تجربة شخصية، وصل به الأمر إلى أن شارف على الهلاك بسببها، ولذلك فإنه لا يقبل بأي مزاح في هذا الشأن.

المبحث الأول: النموذج الكهنوتي للفيلسوف

قلة قليلة جدا من الفلاسفة والباحثين الذين أدركوا دور الكاهن في تشكيل الفكر والأخلاق للإنسان الغربي الحديث، لذلك يرى نيتشه أن هذا النسيان الشبه الكامل لهم يحمل دلالة عميقة، إذ يشير إلى تأثيرهم بالكهنة، فقد أصبح من الصعب على الفيلسوف أن ينشأ وينمو ويبقى قائما، ما لم يكن لديه طابع تأملي أو روحاني، "راعي والمدافع عن القطيع المريض"¹، هذا هو الدور الذي أعدته غريزته للقيام به، ويجد فيه فنه الخاص، سيادته، ونوعا من السعادة، ينبغي أن يكون مريضا هو بالذات، ويجب أن يكون له صلة حميمة بالمرضى، فقط بهذا الشكل يمكننا فهم مهمته التاريخية.

أولا: الفلسفة تتنكر في ثوب الزهد

يعتبر نيتشه أن الفلسفة منذ بداياتها مع سقراط وأفلاطون اتخذت طابعا لاهوتيا، وتستتر خلف الأمثلة الزهدية*، ولكن هذا الارتباط في الواقع لم يكن استجابة لحاجة داخلية أو طلب شخصي من الفلسفة، بل كان مرتبطا بالظروف التاريخية والاجتماعية التي أدت إلى ظهور الفلسفة.

لذلك يظهر الفحص التاريخي الجاد أن الفلسفة لم تستطع البدء بخطواتها الصغيرة الأولى على الأرض إلا بفضل صلتها الوثيقة بهذا المثال، تماما كما يرتبط الطفل بالماسكة التي تمنع سقوطه أثناء تعلمه المشي، يشبه نيتشه بداية نشأتها بالطفلة الصغيرة ذات الساقين المعوجتين، والتي تظل دائما على وشك أن تهوي أرضا!²

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §15, p165.

* - النزوع إلى كل ما هو مضاد للطبيعة، والرغبة في الهروب من الصيرورة، بهدف اكتساب معنى وهو معنى نافي يصبح شرط وجود.

² - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §9, p145.

كانت الفلسفة في البداية تشبه جميع الأشياء الطيبة، ولكنها كانت تفتقر إلى الجرأة والإقدام لفترة طويلة، كانت دائما تبحث حولها عن من يمكن أن يأتي لنجدتها، بل أكثر فهي تخاف من كل من ينظر إليها¹، ولذلك لجأت الفلسفة إلى لغة الدين واعتمدت على إرادة المتدين، يدل على عجزها وحاجتها إلى دعم للظهور والانبثاق، وكما أن قيمة الفلسفة تنخفض عندما تفقد المعنى الديني، فإنها تشبه الصغير الذي لا يمكنه الحركة بدون دعم.

كان الفكر الفلسفي يضطر دائما إلى البدء بالتنكر، من خلال استعارة أنماط الإنسان المتفكر التي تكونت مسبقا، وخاصة أنماط رجال الدين، ولذلك ظل هذا المثال مستعملا منذ زمن طويل من قبل الفيلسوف كمظهر خارجي، كشرط للوجود²، كان مضطرا لتمثيل هذا المثال حتى يتمكن من أن يكون فيلسوفا، وكان مضطرا للإيمان حتى يتمكن من أداء دوره بشكل صحيح، وكان هذا الوضع الخاص بالفيلسوف يجعله يتعد عن العالم ويعيش في عالمه الخاص.

هذه الطريقة في الكينونة التي تنكر للعالم، تتخذ مظهر العداء للحياة وترفضها، وتتمسك بالصرامة تجاهها، هذا النهج استمر حتى في العصر الحديث، فقد اعتبرت بمثابة الموقف الفلسفي المسلم به، فمنذ أن كان هناك فلاسفة على وجه الأرض، وجد سخط حقيقي وحقد فلسفي ضد الحسية، كما يوجد أيضا أثر حقيقي وحين لفائدة المثل الزهدي³، هذا الوضع هو نتيجة لظروف مفروضة، لا بد منها لولادة الفلسفة وتطورها، إذ أن الفلسفة ظلت مدة طويلة غير ممكنة بتاتا على وجه الأرض بدون هذا القناع وهذا التنكر الزهدي.

لكن إذا كانت استعارة تنكر الفلسفة تحت غطاء الزهد تمثل حقيقة تاريخية مثبتة، فما هي الآثار التي خلفتها حالة التبعية التاريخية على الفلسفة؟

تُظهر النصوص النيتشوية التي تتناول هذه المسألة، أن الفلسفة بدأت بالتفكير من خلال اللاهوت والتمثيلات الدينية، إما كتعود الفلاسفة على التعامل مع جميع الأحاسيس التي وجدوها قائمة فيهم، على أنها ماهية أساسية للإنسان بشكل عام⁴، حيث كانوا يجعلون عواطفهم الدينية تبعا لذلك تؤثر بشكل كبير في بناء أنظمتهم الفكرية، وفي صياغة مناهجهم وأساليبهم.

¹ - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, troisième dissertation, §9, p145.

² - Ibid, §10, p150.

³ - نيهاماس ألكسندر، نيتشه الحياة كنص أدبي، ترجمة: محمد هشام، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008، ص143.

⁴ - Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human**, Op. Cit, §110, P115.

وإما كخادمة لللاهوت عندما يشعر بتهديد العلم، يلجأ إلى إدخال نظرية فلسفية بمكر في منهجه¹، بهدف اكتشافها لاحقاً، كما فعلت المسيحية عندما مرت بلحظة ريبية، حيث كانت مضطرة لأن تتمظهر في صورة الدين والعلم، إنه تواطؤ خفي وغريب بين لاهوت يتراجع وفلسفة تتقدم، حيلة من حيل اللاهوتيين في زمن كان الدين فيه مهتزاً بالشك في نفسه.

لذلك يرى نيتشه أن الفلاسفة كانوا يمارسون الفلسفة في أحيان عدة تحت تأثير العادات الدينية التقليدية، أو على الأقل تحت السيطرة المتوارثة لتلك الحاجة الميتافيزيقية المزعومة، وجدوا أنفسهم ينتهون إلى آراء نظرية تتقارب مع الآراء الدينية اليهودية والمسيحية، تشبه العلاقة بين الطفل وأمه، ولكن الآباء في هذه الحالة لم يكونوا يولون اهتماماً لتفسير هذه العلاقة الأمومية كما يحدث عادة، بل ظلوا ينسجون الخرافات حول هذه القرابة العائلية بكل براءة في إطار الرؤية الثقافية.

في كل الأحوال سواء في العصور القديمة أو الحديثة، لم يتمكن الفيلسوف من الابتعاد بشكل كامل عن دور الكاهن، فالفلسفة كانت وما زالت واقعة تحت تأثير الشروط التاريخية للبقاء وتأثير المعتقدات الدينية، وانتهى بها الأمر إلى أن اتخذت شكلاً دوغمائياً، يجعل منها "طغيان العقل"²، حيث ادعوا تحديد ماهية الخير والحقيقة في ذاتها.

إذن الفلاسفة لم يقوموا بشيء سوى إعلان سيادتهم وإثباتها بنفس الطريقة التي كان يفعلها الكهنة بحديثهم عن الإله، ومع ذلك لم يكن لديهم الشجاعة الكافية للاعتراف بذلك، حيث كانوا دائماً بحاجة إلى قناع، لذلك يمكن اعتبار الفلسفة لاهوت مشوها والفيلسوف "نصف كاهن"³، فما هو بالكاهن الحقيقي، وما هو بالفيلسوف الحقيقي.

تشهد الآثار الدينية في الفلسفة حسب نيتشه على اندماج وخلط بين العقل والرغبة، مما يجعل عقل الفيلسوف يتبع رغبات الكاهن، وبالتالي يفقد الفيلسوف ثقته بنفسه عندما يتحدث عن ذاته بضمير المتكلم، ومن

¹ - Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human**, Op. Cit, §110, P115.

² - نيتشه فريدريك، **الفجر**، ترجمة: محمد الناجي، الكتاب الخامس، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013، فقرة 547، ص 272.

³ - نورالدين الشابي، **نقد نيتشه للحدائق**، مرجع سابق، ص 249.

هنا يعتقد نيتشه بضرورة كشف الوهم الميتافيزيقي والتحرر منه، مشيراً إلى أن الإنسان يدين للميتافيزيقا بسبب شعوره بعدم المسؤولية ورؤيته لأهمية الأشياء في نفس الوقت¹.

ولذلك عندما يستقر تأثير اللاهوتيين في أي مجتمع، يكون الحكم القيمي مقلوباً على رأسه، حيث يصبح مفهوم الحقيقة والخطأ معكوسين تماماً، فما هو ضار ومدمر في الحياة يُعتبر حقيقة، وما يرفع من قيمتها وينميها ويثبتها ويجعلها تنتصر يُعتبر خطأ، هنا يشير نيتشه إلى أنه عندما يحصل اللاهوتيون على السلطة، فإننا ندرك أن إرادة العدم تريد السلطة².

بمسك المثالي بنفس الطريقة التي يمسك بها الكاهن بكل المفاهيم الكبرى، ويستخدمها بسخرية وازدراء لمحاربة العقل والحواس والمجد والرفاه والعلم، وينظر إلى هذه الأخيرة كأشياء دون مقامه، ويعتبرها قوى ضارة يخلق فوقها بتكبر، كما لو أن التواضع والعفة والفقر، وبكلمة واحدة القداسة، لم تسبب إلى حد الآن مضاراً للحياة أكثر مما فعل أي نوع من الفظاعات والردائل، لهذا يعتبر نيتشه أن الروح المحضة هي محض كذب³.

يظهر نيتشه في نقده للفلسفة الوثوقية عدم وعيها بأنها قد ورثت تراثاً من الخرافات والأساطير الشعبية القديمة، لذلك يعتبر أن هناك العديد من الأخطاء الجذرية التي ورثها الإنسان، مثل الاعتقاد في حرية الإرادة ووجود جواهر مطلقة وغير مشروطة، ونظراً لأن الميتافيزيقا اشتغلت بشكل أساسي على هذه الأفكار، يمكن وصفها بأنها علم يدرس الأخطاء الأساسية للإنسان، ويتعامل معها كحقائق أساسية.

لذا نجد أن نيتشه يؤكد بشدة على أن نقد الميتافيزيقا لا يمكن أن يتم دون نقد جذورها الدينية، حيث إن قدميها ملوثتان حتى أخمصهما بالدماء اللاهوتية، والفيلسوف نفسه يُعتبر نصف قسيس لأنه وُلد هجيناً، فلم يستطع تحمل أعباء الشريعة الفلسفية، ومن ثم بدأ يلعب لعبة الحقيقة وظل أسيراً لها، معتقداً أنه يبرر الحقيقة، لكنه في النهاية اكتشف أنه لم يبرر سوى ذاته.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human**, Op. Cit, §17, p31.

² - Nietzsche Friedrich, **L'Antéchrist**, Op. cit, §9, p12.

³ - Ibid, §8, p11.

لهذا اعتبر نيتشه أن المجال اللاهوتي هو الأنسب لقراءة الفلسفة، حيث أشار إلى أن الميتافيزيقا من حيث هي عرض، يجب فهمها ليس فقط في سياق تاريخها الخاص، ولكن أيضا في علاقتها بتاريخ أولئك القساوسة الذين ادعوا بأنهم يتحدثون انطلاقا من عمق الأشياء بشكل مستمر¹.

إذن يحارب نيتشه ضد هذه الغريزة اللاهوتية بشراسة، حيث يجد آثارها في كل مكان، معتبرا أن كل من يحمل دما لاهوتيا في عروقه يكون موقفه منحرفا وغير نزيه تجاه كل الأشياء، وتسمى الحالة الذهنية المضطربة التي تنتج عن ذلك إيمانا، "أن يغمض الإنسان عينيه تماما، لكي لا يتألم من مشاهدة الزيف الذي لا براء منه"².

وبناء على ذلك يتبنى الإنسان قيما وأخلاقا وفضيلة، من خلال هذه الرؤية الخاطئة التي ينظر من خلالها إلى كل الأمور، ويجعل راحة ضميره مرتبطة بتلك الرؤية الخاطئة، ويقرر عدم السماح لأي نوع آخر من النظر أن يكون ذو قيمة، بعد أن جعل من نظرتة الخاصة شيئا مقدسا ومحميا، بإضفاء أسماء مثل "الله" و"الخلاص" و"الخلود" عليها³.

إذن عندما يؤكد نيتشه على فكرة محاربة الغريزة اللاهوتية، فإنما يفعل ذلك وعيا منه بأن حتى الفلسفة الحديثة لم تتمكن من التغلب على اللاهوت، فلم تفعل سوى أن نقلت إلى المستقبل حلول مملكة الإله، وأنزلت إلى الأرض المثل الديني ومنحته دلالة إنسانية، وهناك ثمة سلطة العقل التي حلت محل سلطة الكنيسة.

إن الفلسفة الحديثة، على الرغم من ادعائها أنها تقوم أساسا على نقد الفكر اللاهوتي، وذلك بإعلان نهاية المسيحية كمنظومة اجتماعية وسياسية، إلا أنها لا تزال تحمل آثارا دينية، فالماضي اللاهوتي ما زال يتردد في الحاضر كظلال للإله الميت، ولكن بشكل مخفي داخل الفلسفة نفسها.

فالمعقولة الفلسفية الحديثة هي امتداد لللاهوت المسيحي، وهي ذات أسس أخلاقية منحطة بالأساس، إذ لا يزال البعض في حاجة إلى الميتافيزيقا، وتظهر هذه الرغبة الشديدة في اليقين، وفي امتلاك شيء ثابت بشكل مطلق⁴، كل هذا يظهر لحد الآن الحاجة المستمرة إلى سند، وتظهر غريزة الضعف التي لا تخلق، وإنما تحافظ على الديانات والميتافيزيقيات والقناعات بأشكالها المختلفة.

¹ - Valadier Paul, *Nietzsche et la critique du christianisme*, sans édition, Editions du Cerf, Paris, 1974, p202.

² - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §9, p11.

³ - Ibid, p12.

⁴ - Nietzsche Frédéric, *Le Gai Savoir*, Livre Cinquième, Op. cit, §347, p311.

لذلك ندرك أن إرادة العدم التي كانت تحكم اللاهوت، تسيطر أيضا على الفلسفة، فالفلاسفة ليسوا منزهين عن المثال الزهدي، الذي يهدف إلى تقليل قيمة الحياة والمادة والغرائز، والبحث عن العوالم الأخرى، والشعور بالرضا والارتياح داخل العدم، وإذا أردنا التعبير بشكل أوضح، فقد أشار نيتشه إلى أن الفيلسوف في العصر الحديث يظهر بمظهر مظلم ومروّع، يشبه الشرنقة* التي أعطت للفيلسوف حق ممارسة وجوده.

إذن هل تغيرت الأمور حقا يتساءل نيتشه؟ هل تمكن هذا الفكر الذي كان مغلفا بالشرنقة، من أن يرفع سقف متاعه جانبا وينطلق نحو إشراق النور بفضل عالم أشمس وأدفاً وأوضح؟ هل يوجد اليوم ما يكفي من الفخر والجرأة والشجاعة والرغبة في تحمل المسؤولية وحرية الاختيار على وجه الأرض، بحيث يصبح الفيلسوف من الآن فصاعداً أمراً ممكناً؟¹

ثانياً: استمرار وجود فكر الثنائيات

سبق أن ذكرنا أن نيتشه اعتبر أن إرادة الفيلسوف مستمدة من إرادة رجل اللاهوت، وبناء على ذلك يفسر في رأيه توجه الفلسفة نحو الانحطاط، وكذلك توجهها إلى الميتافيزيقا كوريثة للدين، مما يفسر استمرار فكر الثنائيات، فالإرادة هي نفسها، حيث يقوم التأويل الفلسفي تماماً كالتأويل اللاهوتي، إلى إقامة التراتب بين وجهي الطبيعة البشرية، فيضع النفس في المرتبة الأعلى والجسد في المرتبة السفلى، بالإضافة إلى تقسيم الوجود إلى عالم حقيقي وآخر زائف، ولكن كيف تم ذلك؟

01- الطبيعة البشرية: الروح/الجسد

إحدى الصفات الأساسية التي يجب أن يتحلى بها كل فيلسوف، هي إعلان الضغينة والعداوة تجاه الشهوات والرغبات الدنيوية من جهة، والميل المسبق نحو المثل الزهدي من جهة أخرى، فالإنسان لا يمكن أن يكون فيلسوفاً إلا إذا توفرت فيه هاتان الصفتان، ومن المثل الذي يمكن أن يستلهمه الفيلسوف، قول بوذا عند ولادة ابنه "راهولا" Rāhula (شيطان صغير)، إنها عقبة تنتصب أمامي²، فرغبة الفيلسوف في الحرية والتفكير العميق، ستدفعه للابتعاد عن الحياة الدنيوية والتفكير في الأمور الروحية والعقلية.

* - دودة القز أو الفراشة تبدأ حياتها من البيضة، ثم تمر بمراحل حتى تتحول إلى خادرة.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §10, p151.

² - Ibid, §7, p137.

إذن يعتبر الفيلسوف أن إزالة جميع القيود والضغط والاعتماد على الفكر اللاهوتي، هي الوسيلة التي يستخدمها لخلق الأمثل من الظروف المثالية، وليتمكن من إظهار قوته وتحقيق إمكانياته بالكامل، فكل شهوة تعتبر عائقاً أمام تحقيق القدرة والفعل والنشاط وإثبات الذات، وبالتخلص من القيود بجميع أشكالها، يؤدي في زعم الفيلسوف إلى وضوح الفكر والاندفاع والتحليق في الأفكار، والوصول إلى السكينة في كل ما يتعلق بالأمور العميقة.

لذا تُعتبر فضائل الفلاسفة فضائل زهدية، يشير نيتشه إلى ثلاث كلمات تمثل فخر المثال الزهدي واعتزازهم، وهي "الفقر والتواضع والعفة"¹، يتجلى الفقر في تجنبهم للثراء والسلطة، بينما يظهر التواضع في اعتدالهم وانعزالهم، وتبرز العفة في تجنبهم للشهوات وكراهيتهم للحواس، ومع ذلك يرى نيتشه أن هذه الصفات ليست فضائل بحد ذاتها، بل هي شروط لوجودهم وتفكيرهم.

هكذا تجد النظرة المبعوضة القبيحة تنتقم حتى على تفتح الجسد ورفاهه، وبشكل خاص على أشكال التعبير عن هذا التفتح، على الجمال والمتعة، بينما الأشياء المخيبة للآمال مثل المعاناة والمرض والبشاعة والأذى، والتي تلحق بالنفس بصورة إرادية، وإذلال الجسد وإماتة الرغبات والتضحية بالذات، هي أمور يجري البحث عنها كما لو أنها مدعاة للنشوة والمتعة.

ولذلك يشير نيتشه إلى أن هذه الطريقة الرهيبة في تقدير الأمور، لم تكن استثنائية في تاريخ البشرية، بل كانت من أعم الوقائع وأشدّها عناداً، حتى يعتبر أنه لو افترضنا أن هناك من يقرأ الحروف الكبيرة لوجودنا الأرضي من على كوكب بعيد، فإن تلك القراءة كانت ستؤدي إلى نتيجة مفادها، أن الأرض هي الكوكب الزهدي الحقيقي، حيث تعيش مخلوقات غارقة في الأسى العميق الذي ألحقته بنفسها²، هذا الأذى الذي يشكل بوضوح لذتها الوحيدة.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §8, p139.

² - Ibid, §11, p152.

منذ زمن سقراط * (399-470 ق.م) Socrates وأفلاطون، وجدنا أن الفلسفة تعلم الإنسان كيفية الموت، وتحديدًا موت الجسد، حتى في تاريخ الفلسفة الحديث مع رينيه ديكارت ** (1650-1596) Rene Descartes وكانط، كانت الفلسفة تسعى لاكتشاف تلك الحساسية المتعالية العميقة في الإنسان، بعيدا عن الأشكال والألوان والأحجام والأصوات والأدوات، في ظل تغيب كامل للجسد، وبهذا يعتبر الخطاب الميتافيزيقي خطابا مفارقا ومعاديا للحياة، وما ينتج لنا سوى الإنسان الارتكاسي.

عند قراءتنا لمحاورة أفلاطون (فيدون) المشهورة حول خلود النفس، ندرك كم يثقل الجسد على الإنسان ويعيق النفس من التحليق بحرية، حيث يمنعها من اكتشاف الحقيقة، تلك المحاورة التي كُتبت على يد أفلاطون نيابة عن سقراط، تروي لنا لحظة مهمة في تاريخ الفلسفة، وهي آخر حوارات سقراط مع تلاميذه.

بدأت المحاورة عندما صدر حكم الإعدام على سقراط، حيث لم تظهر عليه أي علامات تدل على الخوف، بل كان وجهه يعكس الرضا والسرور، مما أثار استغراب تلاميذه، الذين سألوه عن سر هذه الجرأة وعدم الخوف من الموت؟ ومن هنا بدأ الحوار الذي يمكن تلخيصه في السؤال التالي: ما هي العلاقة بين الجسد والنفس؟

هنا يوضح سقراط في فلسفته أن الموت هو انفصال النفس عن الجسد¹، حيث تعتبر الروح شيئا إلهيا خالدا وعقليا ومتجانسا وغير قابل للتحلل، بينما يُعتبر الجسد شيئا بشريا وفانيا وغير معقول ومتغير الشكل وقابل للتحلل²، وبذلك يبقى الجسد بمفرده وتبقى النفس بمفردها.

ولكن ما هو دور الفيلسوف؟ إنه لا يولي اهتماما بالجسد ومتعه، بل يسعى جاهدا إلى اكتساب المعرفة التي تتجاوز الجسد، فالجسد يعتبر عائقا للمعرفة، سواء بسبب نقص الحواس كأدوات للمعرفة، أو بسبب التشتت

* - فيلسوف يوناني كلاسيكي، يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية، لم يترك سقراط كتابات، وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال ما رواه تلامذته عنه، تعتبر محاورات أفلاطون من أكثر الروايات شمولية وإلماما بشخصية سقراط. (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص365).

** - فيلسوف وعالم رياضيات وفيزياء فرنسي يُعرف بلقب "أبو الفلسفة الحديثة"، العديد من الأفكار الفلسفية الغربية التي تلت عهده تُعتبر تجسيدا لأفروحاته، والتي لا تزال تُدرس حتى يومنا هذا، ومن أبرز أعماله كتاب "تأملات في الفلسفة الأولى" الذي صدر عام 1641، والذي يُعتبر النص المرجعي الأساسي في معظم كليات الفلسفة. (أنظر: المرجع نفسه، ص 298-299).

¹ - أفلاطون، فيدون: في خلود النفس، ترجمة: عزت قرني، الطبعة الثالثة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص24.

² - ماجد فخري، تاريخ الفلسفة اليونانية: من طاليس إلى أفلوطين وبرقلس، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1991، ص 73-74.

الذهني الناتج عن الآلام والملذات، وبالتالي يجد الفيلسوف السلام والقرب من المعرفة، عندما يعزل عن الجسد ويجمع ذاته في تفكيره.

وباختصار يعتقد سقراط أن الوصول إلى الحقيقة النقية يتم من خلال التحرر من الجسد، الذي يعتبره سجنًا للنفس، وبما أن الموت سيحررنا من هذا الجسد تمامًا، فإنه يعتبره ضروريًا لكل فيلسوف للوصول إلى الحقيقة بشكل كامل، لأن النفس لم يعد لها من يعكّر عليها صفوها، ستكون قادرة على مواجهة الحقيقة بدون عوائق، وعلى هذا الأساس، فالموت هو السبيل إلى تحرير الفكر، ولن تستطيع النفس أن تدرك الحقيقة إلا بعد أن تتحرر تمامًا من الجسد، وكل ما يرتبط به.

إذن إن الطرح الأفلاطوني-السقراطي، يرى أن مهمة الجسد تختلف تمامًا عن مهمة النفس، حيث يميل الجسد نحو اللذات والغرائز، بينما تسعى النفس نحو العلم والحكمة، ويتضح من هذا التصور تفوق النفس ورفعتهما على الجسد، فقد حذر أفلاطون من الوله في شهوات الجسد ودعا إلى تطوير النفس، حينما أشار على لسان سقراط بأن مهمته الوحيدة هي إقناع الناس بعدم الاستسلام لشهوات الجسد والسعي لتطوير النفس¹، فالحياة إذن موت للنفس، ولذلك يجب علينا أن نتعلم كيف نموت.

كما سار ديكارت على حُطى أفلاطون، واعتبر أن الإنسان مكوّن من جوهرين مختلفين من حيث الطبيعة، جوهر مادي ممتد هو الجسد الذي يشبه العالم الخارجي، حيث لا يفكر ولا يختار، وهو خاضع لسببية صارمة، بينما الجوهر الآخر النفسي يفكر ويختار، حيث يُشير إلى أن كل ماهيته أو طبيعته لا تقوم إلا على الفكر².

وبناء على ذلك، قام ديكارت بفصل الجسد عن الروح واعتبرهما مادتين مختلفتين تمامًا³، حيث اعتبر أن الروح تنتمي إلى ملكوت الله فقط، وأن العقل لا ينتمي إلى الجسد بل إلى الروح، كان الفكر عند ديكارت مميزًا بالاستقلال التام عن الجسد، الذي وصفه بأنه مثل آلة متناسقة تعمل بشكل مستقل عن الذات المفكرة، وفي كتابه

¹ - حسين موسى، ميشال فوكو: الفرد والمجتمع، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009، ص25.

² - ديكارت رينيه، مقال عن المنهج: لإحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم، ترجمة: محمود مُجّد الحضيري، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص217.

³ - ديكارت رينيه، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة: عثمان أمين، التأمل السادس، الطبعة الثانية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص231.

"مقال في المنهج"، أشار ديكارت إلى أن الجسم آلة صنعها الله بطريقة منظمة، تتجاوز في تفوقها كل الآلات التي يمكن للإنسان أن يخترعها¹.

لم يتجاهل ديكارت الجسد، على عكس سقراط وأفلاطون اللذان ازدروا منه ورفضوا الاعتراف به، بل على العكس من ذلك، فقد وضعه في خانة الوظيفة الآلية كامتداد للإنسان، ولكن ذلك لا ينفي تحقيره له، واعتماده على فصل بين الجسد والروح يعكس رغبته في تحرير الروح وتأكيدها كقيمة أساسية وأولية، كونها أساس الوجود الإنساني ومركزه.

إذن كلا من الفلسفة اليونانية والفلسفة الحديثة قد قدمت وجهات نظر متشابهة في اعتبار المكانة المتدنية للجسد، وبالمقابل امتازت بالانزياح الكلي لتعظيم ملكة الفكر، هذه الأطروحة شبيهة ببعض التصورات الدينية التي ترى أن الإنسان مشكل من جوهرين متمايزين: الروح والجسم، والعلاقة بينهما ظرفية ومؤقتة، فالنفس من طينة إلهية وهي متورطة في سجن الجسد، وعلى الإنسان الحقيقي أن يقهر جسده ويسعى للتخلص منه.

02- شطر الوجود: تقديس/تدنيس

من ناحية أخرى يرى نيتشه أن اللاهوت ليس الشكل التأويلي الوحيد الذي خلق العالم الآخر، بل يوجد أيضا في الفلسفة، عندما اختفى الهذيان الديني الذي خلق إحساسا بالحرمان والفراغ، تولد منه العالم الآخر الميتافيزيقي، لذلك يشير إلى أن الحاجة الميتافيزيقية ليست هي أصل الديانات، بل إنها الابن المتأخر لهاته الأخيرة²، في العصور البدائية كان الناس يدعون إلى قبول وجود عالم آخر بشكل مطلق، ليس لأنهم يرغبون في ذلك، بل لأنهم كانوا يخطئون في تفسير بعض الظواهر الطبيعية، ولذلك تعتبر الميتافيزيقا وريثة الدين، بل أكثر من ذلك هي خادمة اللاهوت الأئمة³، ومؤيدة لنتائجه.

¹- Descartes René, **Discours de la méthode**, cinquième partie, sans édition, Librairie Philosophique J. Varin, paris: 1992, p120.

²- نيتشه فريدريك، **العلم المرح**، الكتاب الثالث، مصدر سابق، فقرة 151، ص142.

³- Biaggi Vladimir, **Nietzsche**, sans édition, Armand Colin, Paris, 1999, p36.

وهكذا عندما يجد الإنسان نفسه يبحث عن مفر من فكرة العالم الآخر التي فرضتها الأديان، حتى يجدها في الفلسفة مرة أخرى بشكل أدق وأكثر إقناعاً، تظهر هذه الفكرة بإطار منطقي دقيق، مما يجعلها أكثر خطورة من ذي قبل، ذلك أن العالم الآخر الميتافيزيقي يصبح موصوفاً بأرفع الصفات وأعلاها، حيث يُصوّر كعالم المثل أو الأفكار، وهو العقل الخالص الذي يتمتع بثبات ونقاء لا مثيل لهما في عالمنا.

ولا تكتفي الميتافيزيقا بخلق العالم وإثبات وجوده، بل تؤكد أنه هو العالم الحقيقي، بينما يعتبر عالمنا عالم ظواهر فقط، وتصل هذه الميتافيزيقا إلى أقصى درجات التطرف، حيث أن الاعتراف بوجود عالمها الخاص ليس أمراً سهلاً، وتترتب عواقب خطيرة على السلوك الإنساني، فما بالك إذا قيل إن ذلك العالم هو الحقيقي، وأن عالمنا هو عالم ظواهر وخداع!

لذلك يتم تأويل كل ما يحدث في العالم الآخر، كما لو كان **علة** لما يحدث في العالم الحسي، فعادة ما يتخذ الفلاسفة موقفهم تجاه الحياة والتجربة، بنفس الطريقة التي ينظرون بها إلى لوحة معروضة، حيث يعتبرونها دائماً متسلسلة وثابتة لا تتغير، يرون أنه يجب تأويل هذا التسلسل بشكل صحيح، لفهم الكائن الذي أنشأ اللوحة والواقع المطلق الذي يعتبر سبباً كافياً لوجود الظواهر¹.

بالإضافة إلى ذلك يقحم الخطاب الفلسفي عموماً مفهومي **الباطن والظاهر** على العالم، حيث كانوا يعتقدون أن الوصول إلى العمق يتم من خلال الأحاسيس العميقة، لأنها تساعد على الاقتراب من جوهر الطبيعة²، وبناء على هذا الاعتقاد يتم المفاضلة بين معاني مختلفة في القيمة، حيث تتجاوز المعرفة الظاهر إلى الباطن، والمعنى السطحي إلى المعنى الحقيقي الذي لا يمكن أن يأتي من هذا العالم الوهمي، وبالتالي يجب أن يكون أساس المعرفة في عمق الوجود، داخل السر الإلهي، في الشيء ذاته وليس خارجه.

ما يحرك الفيلسوف هو رغبته في استكشاف عالم غني بالمعاني والعمق، حيث يشعر بالعظمة لأنه يمكنه فهم جوهر الأشياء ويدرك الحقيقة الكامنة فيها، إنها عودة سعيدة إلى ماهية الأشياء وتحرر من الأوهام، حيث يسعى الفيلسوف إلى العلم والحقيقة والوجود، ويصبح قادراً على الحديث عن لغز الوجود.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, Chapitre premier, §16, p30.

² - Ibid, p31.

في العصر الحديث حاول ديكارت أن يبرهن على وجود الله*، ولكن لم يكن ذلك عبر العالم الطبيعي، بل ادعى أن معرفتنا بالله هي التي توجهنا نحو فهم العالم الطبيعي، فهو لم يحاول استخدام الأرض للوصول إلى السماء، بل استخدم السماء للنزول إلى الأرض، ولم يستند إلى وجود الكون لإثبات وجود خالقه، بل استند إلى الخالق لإثبات وجود المخلوقات.

فالإله لدى ديكارت هو الضامن لصدق المعرفة، حيث يتمتع بالكمال والخير والصدق، لذلك فقد كان لديه تصوّر بأنه داخل فكر مسيحي وأخلاقي يعتقد في إله خير وخالق للأشياء، فصدق الإله هو الذي يضمن لنا أحكام حواسنا، ومن ثمة الإله الديكارتي هو نفسه الإله الديني الأخلاقي، بالتالي ليس للحقيقة والبحث عنها والأمل بإدراكها معنى، إلا إذا سلمنا بوجود إله أخلاقي شبيه بنا، ونتيجة لذلك ديكارت قد وقع في فخ اللاهوت. إذن لم تكن الديكارتية التي استأنفت تاريخ الحداثة الغربية، سوى إعلان جديد لتقييد إرادة الإنسان واستبدالها مرة أخرى بالعقل والأنا والذات، هذه الافتراضات التي اعتبرها ديكارت عالم الفلسفة المجهول، حيث وضع في كتابه "التأملات" أسسا لميتافيزيقا الذاتية التي تتمحور حول الكوجيتو.

فديكارت لعجزه كان يرتدي قناع الدين كوسيلة للحماية، ولم تكن فلسفته تنبت من نبات أصيل في عالم خال من الوصايا والتعاليم الدينية، طالما أن هدف ديكارت النهائي هو عدم الاعتراض على الدين المسيحي، بل كان يدّعي أنه جاء لتقديم حقائق الإيمان، لذلك يشارك جميع فلاسفة العصر الحديث في استكمال اللعبة الميتافيزيقية الكبرى، التي تتجاوز الواقع وتعتبر نفسها حقائق ثابتة ومطلقة¹.

* - قم بمراجعة الحجاج الثلاث العقلية التي قدمها ديكارت لإثبات وجود الله. (ديكارت رينيه، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحجاج، الطبعة الثالثة، منشورات عويدات، بيروت، 1982، ص 119-197). (أنظر كذلك: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 495).

¹ - شتاينر رودولف، نيتشه مكافحا ضد عصره، ترجمة: حسن صقر، الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر و التوزيع، دمشق، 1998، ص 203.

ولم يكن باسكال من وجهته بمنأى من تأثير الدين، لقد كان يراهن* على أن الإنسان لا يمكنه أن يثبت وجود الله بالعقل وحده، ولذلك كان يعتقد أن الحكمة تكمن في أن تعيش حياتك وكأن الله موجود، لأن هذا النوع من الحياة هو الأكثر ربحاً ولا يمكن أن تخسر فيه شيئاً.

عندما يقوم الشخص بتقدير خياراته بعناية، يصبح من الواضح أن الخيار الأكثر منطقية هو الاعتقاد بوجود الله، وأن الحياة على هذا الاعتقاد هي الخيار الأفضل، فقد اقترح باسكال أن بعض الناس قد لا يكونون قادرين على الإيمان بالله في البداية، ولكن يجب عليهم أن يعيشوا كما لو كانوا يؤمنون بالله على أي حال، قد تقودهم هذه الحياة وكأنهم يؤمنون بالله حتى يصلوا إلى الإيمان الحقيقي.

لذلك قرر باسكال أن يراهن على عدم وجود إله، حتى وإن كان ذلك قد يقوده إلى الهلاك، لكنه اختار بدلاً من ذلك وهم الخلاص الأبدي، هذا الضعف في الإرادة يعكس مدى الفساد الذي أحدثته المسيحية في تفكيره¹، وربما يعكس هذا الفساد أيضاً استبطان باسكال لفكرة الخطيئة الأصلية، التي أدت إلى شعوره بالذنب وضميره المتعب.

أما كانط فيعتبره نيتشه نموذج انحطاط الفلسفة الألمانية ذات الأسس اللاهوتية، على عكس الافتراض السائد بأنه انتصر على دغمائية اللاهوتيين، مثل الإله والنفس والحرية والخلود، ومع ذلك لم يتمكن من التغلب على المثال الزهدي، وعلى الرغم من أنه أدخل شيئاً من الريبة في الفلسفة الألمانية عندما نفى إمكانية معرفة الأشياء في ذاتها، إلا أنه ارتد في النهاية إلى اللاهوت، فعندما ينفي إمكانية معرفة الإله، فإنما يبرر الدين ويجعله بمنأى من كل تشكيك، وعندما يحد من المعرفة، فإنما يترك مجالاً لللاهوت، "المعرفة لا وجود لها، إذن الإله موجود!"²

* - في كتاب "الأفكار"، نجد الحجة المعروفة باسم رهان باسكال، التي تهدف إلى إثبات أن الإيمان بالآخرة هو الخيار الأفضل مقارنة بعدمه، كما أنها تمثل نوعاً من الأدلة على وجود الله، يقوم جوهر هذا البرهان على ضرورة الاختيار بين احتمالين: إما أن الله موجود، أو أنه غير موجود، يوجه باسكال رهانه إلى الشكك والملاحدين، قائلاً: "دعونا نفكر في هذين الاحتمالين: إذا ربحتم، فستحصلون على كل شيء، وإذا خسرتم، فلن تخسروا شيئاً، فاختاروا الإيمان بوجود الله دون تردد". (أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، الجزء الأول، ص356).

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §5, p7.

² - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §25, p207.

لذا رأى كانط أن هناك مسائل لا يمكن للإنسان أن يصدر حكماً نهائياً بشأنها، فكل الأسئلة الكبرى والقضايا القيمة المهمة تتجاوز إمكانيات العقل البشري، وأكد على أهمية إدراك حدود العقل، مشيراً إلى أن هذا الفهم هو ما يمثل جوهر الفلسفة الحقيقية.

ونتج عن ذلك أن الفلسفة النقدية لم تضع حداً نهائياً لامتداد الميتافيزيقا بشكل نهائي، بل كانت هي ذاتها تجلي لهذا الامتداد، الإله ما زال حياً وإن تغير شكله، أصبح الآن أمراً قطعياً، حاول كانط تفكيك أوهام العقل الميتافيزيقية، لكنه لم يدرك الأسباب الحقيقية وراء تلك الأوهام، التي لا يمكن فهمها إلا من خلال العودة إلى وراء وطرح الأسئلة الأساسية: من؟ ولماذا؟

تؤكد كل هذه الأمور على تفكك التمييز الكانطي بين الظواهر والأشياء في ذاتها وتدهورها، حيث أن تقسيم العالم إلى حقيقي وظاهر، سواء بالطريقة المسيحية أو بالطريقة الكانطية، لا يمكن أن يكون إلا نتيجة للتدهور، وعلامة على انحدار الحياة الفكرية، ولذلك يشير نيتشه إلى أن كانط مثله مثل لوثر، أكبر كابح للنزاهة الفكرية¹.

لقد اصطدم جميع الفلاسفة مع الفراغ الذي نشأ نتيجة انتقادهم للقيم التقليدية، على الرغم من تعامل بعضهم مع هذا الفراغ بشكل مختلف عن البعض الآخر، إلا أنهم جميعاً لم يتمكنوا من تحمل عواقب هذا الانتقاد، لذلك عادوا إلى اللاهوت بحثاً عن "الدواء الناجع"² الذي يمكن أن يعالجهم من حالة الخطر التي هم فيها، على الرغم من عدم ثقتهم في فعالية هذا الدواء.

المبحث الثاني: قيمة العقل في الفلسفة

يرى نيتشه أن انحطاط الفلسفة يعود في النهاية إلى اعتقاد الفلاسفة بقدرة العقل ذاته، حيث آمنوا بقدرته على اكتشاف الوجود، واعتبروا مبادئه وقوانينه حقائق تعبر عن علاقات واقعية بين الأشياء الموجودة، مما أصبح الخطاب الفلسفي يعتمد على مركزية الذات وشفافية الوعي ومؤسسة لإنتاج الحقيقة وحضور المعنى، حيث فصلوه

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §10, p13.

² - نيتشه فريدريك، مولد التراجيديا، ترجمة: شاهر حسن عبيد، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2008، فقرة 18، ص 209.

عن الحياة، فبات يشكل تهديدا للوجود مفهومها على هذا النحو، بدون مراعاة لشروط تركيبته التاريخية والاجتماعية والنفسية والفيزيولوجية، وظل يستخدم خارج سياقه الحقيقي.

لذلك يسعى جاهدا لإزالة جميع هذه الادعاءات والأقنعة، ليكشف عن آلياته في الإخفاء والإقصاء، وإعادة صياغته وتحديد مجالاته وترتيب علاقاته مع القوى الالعقلية (الجسد)، كان عليه أولا تحطيم هذا الوهم الكبير، ومن ثم سيكون من السهل عليه تحطيم الأوهام الأخرى التي وقع في شراكها الفلاسفة.

أولا: قيمة المنطق

يعتقد نيتشه أن العقل لم ينشأ عنه سوى الأخطاء خلال العصور الطويلة الماضية، حيث يشكل تهديدا للوجود ويمثل خطرا على الحياة، ينتج أفكارا وهمية يصفها بأنها حقائق أبدية، لذلك هاجم الطريقة التي استخدم بها العقل من عدة جوانب، بما في ذلك المنطق، وقد طرح سؤالاً مهماً: من أين جاء المنطق في عقول الناس؟ لذا قبل التفكير في مسألة الوجود والحياة، يجب علينا حل مسألة قيمة المنطق.

لذلك يعتبر أن ليس للمنطق أساس أنطولوجي واقعي كما ادعى أرسطو في تحليلاته، بل وُجد لتلبية الرغبات الحيوية للإنسان في تثبيت كل شيء متحرك، بتعبير آخر حسب نيتشه من اللامعقولية التي كان مجالها شاسعا في الأصل¹، ليتحول إلى نموذج كامل للتفكير ومعيّار وأداة لجميع العلوم في بحثها عن الحقيقة، فامتدت سطوته ليصبح بمثابة أداة إجرائية، وظيفتها الأساسية هي توزيع الإرغام تحت غطاء الضرورة المنطقية، ثم إدراجه عبر متواليات المفاهيم².

إذن فمبادئ الفكر التي يعتنقها الفلاسفة العقليون، ليست سوى أوهام ضرورية للحياة، بل هي أدوات نافعة ومفيدة للتمكن والاستحواذ، ومن بين هذه الأفكار الخاطئة ما ثبت نفعها وقدرتها على الحفاظ على النوع³، فمن يتبنى هذه الأفكار أو يورثها، سيكون قادرا على مواجهة التحديات بشكل أفضل وبنجاح أكبر، له وللأجيال القادمة.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §111, p167.

² - صفدي مطاع، نقد العقل الغربي: الحداثة ما بعد الحداثة، الطبعة الأولى، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص 99.

³ - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §110, p163.

لذلك يعتبر العقل نفسه بحاجة إلى هذه الشروط ليتمكن من التفكير، فيبتكرها ويفرضها على العالم والوجود الحقيقي بشكل قاطع، مع أنها شروطه هو التي لا يستطيع بدونها التفكير وتحقيق الغرض من وجوده، أما أن يكون سير الحوادث متوافقا تماما مع هذه المبادئ، فهذا ما لا يمكن أن يثبت.

أول مبدأ من هذه المبادئ هو مبدأ الذاتية (الهوية)، والذي يعتمد على فرضية غير موجودة في العالم الواقعي، وهي تساوي الأشياء¹، يعتبر نيتشه هذا المبدأ شرطا في التفكير ولكنه ليس شرطا في الوجود، حيث يعتقد أن الأشياء تظل دائما على حالتها، وأنها ليست سوى إضفاء لصفة التشابه على ما هو في الأصل غير متشابه، هذا المبدأ لا يستند إلى أي أساس في طبيعة الأشياء، بل هو وسيلة يبتكرها العقل للتحكم في الواقع.

لذلك يصعب على العقل فهم الصيرورة بحقيقتها وحالها الدائم، بل يستطيع فقط فهمها عندما يحولها إلى سكون وثبات، فمثلما لا تستطيع خلايا الجسم امتصاص الطعام إلا عندما يتحول إلى شيء من نوعه، كذلك يقوم العقل بتحويل الواقع المتغير باستمرار إلى شيء ثابت يمكن فهمه، وبالتالي عدم معقولة شيء ما ليس دليلا على عدم وجوده، بل الأحرى هو شرط لوجوده²، فالواقع هو حركة مستمرة وتغير دائم لا ينتهي، وهذا يتعارض مع المعرفة العقلية، حتى أن نيتشه اعتبر أن الأمور التي يمكن تصورها عقليا قد تكون وهمية.

ولهذا فإن المعرفة والوجود الحقيقي يتعارضان، حيث يظهر لها في صورة المتمرد عليها والمتناقض معها، ومن بين الأفكار الخاطئة التي انتقلت عبر الأجيال واعتُبرت حقائق مطلقة، والتي أصبحت خلفية مشتركة للبشرية، نجد مثلا الاعتقاد في ثبات وتمائل بعض الأشياء، ووجود جواهر وأجسام ثابتة، وأن الشيء يكون كما يبدو عليه، بالإضافة إلى الاعتقاد بوجود إرادة حرة، وأن ما يُعتبر خيرا بالنسبة لي هو خير في حد ذاته³.

لذلك يرى نيتشه أنه لم يظهر من ينكر مثل هذه المعتقدات أو يشك فيها إلا في وقت متأخر جدا، حيث أن أصل المعرفة ليس هو الرغبة في المعرفة بحد ذاتها، والتي تدفعنا في بحثنا العلمي خلال فترتنا الحضارية الحالية، بل هي رغبة متأخرة نشأت بعد تطور ونمو، كما أنها ليست رغبة متجذرة في العقل البشري، بل الأصل أنها نشأت في

¹ - Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human**, Op. Cit, §11, p22.

² - عبد الرحمن بدوي، نيتشه، مرجع سابق، ص238.

³ - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §110, p164.

ظل النفع الجماعي، وكانت وسيلة للتمويه والاختباء للضعفاء الذين لا يملكون القوة الكافية على خوض معركة من أجل الوجود.

أما **التناقض** فقائم على القانون السالف، حيث يمكن القول إن كلاهما يعكس قانونا واحدا، فهو يظهر أننا غير قادرين على إثبات شيء ونفيه في نفس الوقت، هذا يدل على عجزنا في القيام بهذه العملية بمفردنا، ومع ذلك ليس هناك ضرورة تقتضي بذلك بالنسبة إلى الوجود نفسه، فالقانون لا يتضمن معيارا للحقيقة، بل يتضمن أمرا بما يجب أن يُعد حقيقة¹.

إذن فإن مبدأ الهوية هو وسيلة يصنعها العقل كإجراء ضروري لتحقيق تطابق بين المعنى والقيمة، وبالتوجه الأحادي والمقتن في الفهم، يمثل هذا النهج دعوة إلى الركود وقمع الإبداع، مما يمنع إنتاج تعددية تأويلية وتكوين عدد لا ينتهي من المنظورات، ونظرا لأنه لا يمكن تغيير ما هو ثابت، ينتقل الشخص بهذا الاعتقاد من ذاته إلى الوجود، فيفرضه عليه.

وهذا ما يوضحه مفهوم **الجوهر** الذي ابتكره الفلاسفة، حيث يمنح العقل للكون صفة الثبات، مما يؤدي إلى تجميد الصيرورة، يعتقد نيتشه أن الخوف هو الذي يؤدي إلى إقصاء الصيرورة والتناقض، حيث يرى الكون مكونا من جواهر وأشياء تحتاج إلى الثبات لتسهيل التعامل معها، وإذا افترضنا أن التغيير المستمر هو السائد، فإن الأشياء ستهرب منا وتتحرك بسرعة في تيار الحركة، مما يجعل من الصعب تثبيتها والتحكم بها.

فالجوهر هو الاعتقاد الخاطئ في وجود أشياء ثابتة ودائمة خلف التغير والتحول، وأشياء حقيقية خلف الظواهر، ولا يهم بعد ذلك ما يسمى الجوهر، سواء كان مادة أو ذرة أو روح، فهو في جميع الأحوال خطأ ينبغي تصحيحه، يحاول الإنسان العثور على الثابت في القابل للتغيير، ولكنه لا يمكن أن يشبع هذه الحاجة إلا من خلال التزييف²، لذلك الجوهر هو مجرد صورة تخيلية ابتكرت للتحكم في التغير من خلال عملية إجرائية وربما اعتباطية تخضع للتغير للمفهوم.

¹ - عبد الرحمن بدوي، نيتشه، مرجع سابق، ص 204.

² - محمد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة، مرجع سابق، ص 33.

وبذلك نجد أن الصراع القديم في تصور الوجود بين بارمنيدس* (540-480 ق.م) Parmenides وهيراقليطس، قد انتهى بانتصار الصورة الأولى، حيث أصبح الكون كله يعتبر موجودا ثابتا وإذا اعترف فيه بالكثرة، فتلک هي كثرة من الجواهر الثابتة أيضا.

اختفت صورة هيراقليطس وتجاهلت نتيجة الخوف من التحوّل، حيث يعتبر تصوّر الكون مقسما إلى جواهر وأشياء ثابتة مريحة للعقل والحواس، مما يجعل إدراكه سهلا، وبالتالي فإن مفهوم الجوهر يعود إلى نفس الأصل الذي يحكم الهوية، أعني إلى النفع الحيوي.

أما فيما يتعلق بمبدأ العلية، يتمثل الأمر هنا في فكرة أساسية طالما وجهت تاريخ الفلسفة، وقامت عليها الميتافيزيقا الغربية، وهي الاعتقاد بوجود علاقة ضرورية بين الأشياء، ومع ذلك يرى نيتشه أن هذا الاعتقاد هو أكبر خطأ وأخطره على الإطلاق، فالحوادث المتعاقبة لا تسمح لنا بالاستنتاج الضروري بين العلة والمعلول، إنها محاولة لتنظيم العالم بشكل يجعله مقبولا ومعقولا ويجعله يتناسب مع أفهامنا، وخلال هذه العملية يقع العقل في عدة أخطاء، يحددها نيتشه في أربعة** أخطاء كبرى أساسية:

فالأولى تتمثل في الخلط بين السبب والنتيجة، وهذا الخطأ جزء من تقاليدنا القديمة ويعتبر مقدسا في ديننا وأخلاقنا، كل مبدأ يتم تشكيله من خلال الدين والأخلاق يحمل هذا الخطأ، حيث يُعتقد أن جنسا معينا أو شعبا معينا يمكن أن يدخل في طريق الهلاك بسبب الرذيلة والبذخ، وهذا المفهوم متجذر في جميع الأخلاق والديانات.

لكن على لسان نيتشه تتحول كل صيغة إلى نقیضها، عندما يسير الشعب نحو الهلاك وينحل فيزيولوجيا، ينتج عن ذلك البذخ والرذيلة، وعندما يصاب الإنسان بحالة من الشحوب والذبول، ليس بسبب المرض، بل يشير إلى أنه قد أضحى مريضا، ولم يتمكن من مقاومة المرض، وهذا ليس إلا نتيجة لحياة رثة وإنهاك وراثي، وتدهور في الإرادة¹.

* - فيلسوف يوناني وُلد في القرن السادس قبل الميلاد في مدينة إيليا، ويُعتبر من فلاسفة عصر ما قبل سقراط، قدّره أفلاطون بشكل كبير، حيث أدرج أحد أبرز محاوراته تحت اسمه وأطلق عليه لقب "الموفر"، يرى هذا الفيلسوف أن العقل والوجود هما وجهان لعملة واحدة، ويعتقد أن الوجود ثابت وساكن. (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص 138).

** - وهنا يلکونا بالأصنام الأربعة لفرانسيس بيكون (Francis Bacon (1626-1561: أوهام القبيلة، وأوهام الكهف، وأوهام السوق، وأوهام المسرح.

¹ - نيتشه فريديريك، غسق الأوثان، مصدر سابق، الأخطاء الأربعة الكبرى، فقرة 2، ص 63-64.

فمثلاً لقد جرى تأويل البلاء الذي ألم بالشعب اليهودي بعد سلسلة الهزائم التي تعرضوا لها، على أنه نتيجة لعدم طاعتهم لله، بهدف إظهار عدالة إلههم وإنقاذ صورته، ولذلك فإن التأويل الديني يتطلب تعميمه ليكون فعالاً، حيث تم هزيمة الشعب بسبب تراكم الذنوب والخطايا، وبالتالي كانت عقوبة العصيان عامة، وكان سخط الرب على العبد هو النتيجة في جميع الحالات.

إذن هذا الطبع في الخلط بين الآخر والأول موجود لدى الفلاسفة، حيث يضعون في البداية ما يأتي في النهاية، يعني أن المفاهيم الأكثر عمومية لابد أن تكون من منزلة أرقى، مثل الكائن المطلق والخير والحق والكمال، إنها طريقتهم في التعبير عن إجلالهم، حيث يرون أن كل مفهوم رفيع المستوى لا يحق له أن ينمو من الأسفل، بل لا يحق له أن يكون قد عرف النمو أصلاً¹.

وباختصار كل ما هو من منزلة أرقى لا يمكن أن يكون حاصل صيرورة، ولا ينبغي له أن يكون متفاوتاً أو متناقضاً، بل يجب أن يكون علة في ذاته، ولا يجب أن يكون مشتقاً من شيء آخر، لأنه إذا كان كذلك فإنه يُعد في حد ذاته عيباً، ويجعل قيمته موضع الشك.

من هنا ابتكر البشر لأنفسهم مفهوم الإله الذي يعتبرونه مذهلاً، وسيوضع ذلك الأخير والأكثر ضحالة وخواء موضع الأول، كعلة لذاته وكواجب الوجود، الأمر الغريب هو أن البشرية كانت تأخذ بجدية هؤلاء الذين يعانون من اضطرابات عقلية من نساجي الشباك العنكبوتية! وقد دفعت ثمن ذلك²

أما الخطأ الثاني يكمن في الاعتقاد بالسببية الزائفة، حيث كان الاعتقاد السائد عبر العصور أننا نملك معرفة كاملة عن العلل، ولكن من أين جاء هذا الاعتقاد؟ يرى نيتشه أن هذا الاعتقاد نشأ نتيجة للوقائع الداخلية مثل "الإرادة، الوعي، الأنا"³، والتي لم يثبت وجودها بشكل قاطع حتى الآن.

تبدو الوقائع الداخلية الثلاثة التي تضمن وجود السببية، حيث كنا نعتقد أنفسنا عنصراً مسبباً داخل فعل يمثل الإرادة كعلة أولى، ثم مفهوم الوعي كعلة، وبعدها مفهوم الذات كعلة، ولكن لم تظهر هذه العلاقة إلا بعد أن أصبحت السببية ثابتة بوجود الإرادة كمعطى.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, La raison dans la philosophie, §4, p27.

² - Ibidem.

³ - Ibid, Les quatre grandes erreurs, §3, p46.

والآن نيتشه لم يعد يصدق كلمة واحده من كل هذا العالم الداخلي، حيث أصبحت الإرادة ليست محركاً لأي فعل سوى مرافقة الأحداث، وما يُسمى بالدافع هو خطأ آخر، فهو مجرد ظاهرة سطحية للوعي، شيء جانبي بالنسبة للفعل الذي يجلب الأفعال المهيمنة أكثر مما يجسدها، وحتى هذه الأنا فإنها قد تحولت فيما بعد إلى تلاعب بالألفاظ.

أما الخطأ الثالث يسميه بالعلل الوهمية، حيث يعتقد نيتشه أن رد الأمور غير المعروفة إلى أمور معروفة تجلب الراحة والاطمئنان والرضا، وتمنح شعوراً بالقوة، وفقاً لمبدأ: "أي تفسير أفضل من عدم وجود تفسير"¹، فالغموض يمثل مصدراً للخطر والقلق وعدم الاطمئنان، وبالتالي يسعى الإنسان بشكل طبيعي إلى إزالة هذا الوضع المقلق.

الأمر ليس مجرد البحث عن أي تفسير، بل البحث عن تفسير معين، يكون مرغوب ومطلوب يمكنه أن يزيل الشعور الذي ينشأ أمام كل ما هو غريب وجديد، وكل ما ليس لدينا به خبرة، وبالتالي سيظل هناك نوع معين من التعليقات يتكثف في شكل نظام ويقضي كل التفسيرات والعلل الأخرى، على سبيل المثال المسيحي يفكر مباشرة في الخطيئة².

لذلك يرى نيتشه أن الجانب الديني والأخلاقي يندرج تحت فكرة العلل الوهمية المذكورة، حيث يعتقد أن الأحاسيس السلبية تأتي من كائنات شريرة تعادينا، وتنجم عن أفعال سيئة مثل الشعور بالذنب وارتكاب المحرمات، وتعتبر هذه الأحاسيس عقوبات، أما الأحاسيس الإيجابية فتأتي من الثقة بالله، وتنجم عن الوعي الذي ينتج عن أعمال صالحة مثل راحة الضمير*.

الخطأ الرابع يكمن في حرية الإرادة، إذ يستخدمها اللاهوتيون كحيلة لجعل البشرية مسؤولة بالطريقة التي يرغبون فيها، بمعنى جعلها تخضع لهم، لذلك في كل بحث عن المسؤولية، تظهر غالباً غريزة الرغبة في المحاكمة والعقاب، ويشير نيتشه إلى أن نظرية الإرادة قد ابتدعت في الأساس من أجل العقاب³، أي من أجل رغبة في التذنب.

¹ - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, les quatre grandes erreurs, §5, p48.

² - Ibid, p49.

* - تأويل باسكال لتلك المشاعر يعود إلى الإيمان والمحبة والأمل، وهي الفضائل المسيحية.

³ - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, les quatre grandes erreurs, §7, p51.

هذا التأويل صاغه القساوسة في العصور القديمة، حيث كان يعتبر شرطا ضروريا للوجود، نظرا لتوليهم المراتب العليا في المجتمعات القديمة، كانوا يسعون لإيجاد حق يمكنهم من فرض العقوبات، وجعل الناس أحرارا ليكونوا قابلين للمحاكمة والعقاب، ولكي يمكنهم إدانتهم.

ثانيا: إعادة صياغة العقل

يعتقد نيتشه أنه من الضروري إعادة بناء العقل بشكل جديد، وذلك من خلال الرجوع إلى الجذور، يجب علينا أن ندرك الشروط التاريخية والاجتماعية والنفسية والفيزيولوجية التي تحكم مبادئ العقل، كما ينبغي علينا أن نعي كيف استفادت البشرية من هذه المبادئ، إن العودة إلى الماضي تُعتبر الوسيلة الوحيدة للحفاظ على أعظم ما حققته الإنسانية حتى الآن.

إن غياب الوعي التاريخي لدى الفلاسفة يعيقهم من فهم نشوء هذه المبادئ، حيث كل ما يتعلق لديهم مرتبط بالمزاج، حقدهم على فكرة التغيير ذاتها، يبدو أنهم عندما يثنون على قضية ما، يقومون بتجريدتها وتخفيفها من تاريخها، كل ما ظل الفلاسفة يعالجونه منذ زمن بعيد لم يكن سوى مومياء أفكار، وليس هناك من شيء حقيقي حي قد خرج من بين أيديهم.

لذلك أصبح الفلاسفة خطرا قاتلا على كل الأشياء، فهم يقتلون ويحشون بالقش عندما يعبدون، يشاهدون الموت والتحوّل والعمر بنفس الطريقة التي يرون بها الولادة والنمو، ويعتبرون كل هذه الأمور عقبات وعوائق في حياتهم، يؤمنون بقوة اليأس بالكينونة، رغم أنهم يعتقدون بأن الكائن لا يتغير وما يصير ويتغير غير كائن¹.

من ناحية أخرى عندما يشعر الفلاسفة بالعجز عن فهم الصيرورة، فإنهم يسعون دائما لإيجاد مبررات تفسر سبب تعذر إدراكها، يفترضون وجود ظواهر تخدعهم وتعيقهم عن التعرف على الكائن الذي يقف وراءها، ويتساءلون: "أين يمكن أن يكون الماكر المخادع؟"²، ويصلون إلى استنتاج مثير للدهشة بأن الحواس هي التي تخدعهم، وبالتالي فهي تتعارض مع الأخلاق، حيث تقوم بتضليلهم وتشويه الرؤية الحقيقية للعالم.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, La raison en philosophie, §1, p24.

² - Ibidem.

إذا كان الهدف الأخلاقي الذي يسعون إليه هو التحرر من أوهام الحواس والسيرورة والتاريخ، فإن التاريخ ليس شيئا آخر غير الاعتقاد في مصداقية الحواس، ووفقا للفلاسفة ينبغي علينا رفض كل ما يثبت هذه المصداقية، ولذلك إذا أراد أحد أن يصبح فيلسوفا، عليه أن يصبح موميا¹.

لذلك استثنى نيتشه اسم هيراقليطس، بينما رفض بقية الفلاسفة الآخرين الاعتماد على شهادة الحواس، لأنها تعكس التنوع والتغير، العقل هو الذي يدفعنا إلى إنكار ما تقدمه الحواس، حيث يمكن أن يخدعنا من خلال إخفاء ميوله ومعتقداته المسبقة، ومن هنا بما أن الحواس تعكس السيرورة والتغير، فإنها لا يمكن أن تكون كاذبة.

إذن يمكن القول إن نيتشه لا يرفض العقل بشكل كامل، بل يعارض الدور الذي لعبه في الفلسفة عندما أصبح مستبدا يقضي اللاعقل (الجسد)، فعندما يطرد العقل اللاعقل من مملكته، يجد نفسه محاصرا به، ولكن عندما يعترف بوجوده، يتمكن من قيادته بشكل جيد، مما يسمح لهما بالعمل بتناغم²، ومن هذا المنطلق لا يمكن للإنسان أن يدير عقله بشكل فعال إلا إذا قاد اللاعقل فيه بنفس القدر.

لذلك قام نيتشه بدراسة العقل من خلال التركيز على المجالات المحظورة والمهملة، حيث تحدى تقاليد العقل وجعله يتفاعل مع الجسد، وهو ما كان يستبعده العقل تماما، قام بإعادة ترتيب العلاقة بين العقل والجسد بطريقة تجعل العقل أقل تعاليا ومفارقة، ولكنه أصبح أكثر قوة وفعالية، يمكننا مقارنة صورة المفكر قبل نيتشه وبعده لتوضيح هذا الاختلاف.

يعتبر الأول نفسه جوهر فكريا شفافا، حيث يدرك الواقع من خلاله، بينما يرى الثاني الفكر كخبرة حية مرتبطة بجسده، محاطا بغابة من الهواجس والتخيلات والأوهام، ينظر إلى الفكر كتجربة متكاملة تجمع بين العاطفة والمعرفة والاعتقاد والسلطة.

وهذا هو جوهر النقد الذي يوجهه نيتشه إلى الحداثة، حيث تدعي الانفصال عن الأصل والتحرر الكامل من الماضي، فالحداثة لا تعتبر نفسها مجرد فترة زمنية أخرى في التاريخ، بل تمثل عصرا جديدا تماما، وتختلف بشكل جذري عن كل ما سبقها، بإضفاء صفة المطلق على هيأتها الحاضرة، وتعتبر نفسها المرجع الوحيد لذاتها.

¹ - نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسان بورقية ومُجد الناجي، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1996، العقل في الفلسفة، فقرة 1، ص 26.

² - مُجد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة، مرجع سابق، ص 41.

ولا شك أن هذا التصور للحدث، هو الذي يستهدفه نيتشه بالنقد، حيث يرى أنها تحاول ملء الفراغ الذي تركه الإله بغياب المعاني الكبرى والأهداف النهائية، من خلال إدخال قيم جديدة لتحقيق تأليه الهيئة الحاضرة للإنسان¹، ومع ذلك تظل هذه القيم مجرد ظلال للإله الميت، حيث يخفي ويحجب حضور الماضي الثقيل، ويسلط ظلاله الكثيفة على الحاضر، مما يجعله مجرد وهم حضور².

إذن فخطاب الحدث هو خطاب مخادع، حيث يحتوي على العديد من الأقنعة والمسايق، فهو يعاني من تناقض واضح بين ادعاءاته بأن الحدث تمثل عقلانية متطورة وتحرراً شاملاً وذاتية شفافة³، وبين ما يتجاهله ويخفيه، وهو استبعاد الصيرورة وتجميدها وكبت الغريزة، تعكس هذه النقاط جميعها إرادة قوة حاكمة، تلك التي تهيمن على الفيلسوف الحديث.

المبحث الثالث: قيمة الحقيقة في الفلسفة

لم تكن الحقيقة مشكلة مطروحة في تاريخ الفلسفة، بل كانت دائماً تعتبر ملاذاً من كل الأسئلة والشكوك، إنها الهدف الأعلى الذي تسعى إليه المعرفة الإنسانية، حيث كانت مهمة الفلسفة هي السعي لاكتشاف الحقيقة، إنها الهدف النهائي الذي يسعى إليه الفيلسوف ويحلم به، فقد يخطئ الفيلسوف في اختيار الوسائل التي تقربه من هذا الهدف العظيم، ولكن هذا الهدف نفسه يبقى سامياً ومرتفعاً، لم يتساءل أي فيلسوف قبل نيتشه عن قيمة الحقيقة وفائدة تمسك الفلاسفة بها.

وفقاً لفلسفة نيتشه يجب علينا أن نخضع مفهوم الحقيقة إلى النقد الجنيالوجي، من خلال طرح الأسئلة حول أصلها وقيمتها، من هم الذين يسعون لاكتشافها؟ وماذا يريدون؟ بمعنى آخر يجب علينا فهم إرادة القوة الخاصة بتلك الأفراد، وكيف تعبر عن نفسها فيهم، لذا دعونا نحدد مهمتنا بهذه الطريقة.

أولاً: من الحقيقة إلى إرادة الحقيقة

¹ - Valadier Paul, *Nietzsche et la critique du christianisme*, Op. cit, p57.

² - محمد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة، مرجع سابق، ص44.

³ - محمد سبيلا، الحدث وما بعد الحدث، مرجع سابق، ص18.

إن التقسيم الوجودي يعتبر بدون شك أحد أهم القرارات التي اتخذها فيلسوف في تاريخ الفلسفة، حيث حدد مصير العالم وطبيعة الإنسان وأسلوب تفكيره، وقد فتح هذا المفهوم الباب أمام ظهور الخطاب الميتافيزيقي حول الحقيقة، وبالتالي فإن التقسيم الثنائي الأفلاطوني للعالم هو الذي حدد الموطن الأنطولوجي لمفهوم الحقيقة.

أدى هذا التقسيم إلى ارتفاع الحقيقة فوق العالم المتغير والمتقلب الذي نعيش فيه، حيث استقلت الحقيقة عن شروط الحياة المتحركة فيها واكتسبت صبغة أزلية، وبذلك شكلت عالماً مستقلاً بذاته، هو عالم المطلق، حيث يكون الإله هو الحق وأن الحقيقة إلهية¹، وفي هذا العالم تتمركز جميع الأزليات الأخرى التي عرفها العقل البشري، مثل الإله والجواهر والأشياء في ذاتها والمبادئ المطلقة والعلل الأولى.

من هنا يدّعي الفلاسفة أن الفكر يسعى في جوهره لاكتشاف الحقيقة، ويتوجه نحوها بشغف ورغبة قوية، تقوم الفلسفة بإنشاء رابط قانوني بين الفكر والحقيقة، حيث تربط إرادة مفكر خالص بالحقيقة، دون أن تربط الحقيقة بإرادة ملموسة هي إرادتها² (بنموذج إرادة قوتها)، هكذا يقبل نيتشه هذه المشكلة على الأرض المطروحة عليها، دون انتقاد الطموحات الزائفة نحو الحقيقة، بل ينظر إلى الحقيقة نفسها بوصفها مثلاً أعلى.

إذن لم يترك نيتشه فكرة الحقيقة توصف بالأزلية دون أن يتساءل عن علة هذا الوصف ومدى صحتها، ولم يكتفي بالتساؤل عن الأزليات الأخرى التي تستقر في عالم الحقيقة، بل امتد بحثه إلى المقر الأول لجميع هذه الأزليات، وهذا المقر الذي لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه من قبل، ولذلك لم ينجح أحد في نقد ما يستمد منه بشكل قاطع.

لذلك انتقد نيتشه معظم الفلاسفة لعدم تقويمهم لفكرة الحقيقة وإرادتها بالشكل المطلوب، وبدلاً من ذلك اعتقد الفيلسوف أنه يجب على الإنسان أن يتقدم في بناء نسقه الفلسفي حتى يصل إلى الحقيقة المطلقة، مع نيتشه أصبح الخطاب الفلسفي يتناول الحقيقة بشكل يتساءل عن هذا الوعد غير الفلسفي الذي قدمه الفيلسوف، ومن هنا يتعين علينا أن نبحث بدقة أكبر في مفهوم "ما الحقيقة والمعرفة؟"³.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §24, p201.

² - دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص122.

³ - المولدي عزديني، نيتشه: الحس النقدي أساس المعرفة المرحية، مجلة تبين للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية، المجلد 7، العدد 28، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، مارس 2019، ص19.

وفقا لطريقة نيتشه ينبغي مسرحة مفهوم الحقيقة، ماذا نعني عندما نتحدث عن الحقيقة؟ هذه الكلمة النبيلة والمشهورة التي تمتلئ بها كتب الفلاسفة، والتي قد تكون منهكة من كثرة الاستعمال، ماذا يعني أن يكون الشيء حقيقيا؟ افترض أنها امرأة¹، هل يمكن أن يدفع هذا الاعتقاد إلى أن الفلاسفة جميعا، بما أنهم دغمائيون قد أسأوا فهم النساء؟ وهل يمكن أن تكون الجدية والفضول الذي تابعوا به الحقيقة وسائل غير مناسبة للتواصل معها؟

لهذا القول نتائجه الوخيمة، إذا كان من المعروف أن الفيلسوف النمطي عادة ما يكون جامدا وجافا وغير مؤهل للتعامل مع النساء، وبناء على ذلك يوحى نيتشه أن الفيلسوف الكلاسيكي غير مؤهل للتعامل مع الحقيقة بشكل كامل، على الرغم من ادعائه المستمر بأن الحقيقة هي هدفه.

وفقا لنيتشه لقد تأخرنا زمنا طويلا أمام مشكلة أصل هذه الإرادة، ولكن بالمقابل وجدنا أنفسنا معلقين أمام مشكلة أكثر أساسية، فإذا سلّمنا بأننا نريد الحقيقة، فلماذا لا نريد بالأحرى اللاحقيقة؟ الكذب؟ وعدم اليقين؟ حتى الجهل؟² يبدو أن هذه المشكلة لم تُناقش من قبل، ولكن نيتشه كان أول من رآها وتجرأ على طرحها.

نيتشه يحاول من خلال هذه العبارة تحديد موقفه من مفهوم اللاحقيقة، التي لم تطرح من قبل الفلاسفة بوصفها كم مشكلة تحتاج إلى التأمل والتفكير، فهم افترضوا وجود الحقيقة كشيء ثابت وكفى، مما يعني أن دورهم يجب أن يكون في معرفتها والكشف عنها دون التساؤل عن قيمتها وأهميتها.

لذلك يظهر استياء نيتشه وغضبه من ممارسات الفلاسفة في التعامل مع الحقيقة، خاصة تلك القائمة على التمييز* بينها وبين الخطأ، ونتيجة لهذا التمييز أصبحت الحقيقة مستقلة تماما عن الحياة ومنعزلة عنها، وبالتالي يعتبر أن كل ما قدمه الفلاسفة عبر العصور لم يكن سوى أفكار ميتة، ولم ينشأ شيء حقيقي من أيديهم.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. Cit, Preface, P1.

² - Ibid, Prejudices of Philosophers, §1, P5.

* - الحقيقة، سواء كانت شيئا أو حكما، تتمثل في التطابق، وذلك من خلال طريقتين: أولا، التطابق بين الشيء وما تتصوره عنه، وثانيا، التطابق بين ما يدل عليه المفهوم والشيء نفسه، هذه الخاصية المزدوجة للتطابق تعكس التعريف التقليدي لماهية الحقيقة، حيث تُعرّف الحقيقة بأنها تطابق الشيء مع العقل، سواء كان ذلك من خلال تطابق الشيء مع المعرفة أو تطابق المعرفة مع الشيء، وقد ترسخ هذا المعنى للحقيقة، بوصفها تطابقا، في الممارسة الفلسفية. (Voir la: Heidegger Martin, **De l'essence de la vérité**, Approche de l'«allégorie de la caverne» et du «Théétète» de Platon, Trad: Alain Boutot, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 2001, pp16-17.)

لذلك كان نيتشه دائما يعتبر أن الحياة هي الأصل والعامل الأساسي الذي يؤثر على كل تصرف أو فكر إنساني، "صيرورة خالصة ونهر لا ينقطع"¹، وبالتالي يجب علينا أن ندرك أنها تتحكم في الحقيقة بدورها، وفي هذه الحالة، أعني حين نخضع الحقيقة لأصل سابق يتحكم فيها هو الحياة، يكون علينا أن نغير نظرتنا إلى الحقيقة تغييرا شاملا، فإذا ما أعيد ارتباطها بها أصبحت متقلبة مع الحياة في تغييرها وصيرورتها.

وهذا ما أثبتته نيتشه حينما اعتبر أن العقل لم ينتج منذ القدم سوى الأخطاء، ولكن ليس أي خطأ، بل ذلك النوع الذي يكون مفيد وصالح لحفظ النوع، مثل هذه الأخطاء انتقلت وراثيا حتى أصبحت حقيقة مشتركة بين أبناء الجنس البشري، مما يجعلها صناعة إنسانية غير مستقلة عن شؤون حياتنا.

فالحياة لا تعبأ بشيء إلا باستمرارها وتقدمها، وفي سبيل ذلك تستعين بأية وسيلة، حتى لو كانت هذه الوسيلة غير منطقية، ذلك أن الأخطاء كثيرا ما تكون عاملا مفيدا أحيانا، يجعل للحياة البشرية لونا مميزا حتى لو كان ذلك اللون من الخيال المحض²، لكن الاستعمال المطول والمتكرر لها فضلا عن انتقالها من جيل إلى آخر، جعل الإنسان ينسى أنها من صنع يديه، الأمر الذي أكسبها صفة القداسة.

عند البحث في جذور مفهوم الحقيقة، نجد أنها مجرد أمعاء منتفخة بالريح لا تصمد عند أول ضربة بالمطرقة، عاشت معنا هذه الأوهام لأنها صالحة للحياة ولا يمكن الاستغناء عنها، بالنظر إلى نتائجها وليس بالنظر إلى ذاتها، فالناس لا يسعون وراء الحقيقة إلا ليحفظوا حياتهم، وليس لأنهم يبحثون عنها بجد ذاتها، لذلك فهم يتوهمون كل ما يحفظ لهم الحياة حقيقة، والوهم أخطر من الخطأ، حيث يمكن تصحيح الخطأ بينما يصعب تصحيح الوهم أو التراجع عنه.

إذن ما هي الحقيقة حسب نيتشه؟ إنها حشد متدافع من الاستعارات والكنائيات وتشبيهات الأشياء بالإنسان، إنها ببساطة سلسلة من العلاقات البشرية التي تم تحميلها ونقلها وتنميقها بشكل شعري وبلاغي، وبعد الاستخدام المكثف أصبحت ملزمة وصارمة واستيطانية لدرجة أننا نسينا أنها في الأساس استعارات، فقدت هذه

¹ - بيير مونتيسيلو، نيتشه وإرادة القوة، ترجمة: جمال مفرج، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص21.

² - فؤاد زكريا، نيتشه، مرجع سابق، ص64.

الاستعارات قوتها الحسية من فرط استعمالها، وأصبحت قطع نقدية فقدت نقوشها، وبالتالي اعتبرت عندئذ معدنا وليس بالمرّة قطعاً نقدية¹.

تاريخ الفلسفة حسب نيتشه لم يُعَرِّضْ اهتماماً لظاهرة النسيان لمشكلة الحقيقة، بما هي مفعول لإرادة القوة، وقد رسخ هذا النسيان فكرة الحقيقة كهيئة عليا، وتبنتها كل الأنظمة الفلسفية بصيغها المختلفة، وأخذت تنساق خلف هذه الإرادة وتراكم المناهج والآراء حولها، دون أن تنتبه إلى المفاعيل الخفية والعكسية التي كانت تعمل في الخفاء، وتخترق في صمت تام مجمل تاريخها، وبالتالي استبعدت مشكلة الحقيقة كعنصر مطرود ولا مفكر فيه، مما أدى إلى إقصاء كل مساءلة نقدية بخصوص قيمة وأصل الحقيقة.

فنيته يقرأ إرادة الحقيقة بطريقة ساخرة ليعبر عن رأيه، حيث يعتبر أنها تعني تجنب الكذب والخديعة، غير أن ما اعتبر خديعة لدى الفلاسفة هو شهادة الحواس وتجربة الجسد، مما يجعلهم يرون أن الحياة مليئة بالخداع والتشويش، وبالتالي يعتبرون أن الفلسفة تسعى لكشف هذا الخداع الذي يعيقهم من معرفة الحقيقة، فمن يريد الحقيقي إنما يريد بدءاً إدانة الحياة بوصفها خطأً والعالم بوصفه مظهرًا²، ولذلك ما يمكن ملاحظته أن الأخلاق هي التي تكمن خلف الحقيقة، وهذا واضح في لفظ الخداع فهو مفهوم أخلاقي بالأساس.

ولذلك مما يؤاخذ نيتشه على معظم الفلاسفة هو تقديمهم للحقيقة خارج سياقات الحياة الواقعية والتاريخية، فنحن نعيش ونستمد شروط حياتنا من هذه السياقات، وعندما يتخيل الفيلسوف الحقيقة بمعزل عن هذه السياقات، فإنه يخلق عالماً وهمياً لا يمكننا العيش فيه، وهذا يثير تساؤلات حول ما إذا كانت إرادة الحقيقة ستكون موجودة إذا تمت إزالة الحواجب التي تحجبها؟

بعد أن استكشف نيتشه جذور قيمة إرادة الحقيقة، وصل إلى استنتاج أن الميتافيزيقيين يعتمدون على التعارضات المطلقة، بدون أن يدركوا وجود روابط عضوية^{*} بينها، لم يتبادر إلى أذهانهم أن إرادة الحقيقة قد تنبع من

¹ - Nietzsche Friedrich, **Le Livre du philosophe**, Trad: Angèle Kremer-Marietti, Tome II, sans édition, Garnier Flammarion, Paris, 1991, p123.

² - Simha André, **Pour connaître Nietzsche**, sans édition, Edition Bordas, Paris, 1988, p66.

* - يستعرض نيتشه في شذرة بعنوان "تاريخ خطأ" من كتابه "أفول الأصنام" كيف تغيرت أدوار دلالة العالم الحقيقي، في بداية الأمر طرحت فكرة العالم الحقيقي، باعتبار أن الحكيم الفاضل بإمكانه أن يصل إلى إدراكه (أنا أفلاطون أنا الحقيقة)، ثم تغير الدور لتصير أكثر مراوغة، مسيحية، فالعالم الحقيقي لا يدرك، لكنه موعود للحكيم، المتدين، صاحب الفضيلة الذي كفر عن خطئه، ثم تتطور إلى أن تصير منيعة، لا نستطيع إدراكها ولا أن نقيم الدليل عليها ولا الوعد بها، لكنها شرط وجود، أمراً قطعياً كما وصفها كانط. (أنظر: نيتشه فريدريك، **أفول الأصنام**، مصدر سابق، تاريخ خطأ، ص 33).

إرادة الخداع! الفيلسوف لم يكن قادرا على تحويل معرفته بالحقيقة إلى اعتراف بخطيئة معاداة الخداع والكذب، ولذلك رأيانهم يخترعون عالما علويا مثاليا تنبع منه الحقيقة، دون أن يكون له أي علاقة بالعالم الواقعي.

إذن يمكن أن نستنتج أن نيتشه لا يهتم بتاريخ الحقيقة بقدر اهتمامه بتاريخ إرادات الحقيقة، باعتبار أن إنتاج الحقيقة لا يمكن فصله عن القيمة والقوة، حيث تعتبر القيمة علامة تشير إلى إرادة معينة ونمط حياة، ويعتبر النقد تفكيكا لهذه العلامات، حيث يؤول النقد الجينالوجي القيم كرموز وعلامات لدوافع خفية، وهذه العلامات تشير إلى توجه أصلي لهذه الدوافع قد يكون منحطاً¹.

فالحقيقة إذن تكمن في علاقتها بالسلطة، حيث تنشأ نتيجة لصراع القوى وتدخلها في علاقات متنوعة تتسم بالصراع والهيمنة والسيطرة، فالواقع مليء بالصراعات التي لا تنتهي، وعندما تتقابل أفعال مختلفة ينشأ صراع القوى، فتتزع كل قوة إلى الهيمنة، لذا فإن إقامة تاريخ للحقيقة دون النظر إلى صراع القوى يعتبر أمراً عبثياً.

في الواقع الحقيقة ليست سوى نتيجة لقوة معينة تفوقت على قوة أخرى، يمكن أن تتغير الحقيقة وتتحول في يوم ما إلى شيء يتعارض معها في يوم آخر، تاريخ الحقيقة يظهر لنا أنه لا توجد حقيقة ثابتة أو أزلية، الحقائق متعددة في التاريخ بناء على تعدد القوى التي تشكلها وعلى نمط العلاقات بين تلك القوى، عندما نراقب في التاريخ كيف انتصرت قوة على أخرى، وكيف تم التحكم في الصراع بينهما، ندرك لماذا تم تغيير مكانة حقيقة معينة واعتبارها صحيحة على حساب ما تم استبعاده كخطأ، الحقيقة تتلازم مع السلطة، فالسلطة هي التي تشكل المعنى.

ثانياً: الثقة في اللغة

الفلاسفة يثقون في اللغة وقدرتها على فهم جوهر الأشياء، حيث يعتقدون أنها ستتمكنهم من امتلاك العالم بواسطة الدلالات المصاغة، لذلك يرون أنهم يستطيعون التعبير عن المعرفة العميقة للأشياء باستخدام كلمات مثل "الأنا" و"الروح" و"العالم الحقيقي"، وبالتالي يعتبرون اللغة أساسية للوعي ويقومون ببناء عوالمهم الخاصة داخلها، ويعتمدون عليها ليسيطروا على العالم الخارجي.

¹ - Haar Michel, *Nietzsche et la métaphysique*, Op. cit, p35.

على مر العصور كان الإنسان يعتقد أن المفاهيم والأسماء التي يستخدمها هي حقائق ثابتة ودائمة، ونتيجة لذلك كان يمنح نفسه تلك الكبرياء الذي سما بنفسه بها على مرتبة الحيوان¹، كان يعتقد بجديّة أنه يمكنه اكتساب المعرفة بالعالم من خلال اللغة، ولم يكن صانع الكلام على قدر من التواضع كي يفكر بأنه إنما كان يمنح الأشياء مجرد تسميات، بل كان يتصور أنه يعبر عن العلم الأرقى بالأشياء من خلال الكلمات.

منذ زمن بعيد كانت محاورّة كراتيليوس لأفلاطون تركز بشكل أساسي على موضوع أصل اللغة، كانت تهدف إلى تقديم نظرية "محاكاة" الاسم "للطبيعة" المسماة، وتأكيد اعتراضها على فرضيتي الطبيعة والاصطلاح التي كانت سائدة في عصرها بين الفلاسفة، بدأت المحاورّة عندما سأل هرموجينس سقراط بأنه يريد أن يخبره أن صديقه كراتيليوس كان يناقش موضوع الأسماء، ويقول إنها طبيعية وليست اصطلاحية².

إذن يقدم نص المحاورّة تعريفاً مختلفاً عن المفهوم الحديث لمبدأ الاصطلاح، أي أن الاسم هو ما يتم الاتفاق عليه الشخص ليطلقه على أي شيء، ومع ذلك يقوم سقراط بنفي هذا المبدأ ويستنتج أن الأسماء يجب أن تُطلق وفقاً لعملية طبيعية وليس بناء على رغبة الشخص، وبهذه الطريقة سُنطلق على الأشياء أسماءها الصحيحة.

بمعنى آخر كيف نعرف طبيعة الأشياء؟ بالاعتماد على الأسماء التي هي بمثابة انعكاسات لها؟ أم نعرفها بالرجوع إليها في ذاتها؟ والجواب الذي ينتهي إليه سقراط، هو أن المصدر الحقيقي لمعرفة الأشياء هو الأشياء ذاتها، أي المثل، وليست الأسماء إلا مجرد صور أو رموز لها³.

نيتشه لا يعتمد في أصل اللغة على الإيمان بالمثل أو جواهر الأشياء كما يفعل سقراط، بل يربطها بسيكولوجية الإنسان الخالق وطبيعة إرادته، ويكتشف القوى الفاعلة فيها وشروط تكوينها، حيث لا يُولى اهتماماً كبيراً لما تحمله الكلمات من معاني، بل يُركز على من يمتلك سلطة الكلام، وبالقوى التي تتصارع في اللغة من خلالها، أي القوى التي تمتلك سلطة التأويل والتي تمنح الأشياء معانيها.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human**, Op. Cit, §11, P22.

² - أفلاطون، محاورّة كراتيليوس: في فلسفة اللغة، ترجمة: عزمي طه السيد أحمد، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، عمان، 1995، ص91.

³ - Platon, **Cratyle**, Trad: Catherine Dalimier, sans édition, GF-Flammarion, Paris, 1998, p39.

فالإنسان بالنسبة له هو كائن مجازي يمتلك القدرة على إنتاج الاستعارات، والاستعارة هي الانتقال من مجال إلى آخر عن طريق التناظر والتشابه، ومن ناحية أخرى يتطور الوعي بشكل متزامن مع تغير اللغة تحت ضغط الحاجة للتواصل، فاللغة المشتركة توحد التأثيرات بين الأفراد، مما يجمعهم حول نفس الاهتمامات والتجارب لإعطائها صفة العمومية والحفاظ على التشابه¹، وبهذا يجسد المفهوم مبدأ الانتقال من الاختلاف إلى التشابه (التطابق)، ومن التعدد إلى الوحدة، مغيرا في الوقت نفسه الخطط الاستعارية للعلية والماهية².

وبما أن الحقيقة تعبر عن نفسها من خلال الاستعارات، والاستعارة تخفي المعنى الحقيقي الذي تحمله، فإن التأويل يقضي بعدم الثقة بظاهر الأسماء، بل يجب التفكير في المعاني العميقة التي تحملها، فالتسميات تقوم بتجميع مجموعة من الأفعال المتنوعة تحمل نفس الصفات وتقدمها بشكل متماثل، على سبيل المثال مفهوم النزاهة³ يشير إلى مجموعة من الأفعال المختلفة التي تتشابه في صفاتها، ولكن تم وضعها معا كمتماثلة، وبهذه الطريقة تصبح جميعها تشير إلى معنى واحد.

تعود عملية محو الفروق بين الأشياء في تكوين المفاهيم إلى نسيان الخصوصيات التي تميز كل إنسان عن الآخر، يختار البعض من هذه الخصوصيات ويتركها البعض الآخر، مما يؤدي إلى حالة من عدم التوافق بين المفهوم وطبيعة الشيء، ولذلك عندما نفكر في أي شيء ونعبر عنه باللغة، فإننا نحدث تشويها له.

إذن تثبت اللغة بواسطة مفاهيمها الصبورية، وتقلل من تنوع الأشياء وثرأها وتلغي الفروقات الجزئية، فهي أداة للتعميم والتوحيد وبالتالي تحرف الواقع، لأنها غير قادرة على التعبير مثلما تتوهم ذلك، بل أدوات التعبير اللغوي غير قادرة على التعبير عن الصبورية، إنها نتاج استعارات وشروط حيوية⁴.

هكذا إذن يعتقد نيتشه أن الفلسفة من سقراط إلى وقتنا الحاضر تستتر على أن اللغة مجازية بطبيعتها، حيث أن جميع الفلسفات تستخدم لغة مجازية متغيرة على الرغم من ادعائها بالعقل، مما يتم كبت هذه اللغة باستمرار،

¹ - Nietzsche Friedrich, **Le Livre du philosophe**, Op. cit, Tome III, §1.

² - Sarah Kofman, **Nietzsche et la métaphore**, Op. cit, p59.

³ - Nietzsche Friedrich, **Le Livre du philosophe**, Op. cit, Tome III, §1.

⁴ - نورالدين الشابي، نقد نيتشه للحدائثة، مرجع سابق، ص 215.

ولذلك يبدو أنه يؤيد النزعة السفسطائية التي تؤكد على الموازنة*، ويبدو أنها كانت أقرب إلى الحكمة والصواب من خلال اعترافها الضمني بما نفاه سقراط، أي أن الفكرة دائما مرتبطة بالحيل والأدوات البلاغية والخطابية.

انتهى نيتشه إلى التشكيك في وجود حقائق مستقلة عن اللغة، وقد أشار آلان بوير Alain Boyer إلى صحة هذا الرأي، حيث عبّر عن دهشته من كيفية اعتراضنا على حجة قديمة قدمها السفسطائيون، والتي تقول إن اللغة ليست طبيعية، فعلاقة الكلمات بمرجعياتها ليست ضرورية، وبالتالي لا توجد حقائق في ذاتها¹.

لا يرى نيتشه في هذه المفاهيم سوى مجرد كلمات ابتدعها الفكر، لذلك يرى أنه لا يمكننا الاعتقاد بالقيم الأزلية والصور السرمدية والنفوس الخالدة كما كان يعتقد أفلاطون وليبنتز، بل يشير إلى أننا يجب أن ننظر إلى جميع المفاهيم في صيورتها، ونعتبر أن معظمها في طريق التكوين، وأن الكلمات مثل الوجود والجوهر والمطلق والذاتية والشيء هي مجرد إطارات ابتدعها الفكر وجمّد فيها عالم الصيرورة².

من ناحية أخرى يرى نيتشه أن الفلسفة الحديثة تشابه الفلسفة التقليدية في الاعتقاد بأهمية اللغة كوسيلة لوصف حقائق الأشياء، على سبيل المثال، يزعم ديكرت وجود كائن مفكر ثم يعتقد أن هذا الكائن هو الأنا، إنه الاعتقاد بأن التفكير فعالية يجب أن نبحث لها عن فاعل، بينما في الحقيقة أنها لا تفعل سوى تكوين كلمات، فمفهوم الأنا المفكر هو مجرد كلمة تنشأ من الثقة في النحو، لذا يحذرنا نيتشه من الاعتقاد في اللغة، حيث يشير إلى أنه من الأفضل للفيلسوف أن يتجاوز الإيمان بالنحو³؟

كما يحذرنا أن يكون هذا الأخير الضامن لاستمرار وبقاء فكرة الإله وفكرة العقل كجوهر يفكر، لذلك يعلن: "العقل في اللغة، آه! يا لها من امرأة عجوز مخادعة!"⁴، لذلك يخشى نيتشه من أننا لن نتخلص من الرب

* - يقترب نيتشه من النظرية الإسمية Nominalism في فلسفة اللغة، التي ترجع المعاني الكلية إلى مجرد أسماء، ومن بين ممثلي هذه النظرية نجد روسلان، وأوكام، وهوبس، وكوندياك، الذين أنكروا وجود الكليات واعتبروها مجرد أسماء، فالكليات في نظرهم ليست موجودة في العقل كما يعتقد التصوريون، ولا هي متحققة خارج العقل كما يرى الواقعيون، بل هي مجرد أسماء أو ألفاظ أو أصوات. (أنظر: سعيد جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، مرجع سابق، ص45).

¹ - Boyer Alain et autres, **Pourquoi nous ne sommes pas nietzschéens**, sans édition, Le collège de philosophie, Grasset & Fasquelle, Paris, 1991, p21.

² - Nietzsche Friedrich, **Fragments posthumes XI**, Op. cit, p345.

³ - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. cit, The Free Spirit, §34, P50.

⁴ - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, La raison dans la philosophie, §5, p29.

بسبب إيماننا بالنحو، هذا يؤكد أزمة الحداثة الفلسفية، حيث مات الإله ولكن ظلالة حاضرة في اللغة، في مفاهيم العالم الحقيقي والذات والموناد والروح والسبب والجوهر.

قامت إرادة الفلاسفة بابتكار مقولات ومعاني لكبح جماح الفكر والتغلب على العالم الحسي، حيث نسجوا معاني دقيقة تهدف إلى عدم ترك أي هدف أو علة، وابتكروا مفاهيم النفس والروح الخالدة لمواجهة الأسئلة الجادة حول الحياة، المفهوم الذي ابتكروه ليس دقيقا إلا فيما يجمع ويختزل الأشياء في قوالب متطابقة تسعى لتجنب الانفصال.

لذلك يدعونا نيتشه إلى التفكير في الجهات التي تقف وراء الألفاظ والقوى التي تستخدمها وتروج لها، إنه يحثنا على ممارسة جنياولوجية لفك شفرات العبارات والبحث عن الدوافع الحقيقية، لذا يرى أن أفضل طريقة لفهم أوهم الميتافيزيقا هي اللغة نفسها، حيث يتحول الجنياولوجي إلى فقيه لغوي يلاحق الوهم في النصوص الميتافيزيقية من خلال التأويل، الذي يرى في العلامات مجرد رموز تم تشويهها تاريخيا بواسطة الحقيقة، وتم فصلها عن ظروف تكوينها، مما يجعل من التحقيق في أصل هذه الرموز خطرا على الميتافيزيقا التي تعتمد على "الإيمان بثبات المفاهيم والرموز"¹.

إذن تعتبر اللغة نتاجا لقوى متصارعة ومتحركة ومتفاضلة تنتج المعنى، وبناء على ذلك تُعتبر التقويمات كتسميات تطلقها الطبقة العليا في المجتمع، وهذا يعني أن اللغة تعتبر إبداعا للقوى الرئيسية في المجتمع، أي الأقوياء الذين يحكمون وينهون، بينما يُعتبر الضعيف كل أفعاله وأقواله مجرد إرادات فعل، حيث لا يبتكر اللغة ولا يضيف شيئا جديدا إلى عالم الدلالات، بل يستولي على لغة الأقوياء ويقلب دلالاتها لصالحه، مما يجعله ينتصر على الأقوياء.

نتائج الفصل:

اعتبر نيتشه أن المجال اللاهوتي هو الأنسب لقراءة الفلسفة، حيث يجب فهم الميتافيزيقا ليس فقط في سياق تاريخها، ولكن أيضا في علاقتها بتاريخ القساوسة الذين يدعون باستمرار أنهم يتحدثون من عمق الأشياء.

¹ - Rey Jean-Michel, "La généalogie nietzschéenne" in, Histoire de la philosophie, vol.6, sous la direction de François Châtelet, La philosophie du monde scientifique et industriel, Hachette, Paris, 1973, p156.

منذ بداية ظهور الفلسفة مع سقراط وأفلاطون، كانت تتخذ شكلا كهنوتيا، حيث كانت تستعير قناع الكاهن وتحتبئ وراء مثله الزهدي، ومع ذلك كان هذا الارتباط ليس نتيجة لحاجة داخلية، بل كان مرتبطا بالشروط التاريخية والاجتماعية التي أدت إلى ظهور الفلسفة، فقد كانت تحتاج إلى هذا القناع كما يحتاج الطفل إلى الماسكة التي تمنعه من الوقوع أثناء تعلمه المشي، لتتمكن من خطواتها الأولى.

أدرك نيتشه أن إرادة العدم التي كانت تسيطر على اللاهوت، هي نفسها التي تسيطر على الفلسفة، فالفلاسفة ليسوا منزهين عن المثال الزهدي، ذلك الذي يهدف إلى تقليل قيمة الحياة والمحسوس والغرائز، والبحث عن عوالم أخرى والشعور بالراحة في العدم.

يهدف التأويل الفلسفي مثل التأويل اللاهوتي إلى إقامة الترتاب في الطبيعة البشرية، حيث يتم وضع النفس في الموقع الأعلى والجسد في الموقع الأدنى، وبالتالي فإن أولى الصفات التي يجب أن يتمتع بها كل فيلسوف هي إعلان الكراهية والعداء تجاه أي نوع من أنواع الشهوة من جهة، وأن يظهر اهتماما حقيقيا بالزهد من جهة أخرى، ولا يكون الإنسان فيلسوفا إلا بهما.

اللاهوت ليس الشكل التأويلي الوحيد الذي خلق العالم الآخر، بل هناك عالم آخر ميتافيزيقي يولد بعد اختفاء الهديان الديني الذي خلق إحساسا بالحرمان والفراغ، وهكذا ما إن يجد المرء مفرا لنفسه من فكرة العالم التي فرضتها الأديان، حتى يجدها في الفلسفة مرة أخرى على صورة أدق وأكثر إقناعا، محاطة بإطار منطقي دقيق يجعلها أكثر خطورة من ذي قبل، إنه عالم المثل أو الأفكار أو الشيء في ذاته، وله ثبات ونقاء لن تجد لهما في عالمنا نظيرا.

نيتشه لا يرفض العقل تماما، بل يرفض الدور الذي لعبه العقل في الفلسفة، حيث تحول إلى سلطان يمارس الاستبعاد والتهميش للجسد والعواطف، في حين أن استعماله المشروع يقتضي أن يستعمل بمعية الغرائز، ليعملا معا بتناغم ويؤديا دورهما بشكل سليم.

يعتقد نيتشه أن الحقيقة لم تكن مشكلة مطروحة في تاريخ الفلسفة، بل كان الأمر مسلما بها، وكانت مهمة الفيلسوف هي البحث عنها، ومع ذلك يجب أن تتغير مهمتنا الآن من خلال وضع قيمة الحقيقة تحت المناقشة، يجب أن نسأل من يبحث عن الحقيقة وماذا يريد منها وما هو نموذجها وما هي إرادة القوة الخاصة به؟

الفصل الخامس:

القيم الأخلاقية صناعة بشرية

المبحث الأول: أخلاق السادة وأخلاق العبيد

أولاً: أخلاق السادة

ثانياً: كيف تنشأ أخلاق العبيد؟

المبحث الثاني: الأخلاق السائدة هي امتداد لأخلاق العبيد

أولاً: الفلسفة الأخلاقية

ثانياً: الأخلاق المسيحية

نتائج الفصل.

لم يكن نيتشه مهتما بالأخلاق إلا بعد أن أدرك أنها تشكل أساسا لرؤيتنا لأنفسنا وللعالم، فهي تنشأ عن موقف الفرد تجاه الأشياء وتعتمد على طبيعته وحالته النفسية والفيزيولوجية، أو تكون ناتجة عن اتفاق مجموعة من الناس على تحديد قيمة معينة لشيء ما من أجل الحفاظ على أنفسهم، إذن فهي تعتمد على الإنسان الذي يضيف على الكون كل ما فيه من معنى، وليس لها خارج الفاعلية الإنسانية أي كيان واقعي، ومع ذلك يعتقد أنه قد اهتدى إلى ذلك المعنى فحسب، وهذا ما أشار إليه نيتشه عندما اعتبر أن الناس هم من ابتكروا مفهوم الخير والشر لأنفسهم، ولم يتلقوا هذه القيم من مصدر خارجي¹.

لكن لما كانت إرادة القوة هي العامل المحرك للأفعال البشرية، فإن القيم يمكن أن تكون نتيجة لقوى فاعلة أو ارتكاسية، في الحالة الأولى تعبر القيم عن الشفاء والصحة، بينما في الحالة الثانية تعبر عن المرض والانهيار، لذا يتبين لنا أن إرجاع القيم الأخلاقية إلى الإنسان، في واقع الأمر دعوة صريحة كي يمارس فاعليته على أوسع نطاق ممكن، فلن يقف في وجه هذه الفاعلية شيء إذا تبين أن العالم لا يحمل معنى ثابتا، وأن في وسع الإنسان أن يضيف عليه بمجهوده الخاص من المعاني ما يريد.

المبحث الأول: أخلاق السادة وأخلاق العبيد

بداية يجب أن أشير إلى التحوّل الجذري في وجهة نظر نيتشه تجاه موضوع الأخلاق، هذا التحوّل يتمثل في التخلي الكامل عن التفكير في نظرية الأخلاق، والتركيز بدلا من ذلك على واقع الأخلاق، "في الماضي كان الناس يحاولون إثبات عدم وجود إله، أما اليوم فنحن نبين كيف نشأ هذا الاعتقاد وكيف اكتسب وزنا وأهمية"²، هذه العبارة تنطبق على كل ما يتعلق بمكانة الألوهية والقداسة في نفوس الناس، مثل القيم الأخلاقية، وبكفي أن نبين أن لهذه القيم أصلا تاريخيا، ليكون ذلك دليلا قويا على عدم وحدتها وثباتها.

¹-Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Première partie, Mille et un buts, p82.

²- Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre premier, Op. cit, §95, p103.

إذن لم يكن نيتشه يقتصر على التعبير عن ما يتمناه من القيم الأخلاقية، بل كان يتحدث من وجهة نظر الواقع، وكان يحاول الإجابة بطريقة الباحث العالم وليس بطريقة المتأمل الحالم، عن السؤال الأساسي: من يقوم بصنع القيم الأخلاقية؟ خلال استكشافه لمختلف الأنظمة الأخلاقية التي سادت العالم في الماضي أو التي لا تزال سائدة حتى الآن، لاحظ نيتشه وجود سمات مشتركة تتكرر بانتظام، وفي النهاية توصل إلى استنتاج وجود نمطين رئيسيين مختلفين بشكل جذري في الأخلاق: "أخلاق للسادة وأخلاق للعبيد"¹.

أولاً: أخلاق السادة

يقدم نيتشه نموذجاً أخلاقياً يُعرف بـ "أخلاق السادة"، وهو نظام أصيل يتميز بأنه يعكس أخلاق الأقوياء، تتضمن هذه الأخلاق صفات مثل الشجاعة والإقدام والجرأة والاستقلال والاعتماد على النفس، بالإضافة إلى تمجيد الذات ومواجهة الألم والمخاطر، من خلال هذه الصفات يصبح الإنسان قوياً، وهو ما تسعى إليه الحياة، القيمتان الأساسيتان في هذا النظام الأخلاقي هما "الحسن والسيء"²، حيث يتجلى التقابل بينهما بشكل مشابه للتقابل بين النبيل والحقير.

ما يُميز القيمتين المتقابلتين هو أنهما لا تعبان بمجرد كون الفعل (حسناً)، بل يكون مقياس أخلاقيته هنا هو أن يعبر عن روح القوة والصحة والشعور بالامتلاء، حيث يضيفي الفعل هنا مجداً على الأشياء، لأنه هو خالق القيم، وإذا كان الخير ينبع منه، فإنه لا يكون رد فعل من الخوف أو الإكراه أو الضغط، بل يكون نابعا من إحساس قوي بالوفرة والامتلاء والقوة الفياضة الباذلة.

كما أنه يُسمى (السيء) هو الذي يحتل مكانة أدنى منه، ويخضع له من جناء وخائفين وصغار النفوس والحريصين على المنفعة الضيقة، والشيء الذي يحتقره أكثر هو الكذب، حيث يعتبر العامة كذابين، وهذا هو اعتقاد الأرستقراطيين جميعاً³، وبالتالي تقع أحكام القيم الأخلاقية على الأفراد وليس على الأفعال التي يقومون بها.

¹ - نيتشه فريدريك، ما وراء الخير والشر: تبشير فلسفة للمستقبل، ترجمة: جيزيلا فالور حجار، مراجعة: موسى وهبه، الفصل الأول، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، 2003، ما النبيل؟، فقرة 260، ص 247.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - المكان نفسه.

أطلق الأسياد على أنفسهم لقب النبلاء، لأنهم يرون أنفسهم في مرتبة عليا بسبب التفوق في القوة والسيادة، ولكن لماذا يشعر الأسياد دائما بأنهم هم النبلاء؟ يعزو نيتشه ذلك إلى الطبيعة* الخاصة بهم، ففي طبيعتهم ما يجعلهم يشعرون بأنهم هم النبلاء وأنهم ينتمون إلى مرتبة رفيعة تعبّر عن التفوق.

لذلك كان للسلادة حق في تسمية القيم بالأسماء التي تعكس سيادتهم وقوتهم، حتى وصلت اللغة إلى أن تكون تعبيرا عن سلطتهم، فالنبل هو الشعور بالفارق العميق والدائم بين الطبقات الاجتماعية، حيث يشعر السيد بالتفوق على العبد، هذا الفارق هو جوهر التناقض بين النبيل والحقير، الحسن والقبيح، أصبح التقويم الأخلاقي موجودا في هذا التناقض، في سلسلة من الثنائيات.

يبدو أن التقابل بين المفاهيم ليس تقابلا موجودا في أصل الكلام، بل يعود إلى وضع الأسياد الذين استحوذوا على حق وضع الكلام بناء على تراتبية المجتمع وتباين المراتب والدرجات، فإحساسهم بالترفع والعلو جعلهم يضعون مسافة لغوية بين النبيل والوضع، مما يعكس غرور حكمهم ويتماشى مع المسافة الاجتماعية بين الأسياد والعبيد.

إذن لا تكون القيم موجودة في حد ذاتها، بل من يستخدمها هو من يمنحها قيمتها، لذلك فالسلادة والأقوياء هم مصدر التشريع الأخلاقي، باعتبارهم أحرار وأصحاب إرادة قوية، يتخذون من أنفسهم مرجعا للحكم على الآخرين، إنهم أصحاب الجنس النبيل الذين يعرفون كيف يتحدثون وكيف يصمتون، يجلون كل ما هو صارم وقاسي، لذلك يمتلكون السيادة على أنفسهم وعلى العالم، لأنهم أحرار وشجاعان وأقوياء، إنهم يعتبرون أنفسهم المشرّع الأول والأخير، وإليهم يرجع القرار، وهم من يملكون القدرة على تقويم الأمور، وتسمية الأشياء وفق مسمياتها.

* - ومثال ذلك النبلاء الإغريق الذين كانوا يلقبون أنفسهم "بالحقّانيون"، وهم الذين كان الشاعر الميغاري ثيوغنيس ناطقا بلسانهم معتمدا العبارة اليونانية *ἔσθλος* (esthlos)، تعني هذه العبارة في أصلها واشتقاقها رجلا ذا كيان واقعي أو كائنا بالفعل، أي حقيقيا، ثم صار الحقيقي "حقّانيا"، فصاروا يلقبون أنفسهم "الحقّانيون"، وأصبح هذا المفهوم في هذا الطّور من التحول عنوان للنبالة وشعارا لها، وصار المعنى الكلي لعبارة "النبيل" الذي يتميز عن الرجل العامي "الكاذب". (أنظر: نيتشه فريديريك، في جنياولوجيا الأخلاق، مصدر سابق، المقالة الأولى، فقرة 5، ص 49-50)

ولذلك ظهرت الحضارات الكبرى مثل اليونانية والرومانية والألمانية في البداية من خلال طبقة من الأرستقراطيين الممتازين الذين غزوا كل الأراضي التي مروا بها، عندما واجهوا شعوبا معينة، قاموا بإخضاعهم وفرض سلطانهم عليهم، واحتقروهم وفصلوا بينهم وبين أنفسهم من مسافات، كما أنشأوا طبقة مميزة تميزت عن الرعية المستضعفة، وابتكروا قيما أخلاقية تعزز سيادتهم وتحافظ على سلطتهم وسيطرتهم.

ويشير نيتشه هنا إلى أن القيم الأرستقراطية تعتمد على القوة البدنية والصحة الجيدة، وتشمل الاعتماد على الحرب والمغامرة والصيد والرقص والألعاب والتمارين البدنية، وبشكل عام كل ما يتطلب نشاطا قويا وحيوية مرحلة¹. فالأرستقراطي يستمتع بالغزو ويعتز بقوته، ويكون قاسيا على نفسه وعلى الآخرين، ويحتقر الرحمة ويمقت الضعف، ويغض الكذب والتملق والنفاق، ولا يتسامح ولا يعترف بالحلول الوسطية والمساومة والتفاوض²، ومع ذلك يميل إلى مساعدة البائسين ليس لأنه يشعر بالرحمة، بل لأنه يستخدم قوته بشكل زائد، فيرى نفسه ملزما بمساعدة الآخرين، ومع ذلك لا يقبل أبدا العفو من الآخرين، لأنه بقوته يأخذ ماله دون أن ينتظر حتى يتفضل به عليه الآخرون.

وبالرغم من كون هذه الطائفة الأقلية دائما، إلا أنها تبذل قصارى جهدها للحفاظ على صفاتها والبقاء نقية، لا تتطرق إليها العدو باتصالها بشعوب أخرى مسودة، إنهم يتعدون تماما عن القيم الأخلاقية التي تؤكد على الرحمة والعطف³ كعلامة على القيمة الأخلاقية، ولذلك يولون اهتماما كبيرا للتربية وكل ما يتعلق بحياة الأسرة لضمان استمرارية السيادة والبقاء.

ثانيا: كيف تنشأ أخلاق العبيد؟

كما أشرنا سابقا يعتبر الأرستقراطيون الضعفاء ميدانا لإظهار سيطرتهم وتفوقهم، حيث يتسم سلوكهم بالازدراء والاحتقار تجاه هؤلاء الضعفاء، فهل يمكن للضعفاء أن يتقبلوا الوضع الذي فرضه عليهم الأرستقراطيون الذين يعتقدون أنهم مؤهلون بطبيعتهم للسيطرة؟

¹ - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, première dissertation, §7, p31.

² - بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 511.

³ - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. cit, What is noble, §260, P229.

كلا، بل يسعون للتمرد عليها للتخلص منها، ونظرا لضعفهم وعجزهم عن مواجهة الأرستقراطيين بقوة، يقومون بتحريف* القيم وتصويرها بشكل معاكس للواقع (ضعفهم يوّلّد فيهم شرا كامنا)، فيعتبرون "شرا" ما يراه الأرستقراطيون "حسن" والعكس صحيح.

إذن ينبغي أن تكون صورة الرجل "الخير" ضمن نمط العبيد الفكري، كإنسان ذو حمل وديع ومسلم، طيب القلب، ولا يشكل خطرا، ولا يسعى إلى الغزو أو السيادة، بل يروّج للضعف والتعاطف والرحمة كقيم أخلاقية عظيمة، بينما في نظرهم "الشرير" هو الذي يثير الخوف ويسيطر عليهم، فالشر يمثل القوة والبطولة والصفات النبيلة التي يتميز بها الأرستقراطي والتي تجعله متفوقا وسيدا.

لذلك تسعى الأكثرية الضعيفة إلى إنشاء مبادئ تتناسب مع قدراتها المحدودة، حيث تنتشر روح الشفقة والتعاطف والمساواة، وتعتبر هذه الصفات على أنها علامة على ضعف الفرد وحاجته للاعتماد على الآخرين، وهنا يظهر الخوف والإلزام والعقاب، فالشر هو ما يثير الرعب، والخير هو ما نلجأ إليه لتجنب ذلك الخوف، ولذلك يشير نيتشه إلى أنه كلما كانت الغلبة لأخلاق العبيد، كلما أظهرت اللغة نزوعا إلى التقريب بين اللفظين خير وغيي¹.

ولما كانت أخلاق العبيد تعتمد على الأغلبية العاجزة في مواجهة الأقلية الرفيعة، فإنهم يولون اهتمامهم للجماعة دائما، مما يؤدي إلى اختفاء الروح الفردية فيهم، وبالتالي فإنهم لا يمثلون سوى "غريزة القطيع في الفرد"²، فالفرد هنا لا تقاس قيمته إلا من حيث هو وسيلة من أجل الجماعة، والفردية في هذه الحالة تعتبر خروجاً عن شريعة المجتمع، والسعي نحو تعزيز الذات يُعتبر بمثابة الشر، ولذلك يصف نيتشه هذه الحالة بأنه ليس هناك إلا قطيع واحد، حيث يتجه الناس جميعاً نحو رغبة واحدة، المساواة سائدة بين الجميع، ومن يختلف شعوره عن شعور المجموع يسير بنفسه مختاراً إلى مأوى المجانين³.

* - يعتبر نيتشه أنه قد حدث تحول أساسي في التاريخ البشري من نمط تفكير أصلي الذي كان عند الأرستقراطيين (الحسن والسيء)، فيصبح التقابل الأخلاقي بين (الخير والشرير) فهو ذو أصل آخر.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. cit, What is noble, §260, P231.

² - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Troisième, Op. cit, §116, p171.

³ - Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Première partie, le prologue de zarathoustra, §5, p19.

بناء على ذلك يمكننا تحديد مشكلتنا بشكل أوضح، فنقول أن الضعفاء يخشون سطوة الأقوياء، ويغضون كل ما هو رفيع ومتميز عن المستوى العادي للمجتمع، لذلك يبتكرون نظاما أخلاقيا يهدف إلى تقليل هذه السيطرة والقضاء على أي امتياز طبيعي، ويدعون إلى الرحمة والتعاطف والمشاركة وقيم أخرى تهدف في النهاية إلى حماية الضعفاء من الأقوياء بانتزاع مخالبتهم*.

إذن القيم الأخلاقية ليست بالخيّرة أو الشريرة بحد ذاتها، بل هي نتاج تأثير البشر الذين أضفوا عليها هذه القيمة، إنهم الميتافيزيقيون الذين رأوا فيها شيئا ثابتا ومطلقا، واتبعوا جميعا العادات التي درج عليها الفلاسفة، طريقتهم في التفكير تتعارض بشكل جوهري مع التاريخ، وقد أظهر نيتشه سخافة بحوثهم في تحديد أصل مفهوم "الطيب"، حيث يعتقدون أن الأفعال غير الأنانية¹، كانت في الأصل محمودة ومعروفة بأنها طيبة، من قبل الذين كانت تعود عليهم بالنفع والخير، ولكن الناس نسوا أصل هذا المديح وبدأوا يرون ببساطة أن الأفعال التي تخلو من الأنانية هي أفعال طيبة، لأنهم اعتادوا دائما على امتداحها بهذه الطريقة كما لو كانت طيبة بحد ذاتها.

هذا يعني أن القيم الأخلاقية ليست بالدرجة من النقاء التي يتصورها الفلاسفة الميتافيزيقيون، بل هي في الواقع تخدم الجماعات الضعيفة والمحتاجة للحماية، حيث يتم تعزيز وتجميل الصفات التي تساعد في تخفيف عبء الوجود عن كاهل المتألمين، مثل الرحمة، والطف، والصبر، والخنوع، هذه الصفات تُعتبر الأكثر نفعاً، إذ تساعد الأفراد على تحمل أعباء الحياة، ومن هنا يشير نيتشه إلى أن أخلاق العبيد تعتمد أساسا على مفهوم النفع².

* - من هنا اعتبر نيتشه أن الأخلاق هي من صنع الضعفاء فهم عندما يفقدون كل وسائل الصراع و المقاومة، يلجؤون إلى حيلة الأخلاق قلب القيم الأخلاقية الرحمة والإحسان والصبر لكي يحدّوا بها من سطوة الأقوياء، فالضعيف إن فقد وسيلة الأخلاق لم يبق له شيء لكي يبرر به وجوده، فيلجأ إلى المبادئ المثالية و يحتج بها ضد القوي قصد رفع الظلم والجور عليه.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §2, p20.

² - Nietzsche Friedrich, *Beyond Good and Evil*, Op. Cit, What is noble, §260, P231.

تتبع جميع هذه القيم الجديدة التي يبتكرها العبيد من الحقد العميق والمستتر تجاه النبلاء الأقوياء، يتحول هذا الحقد إلى مصدر إبداع للقيم، حيث يسعى هؤلاء العبيد للانتقام من الإهانات التي تعرضوا لها، والتي لم يتمكنوا من الرد عليها في الوقت المناسب*، فيلجؤون إلى أساليب غير مباشرة لتحقيق انتقامهم، ولا يجدون تعويضا إلا من خلال ما يمكن تسميته بـ "انتقام خيالي"¹.

وهنا يتم الاعتماد بشكل ضروري على العالم الخارجي² لكي تتشكل بدلا من الذات نفسها، حيث تحتاج بتعبير فيزيولوجي إلى دافع خارجي لكي تفعل فعلها، أما عندما يتعلق الأمر بتقدير القيم من قبل الأسياد يحدث العكس تماما، حيث ينمو التقدير بشكل طبيعي وبدون جهد، ولا يسعى للعثور على نقيضه إلا لتأكيد ذاته، مع ما يخالف هذا التأكيد من بهجة وتعرف على الذات.

باختصار الأرستقراطي يُقبل على الحياة ويعيش بثقة وصراحة تجاه نفسه، بينما الإنسان الحقود يتجنب الحياة ويشعر بالتشاؤم منها، فهو لا يكون صريحا أو مخلصا تجاه ذاته، وتكون نفسه مريبة وفكره يميل إلى الخبايا والدهاليز والسبل الخفية، يجذبه كل ما يتخفى ويتوارى، حيث يجد هناك عالمه الخاص والراحة التي يبحث عنها، ويتقن فن الكتمان وعدم النسيان والانتظار والتفوق المؤقت.

وقد أوضح نيتشه أن للحقد ثلاث سمات رئيسية وهي: عدم القدرة على الإعجاب والاحترام والحب، والسلبية، فضلا عن إلقاء اللوم على الآخرين وتحميلهم المسؤولية والالتزام المستمر.

بالنسبة للخاصية الأولى، من سمات الحقودين أنهم يُكنون الكراهية لكل ما يبعث في الناس شعورا بالحبة أو الإعجاب، ويصغرون كل شيء بسبب تأويلاتهم السيئة، ويشعرون بالشك والحذر تجاه كل شيء خوفا من الوقوع في الفخ³، وما يثير الدهشة فيهم هو خبثهم ونواياهم الضارة وقدرتهم على التلاعب بالقيم، ولا يحترمون حتى أصدقائهم أو أعدائهم.

* - تتجلى هذه المشاعر في صراع داخلي يعيشه صاحبها، مما يزيد من خطورتها وقدرتها على التدمير، تظل هذه المشاعر في حالة ترقب وترصد، وعندما يُفتح لها أي منفذ، تنطلق بسرعة لتدمر كل ما بناه من قيم، ورغم أن تجمعها بطيء وتكوينها هادئ يكاد لا يُلاحظ، إلا أن تأثيرها يكون سريعا وعنيفا.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §10, p36.

² - Ibid, p37.

³ - Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p134.

فيما يتعلق بالخاصية الثانية، يتجلى الحقد بشكل غريب عند الأشخاص الذين يعانون من العجز والقهر، يظهر الحقد لديهم بشكل مخدر، مما يجعلهم كسالى ومتراخين، حيث يمتنعون عن العمل ويستسلمون للاسترخاء الذهني والجسدي، ببساطة يتبنون ردود أفعال سلبية¹، فالإنسان الحاقدا لا يدرك أهمية المحبة ولا يسعى لها، بل يرغب فقط في أن يحظى بحب الآخرين دون بذل أي جهد من جانبه.

فيما يتعلق بالسمة الثالثة، يرى الشخص الحاقدا أن الاستفادة من الأفعال التي لم يقم بها حقا له، فهو يلقي اللوم على الآخرين بسبب عدم كونه محبوبا، على سبيل المثال، قد يقول: "هذا خطأك"²، عندما يشعر بعدم الحب أو الفشل في تحقيق ما يرغب فيه، يسعى الشخص الحاقدا إلى البحث عن أشخاص آخرين ليحملهم مسؤولية أخطائه.

ندرك هنا الهدف الذي يسعى إليه الشخص الحاقدا، حيث يسعى لجعل الآخرين يظهرون بمظهر سيء ليشعر بالرضا عن نفسه، فالفكرة الأساسية هي: "إذا كنت شريرا، فهذا يعني أنني صالح"³، هذه هي السمة الرئيسية للأشخاص الذين يعيشون في حالة من العبودية النفسية، إذ إن أخلاقهم تعتمد دائما على وجود عالم خارجي يؤكد هويتهم، وعندما يحتاج هؤلاء الأشخاص إلى إثبات ذواتهم، يلجؤون إلى تشويه صورة الآخرين.

من الأمثلة التي يستشهد بها نيتشه لتوضيح تأثير الحقد الذي يتولد لدى العبيد على قيمهم هي مسألة أصل مفهوم "الطيب"، فعلى سبيل المثال عندما تخاف الحملان من الطيور الجارحة الكبيرة، فإن ذلك يعد أمرا متوقعا وليس مفاجئا، ولكن عندما تتحدث الحملان فيما بينها عن هذه الطيور الجارحة وتصفها بأنها شريرة، بينما تصف من يمتلك صفات تتعارض تماما مع هذه الصفات، أي الصفات التي تجعل منه حملا، فإنها بذلك تعتبر هذا الطائر "طييا".

هذه العقيدة الجامدة التي تؤكد على إمكانية تحول القوي إلى ضعيف، والطائر الجارح إلى حمل، ولذلك يحاول البعض تبرير محاسبة الطائر المفترس لكونه كذلك، تحت ذريعة العجز والحقد بقولهم: "نحن نسعى لنكون

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §10, p39.

² - Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p136.

³ - Ibidem.

قدوة للأخيار، حيث الشخص الطيب هو من لا يستخدم العنف ضد الآخرين ولا ينتهك كرامتهم وحقوقهم، ولا يسعى للانتقام بل يترك الأمر لله، إنه الذي يبقى متواضعا وصبوراً وعادلاً مثلنا"¹.

يشبه نيتشه الحذر الذي يظهره العبيد من النوع الرديء بحشرة تتظاهر بالموت عند شعورها بالخطر، لتجنب القيام بما يتجاوز قدراتها، لقد اعتمدوا هذا السلوك الضعيف ليظهروا بمظهر الفضيلة اللامعة، حيث يعرفون كيف ينتظرون ويتحملون ويسكتون، وكأن ضعف الضعيف، بجوهره وأفعاله، وكل واقعه الثابت والحتمي، هو إنجاز حر أو اختيار مدروس بإرادة قوية، أو عمل يستحق الإشادة.

إلا أنهم لا يستطيعون الاعتراف بأن العجز هو الذي وضعها أو حملهم على وضعها، ولا يجرؤون على الكشف عن حقيقة هذه القيم أمام أنفسهم وأمام الآخرين، يقومون بإعادة صياغة الأمور ويدّعون أن هذه القيم هي نتاج اختيارهم الشخصي، وأنهم كانوا في هذا الوضع أحراراً غير مضطرين ولا مكرهين، وبهذه الطريقة يحاولون التمييز بين الفاعل وفعله، وبين السبب ونتيجته، وبين القوة وتأثيراتها².

هنا يقوم نيتشه بتحليل ووصف كيف تكونت المثل العليا التي ابتدعها الضعفاء الثائرون، ويوضح الأدوار التي تمر بها في مصانعهم حتى تخرج مصنوعة جاهزة لفرضها على الناس بعد ذلك، حيث يغوص بعمق في هذا المصنع المظلم ليخبرنا أنه يسمع همسا لا يكاد يظهر، ويبدو أن هناك رقة معسولة تغطي كل صوت، كذبة من شأنها أن تحوّل الضعف إلى جدارة³.

كما نخبرنا نيتشه أن معاني المفاهيم ستتغير تماماً، حيث يتحول العجز الذي يتجنب الاقتصاص بفعل الكذب إلى صلاح وطيبة، وأحياناً إلى صفح عن الإساءة، ويصف الجبن والمسالمات بأنهما صبر، والانصياع لأولئك الذين ييغضون بالطاعة، كما يصف عجزه عن تحقيق الأهداف السامية بالتواضع، وهذا يعني أن قيم العبيد تأتي نتيجة لعجزهم وضعفهم، ومن ناحية أخرى يمكن ملاحظة أن قيم العبيد هي ذاتها قيم السادة، ولكن بصورة مقلوبة تماماً.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §13, p49.

² - عبد الرحمن يدوي، نيتشه، مرجع سابق، ص188.

³ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §14, p51.

إليكم عودة نيتشه مرة أخرى حاملا معه ما يسمعه في تلك المصانع، ويدعونا لفتح آذاننا من جديد لنسمع صوتا يتردد: "نحن معشر الطيبين والعادلين"¹، فالذي يطلبونه لا يسمونه انتقاما بل انتصارا للعدل، وما يكرهونه ليس عدوهم بل الظلم والكفر، ويأملون في انتصار مشيئة الله، وإله العدالة على الكفار، ومن يبقى من أحبائهم على الأرض ليسوا إخوة في الكراهية، بل إخوة في المحبة².

لذلك يقوم العبيد بتحويل القيم النبيلة بقيم تعبر عن الضعف والحقارة والهوان، يتميزون بطبيعة تشبه طبيعة الدودة* الزاحفة على الأرض، بل يدعون أن يؤسهم هو علامة على اختيار الله لهم وتمييزهم، وربما يكون هذا البؤس نفسه محنة وعبرة، وقد يكون سببا لمضاعفة الثواب بفضل عظيم ورضا الله والنعيم الأبدي.

من ناحية أخرى ابتكروا عنصرين جديدين بجانب القيم التي وضعوها، ليبرروا تلك القيم ويحيطوها بالقدسية والرفعة، ويتفوقوا بها على قيم الأرستقراطيين، هذان العنصران هما: أولا إيمانهم بوجود كيان منفصل عن الجسد يُعرف بالروح، وثانيا اعتقادهم بحرية الإرادة وقدرة الإنسان على تجاوز طبيعته وتحويلها بشكل كامل³.

من خلال هاتين الابتكارين تمكن الضعفاء والمضطهدون من إقناع أنفسهم والآخرين، بأن الضعف هو اختيار شخصي وليس شيئا مفروضا عليهم، وأن الأفعال التي يقومون بها نتيجة للظروف وليست علامة على عجزهم، مع مرور الزمن تراكمت التأويلات حول هاتين الابتكارين، بأشكال مختلفة مثل فكرة العقاب والثواب والزهد، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من الحياة والوجود.

إذن يرغب هؤلاء الضعفاء أيضا في أن يصبحوا أقوياء، ولكن يجب عليهم أن ينتظروا ملكهم الذي سيأتي يوما ما، إنهم يتحلون بالتواضع في كل شيء حتى يتحقق ذلك، ولذلك يرون أن وجود الحياة الأبدية ضروري لتعويض الحياة الأرضية التي عاشوها بين الإيمان والرجاء والمحبة، وهذا ما كان يردده المعلم الكبير القديس توما

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §14, p53.

² - عبد الرحمن يدوي، نيتشه، مرجع سابق، ص186.

* - يستشهد نيتشه بمثال يقول فيه: "الدودة المداسة تنكمش على نفسها، إنها عين الفطنة، بذلك تحدد من إمكانية أن تداس ثانية، في لغة الأخلاق يسمى هذا تواضعا". (Voir la: Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, Maximes et pointes, §31, p24.)

³ - بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص512.

الأكويني * (1274-1225) Thomas Aquinas بوداعة الحمل فيما معناه، ليزداد فرح المؤمنين بنعم الله عليهم، ويعبروا عن شكرهم الكبير له على هذه النعمة التي تمكنهم من رؤية معاناة الكافرين¹.

لذلك وصف نيتشه هؤلاء البشر بأنهم يحملون الحقد والكراهية في قلوبهم، ويتمتعون بقدرة على تحويل السواد الداكن إلى بياض ناصع والخبث إلى براءة، لذا يتساءل بدهشة هل سمعتم مثل هذا الكلام من قبل؟ إذا صدقتم ما يقولون، هل تشعرون بأنكم محاطون بأشخاص مليئين بالضغينة؟ يبدو أن رائحة الكذب تنبعث من هذه الصيدلية التي يتم فيها تصنيع المثل حتى تسد الأنوف².

هنا نخبرنا نيتشه إذا نجحت الثورة وسادت هذه القيم، ستنشأ طائفة من المرضى المنحلين والمتحدين مع بعضهم، ومن هنا تنشأ مهمة جديدة وهي المحافظة على هذه الطائفة ورعايتها، حيث تدفع إرادة القوة مرة أخرى كما دفعت العبيد من قبل إلى الثورة، بعض هؤلاء العبيد الذين امتازوا بالحيلة والدهاء وأتقنوا المناورات والكيد، يعملون كرعاة لطائفتهم لحمايتهم من شر الأرستقراطيين، وحراسة القيم التي وضعوها لأنفسهم.

كما يحمونهم أيضا ضد أنفسهم فلا يوجد خلاف داخل الطائفة، ويجب أن يبقوا متمسكين بالقيم التي يعتقدون بها، ينبغي لهم أن يكونوا عدوانيين ومحتقرين لكل قوة وصحة، وأن يناضلوا بحرب شعواء ضد السادة المتكبرين، ولكن هذه الحرب تعتمد على الحيلة والمكر أكثر من المخاطرة والشجاعة.

هذا القس يستخدم كل الوسائل المتاحة له للحفاظ على السيطرة والسيادة على المرضى المتألمين، يظهر أمام الرعية بمظهر الطبيب، ولكنه يحتاج إلى جرح قبل أن يشفي، فيناضل ضد الفوضى وبذور الخلل التي تهدد رعيته، ليس من شأنه شفاء هؤلاء المرضى، بل يمكنه فقط تخفيف الألم مؤقتا.

* - قديس، وعالم لاهوت، وفيلسوف، وشاعر إيطالي، يُعتبر من أعظم المعلمين في الكنيسة الكاثوليكية خلال العصور الوسطى. (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص241).

¹ - فريدريك نيتشه، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، البحث الأول، فقرة 15، ص44.

² - المصدر نفسه، فقرة 14، ص43.

لذلك يُلاحظ أن القس يتمتع بخاصية أساسية وهي فن "نكران الذات"¹، ويسميه نيتشه فنا، لأن القس يستخدم أبلغ الوسائل والتقنيات لإلحاق الضرر وتعذيب النفس، بهدف ترسيخ فكرة في عقول البشرية بأن احتقار الذات يزيد من رفعة وعظمة المؤمن، وأن السيطرة على أي انفعال يُعتبر قمة أخلاقية.

إنه طبيب ماهر يرغب في أن يظل مرضاه يأتون إلى عيادته ولا يرغب في شفائهم، وإذا تعافوا فإنه يعتبر أن القيم التي وضعت قد ضاعت وأصبحوا أصحاء، حينئذ يفقد كل ما يملك من سيطرة عليهم، ومن ثم فلا تجد إرادة القوة مجالا لتحقيقها إذا فقد ميدانها الحقيقي، فإذا أردنا تلخيص قيمة وجود القس بشكل موجز، يمكننا القول: إنه الشخص الذي يحوّل اتجاه الحقّد².

كما يستخدم وسائل عديدة لتحقيق ذلك، منها قمع العواطف الحيوية وإسكات الرغبة في الحياة، واشتغال المرضى بالعمل الروتيني الذي يتضمن تكرار حركات ميكانيكية بانتظام، وإيجاد نوع من السرور، خاصة الذي ينشأ عن الرغبة في إسعاد الجماعة، وأخيرا يلجأ الراعي إلى إثارة الحماس والانفعالات النارية، فهذه الحالات النفسية العنيفة تهضم بسرعة، ولذلك يشير نيتشه إلى أن هذه الوسيلة الأخيرة هي الأكثر خطورة لأنها تزيد من الإصابة بالمرض، بينما الوسائل الثلاثة الأخرى تهدئ المرضى دون تفاقمه³.

هذه هي ثورة العبيد، حيث قلبوا القيم الأرستقراطية رأسا على عقب، وسيطروا بقيمهم الجديدة على القيم النبيلة، وابتكروا وسائل للحفاظ عليها وضمان بقائها وسيادتها.

هذا هو تاريخ الأخلاق عبر العصور الإنسانية، يعكس صراعا بين قيم السادة والعبيد، حيث يسعى كل منهما للهيمنة على الآخر، يتجلى هذا الصراع في مفهومي الحسن والسيء، الخير والشر، وعلى الرغم من انتصار قيم العبيد وسيطرتها في الغرب، إلا أن هذا الصراع ما زال حاضرا بشكل روحي، وقد اعتبر نيتشه أن رمز هذا الصراع مكتوب بحروف بارزة فوق تاريخ الإنسانية، وهو "روما ضد يهوذا، يهوذا ضد روما"⁴.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human**, Op. Cit, §138, p141.

² - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, troisième édition, §15, p166.

³ - نقلا عن: بدوي عبد الرحمن، نيتشه، مرجع سابق، ص192.

⁴ - Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Op. cit, première dissertation, §16, p57.

لكن هذا التقابل الذي أشار إليه نيتشه بين اليهود والرومان، هو تقابل رمزي وتأويلي وليس تاريخيا أو سياسيا، إذ يرمز هذا الصراع إلى معركة الشعوب التي تحركها غرائز الحقد والضعينة، حيث كان الرومان هم النبلاء بينما كان اليهود شعبا من الكهنة، وعلى الرغم من ذلك فقد هُزمت روما عندما تحولت إلى اليهودية، وفقدت قوتها الحيوية في صورة إله ليس من هذا العالم.

لذلك يعتبر نيتشه أن أول تمرد للعبيد في الأخلاق بدأ مع اليهود، حيث قاموا بتغيير سلم القيم الأرستقراطية بشكل كامل، من حسن ونبيل وقوي وجميل وسعيد، إلى خيّر وحقير وضعيف ومشوّه ومحبوب من الله¹، وظلوا يحافظون على هذا التغيير بزيادة مشاعر الكراهية التي لا حدود لها، وهذا التمرد يجر في أعقابه تاريخا طويلا منذ عشرين قرنا.

بعد أن كانت القيم مرتبطة بالقوة والحرب والعنف وغيرها من القيم التي تهدف إلى زيادة طاقة الحياة، أصبحت هذه الأخيرة نفسها مدانة، فجميع القيم أصبحت مرتبطة بالعالم الآخر، حيث أصبح الفقر والضعف واللين والتواضع والرحمة هي أساس التقويم الأخلاقي، وهذا يعني أن ثقافة العبيد ساهمت بشكل منتهج في إفقار الحياة وإلغاء التميّز والإبداع، وفتحت الباب على مصراعيه للمنحطين والمرضى.

كان اليهود يشعرون بالحقد تجاه روما بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له من قبل سادتهم الرومان، وعندما وصل هذا الحقد إلى أقصى مستوياته ثاروا ضدهم، كانوا شعبا يتمتعون بالمكر في مجال الأخلاق، وكان لديهم طبيعة متمردة ضد الظروف التي كانوا يعيشونها، لا مجال للشك في الجواب على من ينحني الناس اليوم، ليس في روما فقط بل في أنحاء العالم، إن الإنسان أصبح مدجنا أو يكاد يكون كذلك في كل مكان، إنهم ينحون أمام ثلاثة من اليهود، ويهودية "يسوع الناصري، بطرس الصيّاد، بولس الذي كان يصنع الخيم، ووالدة يسوع مريم"²، وهذا لا يخفى على أحد.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §7, p32.

² - Ibid, §16, p59.

كل الجهود التي بُذلت ضد الأقوياء والأسياد، لا تُعتبر شيئاً إذا ما قورنت بما فعله اليهود، وفقاً لنيته هذا الشعب الكهنوتي الحقود بلا منازع¹، الذين لم يعرفوا معنى الراحة في صرايحهم مع أعدائهم إلا عندما وصلوا إلى تحويل جذري في جميع القيم، أي عندما نجحوا فعلاً في الانتقام الروحي، وهذا الإنجاز لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة شعب من الكهنة.

ورثت المسيحية راية الصراع ضد السادة، ونجحت في النهاية في القرن الثاني الميلادي، وانتشرت القيم المسيحية في أوروبا والعديد من البلدان الأخرى، واستمرت هذه السيادة على المجتمع الغربي.

ومع ذلك استمر الصراع بقوة ولم يهدأ، فامثل الكلاسيكي والتقويم النبيل لكل شيء شهداء يقظة رائعة ومقلقة خلال عصر النهضة، ولكن سرعان ما شرعت يهودا تنتصر من جديد بفضل حركة الإصلاح، التي اعتبرها نيته حركة حاكمة، حيث قامت بشكل أساسي على يد العامة من الناس، دون أن ننسى ما سينجر عنها من إحياء للكنيسة من جديد على يد لوثر.

بشكل أكثر حدة وجذرية، اعتبر نيته أن يهودا حققت انتصاراً جديداً على القيم الكلاسيكية مع حدوث الثورة الفرنسية، وفي ذلك الوقت انهارت آخر معاقل النبلاء السياسيين في أوروبا، حيث تهاقت نبلاء القرنين السابع عشر والثامن عشر الفرنسيين تحت ضربات الغرائزية الشعبية الحاكمة².

كما كان نابليون بونابرت* (1769-1821) Napoleon Bonaparte كمؤشر أخير رجلاً فريداً بمعنى الكلمة، حيث ظهر فجأة وسط هذا الصخب الكبير³، نعي انتصاب المثل القديمة بذاتها أمام أعين البشرية، كان مثلاً حياً للقوة والسلطة، ولكن بشكل أكثر وقفاً في النفس من أي وقت مضى، عاد رفع شعار الحق الكاذب من جديد، مؤكداً على أهمية العدد الكبير في مواجهة فرد بشري متميز.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §16, p58.

² - Ibid, p59.

* - قائد عسكري وسياسي فرنسي من أصل إيطالي، برزت مكانته خلال أحداث الثورة الفرنسية، قاد عدة حملات عسكرية ناجحة ضد أعداء فرنسا خلال حروبها الثورية، تولى حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر كقنصل عام، ثم كإمبراطور في العقد الأول من القرن التاسع عشر، كان لأعماله وتنظيماته تأثير كبير على السياسة الأوروبية، هيمن نابليون على الشؤون الأوروبية والدولية خلال فترة حكمه، وقاد فرنسا إلى سلسلة من الانتصارات المذهلة ضد القوى العسكرية المتحالفة التي واجهتها، فيما عُرف بالحروب النابليونية، أسس إمبراطورية كبيرة سيطرت على معظم أنحاء أوروبا القارية حتى عام 1815، عندما انهارت وتفككت.

³ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §16, p60.

إذن يمكن أن نستنتج أن جميع القيم الأخلاقية في رأي نيتشه هي تعبير عن إرادة القوة، وهي القوة التي تحرك كل فعل إنساني، وعادة ما تكون هذه القيم تلك التي يبتكرها الإنسان للحفاظ على وجوده في ظروف حيوية معينة، نحن نسعى للخير وندعو إلى الفضيلة والعدالة والشفقة، ليس لأننا كائنات أخلاقية، بل لأننا نجد في هذه المعاني ما يساعدنا على اكتساب المزيد من القوة.

حتى عندما ندعو إلى السلام والتسامح والتنازل عن استخدام القوة، يكون هذا مظهرًا تتستر وراءه إرادة القوة بحيلة ودهاء، فالأخلاق ليست هدفًا في حد ذاتها، والقوة المحركة لها ليست مستمدة من مجالها الخاص، بل هي القوة التي تحرك كل نشاط إنساني، أعني إرادة القوة التي يركز عليها كل بناء علوي في مجال القيم.

إذن فإن الجينالوجيا بحسب هذا المسعى لا تبحث في الأصل كمعطى أنطولوجي أو ميتافيزيقي ترتكز عليه القيم الأخلاقية، بل تسعى إلى الكشف عن الكائنات التي تكمن وراء الخير والشر، بهدف الكشف عن الطبيعة الحقيقية للقوى التي تدير هذه القيم، سواء كانت قيما تنبع من غرائز الحياة أو مجرد قيم ناتجة عن روح إنكارية تنفي الوجود.

المبحث الثاني: الأخلاق السائدة هي امتداد لأخلاق العبيد

يعارض نيتشه بشدة القيم الأخلاقية التي اتبعتها المجتمعات الغربية، والتي بدت وكأن جذورها عميقة وثابتة، وكأنها قيم أبدية لا يجرؤ أحد على مناقشتها، تتمثل هذه القيم في العقلانية الفلسفية واللاهوت الديني، وهذان العنصران هما ما أسس تلك القيم التي يعيش وفقها الإنسان الغربي.

لذلك يرى نيتشه أن كلتا الإرادتين متآمرتين، هدفهما اقتلاع الحياة من جذورها واستبدالها بإرادة نفي الحياة محلها، ونتيجة لذلك أصبحت قيم الضعف والانحطاط هي السائدة، وأضحت وظيفة الميتافيزيقا هي الترويج لهذه القيم باعتبارها قيم في ذاتها، ومن هنا كان الهدف الأول لنيتشه هو اتخاذ الاتجاه اللاأخلاقي في التقويم، وهو الخروج عن هذا التقويم السائد للسلوك الإنساني، وإعادة الاعتبار للتقويم الأصلي.

أولاً: الفلسفة الأخلاقية

يعتبر نيتشه أن الفلسفة الأخلاقية لم تعد وفية لبعدها الحيوي المرتبط بالحياة، بل أصبحت ذات طابع روحي جدلي وعقلي مثالي، ولذلك يظهر أن الفلسفة منذ عهد سقراط تنكرت لخاصيتها المادية الأرضية لصالح المثل الماورائية، وهذا ما دفع نيتشه إلى الدعوة إلى إعادة النظر في تاريخ الفلسفة الغربية بأكملها، بدءاً من اليونان القديمة ووصولاً إلى العصر الحديث، من خلال إعادة النظر في مسألة القيم وأسسها وأصولها.

لذا يرى نيتشه أن جميع الفلسفات الكبرى هي مجرد اعترافات ذاتية لأصحابها، وأنها نوع من المذكرات الشخصية دون قصد أو انتباه، وبناء على ذلك يشير إلى أنه إذا أردنا أن نفسر كيف أقيمت أبعد المزايم الميتافيزيقية لفيلسوف ما، فمن الأفضل أن نتساءل عن الأخلاق التي يسعى إليها كل فيلسوف؟¹

01- سقراط: التنكّر للحياة بواسطة الجدل

في كتاب "غسق الأوثان" Twilight of the Idols يهاجم نيتشه بشدة سقراط، حيث يراه ينتمي من حيث الأصل إلى الطبقة السفلى من المجتمع، ويعتبر قبحه الذي هو مأخذ في حد ذاته دليلاً على طبيعة هجينة ومختلطة لدى الإغريق، يصفه بأنه إغريقي مزيف ومحتال، ويراه رمزاً للضعف والانحطاط ومهرجا يجعل الناس يأخذونه بمجدية.

ويتجاوز ذلك إلى حد اعتباره مجرماً، حيث أن أسلوبه وقبحه الجسماني يشير إلى حالة اضطراب الغرائز لديه، وقد أشار علماء الإجماع* إلى أن المجرم النموذجي يكون قبيحاً²، لذا نطرح هنا سؤالاً: ما هي الجريمة التي ارتكبها سقراط ليرميه نيتشه بأبشع الشتم؟

لقد حمل أعظم الحكماء في مختلف العصور نفس التصور السلبي عن الحياة، معتبرين أنها لا قيمة لها ولا تساوي شيئاً، وكان الناس في كل مكان يستمعون إلى نفس النغمة من أفواههم، الشكوى والكآبة والتعب من

¹ - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. cit, Prejudices of Philosophers, §6, P11.

* - أكد الطبيب الإيطالي سيزار لمبروزو (1835-1909) في نظريته في علم الأنثروبولوجيا الجنائية، التي تأثرت بعلم الفراسة ونظرية الانحطاط والطب النفسي والداروينية الاجتماعية، أن الميول الإجرامية هي وراثية، ووفقاً له يمكن التعرف على الشخص الذي يُعتبر "مولوداً مجرماً" من خلال تحديد العيوب الجسدية، مما يساهم في تصنيفه كوحشي أو رجعي.

² - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, Le Problème de Socrate, §3, p17.

الحياة، حتى سقراط نفسه تعب وملّ منها، في لحظة احتضاره وصف الحياة بأنها مرض عضال، وأشار إلى أنه مدين بديك للمنقذ لأسكليبيوس¹ Asclepius إذن على ماذا يدل ويؤكد ذلك؟

كان في السابق يُعتبر أن هذا الحكم صحيحاً بلا شك، لأن إجماع الحكماء كان يُعتبر دليلاً قاطعاً على الحقيقة، هل يُسمح لنا اليوم بالتحدث بنفس الطريقة؟ يعتبر نيتشه أن هذا السؤال يُحيلنا إلى ضرورة النظر بعناية عن قرب إلى حكماء العصور السابقة، ربما كانوا جميعهم على قدر من الضعف ولم يعد بإمكانهم الوقوف بثبات على قدميهم، ربما كانوا مضطربين ومنهارين على وشك حافة الانهيار.

يبدو أنهم يظهرون بشكل أوضح أنهم يتشاركون في قاسم فيزيولوجي مشترك يجمع بينهم²، مما يؤدي بهم إلى اتخاذ نفس الموقف السلبي تجاه الحياة، لقد كانوا مضطربين وعاجزين لاتخاذهم هذا الموقف.

إذن كانت جريمة سقراط هي أنه قتل التراجيديا اليونانية وزرع بذور الشك في قلب الحضارة اليونانية، معتبرا الحياة مشكلة، مما ينفي حكمته، وهنا نجد أنفسنا مضطرين لطرح سؤال: كيف انتصر سقراط في النهاية؟ وماهي وسيلته وأداته في ذلك؟

إن الآلة الرهيبة التي استند عليها سقراط هي الجدل³، حيث تغير الذوق الإغريقي الرفيع لصالح الجدل، بفضل الديالكتيك ارتقى العامة، قبل سقراط كانت السلوكيات الجدلية تُرفض في المجتمعات الراقية، وكانت تعتبر عادات سيئة تقلل من قيمة صاحبها، فكل ما يحتاج إلى تبرير لم يكن ذا قيمة.

باستخدام هذا السلاح، الذي يعتبر سلاح الضعفاء، يمكن أن يكون وسيلة دفاع ضرورية لأولئك الذين لا يمتلكون سواه، ومن المعروف أن استخدامه يثير الشكوك، وتجربة جميع التجمعات التي يتم فيها استخدام الكلام تؤكد ذلك، ويجب على الإنسان أن يضطر إلى استخدامه لاستعادة حقه وإلا فلن يلجأ إليه، ولذلك كان اليهود جدليين، وورث سقراط هذا التقليد.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, Le Problème de Socrate, §1, p15.

² - Ibid, §2, p16.

³ - مُجد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2008، ص 614.

هل كانت سخرية سقراط تعبيرا عن حقد وتمرد الرعاع؟ اتهمه نيتشه بأنه كان يتظاهر بأنه ضحية، ويستخدم أداة المنطق الصوري ليظهر شراسته؟ كان يهدم آراء خصومه ويجعلهم يشعرون بالتناقض في أفكارهم، ويدفعهم إلى الاعتراف بجهلهم، الجدل كان سلاحا لا يرحم، يجرد ذهن الخصوم من كل سلاح، وكان شكلا من أشكال الضغينة والانتقام، ولذلك يشير نيتشه إلى أن سقراط لم يكن سوى مريض طال مرضه¹.

في هذا التشخيص يقدم نيتشه وصفا لما يجعل سقراط منقرا، وفي الوقت نفسه يظهر كيف كان محل إعجاب الأثينيين، فقد اخترق دواخل نبلائهم وأدرك أن حالته لم تعد شاذة، بل كانت نفس حالة الانحلال التي تستعد للانتشار خفية، "أثينا العريقة تتجه نحو الاندثار"²، وقد أدرك سقراط أن الجميع كانوا في حاجة إلى علاجه وإلى فنه الخاص في الحفاظ على النفس، لقد كان بمثابة الطبيب والمنقذ في أثينا العريقة التي تقترب من حتفها.

في تلك الحقبة كان يُعتقد أن العقلانية كانت الخيار الوحيد للبقاء، ولم يكن هناك خيار لسقراط أو تلاميذه سوى أن يكونوا عاقلين، أملهم وملاذهم الوحيد للنجاة، وكان الفكر اليوناني متجها نحو العقلانية بشكل كامل، وكان الإنسان في موقف خطير للغاية ولم يكن لديه خيار سوى أن يكون عاقلا حتى الحد الأقصى، وإلا فإنه كان مهددا بالهلاك³.

هنا يشير نيتشه إلى الخطأ الكبير الذي ارتكبه الفلاسفة والأخلاقيون بقبولهم للعقل بأي ثمن، يعتقدون أن الهروب من الانحطاط يكمن بمجرد التحيز ضده وإعلان الحرب عليه، وهذا أمر يتجاوز قدرتهم، اختيارهم لهذا النهج كحلا للمشكلة يعتبر أيضا انحطاطا، إذ اقتصروا على مقاومة غرائزهم وإقصائها، وهم في ذلك لا يفعلون سوى تغيير وجه الانحطاط دون أن يزيلوه.

إذن لقد كان سقراط في كليته يمثل مظهرا من مظاهر سوء الفهم الأخلاقي للذات، وفلسفته تعتبر نزعة مرضية وعرضا من أعراض الانحطاط، صادرة عن حقد وانتقام شعبي، وتشفيا من الفلاسفة المتميزين الذين سبقوه، فإنها تكون حينئذ من نوع ثورة العبيد على السادة.

¹ - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, Le Problème de Socrate, §12, p22.

² - Ibid, §9, p20.

³ - Ibid, §10, p21.

ويمتد نيتشه في نقده لأخلاق أفلاطون، حيث يعتبره يتسم بكونه أول هجين كبير¹، ويضعه مع سقراط في في كفة واحدة، مشيراً إلى أنهما كانا أداتين لتفكك وتحلل المجتمع الإغريقي، استطاع أن يقودا إلى مثل هذه المعادلة السقراطية: عقل = فضيلة = سعادة²، وهو شيء يتعارض مع الغرائز الهيلينية القديمة بشكل خاص.

إيمان أفلاطون الزائد بالعقلانية أدى إلى خلق عالم من الأفكار المجردة التي لا علاقة لها بالواقع، وقد تمثل هذا العالم في مثال الخير الذي يشكل أساس القيم الأخلاقية، وهو مثال يتجاوز الواقع الملموس في تجرده وابتعاده عن الحياة العملية.

02- كانط ونموذجه المثالي لإنشاء مجتمع أخلاقي عالمي

يستعرض كانط في كتابه "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" فكرة هامة تشير إلى أنه من بين الأمور التي يمكن تصورها في هذا العالم أو خارجه، لا يوجد ما يمكن اعتباره خيراً مطلقاً ودون شروط، باستثناء شيء واحد: الإرادة الخيرة^{3*}، ولكن متى يمكن اعتبارها خيرة بالفعل؟

يعتقد كانط أن الإرادة عندما تعمل وفقاً للواجب^{**}، وهو شرط أساسي يجب أن يتوفر في الإرادة الخيرة، لا يمكن أن تخضع لأي قانون آخر سوى هذا القانون الأخلاقي، ولكن ما هو هذا القانون الذي ينبغي علينا الالتزام به؟ إنه القانون الذي ينص على أن الفاعل الأخلاقي يتصرف بشكل أخلاقي عندما يسيطر العقل على جميع ميوله.

لذا فإن القيمة الأخلاقية للواجب لا تتعلق بالنتائج أو الأهداف التي يسعى الفرد لتحقيقها، بل تعتمد على القاعدة التي يستند إليها الشخص في أدائه لهذا الواجب، حيث تُعتبر هذه القاعدة الشرط الضروري والكافي لكل عمل أخلاقي، إن جوهر أخلاقية الفعل ينبع من أعماق كيانه الداخلي، وهو ما تعبر عنه الصيغة الكانطية

¹ - نيتشه فريدريك، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر سابق، فقرة 1، ص 54.

² - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, Le Problème de Socrate, §4, p18.

* - هي النية الطيبة التي تسبق أي فعل أخلاقي، بل هي التي تضفي على الفعل صفة أخلاقية، فليست مادة الفعل الأخلاقي فيما نفعله، بل في النية التي تحدد هذا الفعل، فبدون هذه النية لأصبح الفعل الأخلاقي خالياً تماماً من أي مضمون، مفتقراً إلى أي معنى. (أنظر: مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص 41).

³ - كانط إيمانويل، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: عبد الغفار مكاي، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2002، ص 37.

** - ضرورة المجاز الفعل احتراماً للقانون. (أنظر: المرجع نفسه، ص 51).

الشهيرة: "بعض الأفعال يجب أن تُعتبر أوامر إلهية، لأنها تلزمنا إلزاما داخليا، ولا ينبغي أن تُفهم على أنها ملزمة لنا مجرد كونها أوامر إلهية"¹، وبالتالي فإن ما يحدد الإرادة ليس المحتوى التجريبي، بل الصورة النقية للقانون.

يتسم الواجب بثلاث ميزات رئيسية: أولا، هو مفهوم صوري بحت²، مما يعني أنه تشريع شامل أو قاعدة عامة لا تتأثر بالتغيرات التي تحدث في التجربة، حيث تكمن قيمة الواجب في جوهره، بغض النظر عن أي منفعة أو فائدة، مما يعني أنه يتجاوز جميع اعتبارات اللذة والمصلحة الفردية، ليكون سلوكه متوافقا مع المثل الأعلى للنزاهة المطلقة أو الأمانة الكاملة.

كما أنه يتسم أيضا بأنه خال من الأغراض³، بمعنى أنه لا يُطلب لتحقيق منفعة أو للوصول إلى السعادة، بل يُسعى إليه لذاته، فالأخلاق ليست المذهب الذي يعلمنا كيفية تحقيق السعادة، بل هي المذهب الذي يعلمنا كيف نكون جديرين بها، يجب علينا أولا وقبل كل شيء، الالتزام بالواجب كواجب، وليس لأي سبب آخر.

السمة الثالثة التي يتميز بها الواجب هي كونه قاعدة غير مشروطة للفعل⁴، مما يعني أنه لا يمكن تأسيس الواجب على أي شيء آخر أو ربطه بشيء آخر، فالواجب يمثل الأساس الذي يُعتمد عليه في كل تقدير عملي وكل حكم أخلاقي، باختصار يمكن القول إن الواجب يجمع بين الطابع الأساسي والصوري، وإلا لما كان كليا، وضروريا، وغير مشروط.

قام كانط بتمييز بين الأوامر المشروطة والأوامر المطلقة، فالأوامر المشروطة تفترض قاعدة أن من يريد الغايات يعمل بالوسائل، مما يبرز العلاقة الوثيقة بين الغاية والوسيلة، أما الأمر المطلق فيختلف عن هذا النوع، حيث لا يرتبط بأي وسيلة أو هدف، بل يربط مباشرة بين الإرادة والقانون الكلي، دون الحاجة إلى أفعال جزئية تقوم بها الإرادة، يعتمد الأمر المطلق على قاعدة تصلح لتكون مبدأ للفعل، لذا فإن جوهره يكمن في كونه كليا، ويجب أن تتماشى القاعدة معه، وهذا التوافق هو ما يجعل الأمر يبدو ضروريا حقا.

¹ - نقلا عن: أمين عثمان، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، د.ط، دار المعارف، الإسكندرية، 1967، ص122.

² - إبراهيم زكريا، مشكلات فلسفية: المشكلة الخلقية، الكتاب السادس، الطبعة الأولى، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1969، ص 170.

³ - المرجع نفسه، ص171.

⁴ - الصفحة نفسها.

إذن وفقا لكانط يتألف الواجب من ثلاث قواعد عملية، الأولى قاعدة التعميم، التي تنص على أن يتصرف الفرد كما لو كان مبدأ فعلة يمكن أن يتحول إلى قانون طبيعي عام من خلال إرادته¹، وهذا يعني أن المعيار الوحيد للسلوك الأخلاقي هو إمكانية تعميمه دون أن يؤدي ذلك إلى تناقض، فإذا كان بإمكاننا تحويل القاعدة التي استندت إليها في تصرفي إلى قانون عام لا يتعارض مع الواقع الخارجي، فإن فعلي يكون متوافقا مع الواجب، أما إذا أدى تعميم هذه القاعدة إلى حدوث تناقض، فإن الفعل نفسه يكون متعارضا مع القانون الأخلاقي.

القاعدة الثانية تتعلق بالغائية، حيث تبرز أهمية التصرف بطريقة تعكس احترام الإنسانية في أنفسنا وفي الآخرين، يجب أن نعتبر كل إنسان غاية في حد ذاته، وليس مجرد وسيلة لتحقيق أهدافنا²، هذه القاعدة تعطي للواجب معنى واضحا، يتمثل في اعتبار الشخص الإنساني كغاية بحد ذاته، لذا نحن ملزمون بالنظر إلى الكائنات العاقلة كغايات موضوعية، وليس كوسائل لتحقيق مصالحنا.

قاعدة الاستقلال الذاتي، التي تؤكد على ضرورة أن تكون إرادة الفرد هي المصدر الأساسي للتشريع³، تمثل تجسيدا يجمع بين القاعدتين السابقتين، هذه القاعدة تشدد على أهمية أن يكون الإنسان هو المشرع للقانون الأخلاقي وأن يكون خاضعا له، مما يعني أن خضوعه للقانون هو في الحقيقة خضوع لنفسه، لذا ينبغي أن نعتبر الإرادة نوعا من الحرية أو الاستقلال الذاتي، حيث تكون هي المشرع الوحيد لأفعاله، وهي المسؤولة الوحيدة عن تصرفاته.

يعارض نيتشه الأخلاق الكانطية التي تُعتبر واحدة من المرجعيات الأساسية في الفلسفة الأخلاقية الحديثة، ورغم أن ظاهره يوحى بأنه مفكر يركز على العقل فقط، إلا أن تحليل فلسفته الأخلاقية يكشف عن ارتباطه العميق بأخلاق العبيد، التي تدعو إلى قيم تتجاوز الحياة، فهو يتحدث عن الأمر المطلق الذي لا يُناقش، مما يذكرنا بالطابع المطلق للأوامر الإلهية، التي تتسم بالزهد والعداء لكل ما هو دنيوي.

¹ - كانط إيمانويل، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، مرجع سابق، ص 93.

² - المرجع نفسه، ص 109.

³ - المرجع نفسه، ص 94.

أول ما يسلط نيتشه الضوء عليه هو دراسة أصل والأساس الذي بني عليه الأمر المطلق، فهو يعتبر أن هذا الأمر يمثل تجسيدا للأنانية العمياء، حيث يكشف لنا أننا لم نستطع ابتكار نموذج شخصي متميز لأنفسنا، وبالتالي يؤكد نيتشه أنه لا توجد أفعال متطابقة على الإطلاق، فكل فعل يحمل خصوصية فريدة لا يمكن تكرارها، ومن هنا يشير إلى أنه من الأنانية حقا أن يعتبر الفرد حكمه الخاص قانونا كونيا¹.

في الواقع تكمن وراء فكرة الأمر المطلق وفقا لنيتشه رغبة كانط في تحويل البشر إلى قطع وترويضهم، هذه الرغبة تعمل تحت شعار العقل والعلم والفضيلة، بهدف ضمان وجودها وفرض هيمنتها على الغرائز المبدعة للقيم الأصيلة والنبيلة، إنها تمثل نوعا من الإكراه المستمر على الطبيعة والعقل، لذا يعلن كانط من خلال أخلاقه أن ما هو جدير بالتقدير في داخلي هو أنني أعرف كيف أطيع، ويجب أن لا يكون الأمر مختلفا عنكم عما هو عندي!².

هكذا يكشف الأمر القطعي عن مرض الإنسان الحديث الذي يزعم أنه يعرف الخير والشر في ذاتهما، ويعمل على فرض أوامره كقوانين شاملة وحقائق ثابتة، وهذا يعكس نفس المبادئ التي كانت تحكم قيم العبيد، وأهمها المساواة، حيث يُعتبر ما يتفق عليه الجميع مقبولا أخلاقيا، وهذا يتعارض تماما مع الرؤية الأخلاقية التنشوية التي تعترف بتنوع الأنماط والنظم الأخلاقية بقدر تنوع البشر.

فهناك أنماط أخلاقية ينبغي أن تبرر وجود صاحبها أمام الآخرين، وأخرى تهدف إلى إضفاء الطمأنينة والرضا على النفس، هناك أنماط يسعى صاحبها من خلالها إلى قمع نفسه وإذلالها، وأخرى يسعى من خلالها إلى الانتقام أو الاختباء أو السمو بنفسه إلى مرتبة أعلى بعيدا عن الآخرين، بعض الأخلاق تساعد الفرد على النسيان، بينما تساعد أخرى على أن يُنسى هو أو شيء يتعلق به، كما أن كانط يعبر عن خلال أخلاقه عن الانصياع والطاعة، باختصار الأنماط الأخلاقية ليست سوى تعبير عن لغة المشاعر³، وهذه الأخيرة تعكس الوظائف العضوية، لذا يجب على الفرد أن يكون على دراية بما يحدث داخل هذه الأنماط ليتمكن من الاستفادة منها.

¹ Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre quatrième, Op. cit, §335, p286.

² Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. Cit, The Natural History of Morals, §187, P106.

³ Ibidem.

كما يمتد نقد نيتشه ليشمل جانبا آخر من جوانب فلسفة كانط الأخلاقية، وهو قيمة العمل الأخلاقي، فقد اعتبر نيتشه أن كانط مسؤول عن تغيير خطير في القيم الأخلاقية، حيث قام بتحويل القيمة الأساسية للعمل من التركيز على نتائجه إلى التركيز على أسبابه، بمعنى آخر تحويل قيمة العمل (الفعل) إلى قيمة النية (القصد).

يشير نيتشه إلى أنه في فترة ما قبل التاريخ، المعروفة بفترة ما قبل الأخلاق، كانت قيمة العمل تُحدد بناء على النتائج المترتبة عليه دون اعتبار لنوايا الفاعل، ومع مرور الزمن وتراكم الصراعات، تغيرت هذه الرؤية لتدخل فيما يسميه نيتشه المرحلة الأخلاقية، حيث سيّطر تأويل ضيق قبض على زمام الأمور، في هذه المرحلة بدأ الناس ينسبون قيمة العمل إلى النية التي تنبع منها، وأصبح هناك توافق عام على أن قيمة العمل ترتبط بقيمة النية¹، وهكذا صارت النية تشمل أسباب العمل وما يسبق تاريخه.

مع قدوم نيتشه قام بقلب القيم وتحويل أسسها، إنه يقف على عتبة مرحلة يسميها "مرحلة خارج الأخلاق"، مدعيا أنه يسعى لكشف حقيقة النية، حيث يرى أن قيمة العمل تكمن خارج النية، أي أنها ليست مقصودة، وأن النية ليست سوى علامة تشير إلى شيء وتخفي أشياء أخرى، وبالتالي تحتاج النية إلى تأويل في المقام الأول، كما أنها تحمل معاني متعددة، مما يعني أنها لا تحمل أي معنى خاص في حد ذاتها²، وهذا يشير إلى أن الأخلاق بالمعنى التقليدي، أي أخلاق النوايا أو المقاصد، كانت شيئا مؤقتا، شيئا ينبغي تجاوزه وتخطيه.

ثانيا: الأخلاق المسيحية

يؤكد نيتشه أن الأخلاق الغربية السائدة متأثرة كذلك بالمسيحية، ونحن ندرك جيدا البيئة التي نشأت فيها والقيم التي تطرحها، عندما فقدت كل سند طبيعي بسبب حرمانها من حقها في الوجود لفترة طويلة، تمكنت من فرض نفسها بالاعتماد على فرضيات منافية للطبيعة، وقد استخدمت كل الحيل بمهارة عالية، متخفية تحت قناع التقوى، لتؤسس نظاما أخلاقيا يهدف إلى القضاء على أي امتياز طبيعي، يعتمد هذا النظام في أسلوبه على المشاعر والانفعالات، ويعزز قيما مثل المساواة، والشفقة، والعطف، والرحمة، والشعور بالذنب، والمثال الزهدي، وغيرها من القيم التي تهدف في النهاية إلى تمكين الضعفاء من السيطرة على الأقوياء.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. Cit, The Free Spirit, §32, PP46-47.

² - Ibid, P47.

01- تعزيز قيمة الإحساس بالتشابه والمساواة

تدعو المسيحية وفقا لنيته إلى نوع من المساواة المصطنعة بين الأفراد، حيث شنت حربا على أي شعور بالاحترام للذات وعلى الفجوة الضرورية بين الناس، والتي تُعتبر شرطا أساسيا لأي ارتقاء أو تطور ثقافي، لقد استخدمت مشاعر الضعينة والحقْد لدى الجماهير كسلاح رئيسي لمواجهة كل ما هو نبيل ومشرق وشجاع في العالم، من خلال السم المندس في مبدأ "تساوي النفوس أمام الرب"¹، لتعمل على نشره بشكل ممنهج، إن فعلها التاريخي الحقيقي يتناقض مع ما تدعو إليه "المحبة الشاملة للإنسانية"²

يتضح من ذلك ما يراه نيته في شذرة العناكب كمثال على الثأر وروح الانتقام، حيث يمثل انتقام أولئك الذين لم تُسعفهم الأقدار في تحقيق العظمة والنجاح في حياتهم، فكلما كانت الحياة ضعيفة وعاجزة تسعى لتحقيق المساواة بين الجميع، ضد هؤلاء يوجه نيته العداء على لسان زرادشت مخاطبا دعاة المساواة قائلا: "لقد استحوذ عليكم جنون عجزكم، فهتفتكم بهذه المساواة، بينما كانت شهوة استبدادكم كامنة وراء ما تدعونه من فضائل"³.

من ناحية أخرى يسعى نيته إلى تفكيك مفهوم العدالة، محاولا إزالة القناع عنها والغوص في أعماقها، فهو يرى أن ما يُعتبر عدالة ليس سوى إرادة قوة متخفية تستغل الفضيلة وشرف الأخلاق لفرض نفسها، إن مفهوم العدالة لدى الضعفاء يتجلى في روح الثأر والانتقام، حيث لا تعبّر رغبتهم في المساواة دائما عن رغبة في الارتقاء إلى مرتبة الأقوياء، بل تعكس رغبة في خفضهم إلى مستواهم ومحاولة السيطرة عليهم، لذلك يشير نيته إلى أن المسيحية تمثل انتفاضة كل من هو زاحف على الأرض، ضد من يمتلك السمو والرفعة⁴.

إذا نظرنا إلى دلالات مفاهيم الإحسان والتكافل والتعاون في المسيحية، سنجد أنها تجسد فكرة البقاء والاتحاد بين الضعفاء، أو تعبر عن نوع من الأنانية الجماعية التي تؤمن بأن العناية المتبادلة تعزز فرص بقاء كل فرد، وهذا المعنى يتجلى بوضوح في إنجيل مرقس: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكَرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتَّبِعْنِي"⁵.

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §43, p64.

² - نيته فريدريك، إرادة القوة: محاولة لقلب كل القيم، ترجمة: محمد الناجي، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011، توطئة إجمالية، فقرة 151، ص112.

³ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Deuxième partie, des tarentules, p139.

⁴ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §43, p65.

⁵ - العهد الجديد، إنجيل مرقس، الإصحاح 8: 34.

لم تقتصر المسيحية بحسب نيتشه على ذلك فحسب، بل تدعو الأفراد إلى التضحية بأنفسهم من أجل تحقيق الاتحاد والمساواة، سواء من خلال أسلوب الرهبان أو الزهاد، أو عبر رمز الصليب، أو من خلال المحرقة والمشنقة كرموز للشهادة¹، هؤلاء هم من تناديهم المسيحية باعتبارهم قوة محافظة، مما يعزز تلك الغريزة القوية لدى الضعفاء، وهي غريزة الرعاية والدعم المتبادل، مما يتماشى مع قول يسوع: "وَكُلُّ مَنْ لَا يَقْبَلُكُمْ وَلَا يَسْمَعُ لَكُمْ، فَاخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ وَانْفُضُوا التُّرَابَ الَّذِي تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ"²

إذن فالقيم التي ينادي بها المثل الأعلى المسيحي تعكس غريزة البقاء لدى الطبقات الأقل حظاً في الحياة، هذا المثل هو الذي يوجه جميع القيم، حيث يتضمن التمرد على القوى الروحية المسيطرة، والسعي لخلق فضائل تساهم في سعادة الفئات الضعيفة، كما يضفي على هذا المثل صفة القداسة، ويعتبر الامتناع عن المقاومة نوعاً من الطاعة، ويعبر عن حب الناس لبعضهم البعض كنتيجة لحب الإله، بالمقابل القيم التي ينكرها المثل الأعلى المسيحي تشمل المثل النبيل، والجمال، والقوة، والمخاطرة، والطموح الذي يحدد الأهداف المستقبلية.

لذلك يعتبر نيتشه أن هذا النوع من التقويم هو الأكثر خطورة بين جميع الأنواع الممكنة، لأنه يتعارض مع الطبيعة والواقع، فعندما نساوي بين الأفراد، فإننا نعرض النوع البشري للخطر، ونشجع سلوكيات قد تؤدي إلى تدميره، فالأشخاص المنحطون والمرضى مثل المسيحيين، يُعتبرون ذوي قيمة تعادل أو حتى تفوق قيمة الأصحاء، مما يعيق التطور الطبيعي ويجعل من مخالفة الطبيعة قاعدة معتمدة.

من ناحية أخرى، القانون الطبيعي هو الذي يتيح التمييز والتفريق بين الكائنات، حيث يضعها في ترتيب عمودي بدلاً من أفقي، مما يعني تنظيمها في نظام تصاعدي، لذلك، نجد أن نيتشه يشير إلى أن الحياة تتطلب صعود المرتفعات، ولا غنى لها عن الدرجات والدركات³، إذن لا يمكن تصور الحياة دون هذا التراتب الذي ينشأ عنها، ومن هنا نجد أن المسيحية قد اتخذت من رسالتها هدفاً لإلغاء هذا النظام بالذات والقضاء عليه.

¹ - نيتشه فريديريك، إرادة القوة، مصدر سابق، فقرة 151، ص 112.

² - العهد الجديد، إنجيل مرقس، الإصحاح 6: 11.

³ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Deuxième partie, des tarentules, p142.

هذا ويشن نيتشه هجوماً على كافة التيارات الحديثة، مثل الثورة الفرنسية والاشتراكية والديمقراطية، حيث يعتبرها تجسيدا لثورة الضعفاء ضد الأقوياء، ومن خلال مبدأ المساواة، تم تأسيس النظام الديمقراطي الذي ساوى بين الأدنى والأعلى، بين العبد والسيد، ثم ظهرت الدعوة الاشتراكية التي تهدف إلى تحقيق المساواة بين الفقير والغني.

02- تعزيز قيمة التعاطف والإيثار

تُعزّز الأخلاق المسيحية من قيمة الشفقة، حيث تعتبرها شعورا نبيلًا يحتل مكانة بارزة بين مشاعرنا الأخلاقية، لقد تجرأت على منحها لقب الفضيلة، بل تجاوزت ذلك لتعتبرها جوهر الفضيلة وأساس جميع الفضائل، يتجلى ذلك في التعاطف مع الآخرين في معاناتهم والرغبة في مشاركة مشاعرهم، مما يعني أن الألم والمعاناة يُعتبران شرطين أساسيين للشفقة.

فالمسيحية تحتاج دائما إلى نوع من الحياة الضعيفة والمنهكة والمريضة، لتتمكن من ترسيخ وجودها في بيئة مليئة بالمستنقعات، فهي تدعو إلى التسامح مع الحالات التي تكاد تكون معدومة والقريبة من الصفر¹، بينما تُظهر كراهية لكل ما هو ثابت وفاعل تجاه الحياة، وبما أنها تحمل في طياتها معنى النضال، فإنها تُبشر بانتصار نهائي للضعفاء والعاجزين، كما أنها بفضل طابعها المقدس تمنحهم معنى ذلك النصر.

لذلك كانت الحركة المسيحية منذ نشأتها جامعة لعناصر من مختلف الفئات والطبقات، تهدف هذه الحركة إلى تحقيق السلطة عبر المسيحية، ولا تعكس تدهور جنس معين، بل تمثل نقطة التقاء لمظاهر متنوعة من التدهور المنتشرة في جميع أنحاء العالم، حيث تتواصل هذه المظاهر وتتفاعل مع بعضها البعض.

إذا كان نيتشه قد هاجم المسيحية باعتبارها دين الشفقة، فذلك لأنها تتعارض مع جميع الدوافع الطبيعية للحياة الرفيعة، إن تأثيرها يشبه العبء الثقيل، حيث تعكس شعورا كثيبا يضعف حيويتنا، من خلال هذه المشاعر يفقد الإنسان قوته تدريجيا، مما يجعل الحياة تبدو أكثر احتمالا، وهذا الاحتمال نفسه يمكن أن يصبح معديا، لذا يشير نيتشه إلى أنه لا يوجد شيء أكثر عدوى من الشفقة².

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p171.

² - Nietzsche Friedrich, **L'Antéchrist**, Op. cit, §7, p10.

من ناحية أخرى، تُعيق بشكل عام قانون التطور¹، الذي يُعتبر قانون الانتقاء الطبيعي، حيث تحافظ على ما أصبح مهياً للزوال، فتسعى للدفاع عن المحرومين والمهمشين في المجتمع، مما تمنح الحياة طابعا كئيبا ومريبا، من خلال العدد الكبير من الفاشلين الذين يتمسكون بالحياة.

إذن تُعتبر الشفقة سلاحا يستخدمه المحرومون في هذه الحياة لمواجهة قيم النبل والسيادة، إنها تعكس عجز الضعفاء عن إثبات ذواتهم وفرض وجودهم، مما يضيف على الحياة طابعا تشاؤميا*، يرفع هؤلاء شعار نفى الحياة كقيمة، محاولين إقناع الآخرين بالعدم، لكن هذا العدم لا يظهر بشكل صريح، بل يتنكر في ثوب العبارات المقدسة، وصف نيتشه هذا الخداع بقوله: "يا لبشاعة الألوان الزاهية التي تُضيء الفضائل الحقة، كما لو كانت انعكاسا لمزايا إلهية! يتم إخفاؤها بشكل منهجي، ولا تكون ذات قيمة إلا إذا ارتبطت بأمر إلهي، بالخيرات الروحية للعالم الماورائي"².

أما فيما يتعلق بالإيثار أو الغيرية، فإنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالشفقة، فهي تمثل الأساس الأكبر للأخلاق السائدة، إنها تمثل النعمة التي تركتها المسيحية بأشكال متنوعة لدى معظم المفكرين الأخلاقيين، وقد قام نيتشه بمهمة استكشاف أعماق هذه الفكرة وكشف حقيقتها الخفية، فرغم أنها تبدو في ظاهرها تعبيرا عن العطف تجاه الآخرين ومحاولة للتقرب منهم من خلال كلمات مزخرفة، فإن تم ذلك اعتبر فاعلها إنسانا أخلاقيا.

ومع ذلك فإنها في عمقها تعكس إنسانية مضللة، تعبر عن سوء فهم للذات وهروب منها، فعلى حد تعبير نيتشه يلجأ الضعفاء إلى القريب هربا من أنفسهم، ويعتبرون هذا السلوك فضيلة³، فبعض الناس يهرعون إلى جيرانهم بحثا عن أنفسهم، بينما يذهب آخرون إليهم لينسوا أنفسهم، وذلك خوفا من العزلة والانفراد، اللذين يمثلان سجنا للإنسان.

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §7, p8.

* - كان أرسطو واعيا تماما لهذا الأمر، وأكد أن الشفقة تُعتبر مرضا خطيرا ينبغي التطهر منه بين الحين والآخر، وكانت التراجيديات الإغريقية تُعتبر العلاج المناسب لهذا الداء. (أنظر: سو بريدو، أنا عبوة ديناميت! حياة فريدريك نيتشه، ترجمة: أحمد سامي وسارة الجوهر، الطبعة الأولى، نابو للنشر والتوزيع، بغداد، 2020، ص383).

² - نيتشه فريدريك، إرادة القوة، مصدر سابق، فقرة 117، ص94.

³ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Première partie, de l'amour du prochain, p84.

فبينما تبدو الغيرية في ظاهرها كإحساس ينشأ من كمال الذات ينتقل عطفًا تجاه الآخرين، فإنها في الواقع ليست سوى وسيلة لإضعاف الذات وافتقارها، وهروب من مواجهتها بصدق ووضوح، فعندما يشعر الفرد بالعجز والضعف في سعيه لتحقيق التميز والتفوق، تتحول طاقته وفاعليته إلى شكل من أشكال الغيرية، وفي هذا السياق يشير نيتشه إلى أنه كلما ابتعد الناس عن ذواتهم، زاد سعيهم لتبرير هذا الابتعاد من خلال تقديس محبة الإنسانية¹.

يمكن اعتبار هذا التأثير من أبرز ما تركته المسيحية في أوروبا، حيث شهد البعد الشخصي والذاتي تراجعاً تدريجياً، وقد تجلّى هذا التأثير بوضوح لدى المفكرين الفرنسيين مثل فولتير وكونت، الذين لم يسعوا إلى تقديم أقل مما جاء به المثل الأعلى المسيحي، في هذا السياق تتحقق وصية يسوع "أحب قريبك كنفسك"²، بل إن البعض سعى إلى تعزيزها، حيث أضاف كونت إلى القيم المسيحية من خلال مقولته الأخلاقية الشهيرة: "العيش من أجل الآخرين"³.

كما ظهرت تلك العقائد بشكل مفاجئ وفي جميع الأماكن، وبحيوية ملحوظة منذ الثورة الفرنسية تقريباً، بالإضافة إلى الأنظمة الاشتراكية التي قد قامت وكأنها تستند عمداً إلى الأسس المشتركة بين هذه العقائد، لذا يعتبر نيتشه أن التيار السائد في الأخلاق ضمن الثقافة الغربية هو نتيجة لغريزة التجمع والغرائز المرتبطة بها، ومن هنا يشير إلى أن الأخلاق لا تتعامل مع الإنسان ككائن متكامل، بل ككائن يمكن تجزئته⁴.

بهذه الطريقة، يعيد نيتشه صياغة مفهوم الغيرية ليكشف عن التناقض بين حقيقته المضمرة ودوافعه الظاهرة، وفي هذا السياق يذكر نيتشه على لسان زرادشت مخاطباً القائلين بالغيرية، بأنهم قد ابتكروا أفضل أساليب التمويه، ولم يُرهق أحد الغير كما فعلوا، لذا ينصحهم بتعلم الأنانية الصحيحة والسليمة، ليتمكنوا من مواجهة أنفسهم، دون أن تدفعهم أنانيتهم إلى الضلال، معتبراً أن هذا هو جوهر تعليمه⁵.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre deuxième, Op. cit, §132, p151.

² - العهد الجديد، إنجيل متى، الإصحاح 19: 19.

³ - Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Livre deuxième, Op. cit, §132, p151.

⁴ - نيتشه فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته، مصدر سابق، فقرة 57، ص 52.

⁵ - Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Troisième partie, de l'esprit de lourdeur, §2, p279.

03- تعزيز الشعور بالذنب والمثال الزهدي

ما ينتقده نيتشه في المسيحية هو سعيها لتحطيم الأقوياء وإضعاف إرادتهم، واستغلال لحظات ضعفهم ومللهم، وتحويل يقينهم المتزايد إلى قلق وعذاب للضمير، مستخدمة أساليبها الماكرة لجعل الغرائز النبيلة ضعيفة ومريضة، مما تؤدي إلى أن تنقلب هذه الغرائز ضد قواها، نتيجة لذلك، يعاني الأقوياء من احتقارهم لذاتهم بسبب المعاملة القاسية التي يفرضونها على أنفسهم، لذا يصف نيتشه هذه العملية بأنها نوع من التفتيش القاسي على الضمير، كجزء من مهمة مرهقة تجاه كائن عظيم يُدعى الله¹

عندما ينتصر* فقد العبيد ويصبح مصدرا للقيم النفي والارتكاس، يتحول السيد إلى عبد بعد أن يستشعر ذنبه، في هذه الحالة تعمل القوى المنفعلة ضد نفسها، وهذا هو معنى الضمير المتعب، الذي ينشأ نتيجة لعملية تسيطر فيها القوى المنفعلة على القوى الفاعلة، فما الذي يحدث في هذه الحالة؟

يحيينا نيتشه بأن جميع الغرائز التي لا يمكن التعبير عنها، أو التي تعيقها قوة قمعية ما من الانفجار في الخارج، تتحول نحو الذات، بفعل الاستبطان، الذي يقوم به الفرد، مما يؤدي إلى نمو عالمه الداخلي واكتسابه عمقا وعرضا وارتفاعا بعد أن تم عرقلة امتداده إلى الخارج، وهنا يكمن أصل الضمير المتعب.

إذن فالمسيحية تسعى إلى السيطرة على القوى العظمى، وسيلتها في ذلك هي إصابة تلك القوى بالمرض، فالإرهاق والضعف يمثلان الوصفة المسيحية لترويض هذه القوى وبناء الحضارة، وبالتالي يمكن اعتبار الكنيسة مؤسسة كبيرة تهدف في الأساس إلى الترويض والتدجين.

فالإنسان الذي يدفعه افتقاده إلى المقاومات الخارجية والأعداء الخارجيين، والذي يقع تحت وطأة التقاليد، يعاني من التمزق والملل، ويواجه اضطهاد النفس والتآكل، ويعيش في حالة من الخوف وتحقير الذات، يشبه نيتشه هذه الحالة بالطائر الجارح الذي يحاسب نفسه على كونه طائرا جارحا²، هذا الحيوان يراد تدجينه، هذا الحبيس الذي يحمل تطلعات وآمالا يائسة، هو من يصبح مصدر الضمير المتعب، فما الذي يحدث بعد ذلك؟

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §21, p27.

* - نحن ندرك أن القوى الارتكاسية تحقق انتصاراتها من خلال الاعتماد على أوهام، حيث يستند انتصارها دائما إلى نفي ما أو إلى شيء خيالي، لأن الحق يدعي في الحقيقة حرمان وفصل القوة الفاعلة عما تستطيعه من شروط ممارستها المادية.

² - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, première dissertation, §13, p49.

إذن يعتبر نيتشه أن الضمير المتعب يعكس حالة مرضية عميقة، حيث يقع الإنسان في هذه الحالة نتيجة التحول الذي يطرأ عليه عندما يشعر بأنه مقيد بأغلال المجتمع، يشبه نيتشه هذا الوضع بحال الحيوانات المائية التي تُجبر على التكيف مع الحياة على اليابسة، هذه الحيوانات التي طالما اعتادت على الحرب والمغامرة، تجد نفسها فجأة بأن جميع غرائزها قد فقدت قيمتها وأصبحت بلا جدوى، إنها تشعر بالإكراه على المشي على قدميها وتحمل نفسها بنفسها، بعد أن كانت المياه هي التي تحملها حتى ذلك الحين¹، بعد هذا التدجين يتساءل نيتشه عن معنى المثال الزهدي؟ وما هي دلالاته؟

عندما يجد الإنسان نفسه غير قادر على منح حياته ووجوده معنى، يشعر بنوع من الشقاء، لكن المشكلة ليست في الشقاء بحد ذاته، بل في خلو هذا الألم من المعنى، وعجزه عن الإجابة على سؤال "لماذا أعاني؟"² وعن سبب لزومه، في هذا السياق يقدم المثال الزهدي لهذا الألم معنى معيناً، وهو المعنى الذي ظل حتى الآن هو المعنى الوحيد^{*}، ويظل وجود أي معنى، مهما كان، أفضل من عدم وجوده، حيث يتم إعطاء المعاناة تأويلاً، ويبدو أن الفراغ الهائل قد امتلأ.

ينتج عن ذلك أن المثال الزهدي يستمد جذوره من حياة متدنية تسعى نحو الشفاء^{**}، إنه يمثل سعياً نحو الخلاص وصراعاً من أجل الوجود، وما فعله المثال الزهدي هو أنه قام بتصوير الشقاء كعقاب نتيجة للذنوب³، لكنه في الوقت نفسه منح الإنسان فرصة للخلاص، أصبح للإنسان معنى، ولم يعد مجرد ريشة تتقاذفها الرياح أو لعبة في يد الصدفة العمياء، بيد اللامعنى⁴، بل أصبح بإمكانه أن يرغب في شيء ما، بعد أن لم يكن هناك أية أهمية لما يريد.

¹ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, deuxième dissertation, §16, p103.

² - Ibid, troisième dissertation, §28, p215.

^{*} - لم يكن المثال الزهدي في رأي نيتشه سوى نتيجة لعدم وجود الخيار الأفضل.

^{**} - البديل الذي طرحه المثال الزهدي كان من الضروري أن يؤدي إلى نوع جديد من الشقاء، أعمق من السابق، وأكثر ارتباطاً بالذات، وأشد سمية وافتراساً.

³ - Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §28, p216.

⁴ - Ibidem.

لكن هنا يبرز سؤال: لماذا يختار الإنسان المعنى الذي قدمه المثال الزهدي؟ يرى نيتشه أن هذا الاختيار جاء بهدف إنقاذ الإرادة نفسها، إذ يحتاج الإنسان إلى هدف لوجوده، خوفاً من الانزلاق إلى قاع الهاوية، ولكن ما هي طبيعة ومعنى الإرادة التي منحها المثال الزهدي؟

تتجلى في الكراهية تجاه كل ما هو إنساني، فضلاً عن الكراهية لما هو حيواني، وحتى لما هو مادة جامدة، هذا الخوف العميق من الحواس، بل ومن العقل والشجاعة والحرية¹، هناك رغبة في الهروب من المظاهر والتغيير، في هذا السياق يصبح العدم موضوعاً للإرادة، حيث يتخذ طابعاً عدائياً تجاه الحياة ويفرض قبول شروطها الأساسية، ومع ذلك تبقى هذه الإرادة، حتى وإن كانت موجهة نحو العدم مكسباً دائماً، إذ يفضل الإنسان أن يمتلك إرادة العدم بدلاً من أن يكون بلا إرادة على الإطلاق.

نتائج الفصل:

عند نيتشه حدث تحوّل جذري في كيفية تناول موضوع الأخلاق، يتمثل هذا التغيير في التخلي الكامل عن التفكير في نظرية الأخلاق، والتركيز بدلاً من ذلك على واقع الأخلاق، فهو يسعى للإجابة على السؤال الأساسي "من الذي أنشأ الأخلاق؟" بأسلوب الباحث العالم، وليس كالمتمأمل الحالم.

نيتشه من خلال استكشافه لمختلف النظم الأخلاقية، سواء العميقة أو السطحية، التي ظهرت عبر التاريخ أو لا تزال قائمة، لاحظ وجود سمات معينة تتكرر بشكل منتظم وترتبط ببعضها البعض، وقد توصل إلى اكتشاف وجود نوعين رئيسيين من الأخلاق تختلفان اختلافاً جذرياً: أخلاق للسلادة وأخرى للعبودية.

تتميز أخلاق السلادة بأنها تعكس قوة الأفراد، حيث يشعرون دائماً بالقوة والوفرة والتفوق نتيجة شعورهم بالاكتمال، هذه الأخلاق تنبع من طبيعة الأرستقراطيين، مما يؤهلهم للسيطرة، والقيمتان الأساسيتان في هذه الأخلاق هما الجيد والبريء.

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §21, p28.

لن يقبل الشعب بالوضع الذي فرضه الأرستقراطيون عليهم، بل يسعون للثورة عليه، وبما أنهم ضعفاء ولا يستطيعون مواجهة تصرفات الأرستقراطيين بالمثل، فإنهم يعملون على تغيير القيم ويطلقون عليها أسماء مختلفة عما هي عليه في الواقع، فيبتكرون نظاماً أخلاقياً يهدف إلى الحد من هذه السيطرة، هذا النظام يدعو إلى التعاطف والمشاركة والرحمة، وغيرها من القيم التي تهدف في النهاية إلى حماية الضعفاء من الأقوياء من خلال تفويض سلطتهم، والقيمتان الأساسيتان في هذا النظام الأخلاقي هما الخير والشر.

تتبع جميع هذه القيم الجديدة التي يتبناها العبيد من حقد عميق ومكثف تجاه النبلاء الأقوياء، هذا الشعور ينتظر الفرصة المناسبة للانتقام، حيث لا يجدون تعويضاً عن معاناتهم سوى من خلال انتقام خيالي، ويعتبرون أن بؤسهم هو علامة على تميزهم واختيار الله لهم، وقد يُنظر إلى هذا الشقاء كاختبار أو درس لهم.

إذا تمكنت هذه الثورة من تحقيق النجاح واستطاعت هذه القيم أن تسود وتنتشر، نشأت فئة من هؤلاء العبيد الذين تميزوا بالدهاء والمكر، وأتقنوا المناورات والكيد، كانت مهمتهم حماية هذه القيم ورعايتها من تهديدات الأرستقراطيين، بالإضافة إلى حمايتها من أنفسهم، لضمان عدم حدوث انقسام داخل هذه الفئة أو خروج عن القيم المتفق عليها، لذا يجب على كل فرد منهم أن يكون عدواً شرساً ومحتقراً لكل ما هو صحي وقوي، ومع ذلك فإن هذه الحرب ليست قائمة على القوة والشجاعة والمغامرة، بل تعتمد على الخبث والدناءة، وتستخدم الكيد والدسائس والفتن كوسائل لتحقيق أهدافها.

يعتقد نيتشه أن تمرد العبيد في الأخلاق بدأ مع اليهود، حيث كانوا أول من ساهم في تغيير سلم القيم، ففي الوقت الذي كانت فيه القيم مرتبطة بالقوة والحرب والعنف، مما يعزز من طاقة الحياة في عصر الرومان، أصبحت هذه القيم نفسها موضع إدانة، إذ تحولت جميع القيم لتصبح مرتبطة بالعالم الآخر.

يخوض نيتشه صراعاً قوياً ضد التراث الأخلاقي الذي تبنته المجتمعات الغربية، والذي يُعتبر بمثابة استمرار لأخلاق العبيد، يبدو أن هذا التراث متجذر بعمق في تلك المجتمعات، وكأنه مجموعة من المبادئ الأبدية التي لا يجرؤ أحد على مناقشتها، يتجلى هذا التراث الأخلاقي في الفلسفة العقلانية والزهد الديني، وهما العنصران اللذان تكونت من مزيجهما تلك المبادئ الأساسية التي يسير عليها الإنسان الحديث.

الفصل السادس:

محاولة لخلق معنى مثبت للحياة

المبحث الأول: الإنسان المتفوق

المبحث الثاني: إرادة القوة الخلاقة

المبحث الثالث: هكذا نصف الوجود الواقعي

المبحث الرابع: بناء ثقافة جديدة تعتمد على الفن المأساوي

نتائج الفصل.

يواجه المجتمع الغربي تحدياً يتمثل في أزمة المعنى، حيث تُعتبر العدمية تجسيدا لهذا التحدي الذي أثر بعمق على الحضارة في مختلف جوانبها الثقافية، تعكس هذه الأزمة صورة الإنسان في حالة من الإحباط واليأس، ليعيش وكأنه محاصر في ثقافة منحطة، مما يؤدي إلى شعوره بالاعترا ب، يقدم نيتشه تشخيصا لحالة الانحطاط هذه، حيث يلاحظ وجود تناقض بين العالم الذي نُعظمه ونُقَدِّسه والعالم الذي نعيش فيه، ويشير إلى أنه لم يعد أمامنا سوى خيارين: إما القضاء على تقديسنا، أو إنهاء وجودنا¹، وبالتالي فقد سار العالم حتى الآن خلف أوهام واعتمد على قيم زائفة، وكانت النتيجة الوصول إلى هذا المصير المؤسف.

المبحث الأول: الإنسان المتفوق

لقد أشرنا سابقا إلى أن الحداثة منحت الإنسان فرصة لاستعادة ذاته من خلال إعلان موت الإله، ومع ذلك لم يستطع الاستفادة من هذه اللحظة العظيمة، بل ظل مرتبطا بالظلال التي كانت دائما عائقا أمامه في خلق قيم جديدة، أما الآن ومع ظهور إرادة نيتشه في تحطيم هذه الظلال والتغلب عليها، فقد حان الوقت ليعيش الإنسان المتفوق^{*} The Superior Human

إنها دعوة للبشر للتحرك نحو فكرة أن كل فرد يجب أن يعيد اكتشاف ذاته ليتمكن من الاستمتاع بحياة الحياة، فلا توجد قوة خارجية تتحكم في مصير الإنسان أو تضع له إطارا متعاليا للمعاني، بل إن الفرد هو المسؤول عن أفعاله، وهو من يحدد الطريقة التي يشكل بها عالمه، ها هو زرادشت يغادر كهفه^{**} ليخاطب الناس، ويقف أمام حشد منهم ليخبرهم أنه جاء إليهم بنبا الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن تتفوق عليه، فماذا أعددتُم للتفوق عليه؟².

¹ - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, Le Nihilisme européen, §1, p31.

^{*} - اصطلاح استخدمه نيتشه للإشارة إلى إنسان تتمتع طبيعته بالتوازن وقد اكتملت قوته، أوجده ليعارض به اصطلاح الإنسان الأخير، من حيث هو الإنسان الحديث، أو الإنسان الطيب، أو الإنسان العادي الذي قال به المسيحيون والعدميون، هذا الإنسان هو خالق لقيم جديدة تعزز الحياة، وهو مستعد لتحمل المخاطر المرتبطة بها.

^{**} - قدّم نيتشه شخصية زرادشت كرجل في الثلاثين من عمره، ترك وطنه متوجها إلى الجبال، حيث استمتع بعزلته ووحدته لمدة عشر سنوات دون ملل، ومع مرور الوقت، امتلأ قلبه بالحكمة، مثل النحلة التي تجمع العسل، يشبه زرادشت في هذا العبد المتحرر من أسطورة الكهف لأفلاطون، ويشعر بدافع قوي للعودة إلى أعماق الوديان حيث يعيش البشر، ليمنحهم ما لديه، إنه يتوق إلى أن يصبح إنسانا مرة أخرى، لذا يبدأ مؤلف زرادشت برحلته نحو الناس والجمهور.

² - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra: A Book for All and None**, Op. cit, First Part, , Zarathustra's Prologue, §3, P6.

الخطاب المركزي يتناول ضرورة تجاوز الإنسان الحديث لذاته، حيث يعكس واقع مجموعة من الأفراد الذين فقدوا القدرة على التغلب على تحدياتهم الداخلية، لقد خمدت فيهم روح الإبداع، وأصبحوا يشعرون بالملل من الحياة، وفقدوا الإيمان بأي شيء، أو أنهم لا يزالون متمسكين بظلال إله ميت، نتيجة لذلك فقدوا معنى الحياة، مما دفعهم للاستسلام لقيم اليأس والخضوع والجبن، وقبول القدر المحتوم.

يعتقد نيتشه أن الإنسان الحديث يعاني من مرض وضعف يؤثران على جسده وإرادته، مما جعله ينفر من الحياة، وهذا هو معنى الانحطاط، الذي يظهر في مختلف جوانب حياة الإنسان الحديث، فقد شهدت الحياة تراجعاً، وأصبح الإنسان عبئاً ثقيلاً على نفسه، محملاً بالعديد من الأوهام، تماماً كما يفعل الجمل الذي ينحني على ركبتيه ويستسلم طواعية للأحمال.

ما الذي ينبغي أن يكون؟ يجب أن يكون التفوق هو الهدف، فداخل كل إنسان بطل ينتظر أن يتحرر، لكنه مكبل بقوى الارتكاس وإرادة الإنكار فيه، بتعبير آخر يمكننا القول بأن نيتشه يحتقر في الإنسان الحديث ما هو عليه، حيث إن حياته مليئة بالمخاطر وهي فوق ذلك تفتقر إلى المعنى، يمكن لمهجر أن ينهيها¹ على حد تعبيره، ومع ذلك فإنه يثمن ما يمكن أن يحققه الإنسان من خلال خلق معنى لحياته ووجوده، لكن أفكاره* لا تزال بعيدة عن فهم هؤلاء الناس وإدراكهم.

إنها رحلة نحو اكتشاف الذات، وتعتبر من أكبر التحديات الوجودية وأكثرها ثراءً، إنها المفتاح لفهم هويتنا وما نرغب فيه في الحياة، تتعلق هذه الرحلة بإدراك الفرد لأفكاره ومشاعره ورغباته، وفهم نقاط قوته وضعفه، فبعض الأشخاص قد يؤلدون من جديد بعد تجاربهم الصعبة، كما يقول زرادشت: "لقد حان الوقت لتسألوا: ما قيمة شرفي إذا لم يُبرر الحياة نفسها؟ وما أهمية القوى العاقلة إذا لم تطلب الحكمة بجوع الأسد"².

¹ - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §7, P16.

* - من الأفكار التي تم فهمها واستخدامها بشكل خاطئ إلى حد كبير هي فكرة الإنسان المتفوق عند نيتشه، لذلك أكد مراراً أن مؤلفاته لا يمكن استيعابها إذا تم قراءتها بسرعة وعجلة، وقد ناشد قراءه في مقدمات أعماله بضرورة توخي الحذر أثناء قراءة ما يكتب، مشدداً على أهمية إعادة قراءة النصوص ليس فقط بعناية، بل أيضاً بنظرة تتقرب ما يسبقها وما يليها، "بذخيرة عقلية، وبأبواب مفتوحة، وبأصابع رقيقة وأعين نافذة بصيرة"، لأن الاستعارات والتشبيهات التي استخدمها في "زرادشت" تترك المعاني مفتوحة، ففي بعض الأحيان، يصور الإنسان "كالبرق الساطع من الغيوم السوداء"، وفي أحيان أخرى، يجسد الإنسان في صورة المحيط حيث يقول: "إن هو إلا ذلك المحيط تُغرقون احتفاركم في أغواره".

² - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §3, P8.

فالإنسان المتفوق ليس كائنا بعيدا عنا، بل هو موجود في أعماقنا*، يتواجد في داخلنا كل من السيد والعبد، وأنا ننتمي إلى الأسياد بقدر ما نتجاوز أنفسنا ونتغلب على ميول العبيد التي تسكن فينا، سنظل عبيدا ما لم نتمكن من السيطرة على أنفسنا والتفوق على ذاتنا، "حان الوقت لبلغ الاحتقار أشده فيكم"¹، لذا كان من الضروري أن يسعى الإنسان إلى إيجاد الخلاص في داخله بدلا من البحث عنه في الخارج، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال تدمير العبد الذي يسكن داخله عبر تجاوزه.

لكن قبل أن يوضح لنا نيتشه كيفية فهم تجاوز الإنسان لنفسه، يبين لنا بشكل خاص كيف لا ينبغي أن نفهم هذا التجاوز، يجب ألا نعتبره كما تفعل الأخلاق والفلسفة السائدة، تجاوزا للجسد بواسطة الروح، فقد كان هناك تاريخيا تراتب بين هذين الجانبين من الطبيعة البشرية، حيث يتجاذب كل منهما الآخر، كما أشار ذلك باسكال حينما اعتبر أن الإنسان كائن هجين ينحدر في آن واحد من الملائكة والحيوانات²، وهنا أيضا تتفق أثينا وأورشليم تماما.

نيتشه هنا يعترف بصعوبة فهم طبيعة الإنسان، حيث يوسع أفكار باسكال لتشمل ما هو أدنى من الحيوان وما هو أعلى من الملائكة، مما يجعل الإنسان كائنا هجينا يجمع بين النبات والشبح، لكنه يوضح في الوقت نفسه أن هذا الكائن الجديد الذي يتنبأ بظهوره، يجب ألا يتخلى عن أي من هذين الجانبين في طبيعته لصالح الآخر، حيث يتساءل: "هل طلبت منكم أن تصبحوا أشباحا أو نباتات؟"³، فنيتشه لا يسعى لإجبار الإنسان على تدمير جزء من طبيعته لصالح الجزء الآخر، ولا يفرض عليه الاختيار بين هاتين الطبيعتين، بل يدعوه إلى تطوير كلا الجانبين من طبيعته بشكل كامل.

* - إنه ليس كائنا خارجيا يأتي ليعوض الإنسان الحديث، بل هو في الواقع جزء منه، متجذر فيه، ففيلسوف مثل نيتشه لا يسعى إلى هدم الإنسان الحديث أو رفضه بشكل مطلق، بل يهدف إلى تصحيح مساره وإعادة توجيهه.

¹ - نيتشه فريدرش، هكذا تكلم زرادشت: كتاب للكل ولا لأحد، ترجمة: فيليكس فارس، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، 1938، مستهل زرادشت، فقرة 3، ص 7.

² - نقلا عن: بيار هير سوفرين، زرادشت نيتشه، مرجع سابق، ص 57.

³ - Nietzsche Friedrich, Thus Spake Zarathustra, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §3, P7.

نحن ندرك تماما تأثير نظرية التطور التي طرحها داروين على أفكار نيتشه، خاصة فيما يتعلق بالصراع من أجل البقاء للأصلح، ومع ذلك يرى نيتشه أن هذه الفكرة ليست دقيقة تماما، حيث يعتبر أن النزاع يدور حول السيطرة والهيمنة بدلا من مجرد البقاء، وعلى الرغم من أن مؤيدي التفسير التطوري لفكرة الإنسان المتفوق لدى نيتشه قد وجدوا نصوصا تدعم وجهة نظرهم^{*}، إلا أنه من المهم أن نلاحظ أن نيتشه يضيف بعد ذلك مباشرة، لكنكم أبقيتم على معظم ما تنسم به ديدان الأرض¹.

لذلك لا ينبغي فهم هذا المقطع بشكل حربي، ففكرة نيتشه عن الإنسان المتفوق تختلف عن مجرد التقدم التطوري الذي سيحل محل الإنسان الحالي، فالتطور لا يقول أن الإنسان لا يزال يحمل بقايا من الدود، بل يستخدم نيتشه هذه النظرية كمقارنة تربوية، كصورة تشبيهية فقط، وبالتالي فإن هذه الكلمة وغيرها^{**} من المصطلحات الحيوانية تعكس ميلا وإيقاعا ثابتا، حيث لم يتقدم الإنسان كثيرا عن مستوى الجمود الحيواني، وما زال يحمل شيئا من ماضيه البائس.

في هذا السياق يسلط نيتشه الضوء على مجموعة من الصفات الأساسية التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان المتفوق، ومن أبرزها التميز والذاتية، ويعني ذلك أهمية الحفاظ على الفروق الطبيعية بين الأفراد، بالإضافة إلى الشعور القوي بالذاتية الذي يجعل كل فرد يشعر بأنه فريد ومتميز عن الآخرين، ومن نتائج هذا التميز، يتم تصنيف الناس في طبقات متدرجة وفقا لسموهم وما حققوه في مسار التطور الإنساني.

لذلك يمثل نظام الطبقات وترتيب المنازل تجسيدا للقانون الأسمى للحياة، فعدم تساوي الحقوق يُعتبر الشرط الأساسي لوجود الحقوق في الأصل، فكلما ارتقت الحياة نحو القمة زادت شدتها، حيث تشتد البرودة حدة، وترتفع المسؤولية²، مما يجعل الثقافة العليا تتخذ شكل هرم.

^{*} - لقد سلكتم طريقا يبدأ بالدودة وينتهي بالإنسان.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §3, P7.

^{**} - يستخدم نيتشه أيضا صورة القرد، مشيرا إلى أن الإنسان كان في الماضي من جنس القرد، ومع ذلك لا يزال حتى اليوم يحتفظ بسمات القرد في طبيعته.

² - Nietzsche Friedrich, **L'Antéchrist**, Op. cit, §57, p96.

لذا لا ينبغي علينا السعي لتحقيق المساواة بين جميع الأفراد، فهذه المساواة ليست سوى دلالة على ضعف البصيرة، وتعتبر من أكبر الخدع التي تواجه طبيعة الوجود، لقد علمتنا فلسفة نيتشه أن العدالة تعني عدم وجود مساواة بين الناس، وأنه من الضروري ألا يتساووا، ولا يمكنه أن يتحدث بخلاف هذا المبدأ، وإلا فإن حبه للإنسانية يصبح مجرد ادعاء ومناورة.

لذلك يعتبر نيتشه أن هذا النوع من الإنسانية، الذي يُمثل صورة الإنسان المتفوّق، قد ظهر عدة مرات في تاريخ البشرية، لكنه كان يُعتبر حالة استثنائية يُخشى وجودها، في المقابل كان النموذج المعاكس لهذا النوع مرغوبا، نتيجة لذلك الخوف والقلق، وقد تم ترويض هذا النموذج وتربيته ليصبح كائنا خادما أو قطيعا، حيث قامت الكنيسة بترويضه ليصبح مسالما ورحيما ومتعاطفا، يسعى إلى الشفقة والاهتمام بالآخرين.

على مر العصور كانت هناك محاولات متكررة من قبل الأخلاقيين والكهنة لتربية البشرية، وقد عُرفت هذه الجهود باسم الأخلاق، لكن تلك العبارات كانت تخفي وراءها مجموعة متنوعة من الرغبات، أطلق الناس على هذه المساعي اسم الإصلاح، الذي كان يهدف إلى ترويض الإنسان وتدجين نوع معين منه، وقد جرت ملاحظات في كل مكان لاقتناص النماذج النبيلة والتميّزة، لكن ما حدث بعد ذلك هو أن ذلك النبيل الذي تم اقتياده إلى الدير تحول إلى شخص خاطئ محبوس في قفص، ليصبح إنسانا محاصرا بين قضبان أفكار مرعبة وفظيعة.

في تلك الحالة يصبح الشخص المتميّز نفسيا مهموما ومثيرا للشفقة، حيث يحمل في قلبه مشاعر الحقد والنقمة تجاه نفسه، ويغمره الغضب تجاه جميع الدوافع الحيوية، وإذا نظرنا إلى حالته من منظور فيزيولوجي، يمكننا أن نستنتج أن مرضه هو السبب الوحيد وراء ضعفه، لكن الكهنة يدّعون أنهم قد قاموا بإصلاحه لمصلحتهم.

فالمسيحية التي نشأت من جذور يهودية، والتي لا يمكن فهمها إلا كنبئة نمت في نفس التربة، تمثل هذه الحركة نقیضا لكل أخلاق التربية الانتقائية والامتياز، حيث تتجلى في صميم القيم السائدة وتنتصر لقيم الحقد والانتقام التي يمثلها البائسون والفاشلون والمحبطون، في مواجهة العنصر المتفوّق، وذلك ضمن إطار دين المحبة.

ولذلك يعتبر نيتشه أنه لم توجد إلى حد اليوم تربية حقيقية قادرة على مساعدة الإنسان في تجاوز ذاته، حيث ما ينقص المجتمع الغربي هو وجود مرتين تم إعدادهم بشكل سليم، أي عقول متفوّقة ومتميّزة، لذا يصبح من الضروري تكوين مرتين حقيقيين تكون مهمتهم تعليم الدقة في التفكير والحذر في الحكم، وقد أشار نيتشه في كتابه "شفق الأصنام" إلى أن هناك ثلاث مهام تحتاج إلى مرتين، وهي: تعلم كيفية الرؤية، كيفية التفكير، وكيفية الكلام والكتابة¹، وقد اعتبر أن الهدف من هذه المواد العلمية الثلاثة هو تحقيق ثقافة نبيلة.

كان على نيتشه الذي تجسد في شخصية الحكيم زرادشت، أن يسعى للبحث عن خاصية التميّز، لكنه لم يجد من يستمع إليه بين أفراد القطيع، كان يُنظر إليه أحياناً كمهرج يقدم عرضاً فكاهياً، وأحياناً أخرى كمدمن لا يدرك ما يقوله، وكأن الناس قد سدوا آذانهم عن كل شيء سوى موسيقى القطيع وسيمفونية الرغبة الواحدة، المساواة تسود بين الجميع، ومن يختلف شعوره عن شعور الجماعة يسير بمفرده مختاراً إلى مأوى المجانين، فإذا كان الراعي مستعداً لفعل أي شيء لإعادة نعجة ضالة إلى القطيع، فإن زرادشت يعارضه معلناً أنه جاء ليخلص خرافاً عديدة من القطيع، وهو يدرك تماماً أنه سيواجه تمرد الشعب والقطيع ضده.

لحسن الحظ أن زرادشت الذي استيقظ من سبات طويل جلب له نصيحة، حيث اكتشف حقيقة مهمة، لقد فهم في الواقع سبب فشله، وهو أنه أخطأ في اختيار جمهوره عندما خاطب الحشود، وهنا يستحضر نيتشه مرة أخرى خطاب يسوع المسيح لتلاميذه، حيث اشترط عليهم أنه إذا أرادوا اتباعه، فعليهم أن ينكروا أنفسهم، لكن زرادشت يرد قائلاً: "أنا أبحث عن رفاق أحياء يريدون أن يتبعوا أنفسهم"².

إن ما يميز هؤلاء الرفاق، كونهم ما يجعل منهم نخبة، هو إرادتهم القوية في السعي نحو التفتح وتحقيق ذواتهم بالكامل، إن رغبتهم في إثبات وخلق هويتهم تتجلى في جميع أفعالهم، وهي في جوهرها تعكس نقيض التواضع المسيحي، فاتباع الفرد لذاته يعني أيضاً خلق قيمه الخاصة، ولهذا يُقال إن رفاق زرادشت مبدعون، لأنهم يخطّون مسارات جديدة على ألواح جديدة.

¹- Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, ce que les allemands sont en train de perdre, §6, p67.

²- Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §9, P19.

لذا إذا أراد الفرد أن يتبع نفسه، يجب عليه أن يتحرر من قيود الشريعة وأن لا يطيع سوى ذاته، بالطبع لا يقصد بذلك الانصياع لنزواته كما يفعل الكثيرون، بل ينبغي عليه أن يتبع قوانينه وقيمه الخاصة، التي تُعتبر قيما لأنها ليست مفروضة بل مُبدعة، وبالتالي فإن طاعتها تعني طاعة الذات فقط، واتباعها يعني أن يتولى الشخص زمام قيادته، لذا يشير نيتشه إلى أن الحياة تتواجد في القمم، حيث يكون الهواء نقياً، بعيداً عن روائح المجتمع البشري¹.

كذلك من الصفات البارزة التي يتمتع بها الشخص المتفوق هي قدرته على المخاطرة Taking risks فهو لا يعيش حياته في هدوء وسلام، ولا يعرف التردد أو التهاون، بل يجب عليه أن يسير وفق مبدأ نبيل مليء بالحكمة والتقدير، وهو أن السر في جعل الحياة ممتعة ومثمرة يكمن في مواجهة المخاطر، لكن لا تظن أن الشخص الذي يواجه المخاطر من جميع الجهات هو شخص غير حر، بل على العكس فإن هذه المخاطر تمنحه حريته، لذا ينبغي للإنسان أن يسعى للعثور على أسمى أنواع الرجال الأحرار، الذين يستطيعون التغلب على أكبر التحديات، فالمخاطر الكبيرة تجعل منهم أشخاصاً يستحقون التقدير، وإلا ستفقد الحياة معناها.

عبّر نيتشه بوضوح عن هذا المفهوم من خلال شخصية البهلوان* في مستهل زرادشت، لكن كيف يمكننا تفسير سقوط البهلوان وفشله؟ لا يزال غير قادر على التحرر تماماً من ارتباطه بما هو فوق الطبيعة، فعلى الرغم من موت الإله، فإنه يستمر في التصرف كما لو كان الإله موجوداً، مما يجعله يشعر بثقل الذنب، يتجلى ذلك في قول البهلوان عندما أخبر زرادشت أنه لم يكن يعلم أن الشيطان سيتبع خطواته يوماً ما، لذا لا يزال البهلوان يستلهم من إرادة عدمية، فهو مؤمن بالشيطان**، ويعاني من كراهية موجهة نحو ذاته.

¹ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Troisième partie, le retour, p269.

* - بدأ هذا البهلوان بعرضه، حيث انطلق من نافذة ليتمايل على حبل مشدود بين برجين فوق الساحة المليئة بالمشاهدين، وما إن بلغ منتصف الحبل حتى انفتحت النافذة مرة أخرى، وخرج منها فتى مزين بألوان زاهية كالمهرجين، ليتبع خطوات البهلوان وهو يصرخ: "إلى الأمام، أيها الأعرج!" ثم صرخ فجأة وانقض على البهلوان، الذي التف نحو الخلف وأصابه الدوار فسقط على الأرض.

** - أجاب زرادشت قائلاً: "يا صديقي، إن ما تشير إليه ليس له وجود، فلا يوجد شيطان ولا جحيم، روحك ستفارق الحياة أسرع من جسدك، لذا لا داعي للخوف بعد الآن، فقد اخترت المخاطرة كسبيل لك، وليس في ذلك ما يعيبك". (See the: Nietzsche Friedrich, *Thus Spake Zarathustra*, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §6, P15.)

من ناحية أخرى فإن المخاطرة تجعل الفرد صارما مع نفسه ومع الآخرين، حيث يعتبرها الوسيلة الرئيسية لتعزيز قوته وتربيته على مواجهة التحديات الكبيرة والقيام بأعمال جريئة، وعندما يقدم المساعدة للمحتاجين، لا يكون ذلك بدافع الشفقة، بل بهدف استثمار طاقاته المتدفقة وتفعيل إرادته القوية، مما يمنحه شعورا بالقوة والحيوية، ويعزز من مكانته الذاتية ويتجاوزها.

فالقوي لا يحتاج إلى إثبات قوته للآخرين، فهو يتألق كالشمس عندما يمنح من كرمه وثرائه، أحيانا قد يتسبب في إيذاء الآخرين بشكل غير مقصود أثناء استخدامه لقوته بطرق إبداعية، بينما الضعيف هو الذي يؤدي الآخرين عمدا، مستمتعا بمعاناتهم التي تظهر على وجوههم، حيث يثير الاضطهاد والحقد لديه رغبة في الإيذاء.

لذا فإن الطبائع العظيمة غالبا ما تعاني أكثر مما نتوقع، إذ تواجه الشكوك حول عظمتها من قبل الحاقدين، فهي ترفض الانصياع للامتثال الجماعي كما يفعل الآخرون، ولذلك فإن الروح الحرة اعتادت على دخول هذا العالم بهدوء ومغادرته بنفس الطريقة، بغض النظر عن المتاهات والعقبات التي قد تعترض طريقها في الحياة.

إذن للوصول إلى مرحلة الإبداع، يتطلب الأمر خوض تجارب صعبة وتحولات متعددة، فبعض الأمور تحتاج إلى الألم من أجل تحقيق النجاح، ليصبح المبدع رمزا لمواجهة كل ما يدعو إلى الانحطاط ومدافعا عن القيم النبيلة الجديدة، يجب أن تكون حياته مليئة بالتحديات، وأن يمتلك القدرة على التغلب عليها، ولتحقيق ذلك ينبغي أن يتحلى بالشجاعة، بمعنى أن يكون كما وصفه نيتشه "مستهترا، متهكما، وعنيفا"¹، هذه هي الصفات التي ترغب الحكمة في أن يتحلى بها كل فرد منا.

من صفات الإنسان المتفوق أنه يتمتع بروح حرة، حيث يتمكن من التغلب على القوى العميقة للتمائل التي تسكن داخله، هذا يجعله يثور ويعترض على كل من ساهم في تشكيل هذه الثقافة من دعاة الفضائل، الذين يرى نيتشه أنهم يسعون إلى تخدير الشعوب، ولذلك يشير إلى أنه قد أدرك ما كان يسعى إليه الناس في المقام الأول عندما كانوا يبحثون عن أسس الفضائل، وهو أنهم كانوا يبحثون عن نوم هنيء².

¹ Nietzsche Frédéric, *La Généalogie de la morale*, Op. cit, troisième dissertation, §1, p122.

² Nietzsche Friedrich, *Thus Spake Zarathustra*, Op. Cit, First Part, The Academic Chairs of Virtue, P31.

لذلك فالأفعى التي لا تستطيع أن تتخلص من جلدها تواجه الهلاك، وكذلك النفوس التي تمنع من تغيير آرائها تفقد هويتها، فالذوق العام يمكن أن يتغير بفعل تأثير الأفراد والشخصيات القوية التي تُسيطر بلا خجل، حتى وإن واجهت معارضة من الجميع، لذا ينبغي على الناس أن يسلكوا في حياتهم مسارات واتجاهات متعددة، في هذا السياق نجد أن نيتشه يطلق لقب "المفكر" على الشخص الذي يفكر بطريقة تختلف عما هو متوقع منه بناء على أصله أو بيئته أو حالته أو وظيفته، أو حتى الآراء السائدة في عصره، إنه الاستثناء¹.

لذا يجب أن يتمتع الشخص المتفوق بقدرة على توسيع إرادته في مختلف مجالات حياته، ينبغي أن يكون لديه القدرة على تجاهل كل ما يعتبره تافها وضيق الأفق، حتى لو كان ذلك يتعلق بأقدس الأمور، إذا أراد أن يكون مبدعا ومتميزا، فعليه أن يبدأ بتفكيك ما تم تقديره سابقا، كما يجب أن يتحلى بالهدوء والصلابة، وأن يكون أقل ترددا، وألا يخشى من التعبير عن آرائه، وإذا لم يتمكن من القيادة، فعليه أن يسير بمفرده، في هذا السياق يشير نيتشه إلى أن العظمة لا تتحقق إلا بعيدا عن ساحة العامة والجماهير²

فإذا كنا قد اعتدنا على أن يبنى الفيلسوف أفكاره استنادا إلى حقائق مجتمعه وعصره، فإن فيلسوف نيتشه الجديد يسير في اتجاه مختلف تماما، فهو يؤسس أحكامه من خلال تفكيك الأسس التي يقوم عليها عصره المتدهور، فهو حر ومهمته هي التحرر من قيود الطاعة، إذن فالفيلسوف الأصيل بمعنى الكلمة، لن يظهر إلا عندما يتجاوز حدود السلطات التي تروج لفكرة الطاعة، فهو وحده صاحب القرار، ومهمته هي إزالة ذلك الفكر المتدني الذي تم الاتفاق عليه لقرون باعتباره الحقيقة الوحيدة.

كما يسعى دائما في تواصله مع الآخرين إلى تحويلهم إلى شيء مميز، فالأرواح الحرة هي التي تفكر بطرق غير تقليدية، حيث يقوم هؤلاء الأشخاص بتجربة أشياء جديدة ومتنوعة باستمرار، في المقابل الأرواح المقيدة تمثل القاعدة السائدة، حيث تعتمد مقاييسها على أربعة معايير تعتبرها صحيحة: الأشياء الدائمة، والتي لا تشكل عبئا علينا، والمفيدة، وما نضحي من أجله³.

¹- Nietzsche Friedrich, **Human All-Too-Human**, Op. Cit, §225, p209.

²- Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Première partie, des mouches de la place publique, p72.

³- صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999، ص222.

وهذا يعني أنه يجب أن يتجاوز جميع القيم التقليدية ويفكك الأوهام العميقة التي جاءت بها المذاهب الأخلاقية والدينية والفلسفية، كما ينبغي ألا يظل متعلقا بشخص معين، بل يجب أن يخلق بحرية فوق المعايير التقليدية للأشياء، في هذا السياق يشير نيتشه في كتابه* إلى أن المفكر الحر يتجول في أعالي الجبال ويستهزئ بجميع مآسي الحياة، ومشاهدها، بل وبالحياة ذاتها¹.

فالروح الحرة ترتفع فوق سائر النفوس الإنسانية، فهي الحرية التي تحررت من الأوهام الثقيلة وأعباء الروح، ولم تعد تُعير اهتماما إلا لمعنى الرفعة، لقد طرأ تغيير على رؤيتها للأشياء، مما يمنحها القدرة على الاقتراب من ذاتها واكتشاف معنى جديد للحياة، كما قال زرادشت مخاطبا الجماهير: "أنتم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تتوقون إلى الارتفاع، أما أنا فقد ارتفعت حتى أصبحت أطلع إلى ما تحت قدمي"².

من جهة أخرى يشير نيتشه إلى أن من خصائص الإنسان المتفوق شعوره بالمسؤولية ورؤيته المستقبلية، فهو يعمل على مساعدة البشرية في مراجعة نفسها، ويسعى إلى توفير لحظة من الوعي العميق تجاه الذات، فالفيلسوف الذي يخلق قيمة جديدة يساهم في تشكيل مستقبل الإنسانية في الوقت نفسه، لذا يجب عليه معالجة مسألة التقويم وتحديد تراتبية القيم.

إن تشخيص نيتشه للحاضر يكشف عن نقاط الضعف في الإرادة التي تتحكم في الإنسان الحديث، مما يجعله فيلسوفا مبتكرا يتطلع إلى استشراف المستقبل، من خلال نقده للحاضر يهدف إلى بناء رؤية شاملة لمستقبل المجتمع الغربي، ويعتقد أن مهمته تكمن في تمهيد الطريق أمام الإنسانية للعودة إلى ذاتها، وهو ما يشبه لحظة الظهيرة التي تختفي فيها كل الظلال، مما يتيح للإنسانية رؤية نفسها بوضوح.

ألم يذكر نيتشه في كتابه "عدو المسيح" أنه ينتمي إلى فئة نادرة من الأشخاص الذين قد لا يكون هناك أحد منهم قد وُلد بعد، وكيف يمكنني أن أعتبر نفسي جزءا من أولئك الذين يستمعون إليّ اليوم، في حين أنه يقول:

* - يعتبر نيتشه كتابه "هكذا تكلم زرادشت" متميزا بين جميع أعماله، حيث يعلن أنه قدم للبشرية أعظم هدية لم تُمنح من قبل، هذا الكتاب الذي يحمل في طياته نبرة تعكس تاريخا يمتد لآلاف السنين، لا يُعتبر فقط أعظم كتاب على الإطلاق، بل هو أيضا الأكثر عمقا، إنه عمل ينبع من أعماق الأسرار التي تحتوي على كنوز الحقيقة، وكأنه بحر لا ينضب، حيث لا يُرفع دلو دون أن يعود محملا بالذهب والخير الوفير. (See the: Nietzsche Friedrich, *Ecce Homo*, Op. Cit, Préface, §4.)

¹ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Première partie, lire et écrire, p55.

² - Ibid, p54.

"الغد هو ما يخصني، وبعض المولودين في المستقبل"¹ لقد قدم نيتشه فلسفة جديدة تركز على التغيير والتحول، بدلا من الثبات والسكون.

من المهم أن يشعر الفرد المتفوق بالمسؤولية تجاه نفسه، وأن يكون ناقدا للقيم السائدة في عصره، ينبغي عليه أن يعبر عن اعتراضه على القيم القديمة التي وضعها أهل الصلاح والعدل، إذ إن هؤلاء لا يحملون كراهية لأحد كما يحملونها للمبدع، لأنه في نظرهم يمثل التهديد الذي يسعى لتدمير ما هو قائم، وفي هذا السياق يقول نيتشه: "هل أدركتم يا إخوتي، أن الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبل الإنسانية يكمن في مبادئ أهل الصلاح والعدل؟ فلنحطم الصالحين والعادلين"².

هذا ما يكرره نيتشه باستمرار لرفاقه الذين يتطلعون لدخول مستقبل الإنسانية، وهو مستقبل يجب أن يكون مختلفا تماما عن الحاضر الذي يعيشه الإنسان الحديث، فالشخص الذي يكتشف طبيعة الإنسان لا يمكنه تجاهل اكتشاف مستقبل الإنسانية، وهو يطلب منهم ألا يكونوا مقيدين بالماضي، بل أن يبدعوا في تشكيل المستقبل، يقول زرادشت مخاطبا رفاقة: "يجب أن يتجه نبلكم نحو ما هو أمامكم، وليس إلى ما خلفكم، وعليكم أن تبتعدوا عن جميع البلدان والمدن التي عاش فيها أجدادكم"³.

المبحث الثاني: إرادة القوة الخلاقة

ظهرت فكرة نيتشه حول إرادة القوة في سياق رؤية شوبنهاور لإرادة الحياة، بالإضافة إلى نظرية داروين المتعلقة بالصراع من أجل البقاء للأصلح، بالنسبة لشوبنهاور تركز فلسفته على مفهوم إرادة الحياة، وقد بدأ ذلك مع صدور كتابه الرئيسي "العالم كإرادة وتمثلا" * The world as will and representation حيث اعتبر أن

¹ - نيتشه فريدريك، **عدو المسيح**، ترجمة: جورج ميخائيل ديب، الطبعة الثانية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2005، مقدمة، ص 21.

² - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, Third Part, Old And New Tables, §27, P260.

³ - Ibid, §12, P248.

* - في سن الثامنة عشر، قرأ نيتشه أعمال الفيلسوف شوبنهاور، مما ترك أثرا عميقا في نفسه، فقد وجد في فلسفته إجابات لأسئلته المقلقة، مما أدى إلى تحول جذري في أفكاره، انتقل من كونه مسيحيا ملتزما إلى معارض للمسيحية وأخلاقيها، وعندما أنهى قراءة كتاب شوبنهاور، قرر قطع صلته بماضيه وبدأ حياة جديدة برؤية مغايرة تماما، وصف الكتاب بقوله: "إنه مرآة تعكس لي العالم والحياة، بل وحتى طبيعة نفسي بصورة مهيبة، بدا لي أن شوبنهاور كان يتحدث إلي شخصا، وقد شعرت بشغفه، وكأنني أراه حاضرا أمامي في كل سطر، وكأنه يناديني بصوت عالٍ". (أنظر: عوض رمسيس، **ملحدون محدثون ومعاصرون**، الطبعة الأولى، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 1998، ص 18).

الإرادة هي الجوهر الأساسي الذي يحدد كل فعل نقوم به في العالم، ووفقا له فإن العالم المرئي ليس سوى مرآة تعكس الإرادة¹، التي تسكن فينا وتوجهنا دون أن نكون واعين أو مدركين لذلك.

بناء على هذا المنطق، فإن سلطة العقل* على الإرادة تفقد وجودها، إذ تصبح جزءا تابعا لها، فكل الكائنات الحية بما في ذلك الإنسان تتصرف وفقا لإرادتها، سواء كانت الأفعال جيدة أم سيئة، ثم يأتي دور العقل لتبرير تلك الأفعال، فنحن لا نريد شيئا لأننا وجدنا أسبابا له، ولكن نجد أسبابا له لأننا نريده، على حد تعبير الفيلسوف باروخ سبينوزا** Baruch Spinoza (1677-1632) لا نرغب في الأشياء لأنها جيدة، بل نعتبرها جيدة لأننا نرغب فيها².

كل ما نشهده في الطبيعة من صراعات وتغيرات وانتصارات يُعتبر أساسيا للإرادة، حيث تعكس هذه الظواهر الحياة في العالم، فجميع الكائنات بمختلف أنواعها تسعى إلى إرادة الحياة، ولا يمكن للطبيعة أن تستمر إلا من خلال هذا الصراع، فبدون هذا الصراع لكنت الأشياء متشابهة تماما دون أي تميز.

أما فيما يتعلق بنظرية داروين، فقد افترض أن الأفراد الذين يمتلكون صفات تتناسب مع بيئتهم هم من ينجون ويتكاثرون، بينما الأفراد الذين يحملون صفات غير ملائمة يختفون أو يفشلون في التكاثر، مما يؤدي إلى اختفاء تلك الصفات من المجموعة مع مرور الزمن، وبالتالي تستمر فقط الحيوانات الأكثر ملاءمة للبيئة، وقد أطلق

¹- Schopenhauer Arthur, **Le monde comme volonté et comme représentation**, Trad: A. Burdeau, Livre troisième, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1966, §54, p350.

* - لذا من غير المناسب قراءة مفهوم الإرادة عند شوبنهاور من منظور ديكارت، ومن يفعل ذلك فإنه يعبر عن قصور فلسفي عميق، فبالنسبة لديكارت العقل هو الجوهر الأساسي، وبالتالي فإن الإرادة تعتمد كلياً على العقل في اتخاذ قراراتها، حيث أن العقل هو الذي يضيء لها الطريق، والكوجيتو هو أكبر دليل على ذلك، أي نعي ما نريد لأننا نعقل إرادتنا، لكن شوبنهاور خلافاً لذلك يرى أن الإرادة هي الجوهر المحدد لكل فعل نقوم به، لأنها توجد في ذاتها ويمكننا الإحساس بها دون أي وعي، وهي تدفعنا بشكل أعمى نحو الحياة، بينما العقل هو خادم لها، وهذا الأمر واضح وبديهي بالنسبة لفيلسوف قام بتقويض العقل، كما عبّر عنه جورج لوكاتش Lukacs George

** - فيلسوف هولندي يُعتبر من أبرز فلاسفة عصر التنوير في القرن السابع عشر، بدأ في عام 1661 بكتابة مؤلفه الأول "رسالة في إصلاح العقل"، لكنه لم يكمل هذا العمل، في عام 1663، أصدر كتاب "مبادئ فلسفة ديكارت" و"أفكار ميتافيزيقية" في مجلد واحد، ثم في عام 1670، نشر رسالته "في اللاهوت والسياسة"، ولكن دون أن يذكر اسمه خوفاً من الاضطهاد والقمع، كما تراجع عن نشر كتابه "علم الأخلاق"، الذي استغرق منه خمسة عشر عاماً في كتابته، بسبب مخاوف من أعدائه. (أنظر: جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة**، مرجع سابق، ص359).

² - نقلا عن: عبد الكريم مباركي، **مفهوم الإرادة لدى أرثور شوبنهاور**، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 7، العدد 62، مركز جيل البحث العلمي، لبنان، مارس 2020، ص37.

هربرت سبنسر (1820-1903) Herbert Spencer على هذه العملية اسم "البقاء للأصلح"، ونتيجة لذلك فإن النجاح والبقاء يكونان للأصلح، وليس المقصود بالأصلح هنا الأقوى أو الأكبر أو الأجل، بل الأكثر قدرة على التكيف مع البيئة.

إذن ما ينتقده نيتشه في أفكار داروين وشوبنهاور هو أن جوهر الوجود لا يكمن في "إرادة الحياة"، بل في "إرادة القوة"، التي تعكس الرغبة في السيطرة، وهذا يشير إلى أن قدرة الإنسان على التحكم في الأمور هي العنصر الأساسي، كما أن الصراع والنزاع لا يحدثان من أجل الحفاظ على الحياة واستمرار البقاء، بل من أجل تحقيق السيطرة وتعزيز القوة.

فمن ناحية داروين، لا ينبغي أن نعتبر الحياة مجرد صراع من أجل البقاء، فتلك تُعتبر حالة استثنائية، بل هي في الواقع تنافس على السيادة والنمو والتوسع، إذ أن الطبيعة العامة للحياة لا تعتمد على الحاجة أو ظروف القحط والمجاعة، بل بالأحرى على الثراء الوفرة، وعندما يحدث صراع فإنه يكون من أجل السيطرة والهيمنة.

لذلك يعتبر نيتشه أنه حتى وإن اعترفنا بوجود هذا الصراع، فإن نهايته معاكسة لتلك التي يتمناها داروين، فالصراع ينتهي على حساب الأقوياء وذوي الامتيازات¹، حيث لا تتطور الأنواع نحو الكمال، بل إن الضعفاء يواصلون فرض سيطرتهم على الأقوياء، وذلك لأنهم يمثلون العدد الأكبر، وإرادة الضعف والعجز أكثر فطنة وعقلاً^{**}، فمن ورائه يكمن الحذر والصبر والحيلة والتستر، وكل ما يتعلق بالتقنّع والخداع من أجل الحفاظ على الذات.

فيما يتعلق بما يسميه شوبنهاور "إرادة الحياة"، فإن هذه الإرادة ليست موجودة بالمعنى الحقيقي، فالشخص الذي يستمتع بالحياة لا يمكنه أن يسعى للحصول عليها، إذ توجد أمور عديدة يعتبرها الأحياء أسمى من الحياة نفسها، ولولا وجود إرادة القوة، لما استطاع الإنسان أن يرى أشياء تفوق الحياة، لذلك يؤكد نيتشه على وجود إرادة

* - فيلسوف بريطاني، مؤلف كتاب "الرجل ضد الدولة"، قدم رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها، كان سبنسر، وليس داروين، هو من ابتكر مصطلح "البقاء للأصلح"، على الرغم من أن هذا القول يُنسب عادةً إلى داروين، ساهم سبنسر في تعزيز مفهوم الارتقاء وأضفى عليه أبعاداً اجتماعية، مما أدى إلى ظهور ما يُعرف لاحقاً بالدارونية الاجتماعية، وبالتالي يُعتبر سبنسر واحداً من رواد علم الاجتماع الحديث. (أنظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مرجع سابق، ص 356).

¹ - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, Flâneries inactuelles, §14, p82.

** - لقد غفل داروين عن العقل، وهذه سمة إنجليزية!

القوة في كل كائن حي، حتى أنه رأى الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة¹، كما أننا لو اعتمدنا على تصور شوبنهاور، فنحن هنا نسيء فهم الحياة، حيث ستبدو لنا فقيرة، لكن في الواقع الحياة ليست سوى حالة خاصة من إرادة القوة، فكل موجود يكافح من أجل تحقيق شكل من أشكال إرادة القوة، إذن ما الذي يمكن أن نستنتجه من كل هذا؟ إن إرادة القوة تشكل جوهر الوجود.

تخيلوا نظاما يشبه الطبيعة، إنه إسراف بلا حدود، غير مبال، بلا نوايا أو اعتبارات، وبدون رحمة أو عدالة، إنه نظام يجمع بين الخصوبة والعقم في الوقت نفسه، ويعكس ترددا وقلقا وحيرة، تخيلوا أن تتحول اللامبالاة إلى قوة في الطبيعة، كيف يمكننا العيش وفقا لهذه اللامبالاة؟² هل نفهم من هذا أن الحياة إرادة تقويم وتفضيل.

هكذا تساءل نيتشه عن جوهر الحياة مخاطبا الرواقين الذين يسعون للعيش وفقا لقوانين الطبيعة*، وقد أشار إلى أن الطبيعة لا نهائية، ولا مبالية، وغنية بشكل مفرط، وغير عادلة، وغير هادفة، لمواجهة هذه اللامبالاة (إرادة تفضيل)، يجب على كل كائن حي أن ينفي ويرفض أيضا، وبالتالي فإن الحياة تُعتبر ساحة للتقويم والصراع والهيمنة، حيث تدفعنا لوضع القيم، ومع ذلك فإن المعنى والقيمة يتغيران بناء على نوع الإرادة، التي يمكن أن تكون مثبتة أو نافية.

فلكي يعيش الإنسان يتعين عليه أن يبتكر قيما، مما يعني أنه يقوم بعملية المفاضلة والموازنة، حيث يمنح قيمة أكبر لشيء معين مقارنة بآخر، ويميل نحو هذا الشيء بدلا من غيره، وهذا التقويم هو جوهر الوجود ذاته، فعندما نقول "لا"، نحن نعبر عن هويتنا وجوهر وجودنا، فالحياة والوجود هما وجهان لعملة واحدة، حيث يعتمد كلاهما على عملية التقويم.

لذا بدأ نيتشه في صياغة قيم جديدة، حيث يتساءل: ما الذي يُعتبر جيدا؟ كل ما يُعزز الشعور بالقوة في الإنسان، وما الذي يُعتبر سيئا؟ كل ما ينبع من الضعف، وما هي السعادة؟ هي الإحساس بنمو القوة وزيادتها، والشعور بالتغلب على التحديات، السعادة ليست مجرد شعور بالرضا، بل هي جهد مستمر نحو تحقيق المزيد من

¹ - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, Second Part, Self-Surpassing, P136.

² - Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil**, Op. cit, Prejudices of Philosophers, §9, P13.

* - لذا لا يمكن أن يكون الرواقون قد قصدوا ما يقولونه حرفيا، بل من المحتمل أن يكون المعنى الحقيقي لما يرغبون فيه هو فرض الرواقية على الطبيعة ذاتها، أي تشكيل الطبيعة وفقا لرؤيتهم ومثالهم، وبالتالي إسقاط إرادتهم على العالم الطبيعي، ومن هنا يمكن اعتبار الفلسفة نوعا من الطغيان، إذ تعبر عن إرادة القوة في أسمى تجلياتها الروحية، وهي تعكس إرادة الخلق.

القوة، وليست حالة من السلام الدائم، بل تتطلب خوض المعارك، وليست الفضيلة (الأخلاق المخدرة)، بل الشجاعة¹، ولكن من هو الضعيف ومن هو القوي؟

الطبائع الضعيفة تفتقر* إلى القدرة على إثبات وجودها وواقعها، مما يدفعها إلى تبني أخلاق تتناقض مع قيم الأقوياء، فهي تعلي من شأن فضائل المساواة والشفقة والرحمة، وتسعى إلى إلغاء الفروق الفردية بين النبلاء والضعيعين، كما تحاول القضاء على الطبقة الأرستقراطية التي تمثل أساس الحضارة، والنتيجة هي النواهي والتحريمات التي تفرضها على النبلاء، والتي تتجلى في أشكال مثل المسيحية والمذاهب الديمقراطية والاشتراكية، كل ذلك يعكس أشكالا غير مباشرة لإرادة القوة، حيث يسعى من يعجز عن الوصول إلى مرتبة الأقوياء إلى جذبهم إلى الأسفل تحت شعار "الإخاء"².

على النقيض من ذلك تتميز الشخصيات القوية بتوازنها الروحي، حيث تتجه جميع قواها الفاعلة نحو التفاعل الإيجابي مع الحياة، تمتلك القدرة على مقاومة أي إغراء، بل تستطيع تحويله إلى جزء من طبيعتها، فتستوعبه وتدبجه في مسار حياتها، تواجه أي فعل برد فعل قوي، ليس لتبتعد عنه أو تتجنبه، بل لتسيطر عليه وتخضعه لإرادتها، تتقبل التحديات الكبيرة، وتؤمن بأن "ما لا يقتلني يجعلني أكثر قوة"³.

إذن فالاختلاف بين الحضارات العظيمة والحضارات الضعيفة، يظهر في كيفية نظر كل منهما إلى الحياة، فالحضارات العظيمة تعبّر عن قبولها للحياة وتؤكد على قيمتها، بينما الحضارات الضعيفة تنكر هذه القيمة وتفندها، هذا الإنكار يعيق إرادة القوة ويضعف الروح الإنسانية، مما يشكل تهديدا لتقدم الحضارة ويؤدي إلى تدهورها وزوالها.

¹ - Nietzsche Friedrich, *L'Antéchrist*, Op. cit, §2, pp4-5.

* - أثر على نيتشه قوله: كم هزئت من أولئك الضعفاء الذين يعتبرون أنفسهم صالحين لمجرد أن لا يخالب لهم.

² - Allen, E.L, *From Plato to Nietzsche*, 2nd Edition, Fawcett World Library, New York, 1964, p177.

³ - Nietzsche Friedrich, *Le Crépuscule des Idoles*, Op. cit, Maximes et pointes, §8, p6.

ومع ذلك ينبغي عدم الخلط بين هذه الإرادة وبين مجرد النية، إذ لا يمكن الحكم على قوة الإرادة إلا من خلال قدرتها على الانتقال من النية إلى الفعل، يجب أن تتجلى إرادة القوة في أنشطة فعلية، كما قال زرادشت: "أحب من يعمل ويخترع"¹، فالإرادة التي تظل محصورة في النوايا ليست سوى وهم، وهي في الواقع إرادة مرهقة ومتعبة، حيث يحدث الخطر في كل تردد، إنما الدافع الحقيقي في النفس، والعامل الأساسي في الجماعة والدولة.

في النفس وما يصدر عنها من حالات، يمكن للمرء أن يلاحظ وجود إرادة القوة، فالأشخاص ذوو الطبائع القوية يسعون يجد للعثور على أقرانهم الذين يتمتعون بنفس الصفات، ويبحثون عن النضال والتنافس معهم قدر الإمكان، أما الطبائع الضعيفة فلا يمتلكون القدرة على خوض مغامرات كبرى مثل تلك التي تقوم بها الطبائع القوية، لذا يتجهون بدلا من ذلك نحو الشفقة، حيث يجدون فيها شعورا مريحا بالقوة.

حيث نجدها تظهر بشكل بارز في مجال الأخلاق، حيث نلاحظ كيف تنشأ القيم الأخلاقية من صراع السلطة والقوة بين السادة والعبيد، يقوم العبيد بابتكار قيم أخلاقية ليس لها هدف سوى إخضاع السادة، مستخدمين إياها كأدوات لتحرير أنفسهم من هيمنة سادتهم، وعندما تزول سلطة هؤلاء السادة، يسعى العبيد للسيطرة عليهم ليصبحوا هم في موقع القوة.

كما تظهر بوضوح في الساحة السياسية، حيث يسعى الضعفاء والعاجزون أولا إلى تحقيق العدالة من أولئك الذين يمتلكون القوة، ثم يطالبون بعد ذلك بالحرية، مما يعكس رغبتهم في التحرر من هيمنة الأقوياء، وفي النهاية يسعون إلى المساواة في الحقوق، أي أنهم يرغبون، طالما أن السلطة ليست في أيديهم، في منع من يمتلكون السلطة من توسيع نفوذهم².

من ناحية أخرى إذا نظرنا إلى القيم العليا الثلاثة* التي اعتاد الفلاسفة على تقديسها، سنجد أنها في الواقع ليست سوى أدوات تستخدمها إرادة القوة لتحقيق أهدافها، فالأشخاص الذين يُروّجون لهذه القيم لا يسعون إلا للسيطرة، في هذا السياق يخاطب زرادشت الحكماء المشهورين قائلا: "لقد أردتم دعم الشعب في ما يظهره من

¹ - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §4, P10.

² - صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، مرجع سابق، ص 282.

* - المتمثلة في الحق والخير والجمال.

خشوع وإجلال، فدعوتهم هذه المذلة (إرادة الحق)، فيا لكم من حكماء!¹، وبالتالي تُعتبر إرادة القوة المحرك الأساسي وراء جميع الأنشطة الثقافية التي يقوم بها الأفراد، وهي التي تتحكم في نشوء المؤسسات الروحية وانهايارها في العالم، لذلك دعونا نؤسس مستقبل وجودنا بناء على هذا الأساس.

اعتمد نيتشه على مفهوم إرادة القوة كأساس لتطوير قيم جديدة، بعد أن قام بتفكيك القيم التقليدية، وأكد على ضرورة إنشاء نظام تقويمي جديد يتماشى مع معيار الحياة، الذي يُعتبر في النهاية تعبيراً عن إرادة القوة، من خلال ذلك يسعى نيتشه إلى تقديم "نعم" جديدة تعزز من قيمة هذه الحياة، فإذا كان العالم يفتقر إلى الشكل أو المعنى، فإن إرادة القوة هي التي تمنح هذا العالم الشكل والمعنى الضروريين للحياة.

بدأ نيتشه في معالجة مسألة التقويم من خلال استجواب قيم الثقافة الغربية، ومع ذلك فإن هذا الاستجواب يُعتبر مجرد خطوة أولى نحو إعادة صياغة جميع القيم، فلا يمكن التغلب على العدمية إلا من خلال تحويل القيم، كما يقول نيتشه: "قلب كل القيم هو تعبير عن أرقى وعي ذاتي للإنسانية، وأن أعني نفسي كنيقيض لأكاذيب آلاف السنين"²، ولكن كيف يمكن تحقيق هذا التحويل؟ يتم ذلك من خلال تغيير في سلم القيم، والذي ينبجم عن تحوّل إرادة القوة من إرادة نافية إلى إرادة مثبتة.

إذن لا يمكن أن يكون للتحويل معنى دون وجود هدف واضح، فقد أصبح من الضروري للناس، بعد أن فقدوا إيمانهم بالإله الذي كان يوجه مصائرهم، وأن يحددوا أهدافاً شاملة تشمل الأرض بأكملها، ومع ذلك لم يتم تحديد هذه الأهداف حتى الآن نتيجة لضعف البشرية، لذا يجب أن تكون هذه الأهداف واضحة، يشير نيتشه إلى أن القاعدة التي تستند إليها سعادته هي: "إجابة بنعم أو لا، خط مستقيم، وهدف"³، وهذا الهدف يتمثل في خلق قيم جديدة تشكل أساس ثقافة رفيعة وقاعدة للمستقبل، وهي قيم تهدف إلى إنقاذ الإنسانية من العدمية التي تعاني منها.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, Second Part, The Famous Wise Ones, P121.

² - نيتشه فريدريك، هذا هو الإنسان، مصدر سابق، لم أنا قدر، فقرة 1، ص 154.

³ - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, Maximes et pointes, §44, p14.

لنقل إذن، إن الهدف الأساسي للفلسفة* هو خلق القيم، بمعنى البحث عن ما يُسهم في منح الحياة قيمة ومعنى من منظور الإرادة المثبتة، ومن هنا تدور القيم الجديدة حول مفهوم إرادة القوة باعتبارها جوهر الوجود، حيث يمكن من خلالها تفسير جميع مظاهر الحياة، وكلما زاد شعورنا بالحياة والقوة زاد إدراكنا للوجود، في هذه الحالة تتغير جميع مفاهيم القيم لتصبح الحياة الجيدة هي الحياة القوية، حياة أولئك الذين يتحكمون في دوافعهم ولا يشعرون بالحاجة إلى القضاء عليها أو كبتها.

يعتقد نيتشه أن إرادة القوة تعني في المقام الأول السيطرة على الذات، حيث ينبغي للحياة أن تغلب على نفسها من خلال التخلص من كل ما يسعى نحو الفناء والموت، يتطلب ذلك جهداً للتسامي بدلاً من الاستسلام للمصير المحتوم، لأن هذه الحياة هي كل ما نملك ولا يوجد شيء آخر سواها، كما يرى أن السيطرة على النفس تُعتبر من أصعب التحديات التي يواجهها الإنسان، إذ تحتاج إلى أقصى درجات القوة، في هذا السياق يذكر زرادشت أن الحياة قد أودعته سرها قائلة: "يجب أن أتجاوز ذاتي باستمرار"¹.

لذلك فإن الانتصار على النفس يعكس ميل الحياة نحو التطور والارتقاء، حيث تتشكل قوى جديدة دون الاستسلام للراحة، إن حركتها ليست أفقية لا تتجاوز ذاتها، بل تشبه البرج العظيم الذي يستمر في الارتفاع، تصبح كل مرحلة بمثابة نقطة انطلاق لبداية جديدة، في هذا السياق يقول زرادشت: "أنا مجرد رحالة ومتسلق للمرتفعات، لا تستهوي منبسّطات الأرض ولا يستقر بي مقام، ومهما حدث لي، فإن الحوادث لا تتجاوز أن تكون في نظري رحلة نحو الارتقاء"².

لكن الحياة لا يمكن أن تستمر بالاعتماد على ذاتها فقط، بل تحتاج أيضاً إلى حياة أخرى، فهي تجسد النمو والرغبة في التملك وزيادة هذا التملك، مما يتطلب وجود شيء آخر خارجها لتحقيق ذلك، وبالتالي تُعتبر إرادة القوة عند نيتشه تجميعاً وتنسيقاً لمجموعة من القوى المتنوعة، حيث تشارك جميع هذه القوى في عنصر مشترك وهو

* - وهو تعريف للفلسفة يخرج بها عن التعريف التقليدي، ذاك الذي يعتبرها بحثاً عن الحقيقة في ذاتها، لأن هكذا تعريف يفترض خطأ أن للوجود حقيقة محايدة له، ولكن لما كانت كل حقيقة منظورية، تصبح الحقيقة ذاتها قيمة، وتصبح الفلسفة خلقاً للقيم.

¹ - Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Deuxième partie, de la victoire sur soi-même, p163.

² - Ibid, Troisième partie, le voyageur, p217.

الصراع والهيمنة والمناورة، والسعي نحو المزيد من القوة والقسوة، لأن علاقة القوة بالأخرى هي علاقة هيمنة، إذ "تكون إحدى القوتين الداخليتين في التفاعل هي المسيطرة، بينما تكون القوة الأخرى خاضعة لهذه السيطرة"¹.

الحقيقة أن الحرب التي ينادي بها نيتشه يؤكد على ضرورتها هي الحرب الفكرية، حيث يبرز أهمية البحث عن العدو والنضال من أجل تلك الأفكار، يشجع رفاقه على أن يكونوا على الأقل جنودا يسعون لتحقيق ذلك، كما يقول زرادشت: "أنتم تعتقدون أن الهدف الأسمى يبرر الحرب، لكنني أقول إن الحرب المثلى تبرر كل هدف"²، بالنسبة لنيتشه الحرب تمثل كفاحا من أجل معرفة الحقيقة، وإذا كان على الإنسان أن يحب السلام، فعليه أن يحبه فقط كوسيلة لتجديد الحرب، فأفضل أنواع السلام هو ذلك الذي يدوم لفترة قصيرة.

يمكننا أن نستنتج أن الحياة الإنسانية وفقا لنيتشه تُعتبر صراعا مستمرا، فالحروب والمخاطر المحيطة هي ما يمنح الإنسان حريته، ويمكّنه من تجاوز ذاته والارتقاء فوقها، بالإضافة إلى التفوق على الآخرين، إنها معركة لا تنتهي بين الذات والآخر، لذا يشير إلى ضرورة أن يعيش الإنسان في حالة من الصراع المستمر مع أقرانه ومع نفسه³، فالحرب مع الذات تهدف إلى تدمير الأوهام التي ظل الإنسان أسيرا لها عبر العصور، مما يتيح له تحرير نفسه للوصول إلى الحرية الإنسانية والإبداع، والسعي نحو تحقيق مرحلة الإنسان المتفوق، أما الحرب مع الآخرين فتهدف إلى التخلص من القيم والمشاعر التي تضر بالذات.

لكن هذا الصراع والسعي نحو السيطرة لا يمكن أن يتحققا دون وجود مواجهة ومقاومة، فكلما زادت المقاومة واشتدت المنافسة ارتفعت قيمة الحياة ومعناها، تصبح إرادة القوة أغنى ثروة وأعظم خصوبة، من أجل حياة تسعى للنهوض وإرادة تسعى لتحقيق أعلى الأهداف، يجب على الفرد أن يسعى للمقاومة بنفسه وأن يكون حريصا على خلق توتر مستمر، سواء كان ذلك مع نفسه أو مع الآخرين، لذا نجد أن الأسباب التي تجعل الضعفاء من الناس صغارا وحقراء هي ذاتها التي تدفع الأقوياء والنادرين نحو العظمة والرفعة⁴.

¹ - فوضيل إيدير، النقد الجينالوجي للأخلاق عند فريدريك نيتشه، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الجامعية 2007-2008، ص 94.

² - نيتشه فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، الجزء الأول، الحرب والمحاربون، ص 38.

³ - Nietzsche Friedrich, *Le Gai Savoir*, Livre quatrième, Op. cit, §283, p254.

⁴ - بدوي عبد الرحمن، نيتشه، مرجع سابق، ص 231.

وبما أن إرادة القوة لا يمكن أن تتجلى إلا من خلال النضال والكفاح، فهي تسعى باستمرار لمواجهة كل من يعترض طريقها من أقرانها، ولأن الاعتراض يعني مواجهة الشيء المقاوم، فإنه يتطلب بالضرورة تحمل الألم، لذا يبدو أن هناك ارتباطا وثيقا بين إرادة القوة والألم*، وبالتالي فإن الذين يخافون ويرغبون في تجنب الألم يجب عليهم التراجع والانكماش على أنفسهم، والحرص على عدم الخروج عن ما اعتادوا عليه.

إذن يتناول نيتشه مشاعر اللذة والألم بطريقة جديدة، حيث يرى أنهما ليسا دافعين في حد ذاتهما، بل هما مجرد شعور مصاحب يعكس حالة الشعور بالقوة، ولا توجد أي قوة فيزيائية أو نفسية سوى إرادة القوة، التي تمثل الدافع النفسي الأساسي وراء كل شيء، ومن خلال هذه الإرادة يمكننا فهم المظاهر المختلفة للسلوك الإنساني، ويمكن تشبيهها بـ "علاقة الجوهر بالعرض"¹.

المبحث الثالث: هكذا نصف الوجود الواقعي

لقد لاحظنا أن النشاط الرئيسي للإرادة النافية وفقا لفلسفة نيتشه يتمثل في خلق عالم مفارق، يمكن من خلاله تقليل قيمة العالم الواقعي، فقد كان الإنسان في العصور الماضية يُسيء استخدام الطبيعة من خلال إنكار وجودها، سعيًا منه لتحسين تصورات عالمه الخيالي، حيث استعار من الطبيعة الألوان والحرارة لجعلها جزءا من مملكة أفكاره الخيالية.

لذلك يعتبر نيتشه أن الألم والشعور بالعجز هما السبب وراء ظهور العوالم الأخرى، سواء في الصورة التي قدمتها المسيحية أو في الفلسفات الميتافيزيقية المثالية مثل الأفلاطونية والكانطية، حيث تمثل كلاهما تجسيدا لصنم واحد، في إحدى شذراته يصف نيتشه أولئك الذين انغمسوا في العالم الآخر، مشيرا إلى أنهم عندما أرادوا الهروب من المعاناة ورأوا الكواكب البعيدة وصعبة المنال، أطلقوا زفرات من الأسى قائلين: "وا أسفاه! لماذا لا تنفتح أمامنا سبل في السماء لننسحب إليها نحو وجود آخر وسعادة جديدة"².

* - ينكر نيتشه النظرية النفسية التي تفترض أن السعي وراء اللذة وتجنب الألم هما الدافعان الرئيسيان للسلوك البشري، ويعتبر أن هذين العنصرين هما مجرد ظاهرتين مصاحبتين في صراع السعي نحو المزيد من القوة، فاللذة تمثل شعورا بزيادة القوة، بينما الألم هو نتيجة لتصادم إرادة القوة مع عائق ما، ويرى أنه من السخف أن نعتبر الألم شرا خالصا، لأننا نحتاج إليه دوما كمتبرع يبعث بمجهوداتنا، فالألم يشكل عنصرا أساسيا في كل فعل، حيث يثير الحياة ويؤكد وجود إرادة القوة، التي لا ترضى أبدا ما لم تواجه خصوما ومقاومة.

¹ - Arthur Coleman Danto, *Nietzsche as philosopher*, 2nd Edition, Macmillan, New York, 1967, p215.

² - نيتشه فريديريك، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، الجزء الأول، المأخوذون بالعالم الثاني، ص 23.

وهذا الارتباط بين اللاهوت والميتافيزيقا كان ينمو ويتطور على حساب الفلسفة والوجود، حيث لم يُبحث عن معنى الوجود منذ زمن بعيد إلا من خلال اعتباره شيئاً خاطئاً أو مذنباً، شيئاً ظالماً يتطلب التبرير، ومن هنا نشأت الحاجة إلى الإله لتفسير الوجود، بالإضافة إلى الرغبة في إلقاء اللوم على الحياة بهدف تخليصها وافتدائها من أجل تبريرها.

لقد جرى تقويم الوجود من خلال وضع النفس في سياق الشعور بالذنب، وهو ما يعكس التأثير السلبي للإلهام المسيحي على الفلسفة، لذلك تم استخدام المعاناة كوسيلة لإثبات ظلم الوجود، وفي الوقت نفسه كوسيلة لإيجاد مبرر أعلى وإلهي له¹، إنها مذنبية لأنها تتألم، ولكن من خلال الألم يتحقق التكفير والخلاص.

لقد حان الوقت الآن لإعادة الاعتبار لكل ما تم استلابه من الوجود، فإرادة الإنسان المتفوق ستكون قيمه تلك التي لا تكفل أي ثنائية وترفض أي مفارق، إن إرادته في جوهرها هي إرادة ماثلة، أي حالة كائن ماثل في كائن آخر، ومصدرها ونهايتها مرتبطان بالعالم الواقعي، في هذا السياق يقول زرادشت: "لقد منحني ذاتي عزة جديدة أشاركها الآن مع الآخرين: علمتني ألا أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأمور السماوية، بل أرفعها رأساً عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض".²

تستند رؤية نيتشه للوجود إلى إرادة قوية وإبداعية تسعى نحو الحياة والوجود ككيان واحد، فهو لا يعترف بوجود أي شيء آخر يُطلق عليه الفلاسفة اسم عالم الحقائق مقابل عالم الظواهر، حيث يرى أن هذا التقسيم ينشأ فقط نتيجة للانحطاط، ولا يمكن أن يكون سوى دلالة على حياة تتراجع، لذا يدعو إلى توجيه الإرادة نحو جعل الإنسان المتفوق هو المعنى الحقيقي لهذه الأرض وروحها.

لكن يجب أن يكون إثبات الإنسان المتفوق في الحياة مشابهاً لإثبات الطفل، وهذا ما تكشف عنه شذرة "التحول في ثلاث مراحل"، حيث تعكس هذه المراحل في الواقع تحولات عميقة في الوجود الإنساني، يقول نيتشه على لسان زرادشت: "كيف تحوّل العقل إلى جمل، وكيف أصبح الجمل أسداً، وكيف تحوّل الأسد في النهاية إلى طفل".³

¹ - Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Op. cit, p22.

² - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, First Part, Backworldsmen, P33.

³ - Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Première partie, les trois métamorphoses, p33.

الجمال هو تجسيد للإنسان الذي يتحمل أعباء القيم السائدة وأثقال التربية والأخلاق والثقافة، ينتقل بها في الصحراء، ويعرف فقط كلمة "نعم" ولا يستخدم "لا" إلا في بعض الحالات، وهذا يتماشى مع الإرادة العدمية النافية، في تلك اللحظات يتحول إلى أسد، حيث يحطم التماثيل ساعيا للتحرر من القيود المفروضة عليه، إنه بمثابة المتهور في حياته، لا يعرف سوى كلمة "لا" تجاه كل ما يواجهه، مما يعكس إرادة عدم سلبية.

لكن ما ينقصه هو قوة الخلق والإثبات التي تميز الطفل، بما يحمله من براءة ونسيان، وعجلة تدور حول نفسها، "فالإرادة لم تعد تعني الاستسلام أو التمرد"¹، حيث يقوم بالبناء والهدم في آن واحد، هذه هي طبيعة الحياة وفقا لنيته، حياة مليئة باللعب والمرح، لا يصل العقل إلى مرحلة الطفولة البريئة إلا بعد تحرره الحقيقي من القيم الفاسدة وكل الأوهام الميتافيزيقية، ليتمكن من رؤية الوجود جميلا وبريئا من كل خطيئة، إنه الفيلسوف الفنان الذي يعرف متى يقول "نعم" ومتى يقول "لا".

لذا يوجه نيته نقدا حادا لكل تفكير يتعالى على الحياة ويتجاوز الواقع، فهو ينتقد كل فكر يرفع عقله نحو السماء دون أن يلتفت إلى الأرض، لأن من لا يهتم بالأرض لن يساهم في إعمارها أو تقديم أي شيء حقيقي للإنسان، بل سيكتفي ببيع الأوهام في عوالم غير مدركة، في هذا السياق ينصح زرادشت رفاقه بالتمسك بالأرض وعدم تصديق من يعددهم بآمال تتجاوزها، سواء كانوا جاهلين أو مدركين لما يفعلون، هؤلاء هم من يحتقرون الحياة، وقد سئمت الأرض منهم².

إنها جريمة فكرية من نسج الخيال، زيفت حقيقة الوجود وأدت إلى قتل الحياة، سواء كانت المسيحية أو الفلسفات المثالية التي تميز بين عالم علوي وآخر سفلي متغير، فإنها لا تعبر إلا عن تفكير منحط، لقد استمعنا سابقا إلى نيته وهو يروي لنا قصة هذه الأكذوبة الكبرى التي تدعي وجود عالمين، ونعلم كيف تمكن من إلغاء كلا العالمين في النهاية، فقد أزال عالم الظواهر في الوقت الذي ألغى فيه عالم الحقائق، وربما يمكننا الآن أن نتساءل: ماذا يتبقى بعد إلغاء هذين العالمين؟

¹ - Alexandre Leboeuf, **Le triangle conceptuel du Zarathoustra de Nietzsche**, mémoire présenté comme exigence partielle de la maîtrise en philosophie, université du québec à montréal, décembre 2010, p102.

² - Ibid, le prologue de zarathoustra, §3, p12.

يجيب نيتشه بأن الصيرورة والحياة والطبيعة تتداخل جميعها بمعنى واحد، حيث تُعبّر جميعها عن الوجود الحقيقي من زوايا ثلاث، فإذا نظرنا إلى هذا الوجود من ناحية طبيعته، نجد أنه يتسم بالتغير المستمر، وهو ما يتناقض مع آراء الفلاسفة الذين اعتبروا أن الوجود ثابت، حيث لا تتغير جوهر الأشياء ولا يمكن أن يتحول الشيء الواحد إلى نقيضه أو حتى إلى ضده.

أما إذا نظرنا إلى الوجود من منظور حيوي يمكننا أن نسميه الحياة، بما يتضمنه من تجارب وجودية نعيشها، تتكون هذه الحياة من مجموعة من القوى المتصلة والمتفاعلة التي تتبادل التغذية فيما بينها، حيث تشمل هذه العملية جميع ما يتعلق بالإحساسات والتصورات والأفكار، لذلك تتضمن أولاً مقاومة القوى الأخرى ومواجهتها، وثانياً تنظيم هذه القوى بما يتناسب مع صورة الحياة وسياقها، وثالثاً تقويم الأشياء من أجل فهمها أو التخلص منها¹.

في بعض الأحيان يشير نيتشه إلى حياة الإنسان على أنها جسد، حيث يتجاوز ثنائية النفس والجسد ليعتمد على مفهوم أحادية الجسد المرتبطة بالبعد البيولوجي، من خلال هذا المنظور يصبح الإنسان مشابهاً لبقية الحيوانات، وقد اعتبر نيتشه هذا التصور تصحيحاً للفلسفات التي كانت تنظر إلى الإنسان من منظور متعالٍ ومليء بالغرور، في السابق كان يُعتبر وعي الإنسان وعقله دليلاً على أصله السامي وألوهيته، وكان يُنصح بالسعي نحو الكمال من خلال "سحب حواسه إلى الداخل مثل السلحفاة"²، مما يؤدي إلى قطع جميع الروابط مع الأمور الأرضية، وبالتالي يبقى العنصر الجوهرى المعروف بالروح الخالصة فقط.

لقد كانت ثنائية الروح والجسد تمثل تصنيفاً لدى اللاهوتيين والفلاسفة المثاليين، الذين اعتبروا الروح في مرتبة أعلى من الجسد، وقد رأى نيتشه أن احتقارهم للجسد ورغبتهم في إضعافه ناتج عن شعورهم بالعجز عن تحقيق طموحاتهم، مما أدى إلى نشوء مشاعر الاستياء تجاه الحياة والأرض، وقد جعلهم هذا العجز يتمنون الموت لأجسادهم، وامتدت نظرهم الاحتقارية للجسد ليعتبرونه مصدراً للنجاسة والغرائز الفاسدة.

¹ - بدوي عبد الرحمن، نيتشه، مرجع سابق، ص 239.

² - Nietzsche Friedrich, L'Antéchrist, Op. cit, §14, p18.

لذا يشير نيتشه إلى أن النفس في الماضي كانت تنظر إلى الجسد باحتقار، وكانت تتمنى أن يكون نحيفا وقيحا وجائعا، معتقدة أنها ستتمكن من الهروب منه ومن الأرض التي تسير عليها، وقد تجسدت رغبة الروح في جسد نحيل وقيح وجائع، متوهمة أن سعادتها الحقيقية لا تتحقق إلا من خلال قسوتها وإكراهها¹.

ولذلك يرى أنه ينبغي علينا إعادة النظر في كل ما تعلمناه، وأن نتحلى بتواضع أكبر في جميع جوانب الحياة، فلم نعد نعتبر الإنسان مرتبطا بأصل ثابت في الروح أو الألوهية، بل أعدناه إلى مكانه بين الحيوانات، فهو الحيوان الأقوى بالنسبة لنا، لأنه الأكثر مكرًا، وفي الوقت نفسه يجب أن نكون حذرين من ذلك الغرور الذي لا يزال يسعى للظهور، كما لو أن الإنسان يمثل النية الخفية العظمى التي كانت توجه مسار التطور الحيواني، فهو ليس تنويجا للخلقة بأي شكل من الأشكال، بل إن كل كائن من الكائنات المحيطة به يتساوى معه في درجة الكمال، بل يمكننا أن نذهب أبعد من ذلك لنقول إن الإنسان هو الحيوان الأكثر إعاقة وهشاشة، وهو الأكثر انحرافا عن غرائزه بشكل خطر.

وفقا لرؤية نيتشه يُعتبر الإنسان جسدا يشكل العنصر الأساسي لوجوده، فهو يمثل الأساس الذي تُبنى عليه الذات الإنسانية التي تعيش على هذه الأرض، على الرغم من التناقضات والاختلالات التي تعاني منها الذات، فإنها تثبت وجودها بوضوح وتبتكر إرادتها لتحديد المعايير وتعيّن قيم الأشياء، وما تسعى إليه هذه الذات بإخلاص هو الجسد، حيث تتدرب على التعبير عن رغباتها بصدق، وكلما زادت هذه التدريبات، ألهمت القدرة على التعبير عن الجسد والأرض، في هذا السياق ينصح زرادشت رفاقه بالاستماع إلى صوت الجسد، لأنه يتحدث إليهم بصوت أنقى وأصدق من الأصوات الأخرى².

دفاع نيتشه عن الجسد يتضمن أيضا الدفاع عن أجزائه العضوية المتمثلة في الحواس، التي تُعتبر جانبا حيويا ماديا يكشف عن معنى الوجود على الأرض، فالحواس هي التي تعبر عن التغيير والتحول، وبالتالي تعكس الواقع، في كتابه "أفول الأصنام" يشير نيتشه إلى أنه طالما أن الحواس تكشف عن الصيرورة والتغيير، فإنها لا تكذب³، على عكس العقل الذي قد يضللنا بأفكار خاطئة حول العالم الذي نعيش فيه، مما يزيد من الفجوة بيننا أكثر فأكثر، لذا ينبغي علينا أن نكون حذرين في الثقة بالعقل.

¹ - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. Cit, First Part, Zarathustra's Prologue, §3 , P7.

² - Ibid, Backworldsmen, P35.

³ - Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Op. cit, La raison dans la philosophie, §2, p25.

كما اعتقد أن الأفكار قد تكون أكثر جاذبية من الحواس، حيث لم نخدعنا الحواس بل كشفت لنا أن العالم في حالة تغير دائم، هذا التغير يدل على وجود تاريخ للعالم، وهو ما افتقر إليه تفكير الفلاسفة الذين نظروا إلى العالم من منظور متعالي، متجاهلين الحواس، وبالتالي فإن أدوات التفكير والتأثير وشرعية هذه الأدوات ليست روحية بأي شكل، بل هي مادية وعضوية تنبع من الجسد.

فهو يرى أن في اعتراضه على موسيقى صديقه ريتشارد فاغنر (1883-1813) Richard Wagner هو في الواقع اعتراض حسي، حيث لم تتمكن حواسه من استيعاب تلك الموسيقى، لذا يشير نيتشه إلى أن اعتراضه على فاغنر يحمل طابعا فيزيولوجيا، متسائلا بدهشة: لماذا أحاول إخفاء هذا الاعتراض تحت غلاف جمالي! في الواقع إنه يشعر بصعوبة في التنفس بمجرد أن تبدأ موسيقاه بالتأثير على قدميه، مما يجعله يشعر بالحاجة والرغبة في إيقاع آخر يتناسب مع الرقص والحركة¹.

بل يرى نيتشه أن التفكير والعبقرية مرتبطان بالحواس، حيث يسلط الضوء على أهمية الأنف التي أغفلها الفلاسفة، ويشير إلى أنه لم يسبق لأي فيلسوف أن تحدث عنه بتقدير وامتنان، فالأنف يمتلك القدرة على إدراك أدق الفروق في الحركة التي يعجز العقل عن اكتشافها، ويعبر نيتشه عن عبقرية إحساسه، مشيرا إلى أنه كان أول من اكتشف الحقيقة قائلا: "لأنني استطعت أن أرى الكذب، ككذب أشتبه بعبقريتي في أنفي"².

يجب أن نتذكر أن الجسد وفقا لتقدير نيتشه هو محور إرادة القوة، حيث تمثل الغريزة الأساس لهذه الإرادة، كونها مصدر كل معنى وقيمة، وكل ما يتعلق بالعقل لا يعدو كونه تعبيرا رمزيا عن الجسد، وفي أسمى وظائف الفكر، نجد أنها مرتبطة بالوظائف العضوية والاحتياجات الفيزيولوجية، إن سرد المستقبل ليس سوى سرد للجسد واستعراض لقواه، فهو الجسد الذي يروي قصته، بما في ذلك ماضيه وحاضره ومستقبله، وفي سرد المستقبل لا يقوم الجسد إلا برؤية ذاته في مرآته.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre Cinquième, Op. cit, §368, p358.

² - Nietzsche Friedrich, **Ecce Homo**, Op. Cit, Why I am a Fatality, §1, P132.

يظهر الجسد كمصدر أساسي للفكر، فهو النقطة التي تنطلق منها جميع أشكال التفكير، سواء كانت متعلقة بالمعنى أو بالقيمة، إن كل نشاط ذهني يجد أصوله في حالة الجسد الذي يرتبط به، حيث تكمن الأعماق في الجسد وقواه اللامتناهية، لذلك يعبر زرادشت عن ذلك بقوله: "وراء إحساسك وتفكيرك يوجد سيد أعظم منهما، وهو الحكيم المجهول، الذي يمثل الذات المستقرة في جسدك، وهو جسدك في ذات الوقت"¹، وبالتالي يمكن القول إن للجسد تأثيراً أكبر من العقل، فذا الأخير هو أداة صغيرة ولعبة في يد عقل أكبر.

لذا يمكن اعتبار الجسد حكيماً بشكل غير معروف بمعنيين، الأول هو أن الحكمة غالباً ما تُنسب إلى العقل بدلاً من الجسد، مما يجعل الجسد حكيماً في طي الكتمان، أما المعنى الثاني، فهو أن وحدة الجسد هي وحدة سطحية، إذ أن ما يختبئ داخله هو تعدد غير معروف يصعب اكتشافه، وهو يتضمن تنوع الغرائز وذكائها وتفاعلها المستمر.

بناءً على ذلك ستكون المواجهة التي قرر نيتشه خوضها ضد الروحانيين وفلاسفة المثالية قائمة على عملية مضادة، حيث يسعى لإثبات أن الروح أكثر سطحية مما نعتقد، وبالتالي يصبح الإيمان بالجسد أكثر أهمية من الإيمان بالنفس، لأن تجليات الجسد تتميز ببراء أكبر من تجليات الروح والنفس، ومن هنا سيظل الجسد دائماً هو القائد، بينما ستبقى الروح في موقع التبعية، خاصة أن الروح ليست سوى ملحق للجسد الذي يمثل النص الأصلي والمحتوى، بينما تظل الروح مجرد هامش.

لقد أحب نيتشه الحياة ورأى أننا ما وجدنا إلا لنحيا ونعيش، ونحن نستحق ذلك، فهو يقولها صراحة: "نعم، الحياة تستحق العيش، نعم، أنا جدير بأن أعيش"²، إن حياة الإنسان لا تتواجد خارج هذا الوجود أو هذا العالم الظاهر، بل هي مرتبطة به، حيث توجد علاقة رائعة تعبر عن الصداقة بين الجسد والكون.

¹ - Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra**, Op. cit, Première partie, des contempteurs du corps, p46.

² - Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Livre premier, Op. cit, §1, p35.

لقد أسس العقلانيون من خلال أحكامهم جريمة قتل ومجزرة لكل ما هو دنيوي وحيوي، حتى أنهم قضوا على الحقيقة نفسها، لم يبقَ شيء حقيقي يخرج حيا من بين أيديهم، لذلك فإن العالم الحقيقي هو العالم الظاهر، أي ما نراه أمامنا والذي يحتويه، إنه الأرض، حيث نتجاوز الثنائية بين العالم الحقيقي والعالم الظاهر إلى أحادية هذا العالم* الذي نعيش فيه.

بهذا الشكل يتم تجاوز التناقض بين الثنائية التي تخلق كالنسر في السماء، والواحدية المادية التي ترحف كالأفعى على سطح هذا العالم الواقعي، فمع وجود النسر السماوي والأفعى الأرضية، لم يعد هناك سوى عالم واحد يحمل قيمة ومعنى، وهكذا تتحقق أخيرا المصالحة بين الإنسان وذاته، بين هذا الكائن الذي يعتز بنفسه ويتمنى أن يكون ملاكا، والملاك الذي يدرك بذكاء أنه كائن حي، لذلك يشير نيتشه إلى أنه يسعى نحو المستحيل، مطالباً كبريائه بأن تلازم فطنته دائما¹.

المبحث الرابع: بناء ثقافة جديدة تعتمد على الفن المأساوي

يعتقد نيتشه أنه من أجل التغلب على عدمية الثقافة الغربية، يجب أن نعمل على ولادة الإنسان المتفوق الذي يسعى إلى تأسيس قيم جديدة تستند إلى إرادة إثبات الحياة، وهذه القيم ليست في نهاية المطاف سوى خلق ثقافة جديدة يطلق عليها اسم الثقافة السامية، والتي تعتمد على الفن المأساوي، ورمزها هو ديونيسوس** Dionysus ولكن لماذا اختار الفن كوسيلة لتحقيق ذلك؟

* - الحل الذي يقدمه نيتشه لتجاوز الثنائية يتمثل في استخدامه لمجاز النسر والأفعوان، ففي لحظة من الظهيرة كان زرادشت يتحدث مع نفسه ومع الشمس، وإذا به يسمع صوتا جارحا في الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات في طيرانه، وقد لاحظ أن أفعوانا قد التف حول عنقه، ولم يكن النسر يمسك به كفريسة، بل كان الأفعوان يلتف حوله كعناق المحب، فصرخ زرادشت بفرح: "هذان هما نسري وأفعواني!"، حيث يُعتبر النسر رمزا للفخر، بينما يُعتبر الأفعوان رمزا للمكر تحت الشمس، وكلاهما كانا يستكشفان الفضاء ليعرفا ما إذا كان زرادشت لا يزال حيا، فهل أنا لا أزال على قيد الحياة؟ (Voir la: Nietzsche Frédéric, *Ainsi parlait Zarathoustra*, Op. cit, Première partie, le prologue de zarathoustra, §10, p28.)

¹ - بيار هير سوفرين، زرادشت نيتشه، مرجع سابق، ص 119.

** - باخوس، أو باكوس، هو إله الخمر والمرح في الميثولوجيا الإغريقية، يُعتبر رمزا للحياة المليئة بالبهجة والسرور، ويعبر عن الفتنة والعواطف والإلهام، كما يمثل الغريزة والمخاطر، ويتميز بقدرته على تحمل الآلام ومواجهة التحديات بشجاعة، يُعرف أيضا بأنه إله الغناء والرقص والموسيقى والمسرح. (أنظر: ديورانت وبل، قصة الفلسفة: من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، الطبعة السادسة، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، 1988، ص 512).

إنه وسيلة تمنحنا القدرة على التحرر من قيود الأخلاق العدمية*، إنه تأكيد وإثبات وتمجيد للحياة والوجود، وعشق للظاهر والسطح وافتتان بالشكل، يحمل الفن قيمة تتجاوز قيمة الحقيقة، "إنه ذا قوة علاجية هائلة تمتلكه لكي لا تقتلنا الحقيقة القبيحة"¹، لذا يشير نيتشه إلى أنه الوسيلة العظمى التي تجعل الحياة ممكنة، إنه الإغراء والحافز العظيم للحياة، فهو قوة معارضة تتفوق على إرادة إنكار الحياة، يتعارض هذا مع المسيحية والعدمية بشكل خاص، ولكن هنا نطرح تساؤل: هل يراهن نيتشه على النزعة الرومانسية Romanticism لبناء ثقافة سامية؟

من المهم الإشارة إلى أن نيتشه كان معاصرا للحركة الرومانسية التي تدعو إلى العودة إلى الطبيعة كوسيلة للحد من تضخم غرائز المعرفة، حيث أدت هذه الأخيرة إلى مبالغة في تقدير العقل مما نتج عنه نفي الحياة، تعتمد هذه الحركة على الإحساس كأساس لها، وقد عرّف نيتشه في كتابه "العلم المرح" هذه النزعة بأنها تعبر عن كل فن أو فلسفة تفترض دائما وجود معاناة²، أي وجود كائنات تعاني، وهناك نوعان من هذه الكائنات: الأول، هم الذين يعانون من فيض الحياة، الذين يميلون إلى الفن الديونيسي ولديهم رؤية وفهم مأساوي للحياة، أما النوع الثاني، فهم الذين يعانون من فقر الحياة، والذين يبحثون في الفن والمعرفة عن الراحة والسكينة.

كما يشير إلى أنه كان معجبا في بداية حياته بالتشاؤم الفلسفي لشوبنهاور** في القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى إعجابه بالموسيقى الألمانية، رغم أنه لم يكن يدرك تماما طابعها الرومانسي في ذلك الوقت، وهو ما أدركه لاحقا، إذا نظرنا إلى كتاباته الأولى، وخاصة "مولد المأساة" The Birth of Tragedy الذي أهدها إلى الموسيقار العظيم فاغنر، نجد أن السبب وراء ذلك هو أن الموسيقى تعبر عن روح الأشياء.

* - فكل الفلسفات العدمية السائدة عند نيتشه تعتبر مظهر من مظاهر الانحطاط، ووحده الفن من يستطيع مقاومتها فهو الحركة المضادة، يقول نيتشه: "إن ديننا وأخلاقنا وفلسفتنا ليست سوى أشكال من أشكال الانحطاط الإنساني، بينما الفن هو الحركة المضادة". (Voir la: Heidegger Martin, Nietzsche, I, Op. cit, p72.)

¹- Patrick Wotling, Nietzsche et le problème de la civilisation, Quadrigue, Presses Universitaires de France, 1995, p184.

²- Nietzsche Frédéric, Le Gai Savoir, Livre Cinquième, Op. cit, §370, p362.

** - في عام 1866 كتب نيتشه "ثلاثة أشياء تواسيني كل المواساة: فلسفة شوبنهاور، وموسيقى شومان، والتجول وحيدا". (See the: Copleston Frederick, Friedrich Nietzsche: Philosopher of Culture, First Edition, Burns Oates & Washbourne Ltd, London, 1942, p5.)

لذا لم يكن نيتشه في شبابه يخفي إعجابه بفاغنر، واصفا إياه بأنه يمثل ترياق Antidote لكل ما هو ألماني بامتياز¹، من خلال ذلك يفتح الفن الألماني أبوابه على التراجيديا الإغريقية التي تؤكد على الحياة حتى في أبعادها المساوية، وقد انبثقت من العمق الديونيسوسي للفكر الألماني قوة لا ترتبط بمصادر الحضارة السقراطية التي تفرط في تقدير العقل، بل هي الموسيقى الألمانية التي تتجلى في أعمال باخ وبتهوفن وفاغنر بشكل خاص².

كان هذا هو اعتقاد نيتشه في البداية، لكن موقفه من فاغنر شهد تحولا جذريا لاحقا، حتى بلغ حد القطيعة الكاملة، فقد وصفه بـ "فنان الانحطاط"³، منتقدا النزعة الرومانسية التي يمثلها فاغنر بسبب طابعها الديني، حيث لم تحقق وعودها في أن تكون فنا تراجيديا يعزز الحياة، لذا أشار نيتشه إلى أنه ابتعد عن فاغنر عندما بدأ الأخير يتراجع نحو الإله الألماني والكنيسة الألمانية والرايخ الألماني⁴.

فلم تكن الدراما الموسيقية الجديدة "بارسيفال" Parsifal سوى عمل كوميدي قدمه فاغنر إلى الكنيسة طالبا منها المغفرة في أواخر حياته، وقد أدرك نيتشه أن فاغنر يبدو كأنه تائب يسعى للتكفير عن ذنوبه، حيث يعبر عن آلام المسيح ومعاناته، ويركع أمام الصليب⁵، لذلك أدرك نيتشه أنه كان متسرعاً في اعتقاده بأن فاغنر يمكن أن يمثل نهضة ويحدث ثورة في الفن الألماني ويعيد إحياء التراجيديا الإغريقية.

إن تراجع الموسيقى الرومانسية يعكس إرادة ضعيفة تسعى إلى البحث عن العزاء، ويعبر عن قوى تشاؤمية ارتكاسية تبحث عن ما يخفف آلامها، فالفن الرومانسي الذي ينشأ من الضعف يتفاعل من خلال البحث عن المهدئات، ويُعتبر بمثابة الأفيون في عالم الفن، كما يتضح في فن الفاغنري، وقد بدأ نيتشه بشكل جذري ومن حيث المبدأ، بالامتناع عن الاستماع إلى أي موسيقى رومانسية، معتبرا إياها مسألة ملتبسة، تماما كما هو الحال مع كل ما هو حديث.

¹- Nietzsche Friedrich, **Ecce Homo**, Op. Cit, Why I am so clever, §6, P43.

²- Nietzsche Friedrich, **La Naissance de La Tragédie**, Trad: Cornélius Heim, sans édition, Denoël-Gonthier, Paris, 1964, §19.

³- Nietzsche Friedrich, **Le Cas Wagner, Nietzsche contre Wagner**, Textes et variantes établis par. G. colli et M. Montinari, Trad: De l'allemand par Jean-Claude Hémery, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1974, §5, p28.

⁴- Nietzsche Friedrich, **Fragments posthumes XIV**, Op. cit, p251.

* - دراما موسيقية تقع في ثلاثة فصول، الموسيقى والدراما من تأليف فاغنر، وهي مأخوذة من ملحمة Wolfram von Eschenbach مثلت في بايروت سنة 1882، تستلهم القصة من مجموعة من الأساطير المتعلقة بالكأس المقدسة التي استخدمها المسيح خلال العشاء الأخير. (أنظر: صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، مرجع سابق، ص145).

⁵- Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Op. cit, vol.2, avant-propos, §3, p6.

يمكن القول إن أفضل تجسيد للتشاؤم يتجلى في شوبنهاور وفاغنر، حيث يمثل الأول العدمية، إذ لا يرى أي مبرر لوجود الحياة، بينما يتميز الثاني بالانحطاط، حيث يرى في الفن وسيلة للمعذبين لتحقيق الطمأنينة والراحة، وأداة لتبرير مأساوية الحياة، كلاهما رومانسيان يتعدان تماما عن روح ديونيسوس، ويعكسان ثقافة عصرهما التي تتسم بتشاؤم ينفي الحياة ويعبر عن إدانتها.

الفن المأساوي المثبت للحياة

يعتقد نيتشه أنه ينبغي علينا تعديل أسلوب تفكيرنا ليتماشى مع الرؤية المأساوية للحياة، فالناس لم تدرك بعد أن الفكر المأساوي * Tragedy يعني في الواقع بهجة¹، مما يعزز من قيمة الحياة وتساهم في تطورها، وهذا يتعارض مع الرؤية الأخلاقية التي تنظر إلى الحياة من منظور الانتقام وتعتبرها مذنبه ومتهمة، لذلك يشير نيتشه إلى أهمية فهم مقصده عندما يقول إن ديونيسوس يمثل نقيض المسيح².

ظهرت التراجيديات نتيجة اكتشاف الإنسان الإغريقي لجوهر أساسي يتعلق بحقيقة الحياة، وهو أن الوجود يحمل طابعا مروعا وعبثيا، وهذا ما يجعل التراجيديات مرتبطة بالشعور بالرعب، لكن هذا الرعب لا يعني التخلي عن الحياة أو الانسحاب منها، بل يتطلب فهم الحياة من "منظور المعاناة"³، بل وتحملها واعتبارها تجربة ممتعة، وهذا ما عجزت الأخلاق والدين والفلسفة التأملية عن تحقيقه، حيث لم تتمكن من تفسير الحياة بشكل صحيح.

لذا يرى نيتشه أن الشعب الإغريقي يمتلك حكما، بينما تمتلك الشعوب الأخرى قديسين⁴، يبدو أن هذا الرأي نابع من الثقافة اللغوية التي اكتسبها في مراحل مبكرة من حياته الفكرية، حيث اكتشف العديد من العوامل في الحضارة الإغريقية تجعل الحياة جديرة بالاهتمام، وهذه العوامل هي نفسها التي مكنته من نقد الميتافيزيقا واللاهوت، مما ساعده على تحرير الفكر من العدمية.

* - أي نوع من الأعمال الفنية الدرامية يهدف إلى تجسيد مأساة قد تستند إلى قصة تاريخية، حيث يتم تمثيل الآلهة والأبطال والشخصيات المعروفة في صراع مع القدر، مثلما هو الحال في التراجيديات الإغريقية. (أنظر: تد هوندترش، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة: نجيب الحصادي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، المكتب الوطني للبحث والتطوير، ليبيا، 2003، ص 199).

¹ - Deleuze Gilles, *Nietzsche et la philosophie*, Op. cit, p41.

² - Nietzsche Friedrich, *Ecce Homo*, Op. Cit, Why I am a Fatality, §9, P143.

³ - Lavoie Benjamin, *Nietzsche et le problème de la souffrance*, Mémoire de Maîtrise en philosophie, Québec, Canada, Benjamin Lavoie, 2015, p31.

⁴ - نيتشه فريدريك، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، ص 42.

وربما يكون الجانب الأهم الذي يميز الشعب الإغريقي هو أنهم تركوا إرثا استطاع أن يفرض نفسه ويحافظ على وجوده من الضياع، لم يسلك هذا الشعب طرقا ملتوية، بل اتجهوا مباشرة نحو الأرض، حيث كان مطلبهم الوحيد هو الحياة، والإغريق الذين كان نيتشه يمجدهم هم إغريق الغريزة والحياة، وليس إغريق العقل.

فرؤية نيتشه للتراجيديا لا تتضمن أي عنصر من عناصر العقلانية، بل تدافع عن الحياة وتجدد شعورا قويا وعميقا، فالشخصية التراجيدية تسعى نحو الحياة رغم ما تواجهه من قسوة وصعوبات، بل إن الفن التراجيدي يجعل الحياة تستحق العيش بفضل تلك القسوة نفسها، إنه يعكس أحد أهم الأسئلة الفلسفية، وهو سؤال معنى الوجود.

لذا يُعتبر الفن المأساوي أعظم تعبير عن جوهر الإنسان، حيث يُعبّر عن قبول كل ما هو معقد ومثير للتحدي، فهو يُعلم الإنسان أهمية الاستمرار وعدم التراجع أو الانسحاب، يُمثل هذا الفن نظرة عميقة إلى جوهر العالم وتفسيرا للواقع في الوقت ذاته، كما يتجلى في حركة الفنان الذي يُعيد تشكيل العالم الأصلي بإرادة قوية، مما يجعل العالم كعمل فني يخلق نفسه بنفسه¹.

وفقا لنيتشه فإن الأرواح القوية هي تلك التي تُعبّر بلغة "نعم" بشكل قاس ومأساوي، فهي قادرة على تحمل المعاناة وتحويلها إلى نوع من اللذة، ويعزز نيتشه هذا المعنى بقوله: "أسمى حالة تثبيت الوجود وتؤكد قيمته لا تستثني الألم مهما كان عظيما، وهذه هي الحالة الديونيسوسية المأساوية"²، لذلك يُعتبر كتاب "ميلاد المأساة" بمثابة رد على النزعة التشاؤمية، حيث يسعى إلى شيء أقوى من التشاؤم وأسمى من الحقيقة، وهو الفن.

¹ - صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، مرجع سابق، ص314.

² - Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance**, Op. cit, Tome. II, §483, p284.

من الواضح أن استنتاج نيتشه هذا نابع من تحديده لمصدرين رئيسيين للتراجيديا الإغريقية وهما: ديونيسوس وأبولون* Apollon وقد عرض مجموعة من آرائه في كتابه: "مولد التراجيديا" و"الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي"، من خلال دراسته للميثولوجيا الإغريقية التي ستعكس لاحقا الفلسفة الإغريقية** بشكل عام.

يتناول نيتشه بشكل متكرر مفهوم ديونيسوس في سياق علاقته بأبولون، حيث تظهر استعارتان تعكسان جمالياته ورؤيته للفن الإغريقي، يتميز أسلوب أبولون بالتأمل الهادئ الذي يعتمد على الحوار المنطقي والتراث الفلسفي، بينما يمثل ديونيسوس النمط الغريزي الذي يتسم بالمخاطرة والجسارة، يتجلى ذلك من خلال الرقص والموسيقى والدراما، حيث يعبر ديونيسوس عن أسى التطلعات للحياة رغم ما تحمله من معاناة ومآسي، فكل ما يرتبط بديونيسوس يصبح أكثر "قوة وإغراء"¹.

يُعتبر ديونيسوس رمزا للتعبير عن قبول الحياة بجميع جوانبها، إنه تجسيد لإرادة القوة واحتفال بالعفوية والتغيير حتى في مواجهة الألم، لذلك فهو يمثل تأكيداً تراجيدياً على "عودة الإنسان إلى طبيعته الحيوانية"²، مما يمكنه من العيش في تناغم مع الكون ويجرر إرادته، هذه اللحظة هي التي بدأ فيها الإغريق بالفلسفة، على عكس أبولون الذي يرمز إلى الحلم والحكمة، ويقيّد شهوات الإنسان وغرائزه ضمن أطر يفرضها المجتمع.

منذ أن قام نيتشه بنقد النزعة الرومانسية في "ميلاد المأساة"، لم يعد ديونيسوس يسعى لتبرير الحياة، بل أصبح يرقص في مواجهة الألم والمعاناة، وهكذا تتحول المأساة إلى متعة تتجلى في الألم والنشوة، الفنان لا يخشى التعبير عن الأمور الفظيعة، بل يسعى لرؤية الجوانب المرعبة والإشكالية للوجود ويستمتع بذلك، وهذا هو تشاؤم

* - استعاره نيتشه من الميثولوجيا اليونانية، الذي يمثل إله الشمس والنظام والعقل، يتجسد هذا الرمز في حلم الوهم، ويعكس "الإنسان المتحضر"، تعبر عبارة أبولون عن التفاؤل وتؤكد على أهمية الفهم العقلي الذي يساعدنا في حماية أنفسنا من إرهاب ديونيسوس والجنون غير المعقول الذي ينتج عنه، لكي يتمكن اليونانيون من العيش بسلام، كان عليهم أن يضعوا أمام أعينهم أهمية السيطرة على النفس، ومعرفة الذات، والتأمل، والسير على الطريق الوسط الذي أشار إليه الفيلسوف أرسطو. (أنظر: لورانس جين وكيتي شين، أقدم لك نيتشه، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2002، ص19). وبالتالي يُعتبر أبولون إله الراحة والسكون، وفتنة العواطف، والتأمل العقلي، والنظام المنطقي، والهدوء الفلسفي.

** - استخدم نيتشه تأويل رموز الأساطير اليونانية في سعيه لتبسيط مفهوم الفن للجمهور (القراء)، يمكن القول إن الرمزية تغلغل في فلسفته في جميع تفاصيلها، في كلا كتابيه، اعتمد على الأصول اليونانية والمسيحية، على الرغم من أن نيتشه لا يُعتبر فيلسوفاً أصولياً، يراه الكثيرون فيلسوف النسيان بدلاً من فيلسوف الذاكرة، لذا فإن استحضاره للتراث اليوناني يُعتبر مجرد محاكاة للممارسات الفنية والثقافية التي فقدتها الإنسان الغربي الحديث، وهو استعادة للتاريخ اليوناني الرمزي وليس التاريخ اليوناني الواقعي.

¹ - Nietzsche Frédéric, *Par-delà le bien et le mal*, Op. cit, Qu'est- ce qui est noble?, §295, p339.

² - مجدي كامل، فريدريك نيتشه شيطان الفلسفة الأكبر، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، القاهرة، 2011، ص177.

القوة الذي يؤكد في عمقه المساوي، حيث لا يُعتبر دليلاً على الانحطاط أو الضعف، بل هو سعي نحو تحقيق الكمال في الحياة دون إنكار قسوتها أو رعبها.

إذن فلسفة نيتشه دعوة للعيش بطريقة مشابهة لحياة الإغريق، إنها تعكس رغبة قوية في الحياة والصحة، وتتعامل مع جميع تناقضات الوجود، تتميز هذه الفلسفة بالاستجابة الإيجابية المليئة بالفرح، كما تتضمن تدفقاً من الحيوية المجنونة التي لا تعرف الحدود، تمثل هذه الرؤية فهماً عميقاً وسامياً للحياة، حيث تقبل الواقع كما هو دون أي تزييف، وتتجاوز كل أشكال الألم والفضاعة.

نتائج الفصل:

سعى نيتشه إلى إنقاذ البشرية من أزمة المعنى التي نشأت نتيجة الأوهام التي سيطرت على العالم على مدى ألفي عام، ومن هنا كان عليه أن يعلن عن موت الإله كدعوة للبشر للانطلاق نحو فكرة أن كل فرد يجب أن يعيد تشكيل نفسه ليتمكن من الاستمتاع بحياة مليئة بالمعاني، فلا توجد قوة خارجية تتحكم في مصير الإنسان أو تفرض إطاراً متعالياً للمعاني، بل إن الفرد هو المسؤول عن اختيار أفعاله والطريقة التي يشكل بها عالمه، من خلال خلق قيمه الخاصة بإرادة قوية ومبدعة في هذا الوجود.

يتناول الخطاب المركزي لنيتشه ضرورة تجاوز الإنسان الحديث لواقعه الثابت، حيث فقد القدرة على التغلب على ذاته، كما خمدت فيه القوة الإبداعية، وأصبح يشعر بالملل من اللعبة، مستسلماً لقيم اليأس والخضوع والجبن، ومتقبلاً للقدر المحتوم، لصالح ما يجب أن يكون؟ وهو أن يصير متفوقاً، إذ يوجد بطل داخل كل فرد، لكنه مكبّل بقوى الارتكاس وإرادة النفي فيه.

تُعتبر رؤية نيتشه للحياة والوجود بمثابة الحقيقة المطلقة، حيث لا يوجد ما يمكن أن يسميه الفلاسفة عالم الحقائق مقابل عالم الظواهر، ولتجاوز حالة العدمية التي تعكس تدهور الإنسانية في الثقافة الغربية، يتطلب الأمر ولادة الإنسان المتفوق الذي يسعى إلى خلق قيم جديدة، هذه القيم ليست سوى تأسيس ثقافة جديدة تُعرف بثقافة السامية، التي تهدف إلى تأكيد وإثبات وتمجيد الحياة والوجود، وتستخدم الفن المساوي كوسيلة للتعبير عنها، ورمزها هو ديونيسوس.

نقد نيتشه للميتافيزيقا: تقييم وتحليل

تُعَدُّ فلسفة فريدريك نيتشه من أكثر المشاريع الفلسفية إثارة للجدل في تاريخ الفكر الغربي الحديث، إذ أحدثت قطيعة إبستمولوجية مع أنساق الميتافيزيقا التقليدية، وأعادت رسم معالم الخطاب الفلسفي من خلال تفكيك مقولاته المركزية، كالحقيقة والخير والذات، غير أن هذا التمرد الفلسفي يثير جملة من التساؤلات: هل تمكن نيتشه فعلا من تجاوز الميتافيزيقا، أم أن مشروعه أعاد إنتاجها في صيغ جديدة؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار نقده متسقا من الناحية المنهجية والمعرفية؟

يهدف هذا الفصل إلى تقييم المدى الذي بلغه مشروع نيتشه في نقد الميتافيزيقا الغربية، وذلك من خلال إبراز نقاط قوته من جهة، وتسليط الضوء على إشكالاته النظرية والحدود التي واجهها من جهة أخرى.

أولا: القوة النقدية لفلسفة نيتشه

تميز نيتشه بقوة تفكيكية استثنائية، حيث لم يقتصر نقده على النظريات فحسب، بل شمل أيضا الأنساق الأخلاقية واللغوية والتاريخية، وقد كشف نيتشه عن العلاقة العميقة بين الميتافيزيقا والأخلاق، معتبرا أن القيم الميتافيزيقية تنبع من ميول نفسية وانفعالية، وليس من حقائق عقلية موضوعية، وفي هذا السياق، يقول نيتشه في ما وراء الخير والشر: "كل فلسفة عظيمة هي اعترافات شخصية لصاحبها، ونوع من المذكرات غير الإرادية"¹

يُظهر هذا القول كيف يرى نيتشه أن الفلاسفة لا يسعون إلى الحقيقة بقدر ما يعبرون عن بنياتهم النفسية المستبطنة بلغة عقلانية، ومن هذا المنطلق، دشّن نيتشه أفقا جديدا لتحليل الفكر بوصفه تعبيرا تأويليا عن الرغبة والسلطة، ما مهّد لاحقا لظهور مفاهيم مثل "أركيولوجيا المعرفة" و"حفريات الفكر" كما ظهرت لدى فوكو.

ثانيا: الميتافيزيقا المعكوسة – هل تحرّر نيتشه منها؟

رغم الطابع الراديكالي لنقد نيتشه، فقد وُجِّهت إليه انتقادات معتبرة تتعلّق بعدم قدرته على التخلص الكلي من البنية الميتافيزيقية، إذ يرى بعض الدارسين أن مفاهيم مثل "إرادة القوة" و"العود الأبدي" تمثل أشكالا من "الميتافيزيقا المعكوسة"، حيث جرى استبدال مفاهيم الثبات والجوهر بصيغ كونية جديدة ذات طابع شمولي، ففي

¹ - Nietzsche Friedrich, *Beyond Good and Evil*, Op. cit, §6.

هكذا تكلم زرادشت، يكتب نيتشه: "كل شيء يمضي، كل شيء يعود... إلى الأبد تعود جميع الأشياء."¹، وهو تصور كوني ينطوي على شكل من الكلية التي طالما نقدها نيتشه بوصفها وهما ميتافيزيقيا.

كما أن مفهوم "إرادة القوة"، الذي يشكل حجر الزاوية في فلسفته، يعاني من تعدد دلالي يجعله عرضة لتأويلات متباينة: فهو يُطرح أحيانا كمبدأ أنطولوجي، وأحيانا أخرى كميّار قيمي أو تحليل نفسي-بيولوجي، هذا التعدد المفاهيمي، وإن أتاح ثراء في القراءة، إلا أنه يفتح المجال أمام إساءة الاستخدام والتوظيف الإيديولوجي، خصوصا حين يُفهم خارج سياقه التأويلي.

ثالثا: أخلاق ما بعد الخير والشر - إمكانية التجاوز وحدود المخاطر

سعى نيتشه إلى تجاوز البنية الأخلاقية التقليدية المبنية على ثنائية الخير والشر من خلال تطويره لمفهوم "أخلاق السادة"، التي تعلي من شأن القوة، والخلق، والتمرد على القيم المفروضة، إلا أن هذا التصور أثار بدوره إشكاليات عميقة، حيث اتهم نيتشه بالترويج لنزعة نخبوية قد تُستخدم لتبرير الإقصاء أو العنف الرمزي، ففي معرض نقده للمسيحية، يكتب نيتشه: "يجب أن يُباد الضعفاء والفاشلون: هذه هي أولى وصايا الحب الحقيقي للبشرية."²

رغم أن نيتشه رفض بوضوح النزعات القومية ومعاداة السامية، إلا أن غموض مفاهيمه سمح لاحقا بتأويلات خطيرة، كما حدث في توظيف الفاشية والنازية لبعض أفكاره، من هنا تبرز أهمية القراءة الحذرة التي تميز بين النقد الجذري للعبودية الأخلاقية، وبين الاستخدام الإيديولوجي المنحرف لهذا النقد.

كما يُنتقد نيتشه لاعتماده على نسبية معرفية جذرية تنكر وجود حقيقة موضوعية، معتبرة أن الحقائق "أوهام ضرورية" أو "استعارات تُسبّت مجازيتها"، وعلى الرغم من الطابع الثوري لهذا الموقف، فإنه يضعف من قدرة الخطاب النيتشوي على تأسيس حججه النقدية، إذ يصبح كل تأويل ذاتيا وغير قابل للمفاضلة العقلانية، مما يفتح الباب أمام المفارقة: كيف يمكن نقد الميتافيزيقا من داخل خطاب ينكر إمكانية الحقيقة؟

¹ - Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra**, Op. cit, P270.

² - Nietzsche Friedrich, **The Antichrist**, Op. cit, §14, P127.

يشكل التقويض النيتشوي للأخلاق التقليدية ورفضه لمفهوم "الخير والشر" بوصفه حقيقة مطلقة، مدخلا لتبني موقفٍ يُوصَف بما بعد الأخلاقي، حيث تُستبدَل المعايير الأخلاقية الموضوعية بمفاهيم القوة والتميّز الفردي باعتبارها المقياس الأسمى للقيمة، غير أن هذا التحول قد يُفضي إلى نوعٍ من العدمية القيمية، بما يُهدد إمكانيات التعايش الإنساني ضمن أطر اجتماعية قائمة على العدالة والمشارك القيمي، ورغم مسعى نيتشه لتجاوز العدمية عبر طرحه لمفهوم "الإنسان المتفوّق"، إلا أن هذا المفهوم يظل محاطا بالغموض، ويحمل طابعا نخبويا لا يُقدّم بديلا عمليا واضح المعالم لنظام القيم السائد.

وعلى صعيدٍ آخر، يتجاوز نقد نيتشه للميتافيزيقا الإطار الفلسفي المجرد ليأخذ بُعدا تأويليا ذا طابع نفسي، إذ يرى أن نشوء الميتافيزيقا لا ينبثق من إشكالات معرفية عقلية صرفة، بل يرتبط بجذور وجدانية وانفعالية كالعجز والمرض والخوف والانحطاط، ورغم ما ينطوي عليه هذا التحليل من جدة وعمق في مساءلة الدوافع الخفية وراء الإنتاج الفلسفي، إلا أنه قد يُفضي في بعض الأحيان إلى تقويض القيمة المعرفية للفلسفة الميتافيزيقية، عبر اختزالها إلى مجرد تعبير عن حالات نفسية، مما يضعف من مشروعيتها بوصفها اجتهادا عقليا منسجما مع تقاليد الفكر النظري.

رابعا: تأثير فلسفة نيتشه واستمراريتها

مهما يكن من أمر الجدل المحيط بفلسفة نيتشه، فإن تأثيره على الفكر المعاصر لا يمكن إنكاره، فقد مثّل منبعاً رئيسياً للعديد من تيارات ما بعد الحداثة، وكان له حضور بارز في فلسفات هايدغر، فوكو، دريدا، ودولوز، كما ساهم في إعادة الاعتبار للجسد، واللغة، والتاريخ بوصفها مفاتيح مركزية لفهم الإنسان.

إن مفهوم "الإنسان المتفوّق"، كما طرحه نيتشه، لا يمثل كائنا بيولوجيا متفوقا بقدر ما هو رمز لعملية التجاوز المستمر للذات، إذ يقول "الإنسان هو شيء يجب تجاوزه"، بهذا المعنى، لا تقف فلسفة نيتشه عند حدود التدمير، بل تسعى إلى تأسيس مشروع مفتوح يتحدى أوهام اليقين، ويؤكد على الطابع التأويلي والمتحول للوجود الإنساني.

تُجسّد فلسفة نيتشه مشروعا مفتوحا لا يسعى إلى تقديم يقينيات نهائية، بل يعمل على تفكيك أوهامها وزعزعة أسسها الراسخة، وتنبع القيمة الفعلية لهذا المشروع الفكري من طابعه الإشكالي والمجازف، لا من استقراره

أو ادعائه امتلاك الحقيقة، إن نيتشه لا يُقيّم خارج السياق الذي أنتج فلسفته، بل ينبغي مقارنته بروح نقدية مماثلة لتلك التي تبناها في مواجهته للأنساق الفكرية السائدة، ففكره يفتقر إلى اليقين والضمانات، ويظل منفتحاً على التأويل والتعدد في الفهم، وتتأرجح فلسفته بين نزعة تفكيكية تستهدف الميتافيزيقا التقليدية، وطموح إبداعي يسعى إلى ابتكار نموذج الإنسان المتفوّق، مما يمنحها غنىً فلسفياً فريداً، لكنه لا يخلو من التوترات والتناقضات والمخاطر.

خاتمة

خاتمة:

من خلال تحليلنا لهذا الطرح، يتضح أن نيتشه يقوم بإحداث تغيير جذري في طريقة تناول الميتافيزيقا، فهو يتخلى عن بناء نظرية نقدية معيارية، وبدلاً من ذلك يركز على تحليل الواقع التاريخي والاجتماعي الذي نشأت فيه الميتافيزيقا، والذي يحدد مكانتها في الوعي الجمعي، بعبارة أخرى، لا يتبنى نيتشه موقف المتأمل البعيد، بل يسعى إلى كشف كيفية نشوء الاعتقاد بالوجود المفارق، والإرادات والقوى التي ساهمت في ترسيخه، ومن هذا المنطلق، يرى نيتشه أنه يكفي إظهار الأصل التاريخي للميتافيزيقا، حيث يُعتبر هذا الكشف من أقوى الأدلة التي تدحض فكرة وحدتها وثباتها المزعومين.

بالنظر إلى تحليل نيتشه للميتافيزيقا، يتبين أنه يُلحّ على ضرورة تتبع جذورها اللاهوتية لفهم بنيتها النقدية وتفكيكها، إذ يرى أن هذه الجذور مشبعة بما يسميه بـ"الدم اللاهوتي"، فقد نشأ الفكر الفلسفي، وفقاً لنيتشه، في سياق تاريخي مختلط، حيث تداخلت العناصر اللاهوتية والفلسفية، مما جعله يعتبر أن الحقل اللاهوتي يشكل الإطار الأنجع لفهم تشكّل الفلسفة، فالميتافيزيقا، بوصفها ظاهرة، لا يمكن تحليلها بصورة مستقلة عن تاريخها الخاص، بل يجب النظر إليها في علاقتها مع تاريخ أولئك "القساوسة" الذين زعموا تمثيلهم لـ"عمق الأشياء".

يُدرِك نيتشه أن "إرادة العدم" التي حكمت اللاهوت، امتدت لتخترق الفلسفة ذاتها، منذ نشأتها مع سقراط وأفلاطون، اللذين أدخلوا إلى الفلسفة بعداً كهنوتياً تمثل في نزعتها الزهدية وعدائها للغريزة والحياة، وقد ظل هذا الطابع يرافق الفلسفة، إذ استمرت في ارتداء قناع الكاهن، لا بوصفه اختياراً حراً أو رغبة ذاتية، بل كاستجابة لشروط تاريخية واجتماعية أملت على الفلسفة أن تتوسل هذا القناع، كما يحتاج الطفل إلى المساعدة عند تعلمه المشي.

ومن هذا المنطلق، يرى نيتشه أن الفلاسفة، رغم ادعائهم النقاء والتجرد، ليسوا بعيدين عن المثال الزهدي، فهم يحملون في داخلهم نزوعاً لتقزيم الحياة والواقع والغرائز، بحثاً عن عوالم مفارقة يتوهمون أنها أكثر صدقاً ونقاءً، وهو ما يؤدي إلى تحويل العدم نفسه إلى موضوع للإرادة، في محاولة يائسة لإنقاذ الإرادة من الوقوع في العدم المطلق.

من هذا المنظور، تكشف نصوص نيتشه أن الفلسفة انطلقت تاريخيا من تمثيلات لاهوتية عميقة، إذ لطالما تعامل الفلاسفة مع الأحاسيس الدينية بوصفها عناصر بنيوية في طبيعة الإنسان، ما جعل تلك المشاعر تؤثر في بناء منظوماتهم الفكرية وصياغة مفاهيمهم ومنهجياتهم، ويصل نيتشه إلى حد اعتبار الفلسفة خادمة لللاهوت، خاصة في اللحظات التي شعر فيها الدين بتهديد العلم، حيث يتسلل اللاهوت إلى الفلسفة على نحو خفي، كما فعلت المسيحية خلال أزمتها، حين زرعت مفاهيمها داخل الخطاب الفلسفي لاكتشافها لاحقا.

لذا فإن نيتشه يخوض مواجهة صريحة ضد "الغريزة اللاهوتية"، تلك التي يراها متغلغلة في أعماق الفلسفة الغربية، وهو يرى أن من يحمل في داخله هذا الدم اللاهوتي، يتبنى منذ البداية رؤية منحازة وغير نزيهة للعالم، ويقع تحت تأثير حالة ذهنية تُعرف بالإيمان، وهي حالة تولّد نظاما أخلاقيا وقيميا قائما على أوهام قدّست تحت مسميات كالاخلاص، والخلود، والإله، واعتُبرت بذلك المرجع الأسمى، ما يؤدي إلى رفض كل رؤية بديلة للواقع.

وفي هذا الإطار، ينتقد نيتشه الفلسفة الحديثة التي، رغم ادعائها تجاوز اللاهوت، لم تفعل سوى نقل مفاهيمه إلى مستوى جديد، حيث استبدلت سلطة الكنيسة بسلطة العقل، وغيّرت وجهة المثال الديني نحو دلالة إنسانية مستقبلية، وحتى حين تظاهرت هذه الفلسفة بأنها أُنعت الحقبة المسيحية، فإنها لم تنج من تأثيراتها، إذ لا تزال "ظلال الإله الميت" ماثلة في ثناياها، وإن على نحو غير ظاهر.

من هذا المنطلق، لا يتوانى نيتشه عن مساءلة المفاهيم التي اعتبرها الفكر الفلسفي "أزلية"، وعلى رأسها مفهوم "الحقيقة"، فهو يرفض منح هذه المفاهيم صفة الثبات، ويسعى إلى تتبع أصولها الكامنة في الحاجة إلى البقاء، إذ يرى أن الحقيقة ما هي إلا أوهام أصبحت ضرورية للحياة، وليست حقائق ذاتية أو موضوعية في ذاتها، ولذلك، فإن ما يبدو كحقيقة إنما هو نتاج تراكم من الأخطاء المفيدة للبقاء، والتي توارثها البشر وتحوّلت إلى مسلمات أنطولوجية مقدّسة.

وبهذا المعنى، فإن الميتافيزيقا، بحسب نيتشه، ليست إلا خلاصة تلك الأخطاء التي ارتكبتها العقل البشري، لكنها أخطاء "صالحة" لأنها خدمت استمرارية النوع، وقد ترسّخت هذه الأخطاء في الوعي الجمعي بفعل العادة والمنفعة والنسيان، حتى اكتسبت طابعا موضوعيا يجعل من الصعب زعزعتها أو الشك فيها.

وبعضي نيتشه في تحليله ليؤكد أن هذه الأخطاء تمثل تأويلات ناتجة عن سوء فهم نفسي متزايد للذات والعالم، وهي ليست سوى تعبير عن "إرادة القوة" لدى قوى ارتكاسية، تعمل على إضفاء معانٍ على الظواهر لا تتضمنها الطبيعة في ذاتها، بل تُفرض عليها قسراً، وبهذا يصبح الفيلسوف، عند نيتشه، مفسراً خادعاً، يضفي طابعاً مفارقاً على الظواهر، ويفترض وجود "كائن خلف الظواهر"، في محاولة لتفسير ما يعجز عن فهمه.

لذا أصبح الفلاسفة يشكّلون تهديداً كبيراً لكل شيء، فعندما يواجهون صعوبة في فهم التغيرات المستمرة، يسعون دائماً لإيجاد مبررات تفسر لماذا تفلت منهم هذه التغيرات، يفترضون أن هناك ظواهر تخدعهم، مما يمنهم من إدراك الكائن الذي يقف وراءها، يتساءلون عن مكان وجود الماكر المخادع، ويشيرون إلى الحواس التي تتعارض مع الأخلاق وتضلّلنا بشأن طبيعة العالم الحقيقي.

ولذلك يرى نيتشه أن الفلاسفة يشكّلون تهديداً لكل ما هو حي ومتغير، لأنهم يهرون من التغير إلى الثبات، ومن الظاهر إلى المفارق، ويحملون الحواس مسؤولية التضليل، ما يدفعهم إلى تبني هدف أخلاقي يتمثل في التحرر من أوهام الحواس والتاريخ، وكأن الفيلسوف المثالي يجب أن يكون، في نظرهم، "مومياء" لا تتغير.

بناءً على ذلك، يدعو نيتشه إلى إعادة تشكيل العقل، ليس عبر التقدم إلى الأمام فحسب، بل من خلال العودة إلى الوراثة لفهم الشروط التاريخية والاجتماعية والنفسية والفيزيولوجية التي نشأ فيها العقل وتبلورت فيها مبادئه، إنه يقترح "أنثروبولوجيا معكوسة" للعقل، تجعل من نقده شرطاً لفهمه، ومن تاريخه ساحة لتفكيك سلطته.

يفتقر العديد من الفلاسفة، بحسب نيتشه، إلى الحس التاريخي الضروري لفهم الشروط التي نشأت فيها المبادئ التي يتبنونها، إذ تتأثر مواقفهم إلى حد كبير بمزاجهم الشخصي ونفورهم العميق من مبدأ الصيرورة، فهم إذ يثنون على مفاهيم بعينها، يجردونها من سياقها الزمني والتاريخي ويعاملونها كما لو كانت كيانات ثابتة، مما يجعلهم - وفق تعبير نيتشه - يُحَنِّطون الأفكار ويحوّلونها إلى "مومياءات فلسفية"، بعيدة كل البعد عن الحياة والدينامية التي يفترض أن تكون حافز التفكير الحقيقي.

في المقابل، تنتمي الحياة إلى منطق مختلف كلياً، فهي لا تسعى إلى الحقيقة المجردة بقدر ما تنشده الاستمرار والبقاء، وفي هذا السياق، يمكن حتى للأخطاء، باعتبارها أدوات مفيدة أو حيلة حيوية، أن تؤدي وظائف حيوية

في سبيل البقاء، وإن كان مظهرها الخارجي محض وهم، ومع تكرار استخدام هذه الأخطاء وتوارثها عبر الأجيال، ينسى الإنسان مصدرها ويمنحها صفة القداسة، فتتحول إلى "حقائق" موضوعية.

من هنا ينطلق نيتشه في نقده للميتافيزيقا، محاولا الكشف عن الجوانب اللاعقلانية أو ما قبل العقلانية في التفكير الفلسفي الكلاسيكي، لا سيما في تمثالاته حول الحقيقة والقيم، ولم يكن هدفه في ذلك مجرد مساءلة عقلية للميتافيزيقا، بل كان يسعى إلى سبر أغوارها من منظور نفسي وفيزيولوجي، يكشف من خلاله البنية الأخلاقية العميقة التي تحرك الفيلسوف وتوجه استدلالاته، فالميتافيزيقا، في نظر نيتشه، ليست خطابا معرفيا صرفا، بل هي ظاهرة أخلاقية مغلفة بقشرة منطقية، تحكمها إرادة الإيمان أكثر مما يحكمها العقل المحض.

يتجذر هذا التصور في فهم نيتشه لوظيفة الوعي، حيث يرى أنه ليس سوى أداة في خدمة الغرائز، توجهه الرغبات الحيوية والحاجات الفيزيولوجية، من هنا لا يمكن فهم إنتاج الفلاسفة للمفاهيم إلا من خلال استقراء الدوافع الغريزية والأخلاقية التي تقف خلفها.

وتأسيسا على هذا المنظور، يمكن القول إن سؤال القيم يشكل المحور المركزي في فلسفة نيتشه، فقد انطلق في مشروعه الفلسفي من مساءلة جذرية للقيم، وجعل منها نقطة البدء، خلافا للفلاسفة التقليديين الذين اعتبروا القيم مجالا تابعا للأنطولوجيا أو نظرية المعرفة، وبذلك، كان نيتشه أول من منح مسألة القيمة أولوية تأسيسية، جعلته ينتقل منها إلى تفكيك مفاهيم الحقيقة والمعرفة والوجود.

غير أن هدفه من جنياولوجيا القيم لم يكن إعادة ترتيب سلم القيم فحسب، بل السعي إلى تقويض البنية العميقة التي تشكلت من خلالها الحداثة نفسها، لقد أراد، من خلال هذا التفكيك، وضع أسس جديدة لمنظومة قيم تتلاءم مع الحياة، وترتبط منطقيا بديناميتها وتعددتها، فالقيمة الجديدة، كما يتصورها نيتشه، ينبغي أن تكون ثمرة فعل تقويمي مستمر، يعكس إرادة القوة لا إرادة العدم.

هذا التحول الذي يقترحه نيتشه يتطلب تجاوز الميتافيزيقا الكلاسيكية ومنطق الهوية، والتوجه نحو منطق يضمن التعدد والاختلاف والصيرورة، وهو ما يتيح إعادة تشكيل الفلسفة من حيث أدواتها ومفاهيمها، عبر تحريرها من القوالب المجردة والأنماط العقلانية الصارمة التي كبلتها.

ويتمثل الغاية القصوى لهذا التحول الفلسفي في تمهيد السبيل نحو بزوغ "الإنسان المتفوق"، ذلك الكائن الخلاق الذي يُعيد خلق القيم من موقع القوة والإثبات، لا من موقع النفي والإنكار، على هذا الإنسان أن يتحرر من الروح الجماعية المنهكة، ويعيد تشكيل ذاته على نحو ينسجم مع متطلبات الحياة وقيمها الإيجابية، فيؤسس لمرحلة جديدة من التاريخ الإنساني، حيث تصبح الحياة نفسها هي المعيار الأسمى.

إنه مشروع للاحتفاء بالحياة وتأكيدا في مواجهة المعاناة، وتجسيد لإرادة القوة التي تتيح للإنسان التعايش مع الوجود بفرح تراجيدي، بعيدا عن ثقل القيم الزائفة ومقولات العدم، وكما يقول نيتشه، فإن الفلسفة لا تدعونا لأن نفهم العالم، بل لأن نرقص في وجه الألم والمعاناة، شجعانا لا نبالي، أقوى لا ننكسر، لأن "الفلسفة امرأة، ولا تفضّل إلا الرجل المكافح".

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

الكتاب المقدس:

1. العهد القديم: سفر التكوين.
2. العهد الجديد: إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل يوحنا.
3. رسائل بولس الرسول إلى: أهل غلاطية، أهل فيليبي، أهل رومية، أهل كورنثوس.

المصادر بالعربية:

1. نيتشه فريدريك، إرادة القوة: محاولة لقلب كل القيم، ترجمة: مُحمَّد الناجي، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011.
2. نيتشه فريدريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قببسي، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1981.
3. نيتشه فريدريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسان بورية ومُحمَّد الناجي، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1996.
4. نيتشه فريدريك، العلم الجدل، ترجمة: سعاد حرب، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2001.
5. نيتشه فريدريك، العلم المرح، ترجمة: حسان بورية ومُحمَّد الناجي، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1993.
6. نيتشه فريدريك، الفجر، ترجمة: مُحمَّد الناجي، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013.
7. نيتشه فريدريك، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم: ميشال فوكو، تعريب: سهيل القش، الطبعة الثانية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.
8. نيتشه فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته: كتاب العقول الحرة، ترجمة: مُحمَّد الناجي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002.
9. نيتشه فريدريك، عدو المسيح، ترجمة: جورج ميخائيل ديب، الطبعة الثانية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2005.
10. نيتشه فريدريك، غسق الأوثان: أو كيف نتعاطى الفلسفة قرعا بالمطرقة، ترجمة: علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت، 2010.
11. نيتشه فريدريك، في جنبا لوجيا الأخلاق، ترجمة: فتحي المسكيني، الطبعة الأولى، منشورات دار سيناترا، تونس، 2010.
12. نيتشه فريدريك، ما وراء الخير والشر: تبشير فلسفة للمستقبل، ترجمة: جيزيلا فالور حجّار، مراجعة: موسى وهبه، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت، 2003.

13. نيتشه فريدريك، محاسن التاريخ ومساوئه، ترجمة: رشيد بوطيب، الطبعة الأولى، منتدى العلاقات العربية والدولية، الدوحة، 2019.
14. نيتشه فريدريك، مقدمة لقراءة محاورات أفلاطون، ترجمة: محمد الجوة وأحمد الجوة، الطبعة الأولى، دار البيروني للنشر والتوزيع، صفاقس، 1993.
15. نيتشه فريدريك، مولد التراجيديا، ترجمة: شاهر حسن عبيد، الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 2008.
16. نيتشه فريدريك، نقيض المسيح، ترجمة: علي مصباح، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، بيروت، 2011.
17. نيتشه فريدريك، هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، الطبعة الثانية، منشورات الجمل، بيروت، 2006.
18. نيتشه فريدريك، هكذا تكلم زرادشت: كتاب للكل ولا لأحد، ترجمة: فيليكس فارس، الطبعة الأولى، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، 1938.

المصادر بالفرنسية:

1. Nietzsche Frédéric, **Ainsi parlait Zarathoustra: Un livre pour tous et pour personne**, Trad: Henri Albert, vingt-neuvième édition, Mercure de France, Paris, 1914.
2. Nietzsche Frédéric, **Aurore**, Trad: Henri Albert, Première édition, Mercure de France, Paris, 1901.
3. Nietzsche Frédéric, **Humain, trop humain**, Trad: Alexandre-Marie Desrousseaux, vol.1,2, septième édition, Société dv Mercure de France, Paris, 1906.
4. Nietzsche Frédéric, **La Généalogie de la morale**, Trad: Henri Albert, troisième édition, Mercure de France, Paris, 1900.
5. Nietzsche Frédéric, **La volonté de puissance: Essai d'une transmutation de toutes les valeurs**, Trad: Henri Albert, Tome. I, Première édition, Mercure de France, Paris, 1903.
6. Nietzsche Frédéric, **Le Gai Savoir**, Trad: Henri Albert, quatrième édition, Mercure de France, Paris, 1901.
7. Nietzsche Frédéric, **Par-delà le bien et le mal : prélude d'une philosophie de l'avenir**, Trad: Henri Albert, sixième édition, Société dv Mercure de France, Paris, 1907.
8. Nietzsche Friedrich, **L'Antéchrist**, Trad: Henri Albert, septième édition, Mercure de France, Paris, 1908.
9. Nietzsche Friedrich, **La Naissance de La Tragédie**, Trad: Cornélius Heim, sans édition, Denoël-Gonthier, Paris, 1964.
10. Nietzsche Friedrich, **Le Cas Wagner, Nietzsche contre Wagner**, Textes et variantes établis par. Giorgio Colli et Mazzino Montinari, Trad: de l'allemand par Jean-Claude Hémery, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1974.
11. Nietzsche Friedrich, **Le Crépuscule des Idoles**, Trad: Henri Albert, septième édition, Mercure de France, Paris, 1908.
12. Nietzsche Friedrich, **Le Livre du philosophe**, Trad: Angèle Kremer-Marietti, sans édition, Garnier Flammarion, Paris, 1991.

13. Nietzsche Friedrich, **Œuvres philosophiques complètes: Fragments posthumes**, Textes et variantes établis par, G. Colli et M. Montinari, Trad: de l'allemand par Henri-Alexis Baatsch et Pierre Klossowski, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1976.
14. Nietzsche Friedrich, **Seconde considération intempestive: De l'utilité et de l'inconvénient des études historiques pour la vie**, Trad: Henri Albert, sans édition, GF Flammarion, Paris, 1988.

المصادر بالإنجليزية:

1. Nietzsche Friedrich, **Beyond Good and Evil: Prelude to a Philosophy of the Future**, Trans: Helen Zimmern, Third Edition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1911.
2. Nietzsche Friedrich, **Ecce Homo**, Trans: Anthony M. Ludovici, The Macmillan Company, New York , 1911.
3. Nietzsche Friedrich, **Human, All Too Human: A Book for Free Spirits**, Trans: Helen Zimmern, with introd. by J. M. Kennedy, vol. 1, First Edition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1910.
4. Nietzsche Friedrich, **On the Genealogy of Morals**, trans. Walter Kaufmann and R. J. Hollingdale , Vintage Books, New York, 1967.
5. Nietzsche Friedrich, **The Antichrist**, trans. Walter Kaufmann, Vintage Books, New York, 1968.
6. Nietzsche Friedrich, **The Birth of Tragedy**, trans. Walter Kaufmann, Vintage, New York, 1967.
7. Nietzsche Friedrich, **The Dawn of Day**, Trans: J.M. Kennedy, Première édition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1911.
8. Nietzsche Friedrich, **The Gay Science**, trans. Walter Kaufmann, Vintage Books, New York, 1974.
9. Nietzsche Friedrich, **The Will to Power: An Attempted Transvaluation of All Values**, Trans: Anthony M. Ludovici, Vol. I, First Edition, T. N. Foulis 13 & 15 Frederick Street Edinburgh: and London, 1914.
10. Nietzsche Friedrich, **Thus Spake Zarathustra: A Book for All and None**, Trans: Thomas Common, First Edition, Random House, New York, 1909.
11. Nietzsche Friedrich, **Twilight of the Idols**, trans. R. J. Hollingdale , Penguin, London, 2003.
12. Nietzsche Friedrich, **Untimely meditations**, Trans: by R.J. Hollingdale, With an Introduction by J.P. Stern, without edition, Cambridge University Press, London, 1983.

المراجع بالعربية:

1. إبراهيم زكريا، مشكلات فلسفية: المشكلة الخلقية، الطبعة الأولى، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1969.
2. أفلاطون، جمهورية أفلاطون، ترجمة: فؤاد زكريا، د.ط، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004.
3. أفلاطون، فيدودن: في خلود النفس، ترجمة: عزت قرني، الطبعة الثالثة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002.

4. أفلاطون، محاوره كراتيليوس: في فلسفة اللغة، ترجمة: عزمي طه السيد أحمد، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة، عمان، 1995.
5. إمام عبد الفتاح إمام، الأخلاق والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم، د.ط، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002.
6. أمين عثمان، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، د.ط، دار المعارف، الإسكندرية، 1967.
7. إهرنبرغ جون، المجتمع المدني: التاريخ النقدي للفكرة، ترجمة: علي حاكم صالح وحسن ناظم، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008.
8. بالمر روبرت روزويل، تاريخ العالم الحديث، ترجمة: حسن علي الذنون، الجزء الثاني، د.ط، مكتبة دار المتنبي، بغداد، 1964.
9. بلو دانيال، تشكّل فريدريك نيتشه، ترجمة: محمد الفشتكي، الطبعة الأولى، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2018.
10. بيار هير سوفرين، زرادشت نيتشه، ترجمة: أسامة الحاج، الطبعة الثانية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2002.
11. بيير مونتييلو، نيتشه وإرادة القوة، ترجمة: جمال مفرج، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010.
12. جان غرانييه، نيتشه، ترجمة: علي بو ملح، الطبعة الأولى، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.
13. جمال مفرج، الإرادة والتأويل: تغلغل النيتشوية في الفكر العربي، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009.
14. جميل حمداوي، المقاربة الشذرية بين النظرية والتطبيق، الطبعة الثالثة، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، تطوان، 2020.
15. حسين موسى، ميشال فوكو: الفرد والمجتمع، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009.
16. داروين تشارلز، أصل الأنواع: نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي، ترجمة: مجدى محمود المليجي، تقديم: سمير حنا صادق، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.
17. دوستوفسكي فيودور، الأعمال الأدبية الكاملة: الإخوة كارامازوف، ترجمة: سامي الدروبي، المجلد السادس عشر، الطبعة الثانية، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، 1985.
18. دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.
19. دومينيك لوكور، فيم تفيد الفلسفة إذن؟ من علوم الطبيعة إلى العلوم السياسية، ترجمة: محمد هشام، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011.

20. ديكارت رينيه، التأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة: عثمان أمين، ترجمة: عثمان أمين، الطبعة الثانية، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009.
21. ديكارت رينيه، مقال عن المنهج: لإحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم، ترجمة: محمود مُجد الحضيبي، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985.
22. ديكارت رينيه، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ترجمة: كمال الحاج، الطبعة الثالثة، منشورات عويدات، بيروت، 1982.
23. ديكارت رينيه، مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، د. ط، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1975.
24. ديورانت ويل، قصة الفلسفة: من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة: فتح الله مُجد المشعشع، الطبعة السادسة، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، 1988.
25. روسو جان جاك، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة: عبد العزيز ليبب، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011.
26. سالم يفوت، مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر: مظاهر النزعة الاختبارية لدى الوضعيين الجدد، الطبعة الأولى، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د. ت.
27. سباين جورج، تطور الفكر السياسي، ترجمة: راشد البراوي، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1971.
28. سو بريدو، أنا عبوة ديناميت! حياة فريدريك نيتشه، ترجمة: أحمد سامي وسارة الجوهر، الطبعة الأولى، نابو للنشر والتوزيع، بغداد، 2020.
29. شتاينر رودولف، نيتشه مكافحا ضد عصره، ترجمة: حسن صقر، الطبعة الأولى، دار الحصاد للنشر و التوزيع، دمشق، 1998.
30. شوفالبيه جان جاك، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة: مُجد عرب صاصيلا، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985.
31. صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.
32. صفدي مطاع، نقد العقل الغربي: الحداثة ما بعد الحداثة، الطبعة الأولى، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.
33. عبد الرحمن بدوي، نيتشه، الطبعة الخامسة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1975.
34. عبد الرزاق بلعقروز، نيتشه ومهمة الفلسفة: قلب تراتب القيم والتأويل الجمالي للحياة، الطبعة الأولى، دار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010.
35. عبد السلام بنعبد العالي و مُجد سبيلا، دفاتر فلسفية، نصوص مختارة: المعرفة العلمية 3، الطبعة الثالثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1996.
36. عبد السلام بنعبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1991.
37. عبيدة صبطي ونجيب بخوش، مدخل إلى السيميولوجيا، الطبعة الأولى، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

38. عوض رمسيس، ملحدون محدثون ومعاصرون، الطبعة الأولى، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 1998.
39. فريدل فاينرت، كوبرنيكوس وداروين وفرويد: ثورات في تاريخ وفلسفة العلم، ترجمة: أحمد شكل، الطبعة الأولى، مؤسسة هندواي، القاهرة، 2019.
40. فنك أوغن، فلسفة نيتشه، ترجمة: إلياس بديوي، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974.
41. فؤاد زكريا، نيتشه، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1966.
42. فوزية ضيف الله، كلمات نيتشه الأساسية ضمن القراءة الهيدغورية، الطبعة الأولى، منشورات ضفاف، بيروت، 2015.
43. فوكو ميشيل، الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرون، د.ط، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.
44. فوكو ميشيل، جنالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، الطبعة الأولى، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988.
45. كامو ألبير، الإنسان المتمرد، ترجمة: نهاد رضا، الطبعة الثالثة، منشورات عويدات، بيروت، 1983.
46. كانط إيمانويل، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة: عبد الغفار مكاوي، الطبعة الأولى، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، 2002.
47. كانط عمانوئيل، نقد العقل الخصب، ترجمة: موسى وهبة، الطبعة الأولى، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.
48. كوفمان والتر، نيتشه أربع رسائل، ترجمة: صادق خان، الطبعة الأولى، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1974.
49. لورانس جين وكيث شين، أقدم لك نيتشه، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2002.
50. لوك جون، رسالة في التسامح، ترجمة: منى أبو سنة، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية، 1997.
51. لوك جون، في الحكم المدني، ترجمة: ماجد فخري، الطبعة الأولى، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، 1959.
52. لويجي لوقا كافاللي-سفورزا، الجينات والشعوب واللغات، ترجمة: أحمد مستجير، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2000.
53. ماجد فخري، تاريخ الفلسفة اليونانية: من طاليس إلى أفلوطين وبرقلس، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1991.
54. مجدي كامل، فريدريك نيتشه شيطان الفلسفة الأكبر، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، القاهرة، 2011.
55. محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر نيتشه، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2008.
56. محمد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006.
57. محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2000.

58. مشير باسيل عون، نظرات في الفكر الإلحادي الحديث، الطبعة الأولى، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003.
59. مندر عياشي، الكتابة الثانية وفتحة المتعة، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998.
60. نور الدين الشابي، فوكو قارئاً نيتشه: حول التأويل والجينيولوجيا والعرفة، الطبعة الأولى، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، بيروت، 2016.
61. نيهاماس ألكسندر، نيتشه الحياة كنص أدبي، ترجمة: مُجد هشام، الطبعة الأولى، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2008.
62. يوحنا ذهبي الفم، دعوة بولس، ترجمة: سعيد حكيم، الطبعة الأولى، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة، د.ت.
63. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1957.

المراجع بالفرنسية:

1. Baroni Christophe, **Ce que Nietzsche a vraiment dit**, sans édition, Collection Marabout université, Verviers en Belgique, 1975.
2. Baroni Christophe, **Nietzsche éducateur: de l'homme au surhomme**, sans édition, Buchet/Chastel, Paris, 1961.
3. Biaggi Vladimir, **Nietzsche**, sans édition, Armand Colin, Paris, 1999.
4. Blondel Éric, **Nietzsche, le corps et la culture**, Philosophie d'aujourd'hui, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1986.
5. Boudot Pierre, **Nietzsche et l'au-delà de la liberté: Nietzsche et les écrivains français de 1930 à 1960**, Première édition, Aubier-Montaigne, Paris, 1970.
6. Boyer Alain et autres, **Pourquoi nous ne sommes pas nietzschéens**, sans édition, Le collège de philosophie, Grasset & Fasquelle, Paris, 1991.
7. Charles Andler, **Nietzsche, sa vie et sa pensée**, Vol. III, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1979.
8. Chassard Pierre, **Nietzsche, Finalisme et Histoire**, Première édition, Copernic, L'or du Rhin, Paris, 1977.
9. Deleuze Gilles, **Nietzsche et la philosophie**, Première édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1962.
10. Derrida Jacques, **De la grammatologie**, Première édition, Les Editions de Minuit, Paris, 1967.
11. Descartes René, **Discours de la méthode**, cinquième partie, sans édition, Librairie Philosophique J. Varin, paris: 1992.
12. Ferdinand Alquié, **La Critique kantienne de la métaphysique**, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1968.
13. Fink Eugen, **La Philosophie de Nietzsche**, Trad: Hans Hildebrand et Alex Lindenberg, sans édition, Les Editions de Minuit, Paris, 1965.
14. Foucault Michel, **"Nietzsche, la généalogie, l'histoire"**, in Hommage à Jean Hyppolite, Première édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1971.
15. Foucault Michel, **Les mots et les choses, Une archéologie des sciences humaines**, sans édition, Collection Bibliothèque des Sciences humaines, Gallimard, Paris, 1990.

16. Geneviève Hébert: "**Nietzsche, malin génie de l'herméneutique?**", sans édition, Éditions Beauchesne, Paris, 1993.
17. Georges Goedert, **Nietzsche, critique des valeurs chrétiennes**, Souffrance et compassion, sans édition, Éditions Beauchesne, Paris, 1977.
18. Granier Jean, **Le problème de la vérité dans la philosophie de Nietzsche**, Deuxième édition, Éditions du Seuil, Paris, 1966.
19. Haar Michel, **Nietzsche et la métaphysique**, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1993.
20. Heidegger Martin, **Chemins qui ne mènent nulle part**, Trad: Wolfgang Brokmeier, Première édition, Librairie Gallimard, Paris, 1962.
21. Heidegger Martin, **De l'essence de la vérité**, Approche de l'«allégorie de la caverne» et du «Théétète» de Platon, Trad: Alain Boutot, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 2001.
22. Heidegger Martin, **Être et Temps**, Trad: François Vezin, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1986.
23. Heidegger Martin, **Nietzsche**, Trad: Pierre Klossowski, Tome.II, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1971.
24. Huan Gabriel, **La philosophie de Frédéric Nietzsche**, sans édition, Ancienne Librairie Fontemoing & Cie, Paris, 1917.
25. Kant Emmanuel, **Critique de la Raison Pure**, trad: Jules Barni, sans édition, Librairie Gallimard, Paris, 1986.
26. Laplace Pierre, **Essai philosophique sur les probabilités**, Sixième édition, Bachelier, Paris, 1840.
27. Löwith Karl, **Nietzsche, philosophie de l'éternel retour du même**, sans édition, Calmann-Lévy, Paris, 1991.
28. Lyotard Jean-François, **Le Postmoderne expliqué aux enfants: Correspondance 1982-1985**, Deuxième édition, éditions Galilée, Paris, 1988.
29. Newton Isaac, **Principes mathématiques de la philosophie naturelle**, Trad: Émilie du Châtelet, Tome1, sans édition, M. D.CCLIX, Paris, 1966.
30. Patrick Wotling, **Nietzsche et le problème de la civilisation**, Quadriga, Presses Universitaires de France, 1995.
31. Platon, **Cratyle**, Trad: Catherine Dalimier, sans édition, GF-Flammarion, Paris, 1998.
32. Reboul Olivier, **Nietzsche, critique de Kant**, Collection Sup: Le Philosophe, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1974.
33. Ricoeur Paul, **De l'interprétation: Essai sur Freud**, sans édition, Éditions du Seuil, Paris, 1965.
34. Ricœur Paul, **La Mémoire, L'histoire, L'oubli**, sans édition, Éditions du Seuil, Paris, 2000.
35. Sarah Kofman, **Nietzsche et la métaphore**, Deuxième édition, Éditions Galilée, Paris, 1983.
36. Sarah Kofman, **Nietzsche et la Scène Philosophique**, Deuxième édition, Éditions Galilée, Paris, 1986.
37. Schopenhauer Arthur, **Le monde comme volonté et comme représentation**, Trad: A. Burdeau, sans édition, Presses Universitaires de France, Paris, 1966.
38. Simha André, **Pour connaître Nietzsche**, sans édition, Edition Bordas, Paris, 1988.

39. Spenlé Jean-Edouard, **Nietzsche: et le problème européen**, sans édition, Librairie Armand Colin, Paris, 1943.
40. Valadier Paul, **Nietzsche et la critique du christianisme**, sans édition, Editions du Cerf, Paris, 1974.
41. Wolfgang Müller-Lauter, **Nietzsche: Physiologie de la volonté de puissance**, sans édition, Editions Allia, Paris, 1998.

المراجع بالإنجليزية:

1. Allen, E.L, **From Plato to Nietzsche**, 2nd Edition, Fawcett World Library, New York, 1964.
2. Aristotle, **Metaphysics**, trans. W. D. Ross, in The Basic Works of Aristotle, ed. Richard McKeon, Modern Library, New York, 2001.
3. Arthur Coleman Danto, **Nietzsche as philosopher**, 2nd Edition, Macmillan, New York, 1967.
4. Copleston Frederick, **Friedrich Nietzsche: Philosopher of Culture**, First Edition, Burns Oates & Washbourne Ltd, London, 1942.
5. Dawkins Richard, **The Blind Watchmaker: Why the Evidence of Evolution Reveals a Universe Without Design**, Second Edition, W. W. Norton & Company, New York, 1996.
6. Deleuze Gilles, **Nietzsche and Philosophy**, trans. Hugh Tomlinson, Columbia University Press, New York, 2006.
7. Foucault Michel, **Language, Counter-Memory, Practice**, ed. Donald F. Bouchard, Cornell University Press, Ithaca, 1977.
8. Hobbes Thomas, **Leviathan**, ed. Richard Tuck, Cambridge University Press, Cambridge, 1996.
9. Huxley Thomas Henry, **Criticisms of "The Origin of Species"**, Darwiniana, Vol. II, in Collected Essays, 2nd Edition, Macmillan, London, 1894.
10. Joan Stambaugh, **The Other Nietzsche**, First Edition, State University of New York Press, Albany, 1994.
11. Krell David Farrell, **Infectious Nietzsche**, First Edition, Indiana University Press, Bloomington & Indianapolis, 1996.
12. Loren C. Eiseley, **Darwin's Century: Evolution and the Men who Discovered it**, 2nd Edition, Victor Gollancz, London, 1959.
13. Mahon Michael, **Foucault's Nietzschean Genealogy: Truth, Power, and the Subject**, First Edition, State University of New York Press, Boston University, 1992.
14. Ofelia Schutte, **Beyond Nihilism: Nietzsche without Masks**, First Edition, The University of Chicago Press, Chicago, 1984.
15. Smith, Gregory Bruce, **Nietzsche, Heidegger, and the transition to postmodernity**, 1st edition, University of Chicago Press, Chicago, 1996.

المعاجم والموسوعات بالعربية:

1. إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، د.ط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983.
2. ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1990.
3. تد هوندترش، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة: نجيب الحصادي، الطبعة الأولى، المكتب الوطني للبحث والتطوير، ليبيا، 2003.
4. جميل صليبا، المعجم الفلسفي: بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1982.
5. جورج طراييشي، معجم الفلاسفة، الطبعة الثالثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2006.
6. جوناثان رى - وج.أو. أرمسون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل وآخرون، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.
7. رحيم أبو رغيف الموسوي، الدليل الفلسفي الشامل، ثلاثة أجزاء، الطبعة الأولى، دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2013/2015.
8. روزنتال ويودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، مراجعة: صادق جلال العظم وجورج طراييشي، الطبعة التاسعة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2011.
9. سعيد جلال الدين، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، الطبعة الأولى، دار الجنوب للنشر، تونس، 1994.
10. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
11. عبد المنعم الحنفي، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000.
12. لالاند أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، الطبعة الثانية، منشورات عويدات، بيروت - باريس، 2001.
13. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، الطبعة الخامسة، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2007.
14. مصطفى حسينية، المعجم الفلسفي، الطبعة الأولى، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009.
15. معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية (الاصطلاحات والمفاهيم)، المجلد الأول، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، 1986.
16. الموسوعة الرقمية العربية (تاجيبديا) (TAGEPEDIA) Digital Arabic Encyclopedia (<https://www.tagepedia.org/Entry.aspx?id=165401&title>)

الموسوعات بالأجنبية:

1. Eric Blondel, "La question de la généalogie", in Encyclopédie philosophique universelle, Tome.1, L'univers philosophique, Presses Universitaires de France, Paris, 1989.
2. Encyclopedia Britannica | Britannica, (<https://www.britannica.com/topic/divine-right-of-kings>).

المجلات العلمية بالعربية:

1. بدر بقارة، أهمية الفيلولوجيا في قراءة النص الديني عند نيتشه، مجلة **RI- Revue Interdisciplinaire** المجلد3، العدد2، المدرسة العليا للتكنولوجيا بجامعة مولاي إسماعيل، المغرب، 2018.
2. رباح عيسو، الحتمية بين الفيزياء النيوتونية والفيزياء الكوانتية، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، المجلد9، العدد3، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد، الجزائر، جوان 2020.
3. سليمة قايد، النزعة العدمية عند نيتشه: حقيقتها، أسسها ومخاطرها على الإنسان المعاصر، مجلة التدوين، المجلد14، العدد1، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد، الجزائر، جويلية 2022.
4. سنا صباح آل خالد، حول فلسفة نيتشه، مجلة الفلسفة، المجلد13، العدد13، الجامعة المستنصرية كلية الآداب قسم الفلسفة، العراق، 2016.
5. عبد الكريم لمباركي، مفهوم الإرادة لدى أرتور شوبنهاور، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد7، العدد62، مركز جيل البحث العلمي، لبنان، مارس 2020.
6. فوزية ضيف الله، تأويلية إرادة الاقتدار عند نيتشه، مجلة مقاربات فلسفية، المجلد1، العدد2، جامعة مستغانم، الجزائر، جوان 2014.
7. فوزيل إيدير، موت الإله عند فريدريك نيتشه، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد/العدد18، جامعة الجزائر2، الجزائر، ديسمبر 2011.
8. معمر قادم، نيتشه وأزمة القيم في الحضارة الغربية الحديثة، مجلة أبعاد، المجلد/العدد2، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد، الجزائر، جانفي 2015.
9. المولدي عزديني، نيتشه: الحس النقدي أساس المعرفة المرحية، مجلة تبين للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية، المجلد7، العدد28، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، مارس 2019.
10. نورالدين الشابي، دولوز قارئا نيتشه، مجلة الحوار الثقافي، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، الجزائر، عدد ربيع وصيف 2014.
11. المعهد الإكليريكي للبطريركية اللاتينية *Seminary of the Latin Patriarchate of Jerusalem* التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية المقدسة، المقال السابع الفضائل. (<https://www.slpj.org/cateshism-catholic-church>)

المجلات العلمية بالأجنبية:

1. Biser Eugen, "Ni antéchrist ni à la recherche de Dieu", Incursion de Nietzsche dans le no man's land "par delà Dieu", Nietzsche Aujourd'hui, 2. passions, Centre Culturel de Cerisy-la-Salle, Union générale d'édition 10/18, Paris, 1973.
2. Clément Alain, "Nietzsche et son ombre", in Critique, n°138, novembre, 1958.
3. Flam Léopold, "Solitude et étrangeté de Nietzsche dans la pensée de Heidegger", Nietzsche aujourd'hui, 1. Intensités, Centre Culturel de Cerisy-la-Salle, Union générale d'édition 10/18, Paris, 1973.

4. Rey Jean-Michel, "**La généalogie nietzschéenne**" in, Histoire de la philosophie, vol.6, sous la direction de François Châtelet, La philosophie du monde scientifique et industriel, Hachette, Paris, 1973.
5. Richard Roos, "**Règles pour une lecture philologique de Nietzsche**", in Nietzsche aujourd'hui, Union générale d'édition 10/18, 1973.
6. William E. Duvall, "The Nietzsche temptation in the thought of Albert Camus", History of European Ideas: Vol. 11, No. 1-6, January 1989.
7. William Lane Craig, "**L'absurdité de la vie sans Dieu**", Article électronique télécharger, (<https://www.reasonablefaith.org/translations/french/popular-articles/labsurdite-de-la-vie-sans-dieu>).

الرسائل الأكاديمية بالعربية:

1. فوزيل إيدر، **النقد الجينالوجي للأخلاق عند فريدريك نيتشه**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الجامعية 2007-2008.
2. نورالدين الشابي، **نقد نيتشه للحدائث**، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الجامعية 2000-2001.
3. وفاء درسوني، **مفهوم التأويل في فلسفة نيتشه**، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الجامعية 2005-2006.

الرسائل الأكاديمية بالأجنبية:

1. Alexandre Leboeuf, **Le triangle conceptuel du Zarathoustra de Nietzsche**, Mémoire de Maîtrise en philosophie, université du québec à montréal, décembre 2010.
2. Lavoie Benjamin, **Nietzsche et le problème de la souffrance**, Mémoire de Maîtrise en philosophie, Québec, Canada, Benjamin Lavoie, 2015.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

أ.....	مقدمة:
16.....	فصل تمهيدي: الأسس والمفاهيم الأساسية في فلسفة نيتشه
16.....	أولاً: المدخل المفاهيمي للفكر النيتشوي
21.....	ثانياً: العوامل والسياقات التي أسهمت في تشكُّل فكر نيتشه
الفصل الأول: وعي مفاجئ أخيار النظام القديم للمعنى	
27.....	المبحث الأول: سحب البساط موت فكرة الإله
28.....	أولاً: محاولة تفسير الحدث
32.....	ثانياً: كيف قتل العلم الإله؟
45.....	المبحث الثاني: فقدان التوازن والدخول في حالة من الفراغ
46.....	أولاً: مخاطر فقدان المعنى
59.....	ثانياً: فرصة للبحث عن معنى جديد
61.....	المبحث الثالث: اختيار خاطئ لاكتساب المعنى
61.....	أولاً: الإنسان الأخير هو واقع تم التنبؤ به
65.....	ثانياً: الإنسان الحديث ليس إلا تجسيدا للإنسان السابق
الفصل الثاني: تحديد جديد لدلالة النقد	
72.....	المبحث الأول: إعادة توجيه مسار التفكير النقدي
73.....	أولاً: نقد تجربة إيمانويل كانط
77.....	ثانياً: تحويل النقد من الإستمولوجيا إلى الجنياولوجيا

المبحث الثاني: تصحيح مسار القراءة والكتابة.....	87
أولاً: الفيلولوجيا فن دقيق للقراءة الجيدة.....	88
ثانياً: مسار جديد للكتابة الجيدة.....	93
المبحث الثالث: إدخال الزمن في عملية التفكير النقدي.....	99
أولاً: قيمة التاريخ بالنسبة للحياة.....	100
ثانياً: الحس التاريخي هو الأداة المفضلة للجنيالوجيا.....	103

الفصل الثالث: الغريزة اللاهوتية: سوء فهم للظواهر

المبحث الأول: طبع الصور الإنسانية على العالم الخارجي.....	113
أولاً: التفكير البدائي.....	113
ثانياً: الروح الدينية امتداد للعقلية البدائية.....	115
المبحث الثاني: نقد المسيحية (من خلال القيم التي تطرحها).....	121
أولاً: المسيحية جريمة ضد الإنسانية.....	121
ثانياً: المسيحية جريمة ضد الحياة.....	128
المبحث الثالث: الأرضية التي نشأت فيها المسيحية.....	130
أولاً: المسيحية نشأت كحركة من اليهودية.....	131
ثانياً: دور الكهنة في عملية التأويل.....	135

الفصل الرابع: حضور غريزة اللاهوت في الفلسفة

المبحث الأول: النموذج الكهنوتي للفيلسوف.....	146
أولاً: الفلسفة تتنكر في ثوب الزهد.....	146

151.....	ثانيا: استمرار وجود فكر الثنائيات
159.....	المبحث الثاني: قيمة العقل في الفلسفة.
160.....	أولا: قيمة المنطق
166.....	ثانيا: إعادة صياغة العقل
168.....	المبحث الثالث: قيمة الحقيقة في الفلسفة
168.....	أولا: من الحقيقة إلى إرادة الحقيقة
173.....	ثانيا: الثقة في اللغة

الفصل الخامس: القيم الأخلاقية صناعة بشرية

180.....	المبحث الأول: أخلاق السادة وأخلاق العبيد
181.....	أولا: أخلاق السادة
183.....	ثانيا: كيف تنشأ أخلاق العبيد؟
194.....	المبحث الثاني: الأخلاق السائدة هي امتداد لأخلاق العبيد
195.....	أولا: الفلسفة الأخلاقية
202.....	ثانيا: الأخلاق المسيحية

الفصل السادس: محاولة لخلق معنى مثبت للحياة

213.....	المبحث الأول: الإنسان المتفوق
223.....	المبحث الثاني: إرادة القوة الخلاقة
232.....	المبحث الثالث: هكذا نصف الوجود الواقعي
239.....	المبحث الرابع: بناء ثقافة جديدة تعتمد على الفن المأساوي

246.....	نقد نيتشه للميتافيزيقا: تقييم وتحليل
251.....	خاتمة:
257.....	قائمة المصادر والمراجع:
270.....	فهرس الموضوعات: